الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

تواريخ أسرة بلانتغنت

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكّار

الجزء الثلاثون

دمشق ١٤١٨ / ١٩٩٨

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

تواريخ أسرة بلانتغنت

تأليف وتحقيق وترجمة
الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الثلاثون

دمشق ١٤١٨/ ١٩٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

شعرت أثناء عملي في المجلدات المتقدمة أن الفرنسيين ساهموا فيما يعرف باسم الحملتين الأولى والثانية المساهمة الأوربية الأساسية، لكن منذ مقدمات حطين شهدت الساحات الأوربية تبدلات سياسية هامة،كان أبرزها بالنسبة لموضوعنا تعاظم دور انكلترا، واتساع رقعة مملكتها، فقد بات ملوك انكلترا سادة فعليين على جميع أجزاء بريطانيا بما في ذلك إيرلندا، وامتلكواأجزاء واسعة من القارة الأوربية ،أو بالتحديد من فرنسا، جعلت حدودهم مجاورة لحدود اسبانيا، التي تحالفوا معها عن طريق الزواج الدبلوماسي وتبادل المصالح.

لذلك كان علي البحث عن مزيد من المصادر لتغطية هذا، ولزيادة المعلومات عما يعرف باسم الحملة الثالثة ، حيث أنه باخفاقها، انتهى عصر صلاح الدين، وتمزق المشرق الاسلامي من جديد، وبالوقت نفسه عانت أوربا من الصراعات، لاسيما بين فرنسا وانكلترا، وهكذا عجزت أوربا عن توجيه حملة عملاقة جديدة نحو المشرق ، وكنا قد رأينا من قبل أخبار ومصير الحملة الرابعة، وسنرى ان شاء الله في مجلدات مقبلة أخبار ومصير الحملات الخامسة والسادسة والسابعة، التي كانت صغيرة نسبياً .

وقمت منذ عام ١٩٩٦ بعدة رحلات علمية أوصلتني الى أهم المكتبات من مكتبة الكونغرس والمكتبة البريطانية، ومكتبات القاهرة والى

غيرها كثير، وهكذا وفقت والحمد لله فحصلت على ماكنت بحاجة إليه وعلى أشياء جديدة، كان منها المجلد الذي أكتب له هذه التوطئة ،فهو قد نشر للمرة الأولى في لندن عام ١٩٩٥ ،وهو يحتوي زبدة تواريخ أسرة بلانتغت التي انحدر منها: فولك ملك القدس ، ووالد بلدوين الثالث وعموري الأول، ومنها جاء هنري الثاني ملك انكلترا ومن بعده ابنه رتشارد قلب الأسد.

وفي هذا المجلد من المواد مالانجده في غيره من المصادر، فمن خلاله نحصل على صورة مفصلة عن أوضاع كل من انكلترا وفرنسا قبل نشوب أحداث الحملة الثالثة وبعد ذلك، ونتعرف على العلاقات بين الأسر الحاكمة والاقطاعية ، وفوق هذا نشهد الفوارق بين المستوى الحضاري لعرب المشرق وبين مستويات أوربا، ونميز بين عقليات رجال الدين والكنيسة وايمانهم بالغيبيات، وعقليات رجال السلطة، وكيف تضاربت دوما المصالح بين الكنيسة والدولة، وكيف توفر الاجماع حين تعلق الأمر بالصليبيات، لابل كانت الصليبيات هي المخرج للأزمات الحادة .

وفي هذا المجلد مجموعة من الوثائق غير متوفرة في مصدر آخر، هذا وإذا ماجمعت مواد هذا المصدر مع مواد ذيل تاريخ وليم الصوري ، ومع المجلدين المقبلين، يمتلك حينها المؤرخ العربي والقارىء المهتم من المواد ماليس أغنى ولا أهم، فهنا نشهد عظمة صلاح الدين ورجال عصره من خلال ماقاله الأعداء ، ذلك أن ماذكره الأصدقاء لايكفي ، فابن شداد حين أرخ لحياة صلاح الدين كان شيخاً لم تسعفه ذاكرته بذكر التفاصيل، فضلاً عن أن منهجه ومقاصده وقتها لم تكن مع التفاصيل ، وأغرق العماد الكاتب كل مايحتاجه المؤرخ بالصنعة ، ثم إن المؤرخ العربي لم يهتم بكل مايهتم به المؤرخ المعاصر.

بوساطة المصادر الغربية تكتمل الصورة ، وتصبح أكثروضوحاً ونقاء، صورة عصر جاء تتويجاً لما تقدمه من عصور، وصورة بطل وحدودي

مجاهد لانظير لـه،يحاول بعض المرضى في أيامنـا النيل منها، ونتلقـن منها درسـاً خطيراً، أن اسرائيل قادرة الآن على العيـش في الوسط العـربي لأنها الكتلة السيـاسية الـوحيدة الموحـدة داخل طوق عسكري وأمنـي مرعب، وأن المشرق العربي إذا لم يـوحد هـو مهدد بالـزوال، عن طريق الـدمار أو الاحتواء أو الشرق أوسطية ،أوالعولمة، أوغير ذلك.

في الماضي رأى صلاح الـدين هذه الصورة ، فنجح في تحقيق الـوحدة، فحقق النصر في حطين وحـرر القدس ، وصمـد في ملحمـة عكا، وطبعـاً كان أسـاس الوحدة لديـه وحدة الشام ومصر، ولابـد اليوم من العمل في سبيل إعادة الوحدة بين هذين البلدين لينضم بقية العرب إليها، فالأمن، والبقـاء والكرامـة والتراث مـوجود في الـوحـدة ، والوحـدة هي عمل في سبيل العـروبـة والاسـلام، وفي سبيل الانسـانيـة ، وفي سبيل النجـاة من الاستعبـاد ومن الأتـوقـراطيـة الأمـريكيـة، وكلي أمل أن يتحـول التنسيق والتعاون بين دمشق والقـاهرة الى مشروع وحـدوي، والله المستعـان، ومنه جل وعـلا يأتي التوفيق، والصـلاة والسلام على النبي المصطفى وعلى آلـه وصحبه ومن تمسك بهداه الى يوم الدين.

دمشق: ٩ شوال١٤١٨/ ٦ شباط ١٩٩٨

سهيل زكار

مدخل

يعود فضل ارساء قواعد أسرة بـلانتغنت إلى سلسلة غامضة من شحن القلاع في وادي اللـوار، الذين ارتقـوا في القرن العـاشر ليصبحوا كـونتات أنجو، ولقد كانـوا ذوي مزاج ناري، وأقوياء في القتال، يسرعـون للانتقام مما لحقهم من أخطـاء، غير أنهم كـانـوا كـرمـاء نحـو الكنيسـة، وبهذه الصفـات كـان هـؤلاء الـرجـال ذوي تأثير رفيـع في شغل أدوارهم في النشاطات السياسيـة المعقدة، وبالتدريج تمكنوا من بناء قـاعدة سلطوية قـويـة من خـلال مـزيج من النشـاط الحربي، والدبلـومـاسي، والـزيجاب السيـاسية الجيـدة والتحـالفات، ففي سنـة ١١٢٨ غـدا الكونت فـولك الخامس، الذي كان محترمـاً وناجحاً، ملكاً للقدس، وكـان حكم أنجو قد تـركـه لابنـه غيـوفـري الأشقـر (١١٢٨-١١٥١)، وتمكن غيـوفـري من الاستيـلاء على نورمـاندي، وادعى الحق بعـرش انكلترا من خلال زوجتـه الامبراطورة ماتيلدا، وكـانت هذه نقطة حاسمة في أهميتهـا بالنسبة لسعد الأسرة في أوروبـا الغـربيـة، وكـان مـوائماً أن يحمل أبنـاء غيـوفـري لقبـه «بـلانتغنت» كاسم لأسرتهم، وصـدر هـذا الاسم من ارتدائه قبعـة زينت بقشة مكنسـة (غنت Genet) وسـار ابنه هنـري الثاني على خطـا الأنجيفيين التقليدية بالتحرك السياسي، فتـزوج زواجاً رائعاً، وكان مهاجماً كبيراً وفعالاً، ولذلك أقام مملكة واسعـة، وحافظ على ممتلكاته التي امتدت من الحدود الاسكوتلنـدية إلى جبال البرانـس، وحوت هذه المملكـة أكثر من نصف فرنسـا، وخلفه بعـد موته اثنـان من أولاده: أولهما رتشارد الأول (١١٨٩-١١٩٩)، وكان قـائداً عسكريـاً جذابـاً وفعالاً وصليبيـاً، وثانيهما جون (١١٩٩-١٢١٦) الـذي فقد معظم ممتلكاته الفـرنسية، بما في ذلك مسقط رأس أجـداد الأسرة في أنجو، فقـدهـا لصالح فيليب الثـاني ملك

فرنسـا، وكاد أن يخسر تاجه لصـالح لويس بن فيليب، وكان سلـوك جون سيئاً نحـو باروناتـه، وكان قاسيـاً ومتقلباً تجاههم، فنجم عن هـذا صدور مرسوم بالاصلاحات (ماغنـاكارتا) له ذكر دائم، ولم يتعلق الأمر بالحد من سوء تصرف الملـوك وارغامهم على الاصـلاح فحسب، بل أرسى القـاعدة لحقوقنا العامة وحرياتنا.

وإلى القـرن الثالث عشر، كـانت المقدرة على القـراءة والكتابـة تقريبـاً حصراً بـالناس العـاملين في الأديرة والكنـائس، من الكهنة العـاديين، إلى العلماء ورؤساء الأساقفـة الكبار ورعاة الديرة، واحتـاج الملوك والنبلاء إلى كتّـاب يـديرون لهم حكـومـاتهم ويتـدبـرون شؤون محاكمهـم القانـونيـة، ويجمعـون لهم الضرائب، ويحافظـون على سجـلات أمـوالهم، ويتـولـون صيـاغـة وكتـابـة مـراسيمهم التي حـوت أوامـرهم المتـوجب تنفيـذهـا، وصحيح أن النـاس تحادثـوا فيما بينهم وكتبـوا الشعـر والأغـاني بلغـاتهم المحلية، لقـد كانـت لغة الكنيسة والحكـومة خـلال العصور الـوسطى في أوروبا هي اللاتينية، وشكلت هـذه اللغة جسراً فيما بين رجال الدين مهما كانت أصـولهم والبلدان التي جـاءوا منها، لكنها بـالوقت نفسـه عزلتهم عن بقية المجتمـع، حتى أثناء شغلهم لواجبـاتهم الأساسيـة في الوسـاطة لدى الرب من أجل السلامة الروحية لبني البشر.

وجـاءت غـالبيــة المؤرخين في العصـور الـوسطى من الــديـرة أو من الكـاتدرائيـات الكنسيـة، وهي أماكن كـانت في يـوم من الأيام البيـوت الراسخـة للصلوات، وكانت بالعـادة مؤسسات حسنـة التنظيم، وعظيمة الفخار بتقاليدها الخاصة، وبالطبع مسـؤولة عن سلامة ممتلكاتها والحفاظ على استقلالها، ولم ينشد المؤرخون إنتاج كتابـات تاريخية عقلانية التحليل والصياغة مثلما يفعل مؤرخو هذه الأيـام، بل استهدفوا أن يظهروا ماقضاه الـرب فجـاء على شكل أحـداث، مبتـدئين بـأخبـار الخليقـة صعـوداً مع الأحـداث حتى أيامهم، وكـان من الممكن للمـؤرخ تنفيذ ذلك بـالتأريخ

لبلده، وكـذلك بالحديث عن انتصـارات وآلام ديره، أو عن حيـاة قديس أو حاكم من الحكام.

وصحيح أن المؤرخين خضعـوا لتصـاريف أحـداث أيـامهم، غير أنهم كتبـوا لأسباب متنـوعة، فبعضهم كتب لتمجيـد ملك من الملوك، أو ديـر من الديرة، أو قديس من القديسيين، وكتب آخرون للتوجيه الذرائعي، أو للشرح أو للتسليـة، لكنهم جميعـاً أظهـروا بـوضـوح الـدروس الـدينيـة والأخلاقية بشكل مـا، وتطلعوا جميعاً نحو المستقبل، وتعـايشوا مع الآمال الكبيرة في أن الأجيـال المقبلـة، ستعتمد على تـواريخهم وتنقل عنهـا بكل حريـة، ولقد حـدث هذا بالفعـل في كثير من الحالات، فعلى سبيل المثال كـان كتاب «تـاريخ الانكليز» لهنـري أوف هنتنغـدون ناجحـاً جداً، وقـد جـرى نسخـه مـراراً كثيرة في القـرن الثـاني عشر، وتنقل بين أمـاكن كثيرة ووصل حتى دير لى بك Bec النورمـاندي، ورئاسـة كاتـدرائية درم، وظل المصـدر الأسـاسي لعصره حتى القرن السـابع عشر، ووصلتنـا بعض كتبـه الأخرى من خـلال نسخة واحـدة أو نسختين قديمتين، ومن بينهـا «حياة القـديس هيوج»، ونادراً مـانسخ هذا الكتاب في انكلترا الـوسيطة، غير أنه بات واسع الانتشار في القارة منذ القرن الخامس عشر فصاعداً.

وسلف أن طبع كتاب هنتنغـدون في التاريخ، وكذلك كتابـه عن حياة القـــديس هيـــوج، وكـــان ذلك في القـــرن التـــاسع عشر في انكلترا وبالانكليزيـة، ولم يطبع الكتاب الأول ثانية منـذ القرن التاسع عشر، غير أن النصـوص الأخرى في هـذا الكتاب قـد ترجمت للمـرة الأولى، وبسبب المسـاحة، لم تتم طبـاعة نصـوص الكتب كـاملة، بل جـرى اختيار نقـول تـولت وصف الـوقـائع الـرئيسيـة في كلّ سنـة من السنـوات المتتـابعـة، وإيضـاح مقاصـد الكتّاب واهتمامـاتهم الخاصة، وجـرى بالنسبـة لبعض النقـول الطويلـة، والنصوص (وأحيـاناً الجمل والمقـاطع) حذف متعمـد بغية تجنب التكرار، أو لايضاح أسلوب الأصل.

واستفدنا فائدة كاملة من بعض اهتمامات مؤرخينا بالصدق والصحة، فكتاب ديسيتو «صورة التاريخ» قد كتب بشكل واضح ومحكم في داخل اطار موثق ومرتب، وهناك على كلّ حال بعض المصادر الأخرى —مثل تواريخ كونتات أنجو— زاخرة بأساطير لافائدة منها، وهي تتحدث عن حكايات درامية، وأعمال فروسية، أكثر من اعطائنا رواية تاريخية واضحة للأحداث، وحدث بالحقيقة في بعض المناسبات أن قام الكتّاب باختراع حوادث لم تقع قط، وهي تتعارض مع روايات أخرى أكثر اعتماداً وموثوقية، حتى الروايات التي هي بادية أكثر صحة من حيث المنطلق، قد لاتتفق دوماً مع بعضها بعضاً، وتظل أقل قبولاً بالنسبة للتفسير الحديث للوقائع، أو في إعطاء تعريف وتحديد للأماكن والأسماء هو نفسه، لذا زودنا عملنا بحواشي كثيرة تساعد على ضبط وايضاح النص المحقق (وطبعت بعض الشروح بأحرف سوداء مائلة قليلاً وبوساطة عبارات وردت بين حاصرتين مربعتين في ثنايا النص)، وفيما عدا تزويدنا للنص أحياناً بتواريخ وكنى وألقاب لتمييز بعض المشاركين الرئيسيين، تركنا المؤرخين يتولون بأنفسهم حكاية رواياتهم.

المؤرخون

انطلق في أوائل القرن الثالث عشر كلّ من جيرفاس Gervase الذي كان راهباً ثم غدا المحافظ على الآثار المقدسة في رئاسة كهنة كاتدرائية كانتربري، ورالف راعي دير كوغشال Coggeshall لكتابة تاريخ للشعب الانكليزي وللملوكه، وتولى كلّ واحد منهما شرح هذا التاريخ بقدر ماهو مرتبط بتاريخ كنيسته، وزودانا بالصدفة بكثير من الحكايات المسلية والمواد المفيدة حول السياسات الانكليزية المتعلقة

بالسنوات: ١٢٠١ حتى ١٢١٠، حيث هي قليلة جداً في مصادر الأخبار الأخرى، وهناك حوليات بارنول Barnwell التي كتبها راهب أو كاهن مجهول، وهي هامة جداً وفيها شواهد ثمينة عن السنوات الأخيرة لحكم جون (١٢١٠-١٢١٦)، وتظهر بالمقارنة القليل من الميول الاقليمية (جرى حفظ النص في دير بارنول لكنه ربما لم يكتب هناك)، وتقدم هذه الحوليات مقاربة متوازنة لمسألة الصراع فيما بين الملك جون وباروناته، وقد عبّر عن شيء من التعاطف مع الثوار وكذلك مع جون، الذي هو شخصية مؤذية جداً لدى المؤرخين المتأخرين.

وأنتجت بعض الديرة تواريخ رسمية لحماتها من الملوك أو النبلاء، فعلى سبيل المثال قام الراهب جون فيما بين ١١٦٤ و١١٧٣، في دير مارموتيير Marmoutier في وادي اللوار بكتابة نص جديد من كتاب «أعمال كونتات أنجو»، وكان أصل هذا الكتاب المثير والدرامي قد صنف وجمع في الدير في بلاط الكونتات أثناء القرن المنصرم من قبل عدد من المؤرخين، بما في ذلك الراعي أودو، وتوماس أوف لوشي Louches الذي كان شماساً للكونت فولك الخامس، وكثير من محتوياته، لاسيما المواد المتعلقة بالأنجيفيين الأوائل، لاتتعدى الأسطورة سوى قليلاً، وهي على كلّ حال كتبت وأهديت إلى هنري الثاني نفسه، وقد كان أعظم ملوك أسرته، فضلاً عن كونه أيضاً ملكاً لانكلترا ودوقاً لنورماندي وأكوتين، وبعدما كمل جاء الراهب جون فسار بالحكاية وذيل عليها وصفاً ملوناً وعظيم الإطراء جاء بمثابة ترجمة لغيوفري الجميل، والد هنري الثاني.

وتتعارض حكايات الراهب جون أوف مارموتيير المتدفقة بالحياة والتي هي بالغالب غير شرعية مع مقاربات عدد كبير من مؤرخي الانكليز للقرن الثاني عشر التي هي أكثر توازناً، فقد قدم هنري رئيس شمامسة هنتنغدون Huntingdon في كتابه «تاريخ الانكليز» رواية شبه

معاصرة عن حكم ستيفن،وكـانت هذه الـرواية في يوم من الأيـام مقروءة ومليئـة بالـدروس الأخـلاقية، وتحتـوي على مـواد واقعية، لئـن كانت قـد اختيرت بعنـاية فهي قـد عـرضت بشكل دقيق، وحظي هذا الكتـاب في البدايـة على موافقـة روجر أسقف سالسبري، الـذي كان شخصيـة دينية قيادية وعاملاً في الادارة الملكية، ثم أعـاد المؤلف كتابته وغير توزيع مواده بحكم ازدياد شعبيتـه، وأعظم تدقيقاً من هـذا الكتاب في صياغتـه كتاب «صورة التاريخ» لـرالف أوف ديسيتو، وهو كاهن ومـوثق وفيما بعد عميد كاتـدرائية القديس بـولص في لندن، وقـد ظل يكتب حتى سنة ١٢٠١، وهي كما يظن سنـة وفاته، وكـان ديسيتو مثلـه مثل معاصره روجـر هاودن Howden (الذي من المؤكد أنه كتب تـاريخاً، ولربما كتب أيضاً كتاب «أعمال الملك هنـري الثـاني والملك رتشـارد الأول») قـد انطلق لاخـراج كتـاب في التـاريخ صحيح، وبما أنـه ركـز بشكل خـاص على الكنيسـة الانكليزية نهل بشكل كبير من الوثائق الملكيـة ورسائل أيامه التي حكت الروايـة التي أراد الانتفاع منها، وقـد حلل الأحداث، مستخدمـاً اشارات هـامشية لإظهـار مواضيع مختلفـة مثل الصراعات بين الكنيسـة والدولـة، والشجار بين هنـري الثاني وأولاده، وهي وقـائع شهدهـا وهي تقع. ولابد لكل كـاتب ينشد تقـديم رواية ايجابية عـن أيامه مـن أن يواجه مشـاكل مثل: اعجاب ديسيتو بهنري الثاني، واطرائه لاستشهاد توماس بكت، وهو حادث كـان الملك مسؤولاً عنه بشكـل غير مباشر، غير أن هذا العـائق قد أنتج نتـائج ثمينـة، لأن روايته عن الشجـار بين الملك ورئيس الأسـاقفـة تحتوي على شعور رائع عن الفصل بينهما.

وقـدم وليم فتـزستيفن، الـذي كـان كـاهنـاً عمل من قبل في حـاشيـة بكت، في كتابه «حياة القديس تـوماس بكت»، الذي صنفه في سبعينات القرن الثاني عشر، بعد أمد وجيز مـن وقوع حادث الاستشهاد، رواية حية ودراميـة عن حيـاة رئيس الأسـاقفـة وعـن مـوتـه، وهي روايـة مليئـة

بالملاحظات الاجتماعية، كما وتحتوي على وصف هام لمدينة لندن، مسقط رأس بكت، وكان القصد الخاص من هذه الرواية هو تمجيد صاحب موضوعها ورفع شأنه، ومثل هذا فعل آدم أوف آينشام Eynsham في كتابه «حياة القديس هيوج أوف لنكولن»، الذي كان واحداً من أعظم شخصيات الكنيسة الانكليزية في القرن الثاني عشر، وكان هيوج مثله مثل بكت، قد اختلف مع هنري الثاني ومع أولاده حول الامتيازات اللاهوتية، غير أنه كان قادراً على استرداد الرضى الملكي بوساطة روح الدعابة الجريئة لديه، وهي سمة افتقدها —كما يبدو— بكت.

وكان كلّ واحد من المؤلفين حريص على عدم توجيه النقد للملك كثيراً، وذلك على النقيض من جيرالد أوف ويلز في سنواته الأخيرة، وكان جيرالد رئيس شمامسة بريكون Brecon خصب الإنتاج وكاتباً شعبياً حول موضوعات مثل عادات وسمات الويلزيين والايرلنديين، لكنه كان متألماً لاخفاقه الطويل في أن يصبح أسقف القديس داود، ودبج هجاء قاسياً وعدوانياً ضد القدر الذي قهر الحاكم المذنب، مع اشارة خاصة إلى هنري الثاني.

وبالاضافة للشروح والحواشي هناك تفاصيل كاملة حول المخطوطات التي اعتمدت مع أسماء المؤلفين في نهاية الكتاب.

القسم الأول

أصول الأسرة الأنجيفية

*تأسس سعد بيت أنجو على طاقات انغلر **Ingelar** وشجاعته، وهو عسكري شبه أسطوري، لكنه كان سعيد الحظ فاستطاع انتزاع دويلة لنفسه في وادي اللوار، وقام ابنه فولك الأحمر على مابناه وأسسه فاستطاع في ٩٤١ أن يصبح كونت أنجو، وتمتعت المنطقة في ظل حكم فولك الجيد (٩٤١-٩٦٠) بوقت من الازدهار والاستقرار، وحكمت أنجو خلال المائة والسبعين سنة التالية من قبل رجال متميزين وغير عاديين، وكانت بسالة غيوفري «الرمادي الثوب» (٩٦٠-٩٨٧) مزيجاً من الأساطير، وبحكايته يبدأ تاريخ أسرة بلانتغنت، وكان فولك نيرا **Nerra** (٩٨٧-١٠٤٠) عنيفاً وجذاباً، وقاسياً، ومعلماً في استراتيجية بناء القلاع، وجاء من بعده غيوفري مارتل (١٠٤٠-١٠٦٠) الذي كان أكثر براعة، ثم من بعد خمسين سنة أو نحوها من سنين الفوضى كان فولك الخامس (١١٠٩-١١٢٩)، وهو الذي أصبح ملكاً على القدس، وورد وصف حياتهم وأعمالهم بشكل براق، وغالباً فيه تزوير، في «تاريخ كونتات أنجو»، وكان هذا التاريخ الثمين نتاج عدد من الكتّاب، بمن فيهم توماس أوف لوشي **Loches** الذي كان شماس الكونت فولك الخامس، وقد أخذ هذا الكتاب شكله النهائي في ستينات القرن الثاني عشر، على يد جون الذي كان راهباً في دير مارموتيير.*

ولد لفولك الجيد ثلاثة أولاد، كان أكبرهم غيوفري، وهو الذي أصبح كونتاً لأنجو، في حين غدا غي، وهو الثاني أسقفاً لـ «لى—بوي»، وكان دروغو Drogo وهو الأصغر، الأثير لدى فولك، ذلك أنه ولد، وفولك قد صار في منتصف العمر، وانصرف هذا الابن نحو الثقافة والآداب، والفنون الحرة، وتمكن بفضل مساعي هيوج كابيه ملك فرنسا، أن يخلف أخاه، أسقفاً لـ«لى—بوي».

سنة ستين وتسعمائة

كان الكونت غيوفري عسكرياً بارعاً، وفق الطرائق الفرنسية، صامد القلب، وقوياً وناجحاً جداً في القتال.

وكان في تلك الآونة هوستن الداني Huasten يهاجم منذ ثلاث سنوات سواحل فرنسا، والتحق الآن بابني عمه (أو خاله) ادوارد وهلدوين Hilduin اللذان كانا كونتا فلاندرز، وكان معه قوة مكونة من خمسة عشر ألفاً من الدانيين والسكسون، بينهم مقاتل متفوق جداً في بنيته وشجاعته، واسمه إيثولولف Ethelulf وكان الدانيون والسويديون ينهبون معاً الأراضي الفرنسية ويعيثون فيها فساداً، ويحرقون البلدات والقرى حيثما استطاعوا، وتمكنوا بمساعدة من الفلمنكيين من الاستيلاء على معظم منطقة فلاندرز حيث جعلوها طعمة للنار وللسيف، وكانت هذه المنطقة مسكونة من قبل الفرنسيين، وقد فعلوا هذا كله قبل أن يقرروا الزحف نحو باريس واظهار الخوف والرعب هناك.

وارتعب الملك الفرنسي تجاه هذا، فوجه الدعوة إلى جميع نبلاء فرنسا للاجتماع جميعاً في باريس في يوم أحد الشعانين، واقترب إيثولولف الداني، الذي هو جالوت جديد، باستخفاف من المدينة، وطالب بمبارزة

فردية مع فارس فرنسي، وبعدما لاقى عدد من أشجع الفرسان الفرنسيين وأكثرهـم نبلاً الهزيمة والقتل في المبـارزة أصيب الملك بالهلـع، وحظر على أي واحد آخر الخروج ضد إيثولولف.

وكان عندما سمـع غيوفري صاحب أنجو الرسالـة الملكية، التي دعته إلى الاجتماع يـوم أحـد الشعـانين أعـدّ نفسه لمغـادرة أراضيـه من شـاتـو —لاندون Chateau-Landon لكن عنـدمـا سمع بقـوة الـدانيين ووحشيتهم، سافر سراً، ومعه فارس واحد مع اثنين من التابعين.

وأخـذ معـه حصـانـاً واحـداً، وعبر نهر السين مع الفـارس واثنين من الطحـانين، وعندمـا رأى الكونت الـداني وسمع صيحـات حربـه، زجر، وبسرعـة صبّ عليه سـلاحه، وامتطى حصـانه، وتـرك رفاقـه في المركب، وانطلق وحيــداً فـوق السهل ليشتبـك مع عـدوه، وهمز كلّ واحــد منهما مطيته واقتربـا من بعضهما بعضاً، وطعن الكونت عدوه في صـدره، وألقاه أرضاً، وقد خـرج السنان من بين لوحي كتفـه، وعندما نظر غيـوفري نحو الخلف كـان بإمكـانـه أن يـرى الداني وهـو يئن ويـزمجر ويحاول جـاهـداً الوقوف مع نظـرات تهديد بعينيه الغاضبتين، ولذلك تـرجل مسرعاً، ومثله مثل داود ثـان، استل سيفه وقطـع به رأســه، ثم عـاد على الفور فـامتطى فرسـه وعاد مسرعـاً نحو المركب ومعه رأس عـدوه وفرسـه، وأعطى الرأس لــواحــد من الطحــانين ليـأخــذه إلى بــاريس، بينما عـــاد متستراً إلى شاتو—لاندون ليلتحق برجاله(١).

ووصل حـامل الـرأس إلى المدينـة، وأعلن أمـام الملك، أنـه وإن كـان لايعرف هوية الفارس، هو بلاشك سيتعرف عليه إذا مارآه ثانية.

ووصل إلى بـاريس في اليوم المحـدد جميع الـذين جـرى استدعـاؤهم: الدوقـات والكونتـات والنبلاء لجميع فـرنسا، وهكذا اجتمـع جميع رؤساء الرجـال المتميزين بالبراعـة والقدرة مع بعضهم في القصر الملكي، وجلس

غيوفـري كونـت أنجو بين البـارونات مرتـدياً مئـزراً من القماش الـرمادي الخشن، مما اعتاد الفرنسيون على تسميتـه: «الرمادي الفاقع» والأنجيفيون: «الخشن».

ونظـر الطحـان، الذي استـدعـاه الملك للتعـرف بهذه المناسبـة، نحـو الكونت وعـرفه على الفـور، وبعد نيلـه للإذن من الملك، اقترب منـه وهو يبتسم، وبعــدمـا ركع على ركبتيــه أمسك بإزار الكـونت وقــال للملك وللذين كانوا حـاضرين: «هذا هو الرجل، الذي يرتدي مئـزراً رمادياً، إنه الـذي أعـاد لنـا شرفنـا عنـدمـا قتـل الـداني وألقى بـالـرعب في قلـوب جيشهـم»، وأمـر الملـك أن يـدعى غيـوفـري من الآن فصـاعــداً بـاسم «الرمادي الثوب»، ووافق جميع الحضور على ذلك.

وجاء بعد غيـوفري الرمادي الثـوب ابنه الكونت موريـس، الذي كان حكيماً، وأخلاقيـاً ومحباً للسـلام، وقد حكـم بهدوء وسلام نتيجـة لحكمته أكثر منه نتيجـة لقتاله في المعارك، وآلت أراضيـه بعد موته إلى ابنـه فولك نيرا، الذي على الرغم من كونه ابـن سبع عشرة سنة، برهن بنفسه على أنه جندي شجاع.

سنة سبع وثمانين وتسعمائة

كان فـولك(٢)نيرا على الدوام صـديقاً للنفـوس التي تخشى الرب، كما وكان شـاباً يـافعاً، لكن ليـس بروحـه أبداً، وقد نهض بشجـاعة وانـدفع للـدفـاع عن أراضيه ضـد أعـدائهـا الكثر، لأن العـادة جـرت أن الحرب كانت تثار دومـاً بسرعة ضد الحاكم الجديد، فبناء على نصيحـة من الوغد لاندري Landry صاحب شـاتودون حاول أودو الثاني كـونت بليوس وشامبين، وغلـدوين Gelduin صاحب سـامور Saumur طرد

فولك مـن تورين Touraine وقد خيّل إليهما أن كلّ مـن كونتي أمبويز Amboise ولوشي سوف يسـاعدانهما، وأوضح لاندري لهما أن الـوقت كـان منـاسبـاً، لأن سـولبـايس Sulpice الخازن في دير القديس مـارتن في تور، قـد فقد أخاه للتـو، وأنه كان يحكم أمبـويز نيـابة عن الكـونت، ولم يتأخـر بطلنا صـاحب القلب الشجـاع عن الاستعـداد لالحاق الهزيمة بـالأعداء، ولم يتقاعس عن تعريض نفسـه للخطر، فجمع أكبر جيش استطاع حشـده، وهاجم بجـرأة أراضي أعداءه، وتجاوز بـزحفه بليوس ووصل إلى شاتودون.

وطوق سكان ذلك المكان مدينتهم بأطـواق من الجند، وحافظوا عليها بأسلحتهم، وكانـوا مستعدين للقتال وفق أسلـوب المدافعين عن معسكر من المعسكـرات، فقد احتشـدوا بسرعة وتجمعـوا معـاً، وإثر ذلك هـاجموا الكونـت ورجاله، وصـد الأنجيفيون حملاتهم المتـوالية حتى المسـاء، لكن عندما حاولوا التراجع، كـانوا غير قادرين على تجنب حشود المهاجمين لأن رجال شـاتودون كـانوا يضغطـون عليهم بشدة من الخلف، حتى عنـدما تراجعـوا، وعندما لم يعـد باستطاعـة جيش الكونت الكفاح مـدة أطول، ولاالانسحاب، ولاصد هجمات خصـومهم، غامر هؤلاء الـرجال المطوقين بالتراجع خطـوة خطوة وهم يقـاتلون، ووقتهـا أخذ رجـال أمبويـز يشقون طـريقهم بـالقـوة، وهنـا هـاجم الأنجيفيـون الأعـداء على كـلّ جـانب وطـوقـوهم وهـزمـوهم، واستـولى الـرعب على رجـال شـاتـودون، ودبت الفوضى في صفـوفهم، فانعطفـوا على أعقابهم، غير أن المعركـة استمرت، وطاردهم الكـونت إلى داخل معسكرهم، فأسر كثيراً مـن السكان، وجعل الآخرين طعمـة للسيف، وكان بإمكان الأنجيفيون الاستراحـة هناك تلك الليلة وهم يحرسـون المائتي فارس الـذين أخذوهم أسرى، وربطـوهم مع بقيـة الأسرى، ونهبوا وسلبـوا الأراضي من حولهم في اليـوم التالي، وألحقـوا الدمار بالذين تولوا فلاحة الأرض، وعادوا بعد مضي ثلاثة أيام إلى أمبويز

وهم منتشين فرحاً بنصرهم.

وفي أمبويز حاصر الكونت حصن لاندري، وتجمع رجاله بحماس شديد بغية اقتحام بيت ذلك الرجل، فألقوا بذلك الرعب في قلوب المقاومين، وبات هؤلاء يدركون أنهم لن يتمكنوا من الاستمرار بالمقاومة، وإذا ماأسروا لن يكونوا قادرين على تجنب عقوبة الموت التي استحقوها، ولهذا بدأوا بحث مسألة تسليم الحصن إلى الكونت مقابل الابقاء على حياتهم، وكان ذلك بوساطة بعض السفراء، ولدى تفحص هذا الأمر، بدا من المفيد لكل واحد، إزالة هذا الرعب العظيم دون تعريض المهاجمين للمخاطر، وبناء عليه حوفظ على المحاصرين، وجرى هدم الحصن تماماً، ومن ثم طرد لاندري ورجاله من معسكرهم.

وعبر الكونت بعد هذا اللوار، واستقر في مكان قام بتحصينه، وكان هذا المكان يعرف بالسنين الخالية باسم كارامنتوم، مع أنه يعرف الآن باسم موررود Moraud ثم توجه إلى سمبلانسي Semblancy حيث قام أيضاً بتقوية التحصينات، وعبر من خلال أراضي تابعه وصديقه هيوج أوف ألوي Alluyes الذي كان سيداً لشاتو—لى —فاليري Chateau -La- Valliere والقديس ستيفن، ودخل فالي Vallee وانحدر بدون عوائق إلى أنغر Angers وذلك على الرغم من عدم رضى شعب تور، واستولى بالحقيقة على ميربو Mi-rebeau ولاندون، وشينون Chinon (التي كانت بأيدي أودو)، وسامور، ومونتسوريو Montsoreau التي هاجم منها مراراً رجال الل—بوشارد L'Il-Bouchard وذلك قبل أن يعود إلى لوشي عبر منطقة غينون Guennon صاحب نوتري Nouatre.

ولكي يكمل خططه، انتخب فولك واحداً من خيرة رجاله المحاربين، لقد كان أفضلهم وأعظم الجنود خبرة، واسمه ليسوس أوف بازوغير Li-sois of Bazougers وهو حفيد (ابن أخ أو أخت) فيزكونت أوف

سينت سوزان Suzanne وأوكل إليه المسؤولية عن لوشي وأمبويز، وأمره بفرض الطاعة على الفرسان هناك صغاراً وكباراً.

وولدت زوجة فولك غيوفري مارتل، وابنة اسمها أديلا، وبما أن فولك كان رجلاً يخشى الرب، فقد قام بالحج إلى روما لتقديم الشكر، وبعدما تسلم رسائل من البابا الروماني مع التبريكات، أخذ الطريق وشرع برحلته نحو القدس(٣)، التي كانت آنذاك بيد الكفار، وعندما وصل إلى القسطنطينية قابل الدوق روبرت صاحب نورماندي، الذي انطلق للقيام بالرحلة نفسها، (كان لرتشارد دوق نورماندي ولدين هما رتشارد وروبرت، وقد رزق بهما من يودث ابنة الكونت كونان صاحب بريتاني، وكان رتشارد هو الأكبر، وقد تجرع السم على يد أخيه روبرت، ومن أجل أن ينال العفو من الرب والغفران قام روبرت بالسفر حافي القدمين [نحو القدس] وذلك بعد سبع سنوات من غدوه دوقاً، وكان لروبرت هذا نفسه ولداً اسمه وليم، وهو رجل مشهور، ذلك أنه هو الذي قهر انكلترا) وعندما وجد فولك روبرت وتعرف عليه، أراه رسائل البابا إلى الامبراطور، وبناء على أوامر الامبراطور اقتيد الرجال عبر أراضي المسلمين بوساطة رجال من أنطاكية، صدف أن كانوا في القسطنطينية، وقد توفي روبرت على الطريق إلى بيثينيا.

واقتيد فولك نيرا تحت الحراسة إلى القدس، ولم يسمح له بالبداية بالمضي خلال باب المدينة حيث كان الحجاج يرغمون على دفع بدل دخول، غير أنه بعدما دفع عن نفسه وعن المسيحيين الآخرين المعوقين عند باب المنع، كان قادراً على الدخول معهم جميعاً، لكن عندها منعتهم الأبواب من الدخول إلى قبر الرب.

وعندما عُرف أنه رجل منحدر من أصل رفيع، قال له الحراس: يمكنك الوصول إلى القبر، لكن —أضافوا بسخرية وخداع— إذا بولت عليه وعلى الصليب المقدس، وبما أن فولك كان رجلاً عاقلاً، فقد أبدى

موافقتـه، لكن رغماً عنه، فـاشترى مثانـة كبش، ونظفها من القـذارة التي بها، ثم ملأها بأحسن نوع من الخمر الأبيض، ثم وضعها في مكان مستور بين طرفيه، ثم إنـه بعدما خلع نعليه، اقترب من قبر الـرب، وصب الخمر فوقـه، وبذلك سمـح له بـالدخول بـلا أجر مع جميـع رفاقـه، وصلى عند القبر، وسكب كثيراً من الـدموع، ومـالبث أن شعـر بالقـوة الإلهيـة عندمـا أصبح الحجر القـاسي ناعماً، وانتزع بعـد هذا نفسه وابتعـد عن القبر الذي بلله بقبلـه، ولقد غادر وهـو يشعر بالحنق بسبب سخـرية وجهالـة الكفار الذين رافقـوه، وقدم صـدقات كثيرة للمحتـاجين، وحصل على قطعة من الصليب المقدس من واحد من السوريين الذين كانوا يحرسون الضريح.

وعنـدما عـاد الكونت فـولك إلى لوشي، فيما وراء نهر الانـدر Indre بنى كنيســـة على شرف الضريح المقـــدس في بيـــوليـــو Beaulieu بالتحـديد، وأسكن هناك بعض الرهبـان مع راعي لهم، ووضع في كنيسة القديسة مـريم العذراء في أمبويز قطعـة من صليب المخلص وجذاذة من الحبل الذي ربطت به يدي المسيح، وإلى هذه الكنيسة نقل في أيام فولك جسد القديس فلـورنتاين Florentine من بواتـــو إلى هناك، وأقام أيضاً مع سولبايس Sulpice خازن القديس مارتن كهنة هناك.

كان أودو كـونت شامبين بـالتحالف مع جـدعون أوف سـامور يهددان سلطة فولك في شرقي أنجو، وقاتل فـولك مع حليفه كونت هربرت أوف مين ضده، وربحـا اليوم، وقتلا وأسرا حوالي ستـة آلاف من أعدائهما، وفي السنة التالية أسس فولك قلعة مونتبوي Montboyau ليهدد بها تور التي أمل بالاستيـلاء عليها وانتـزاعها من أودو، غير أن أودو تـولى حصار مونتبوي.

حشـد فـولك أكبر عدد تحقق لـه في فـالي Vallee ونفذ خطـــــة ذكيـة، فـلأنه لم يستطـع لابل لم يتجرأ على القتـال، عبر نهر اللـوار، وسـار مسرعاً طـوال الليل، ودخل مع بـزوغ نور الصباح إلى سـامور التي كـانت

بلا دفاعات، واستولى على الفور عليها كلها وصولاً حتى القلعة.

ولم يكن هناك أمل بالسلامة بالنسبة للرجال الذين كانوا في القلعة، ولامكان للالتجاء إليه، ولم يكن أمامهم سوى عار التسليم فقط، فقد كانوا يعرفون أن الأنجيفيين كانوا شجعاناً وعرق مقاتل، وأنهم لن يتخلوا عن خططهم حتى تستجاب مطالبهم، وكانوا أيضاً يعرفون أن مهاجميهم سيتخلون عن كلّ رحمة، لذلك توصلوا إلى اتفاق مع الكونت، وفقاً لقانون الاستسلام، وقالوا له: «أيها الانسان السعيد، لقد أمرت بوجوب التخلي عن القلعة وتسليمها إليك، احمنا من هؤلاء القتلة، واسمح لنا بالعيش لنخدمك»، وأصغىٰ الكونت إلى هذا، وسمح لهم بالحرية مع الكرامة، وشرفهم بهدايا عظيمة، ولقد قيل بأنه فعل هذا من أجل أن يربط المحررين به شخصياً، وأن يحرّض الآخرين على الاستسلام، وبعدما جرى تسليم القلعة إلى أتباعه، أمرهم بحراستها بكل يقظة.

وبعدما سيطر فولك على سامور حسبما رغب، عبر نهر الفين Vienne قرب شينون Chinon بين نوتري Nouatre وآيل—بوشارد Ile-Bouchard على جسر صنع من السفن، وحاصر مونتبازون Montbazon وتخلى أودو عن حصار مونتبوي ووجه رجالته ضد فولك، ووضع فولك العبقري حداً للحصار وتراجع إلى لوشي حيث نصب خيامه فوق المروج.

ومكث القائدان بلا حراك، وتفرق جيشاهما، وفيما أودو مقيم في بليوس أخبره رسول أن الألمان قد حاصروا بار—سور—أوبي Bar - Sur- Aube تحت قيادة دوق اللورين، فبادر مسرعاً بالعودة إلى هناك، ثم قام أودو بمطاردة الألمان الذين كانوا قد ارتحلوا إلى اللورين، ومع أنه أصيب بجراح بالغة وهو يقاتلهم، إلاّ أنه عاد منتصراً، ومهما يكن الحال، لقد توفي بعد وقت قصير متأثراً بجراحه، وورث ابنه ثيوبولد الثالث أراضيه، وفي الوقت نفسه حاصر فولك مونتبازون مرة ثانية،

واستـولى عليها هـذه المرة، وعهـد بحراستهـا إلى وليم أوف ميربـو، وسلم أيـرود بـرستـولي Airaud Brustulii مع خـونـة آخـرين سيـدهم غيوفري، حـاكم سينت ايغنان Aignan إلى فولك، وحدث فيما بعد أثناء غيـاب فولك أن تعرض هـذا الرجل للشنق في سجنـه في لوشي على أيدي الخونة أنفسهم.

وأعطى الكـونت إلى حـاجبـه ليسـوس حفيـدة (ابنـة الأخ أو الأخت) سـولبـايس الخازن، زوجة لـه، ومنحـه قلعـة أمبويـز مع جميع ممتلكـاتها، وبعدما أسس هذا الرجل على هذه الصـورة، عهد الكونت بامرته إلى ابنه مارتل، وهكذا عاشت البلاد بهدوء وسـلام حتى وفاة فولك التي حدثت بعد وقت قصير.

سنة أربعين وألف

استحوذ غيـوفري مـارتل، بعد وفـاة أبيه على جميع اقطـاعية الكـونت، وكـان مارتل جسـوراً أكثر من بقيـة أفـراد أسرته، ولقـد اعتاد على انجـاز مشاريعه بسرعة فعالة، وأثـار شعب أنجو غضب سيدهم مارتل ضد كلّ من ثيوبولد الثالث، كونت بليوس ووليم كونت بواتو.

واعتاد مارتل على استخـدام القوة ضد كثيرين، وعندما كـان يقال له: «النـاس يتكلمـون بشكل سيء عنك»، كان يعقب قـائلاً: «إنهم يفعلـون مـا اعتـادوا أن يفعلـوه، لامـا استحقه، وإنهم لايعـرفـون كيف يتحـدثـون بشكل جيد»، ولهذا مـركز كثيراً من القوات في أمبويـز تحت إمرة ليسوس، وقامت هذه القوات بإزالة جميع ماوقف معيقاً فيما بين مونتبازون وشينون.

وأخيراً حـاصر مارتل بلـدة تور، وبعـث ليسوس عـائداً إلى أمبويـز مع

مائتي فارس وألف وخمسمائة جندي من الرجالة ليتولوا حراسة الطرق خشية أن ينقض رجال بليوس على جيشه دونما عائق.

وتخلى مارتل عن الحصار، وجاء للقاء أعدائه عند بزوغ الشمس في مونتلوي Montlouis وفي الصباح اندفع رجال بليوس من معسكراتهم على شكل جماعات، وزحف الأنجيفيون ضدهم من مونتلوي، وفي أثناء تفقد كلّ واحد منهم لسلاح الآخر بالدور، خاطب مارتل الذي حمل ستة سيوف رجال جيشه بالكلمات التالية:

«إلى الأمام أيها الجنود، لقد رأيتم ووجدتم ماجئتم من أجله، وحقاً أقول، إنكم أنتم المقبلون على القتال سوف تنالون الدعم من الرب وستحصلون على القوة من فضله، لأن الرب القادر قوي وقادر على الحماية، لايفكرن أحد مطلقاً بالفرار، لأن أنجو بعيدة جداً عنا»(٤).

وتشجع جنوده بالكلمات التي سمعوها من كونتهم، فزحف كلّ رجل منهم نحو القتال، ولم يرغبوا في تأجيل المواجهة أبداً، ولم يكن هناك تردد، وقد احتشدوا في مكان مشهور باسم نوي Nowy أمام سوق بلدة سينت مارتن –لى– بو Beau.

وزعقت الأبواق مع صرخات «إلى الأمام»، وتوغلوا بأنفسهم بكل سرعة ممكنة في قلب صفوف الأعداء على كلّ جبهة، وشتتوا الذين اعترضوا طريقهم، وقد وجدوا خصومهم غير ضعفاء، بل على العكس، يقاومون بكل قواهم، وكادت قوات مارتل أن تتدمر على أيدي الحشود التي تفوقت عليها بالعدد، والتهمت المعركة تماماً اثنين من صفوفها، وسقط عدد كبير من الرجال أرضاً، وجرح كثير منهم، ومع هذا استطاع الأنجيفيون صدّ حملة أعدائهم، ثم هاجموهم بدورهم وأرغموهم على التزحزح عن مواقعهم.

وكان مارتل الذي اتخذ موقفاً وبيده سيفه قريباً من مؤخرة قواته،

يسرع إلى حيث كان يرى أن الأعـداء قد تفوقوا بأعـدادهم، وكان قد غيّر مظهره، وتخلى عن ثيـابه ككونت وبـات شكله شكل فارس عـادي، ولقد طعن عدداً من الخيـالة وألقاهم عن ظهـور خيولهم، وشطر آخـرين بسيفه وهم على سروج مطـاياهم، وأعـاد تجميع رجاله، وشجـع الذين تعـرضوا للضغط الشـديـد، ورفع معنـوياتهم، وإثـر ذلك انـدفع إلى الأمـام ضـد الأعداء.

أما ليسوس الذي توجب عليه جلب العـون إلى مولاه مع فرسانه ومائة من حملة الأعلام من الجنـود الرجالة، فقد جاء بأقصى سرعـة من أمبويز، وعنـدما رأى الـذين كانـوا في ميمنتـه القتال عن بعـد، رفعوا أسـواطهم، وهمزوا خيـولهم، ووضعـوا تـرستهم أمـام صـدورهم، وهكـذا استطـاعـوا تشتيت الحشـد الذي تجمع هنـاك، ومـزقوا خصـومهم، وتمكن كلّ واحـد منهم أن يمدد واحداً من الأعداء على الأرض.

وجـدد الأنجيفيـون الحملة، ولم يعـد بإمكـان المتعـاونين مع ثيوبـولـد مقـاومـة شدة القتـال، لـذلك أداروا ظهـورهم وشرعـوا بالفـرار، واستبـد الرعب بهم بشكل مفاجىء، وأصيب كثير منهم بنشاب مطارديهم، وشدد الأنجيفيـون من الفرسـان والرجـالة الضغط عليهم، وردوهم مـرغمين إلى الخلف، وقتلوا الخيول التي كانت حية إلا قليـلاً منها، أما الذين كانوا مع مارتل فقـد قتلوا كلّ من صـدفوه، ذلك أنهم تجمعوا تحت لـواء قائدهم، الذي كان أشجعهم جميعاً، وطاردوا الفارين ومددوهم فوق الأرض.

وسـار رجـال أمبـويز خلـف الفارين وتتبعـوا آثـارهم، وظلـوا يقهـرون خصومهم ويقتلـونهم حتى التقوا بـالكونت ثيوبـولد داخل حـرش اسمه بري Braye قرب قاعة هوستون Hastuin وأسروه مع خمسمائة من فـرسـانـه، ذلك أنـه كان مـن غير الممكن الركـوب في بـري، وجـروا الكونت خارج الحرش، ومن ثم عادوا إلى مـارتل، وهكذا كان بعون الرب أن تم صـد الأعداء الـذين فروا مجللين بـالعار إلى أجـزاء مختلفة، في حين

عاد الأنجيفيون وأمضوا السنة بسلام، ولم ينزعجوا بمخاطر الحروب.

سنة اثنتين وأربعين وألف

وعندما كان التعيس ثيوبولد الثالث في الأغلال لم يقبل مارتل فدية له لابـالذهب ولابـالفضـة، وبما أن السجين كان يخشـى على حياتـه، ويهتم بسـلامـة شخصـه أكثـر من أي شيء آخـر ممـا امتلكـه، تخلى عن تـورين Touraine إلى مارتل ليتملكهـا ملكية أبدية مقابـل تسريحه، وكان هذا سنة اثنتين وأربعين وألف.

وحسب تأكيد سينكا Seneca:

«لايمكن للناس أن يعيشـوا حياة هـادئة إذا ماأطاعـوا قواعـد النظام الطبيعي: لك ولي». لقـد أراد الآن وليم أوف بواتـو الاستيلاء على منطقـة سينتأونغ Saintonge وفعلاً احتلهـا، وتمسك بها بالقـوة على أساس أنها كـانت ملكـاً لأخي أبيـه، وادعى مارتـل ملكية المنطقـة نفسهـا لأنها كـانت ملكاً لعمـه الكبير، الـذي مات ورثتـه بدون أولاد، وأصر أنـه لهذا السبب توجب عودتها إلى ورثة أخت عمه الكبير.

وكان وليم صـاحب بواتو والحق يقـال رجلاً محارباً، لانظير لـه بالجرأة، وامتلك البصيرة مع ثروة كبيرة، ولامتـلاكه حشوداً من الجند كـان متشوقاً للمديح والتفـاخر والتبجح برعـونة، وأكسبته سمعته العظيمـة عدداً كبيراً جداً من الأتباع:

رجـال بواتـو، وليمـوسين Limousin وأنغوليم Angouleme وبيرغو Pergueux وكليرمونـت —فيراند Clermont-Ferrand وغسكون Qascons وباسكوي Basques وتولوسين -Tou

lousains مع آخرين أعدادهم لاتحصى، قام بتوحيدهم لتشكيل جيش هائل.

وكان البواتيون يتجمعون ببطء من جميع أرجاء المنطقة، وكانوا مثل النجوم أعدادهم لاتعد ولاتحصى، وقد نشروا قواتهم التي لايمكن عدّها على شكل صفوف من جانب إلى جانب، وكان الجميع يحملون السلاسل التي اعتقدوا أنهم سيربطون بها خصومهم، وكانت وحداتهم تحتل مواقع متفق عليها على مسافة ضئيلة من تشف —بوتون Chef-Boutonne وقد فعلوا ذلك حسبما صدرت التوجيهات إليهم، ولقد خيل إليهم أن الأنجيفيين سوف يفرون على الفور، ولم يقدّروا أنهم أنفسهم قد يفعلون الشيء نفسه لأنهم اعتقدوا سلفاً أنهم ربحوا، وقد استمدوا ثقتهم من جموعهم التي فاقت العد والحصر، ومن روح التظاهر التي وجدت في صدور جمعهم، وكذلك من أمر قائدهم بعدم الفرار.

وكان الطرفان الآن على استعداد للقتال، وقد اصطفوا في مكان صغير جعل من الممكن مشاهدة بعضهم بعضاً عن قرب شديد، واصطدمت الصفوف بقوى متساوية، وكان المحرض الذي حرك البواتويين هو الغضب والخوف، لكن الذي حرك الأنجيفيين كان هو الأمل بربح منطقة سينتأونغ، وصرخ كلّ انسان بصوت مرتفع، ورددت السموات نفسها الأصداء بزمجرة متداخلة، وكان الضجيج لايمكن احتماله، وقد صدر عن قراع السلاح، وانشطار الخوذ، وتحطم السيوف، وعن أنين وصراخ الذين كانوا يموتون، وسمعت أصوات الجرحى على جميع الجوانب.

وحمل مارتل مع الأنجيفيين على العدو، وشقوا طريقهم بسيوفهم وهم يصرخون حتى وصلوا إلى وسط صفوفه، وتبع حشد من الفرسان من تورين مولاهم، وشتتوا عدداً كبيراً وقتلوا حامل راية وليم نفسه، ولحق الرجالة بكل شجاعة جماعات الفرسان، واستولوا على الراية واحتفظوا بها

لأنها كانت قد ألقت رعباً شديداً في قلوبهم، وهنا دار جميع رجال غسكوني وليموسين على الفور على أعقابهم وذهبت بقية الحشد معهم.

وتريث البواتيون، وحافظوا وهم مرعوبين على مواقفهم لبعض الوقت، وتحول مارتل ورجاله نحوهم وبأيديهم سيوفهم، فقطعوهم مثلما يقطع المنجل القمح، وذلك بضربات أفقية، وشطر أجساد الأعداء، ولم تتبلل أرض المعركة بل بالحري فاضت بالدماء، ولم يكن أمام البواتويين المزلزلين مكان يلجأون إليه، ثم إنهم لم يبحثوا عن شيء من هذا القبيل، وجرت مطاردة الفارين، أو لنقل مطاردة الذين تدبروا بطريقة ما الفرار، وفي الوقت الذي أخذ فيه رجال تورين كثيراً من الأسرى، لم يمنح الأنجيفيون الهدنة لأي ممن صدفوه هارباً، فقد طعنوا بعضهم بالرماح، وقطعوا أعناق آخرين، ولم يبقوا على أحد حياً، وبما أن تشف —بوتون لم تكن بعيدة، فقد لاقت الأقلية المنهكة هناك إما الأسر أو الموت السريع، وهكذا كان ذلك اليوم رهيباً جداً بالنسبة للبواتويين، ولقد كان يوم آلام ويأس، يوم فوضى وقنوط، فقد ربطوا بالسلاسل نفسها التي جلبوها ليربطوا بها أعداءهم، ولقد كانت المذبحة كاملة، وأمضى مارتل ورجاله الليل بسلام في خيمهم فوق السهل، وصفوا رؤوس القتلى وأجسادهم في وجه الرياح الشمالية العاتية التي كانت تهب آنذاك.

وحمل بعد هذا مارتل على سينتأونغ بالسرعة التي أمكنته، وخرج الذين كانوا في المدينة لاستقباله وسلموا المكان إليه بأبواب مفتوحة، واستقر هناك رجاله وهم مسرورين، واستولوا على المنطقة المجاورة التي سيحكمها مارتل طوال بقية حياته، وذلك ما ان يقيم سلماً مع كونت بواتو، وما أن عوفي هذا الأخير من جراحه التي أصيب بها أثناء القتال حتى تقبل الولاء من مارتل وتخلى له عن المنطقة التي كانت الآن هادئة، وكان ذلك بناء على نصيحة من الرهبان والأساقفة، وكان هناك سرور عارم وفرح لايوصف في أنجو وتورين نتيجة لما حصل، وتمتع المنتصرون

بالسلام طويلاً في كل مكان، وقدموا الشكر للرب بكل قلوبهم.

وكـان في هـذه الأيام الـدوق وليم صـاحب نـورمانـدي يضـايق كثيراً هربرت كونت لامانس، وبما أن مارتل كـان حليف هربرت وحاميه، فقد عانى الدوق وليم —الذي صار فيما بعد ملك الانكليز— كثيراً على يدي مارتل.

وبما أن غيوفري مارتل ابن فولك كـان بلا أولاد، فقد ترك منطقة أنجو وتورين، التي استولى عليها كما وصفـت، إلى ابني أخيه: غيوفري الملتحي وفـولك ريشن Rechin وأعطى أنجـو وسينتأونـغ إلى غيـوفـــري وتورين وشاتو —لاندن إلى فـولك، وقد أصيب بمرض غير متوقع، وبعلة لايمكن مـداواتها، وقد ازدادت علته سـوءاً من يـوم إلى يوم، وعانـى منها حتى ساعة وفاته، فقد توفي وهو شديد الآلام وسط أسرته.

سنة ستين وألف

وفيما يتعلق بعـــدد الشرور وطبيعتهـا التي وقعت في البـــلاد بينما كـان غيـوفـري الملتحي وفولـك ريشن مستوليـان على تـراث مـارتل: الكشف عنهـا يأمـر بــه التـاريـخ الصحيح، لكن يحظـر ذلك الـرعب ودرجـة التخـــريب، ولستُ أدري أيها أفضل بـــالنسبـة لهذين المقترفين: تقـــديم وصف مفصل للشرور التي اقترفـاهـا أم حـذفها، أو بـالحري هل يـؤذيهما القيام بكتمان بعض الأمثلة من شرورهما.

سنة ست وستين وألف

وكـان غيوفـري الملتحي عسكريـاً نشطـاً، وقد تحالف مع رجـال مين، وتمكن بمسـاعـدة من اليـاس أوف لى —فلش Fleche من استرداد لامانس، التي تملكها وليم ملك انكلترا، وبدأ فـولك المخادع يقاتل ضد أخيـه غيوفـري، وبـذلك ألقى البلاد في لجة من الفـوضى، وعنـدها بـدأ البارونـات يحاربون بعضهم بعضاً وعمّ ذلـك جميع أرجاء المنطقة، وكـانوا يقفون الآن إلى جـانب غيوفري ثم بعد ذلـك إلى جانب فولك، فالخيـانة هي التي راجت.

وكان في سنـة ست وستين وألف لتجسيد الـرب ربنا، خيانـة في أنغر، فبعدمـا اكتمل تقريبـاً خراب أنجـو وتورين، مخادعة ألقى فـولك ريشن القبض على أخيه، واستولى على المنطقة كلها وكأنها ملك له.

وكان كونت بواتو، الذي مثلـه مثل أبيه حمل اسم وليم، عسكرياً بارعاً جداً، في التخطيط والتصنيع، وفي الوقت الذي كـان فيه أخواه يتصارعان حسبما تقـدم الوصف، هـاجم منطقة سينتأونغ واستـولى عليها، وحـارب الياس حاكم مين ومعـه بارونات فولك لصـالح غيوفري وطالبـوا باطلاق سراحه، وبـذلوا الجهد لاخراجـه من السجن بالقوة بمسـاعدة من فيليب الأول، ملك الفـرنسيين وستيفن كونت بليـوس، غير أن فولك أقـام حلفاً مع ستيفن وقـدم الولاء لـه، ثم ذهب إلى الملك الفرنسي وعقـد معاهـدة معه، وتخلى له عن شاتو—لاندن.

كان فيليب الأول ملك فرنسا، ملكاً فعالاً في جزيرة فرنسا فقط، علماً بأن باريس، عـاصمته قد غـدت مركـزاً هاماً للتعليم، وصـار أبيلارد(٥) Abelard واحـداً من أشهر أسـاتذة الجامعـة، ولقد استخـدم المؤرخ أحياناً كلمة «فرنسا» ليشير إلى هذه المنطقة.

وعندما عاد الكونت فولك من فرنسا ذهب إلى أمبويز، حيث حلّ ضيفاً على أرنول أوف منغ —سور— لوار Meung-Sur-Loire الذي كان معهوداً إليه بقلعة الكونت في المدينة بلامقابل.

وانتزع فولك منه اقطاعه مع القلعة، ووضع حراساً حيث شاء، واحتفظ بها لنفسه، وعلى هذه الصورة طرد أرنول مع ابنه ليون من أمبويز.

وغالباً ماكان فولك وهو يتصرف بهذه الطريقة يسوق تهم الخيانة ضد أولاده، علماً أن ذلك كان بدون حق «لأن الشر اعتاد أن يمتلك هذه القوة الخاصة في تلويث البريء بين الأكثرية بجرائم الأقلية، حيث عصابة صغيرة من الرجال الجيدين غير قادرة على تلطيف جرائم الأكثرية بجعلها تشاركها في فضائلها، لكن من الذي لايغضب عندما يرى الخير الخالص قد طعن بتهم عدد قليل من الناس الأشرار»؟.

ولأن عدداً كبيراً من الناس «بطيئين في صنع الخير، سريعين في الحديث ضد الشر، منشغلين بالتآمر، ضعفاء بالحب، أقوياء في الشقاق، متصلبين بالاحتفاظ بعداواتهم»، سأذكر هنا هؤلاء الرجال، لأن قصصهم جديرة بالحكاية، وهاكم هي:

اتخذ فولك لنفسه عدة زوجات: فقد كان هناك ابنة لانسلين أوف بيوغنسي Lancelin of Beaugency وهي التي غدت ابنتها كونتسة بريتاني، ثم انصرفت إلى حياة الرهبنة بعد وفاة زوجها في القدس، واتخذ فولك بعد وفاة ابنة لانسلين زوجة جديدة هي ارمنغاردين Er-mengardine ابنة آرشنبود Archenbaud قوي بوربون Bourbon وهي التي أنجبت له غيوفري مارتل الثاني، الذي كان رجلاً جديراً بالاعجاب، مشهوراً بعدله، وبرعايته لكل شيء جيد، وبارعابه لجميع أعدائه.

ثم وقع الفاسق فولك في حب عميق مع أخت أموري أوف مونتفونت Montfont «التي لم يمدحها قط انسان جيد إلاّ لجمالها»، ولأجلها طلق أم غيوفري مارتل الثاني، حيث أعلن أنها قريبته قرابة تحرم الزواج، وبعد ذلك تزوجها وليم أوف جالغني Jaligny.

وما أن أصبح غيوفري مارتل في سن الرجولة، وكان شاباً شجاعاً وحكيماً، حتى رأى أن البلاد مضطربة، والبارونات في جميع أرجاء البلاد يثورون ضد أبيه، فقاومهم بدون توقف، وبحث بكل اصرار عن كيف يمكنه أن ينتقم لأبيه ولرجال أبيه، وبما أنه كان أبعد بصيرة من الجميع فقد أعاد الرجال وأبعدهم عن الأعمال الشريرة، ووجه شؤونه بشكل عقلاني، ولم يحارب بشكل لطيف ولم يكن أحمقاً كثيراً في سلوكه.

وعندما سمع غيوفري الملتحي بالسمات الحسنة لابن أخيه مارتل وباستقامته كان مسروراً، واستدعاه إليه وقال له: «أنا مسرور جداً لأنك لم تبتعد عن السمات الخلقية الحسنة لأجدادك، ولهذا أمنحك الأرض التي أخذها أبوك ظلماً مني، وأريدك أن تخلفني عليها»، وأطلق مارتل الثاني عمه وحرره من الأغلال والسلاسل، وسمح له بالسفر إلى حيث أراد خلال البلدات والمدن، لكن دوماً تحت الحراسة، غير أن عقل غيوفري بات مشوشاً في السجن، وزالت قدرته على التفكير العقلاني إلى حد كبير، ولم يعش طويلاً بعد هذا.

عقد في سنة ١٠٩٥ مؤتمر كليرمونت بناء على دعوة من البابا أوربان الثاني، وهناك جرى التبشير بالحملة الصليبية الأولى.

وأعطى مارتل الثاني أخته اليزابث، التي ولدت من زواج أمه بوليم أوف جالغني، زوجة لهيوج أوف شومنت Chaumont وأعطى مع يدها جميع أمبويز، وخطب مارتل لنفسه الابنة الوحيدة للكونت الياس صاحب مين، مع أنها لم تكن في سن الزواج، وسلم لامانس مع كلّ

مايتعلق بها.

وكان مارتل قد دخل في صراع مع الملك وليم روفوس، ونهب وألقى النار في كثير من البلدات في نورماندي، وفي الوقت نفسه تلكأ الملك في انكلترا، وكان الكونت روبرت، أخو الملك، باقياً مع الجيش في القدس بصحبة كثير من الحجاج، ذلك أن الملك روفوس احتفظ بنورماندي وصاية.

سنة ست ومائة وألف

في سنة ست ومائة وألف لتجسيد ربنا، ظهر لمدة أربعين يوماً مذنباً كان يزداد حجماً كلّ مساء، وقد ملأ الدنيا بالدهشة، وكان يرسل بأشعته المضيئة والكبيرة ضد الشعاع الخافت لغياب الشمس، وبدا في أول ظهوره أكثر نارية، ثم أصبح أقل وضوحاً، وأخذ يحترق رويداً رويداً حتى أنه اختفى بعد يوم الأربعين كلية، أو هكذا قالوا.

وفي يوم القديس ميكائيل، أي في ٢٩أيلول، تم أسر روبرت من قبل أخيه الملك هنري الأول، وتزوج وليم كليتو Clito من ابنة فولك كونت أنجو، غير أنهما افترقا فيها بعد بسبب القرابة، وتزوج من أخت زوجة الملك الفرنسي لويس السادس، وحصل بهذا الزواج على فلاندرز، غير أن يده خرقت بطعنة رمح، ولهذا لم يعش وليم إثر هذا وقتاً طويلاً.

سنة سبع ومائة وألف

قتل في السنة التـالية مارتـل في كمين قرب قلعة كـاندي Cande يفترض أنـه نصب بتفاهـم مع أبيـه، وخـالته زوجـة أبيـه، ويبدو لي أمـراً لايصـدق أن يقدم أب لمثل هـذا الـولد على الموافقـة على قتلـه، خاصـة عنـدمـا بـات رجـلاً مسناً، وعنـدمـا وضح أن ابنـه —إذا مـامنح عمـراً أطول— سـوف يسترد له كلّ الذي خسره، لأن مارتل كـان ينازل كلّ من الملك الفـرنسي من أجـل شـاتـو—لانـدن، ووليم أوف بـواتـو من أجل سينتأونغ، وكـان مارتل قـد بنى بدون خـوف بلدتين قـرب بواتـو، واحدة عند مدخل البلدة، والثانية قرب القاعة.

وجاء الفـاسق الملك فيليب إلى تور، وبعـدما تحادث مع زوجـة فولك قرر أن يجعلها ملكتـه، وهجرت هذه المرأة الشريرة زوجها في الليلـة التالية وتبعت الملك، الذي مركز فرسانه عند مندري Mindray قرب جسر هناك فوق نهر البـوفرون Beuvron واقتادها إلى أورلين Or-leans وهكذا ملأ الملك الشبق بيتـه بجرائم زواج اقترفت تحت عقوبة الحرمـان، وحصل على ولـدين من هـذه المرأة هما: فيليـب وفلـورس Florus.

ومع أنني وجدتُ هـذه الأشياء قـد كتبت في مجلدات مخفيـة، لم أشعر بالانزعاج لاخفـائها، لصالح سمعة موالينا كونتـات أنجو، وصنفت كتابة ماتصـورت أنه أفعـالهم، مع هذه الأشيـاء التي صممت بمثـابة تعليمات لخلفائهم، داعياً الرب أن يكون عملنـا معيناً للجيل الحالي عندما يقلدون أجدادهم العظام.

- ٤٠٦ -

سنة تسع ومائة وألف

صحيح أن «الأب سوف لن يحمل آثام الابن ولا الابن إثم الأب»، هكذا كان بعد وفاة فولك ريشن، فقد تخلى ابنه فولك الخامس، كونت أنجو عن مسالك أمه وأبيه، واتبع حياة شريفة، حيث حكم بلاده بعقلانية، وتباحث مع الياس، كونت مين، بغية الزواج من ابنته الوحيدة، وقصد مارتل الزواج من الفتاة، وكان سيحصل مع يدها على بلاد مين، وبهذه الطريقة جرى الاعتراف باتحاد مين وأنجو.

وكان فولك الخامس رجلاً مستقيماً ونشيطاً، ومؤمناً محافظاً، وعطوفاً خيراً نحو رجال الرب، وبعدما تسلم الكونتيين رفع رفاقه إلى الأعلى، وحطّ من شأن الأشرار، وباختصار لقد حصل على سمعة مجيدة ورائعة، وأصبح الأول على الجميع، ومنح هيوج أوف شومونت Chaumont جميع أمبويز، وذلك بعدما قدم إليه الولاء، وقد قلد بذلك مافعله أخاه مارتل الثاني، وأعاد مونت رتشارد التي استولى عليها أجداده بشكل غير عادل.

وحاصر فولك بروِلي Preuilly لكنه لم يأخذها، ومع أنه استولى على ايشيفارد Eschivard وهي قلعة كانت تحت حكم اللورد نفسه، قام بعقد سلام معه فيها بعد، واشترى مونتبازون من جون الذي كان صاحب تلك البلدة، لكن عندما شق جون هذا طريقه بالقوة عائداً إلى ذلك المكان بعدما قبل قسماً من المال، أقدم فولك بكل شجاعة على حصارها، وأجبره على إعادتها له، وبتسليمه المتبقي من المال استولى فولك أيضاً على القلعة، وأغلق مونترول —بلي Montreuil-Bellay لكنه ما ان استولى عليها، ووضع حراسه في القلعة حتى تحرك رحمة فأعاد البقية إلى صاحب القلعة.

وحارب هنـري الأول، ملك الانكليز، مـراراً عديـدة لأنه كـره الرجل، ولأن هنري خلق بـاعطائه المال إلى بارونات أنجـو ومين، مراراً ، كثيراً من الاضطراب بينهم، وسبب أذى عظيماً لفولك.

وكـان الملك وليم الـذي استولى على انكلترا قـد وزع بـلاده بين أولاده الثـلاثة: فقـد أعطى انكلترا إلى وليم روفـوس، ونـورمـاندي إلى روبـرت، وميراث الأم إلى هنـري، وعندمـا مات روفـوس استحـوذ هنري على تـاج انكلترا، بينما كان أخوه روبرت معوقاً في القدس، وبعدما عاد روبرت من القدس رزق بولد من زوجته دعي وليم كليتو.

وكـان لهنـري الأول ولـداً اسمـه وليم، وهـو الـذي تـزوج ابنـة فـولك الخامس، وتسلم معهـا كـونتيـة مين، وبعدمـا قـدم وليم الـولاء لفـولك، تسلم أيضاً نورماندي من لويـس السادس ملك فرنسا، وفي صيف عامه السابـع عشر، كان عـائداً إلى انكلترا فغرق بالبحـر ومعه كثير مـن النبلاء الذين لم تسترد أجسادهم أبداً.

كـان لفقدان الملك هنـري لـولده وليم في ١١٢٠ نتـائج خطيرة، لأن وريثه الشرعي الذي بقي ليخلفه هو ابنته ماتيلدا.

سنة عشر ومائة وألف

في سنة عشر ومـائة وألف لتجسيد ربنـا، رزق فولك الخامس ولـداً من زوجتـه ابنـة كـونت اليـاس، وقـد سماه غيـوفـري، و نشأ الطفل وصـار عسكرياً متميزاً، وقد تزوج مـاتيلدا، ابنة هنري الأول ملك انكلترا، وأرملة هنري الخامس امبراطور ألمانيـا، ورزق فولك من الزوجة نفسها بـولد آخر دعاه الياس.

سنة ثمان وعشرين ومائة وألف

وبينما كان فولك يحكم أنجو وتورين وكونتية مين بازدهار، أرسل الملك بلدوين الثاني، ملك القدس، رسلاً توجب عليهم التشاور مع رجال عقلاء، ثم اقناع رجل مناسب بالزواج من ابنته وقبول مملكة القدس، ووقع اختيار الأساقفة، مع عدد من أعيان الناس، على فولك الخامس صاحب أنجو، الذي كان قد فقد زوجته.

سنة تسع وعشرين ومائة وألف

وعبر فولك البحر مع قوة كبيرة، واستكمل الزواج من ابنة الملك، وأصبح ملك القدس في ١١٢٩.

سنة إحدى وثلاثين ومائة وألف

وبعد وفاة الملك بلدوين، حكم فولك المملكة برجولة(٦)، وجعل سكان دمشق وعسقلان يدفعون الجزية، وكان قبل وقت طويل قد تزوج ريموند أخو كونت بواتو من ابنة بوهيموند صاحب أنطاكية، ودعم فولك إمارة أنطاكية ضد الترك، بوساطة جهود كبيرة، ودون أن يخسر شيئاً، وأنجبت له زوجته ولدين هما: بلدوين وعموري، وعمّر هو إلى سن كبيرة، وتوفي وهو مايزال قادراً على القتال، واتخذ أهل القدس بعد وفاته

ابنه بلدوين ملكاً خليفة له.

وفيها كـان غيـوفري بن فـولك الخامس ملـك القدس، يحكم منـاطقـه الأنجيفية بهدوء، قام أخوه الياس بمهاجمته مراراً، وذلك بعد تحريضه من قبل بعض الرجـال الأشرار، وطالب بكـونتية مين، وأسره غيوفـري، وأبقاه مسجوناً لـوقت طويل في تور، ثم بعدما أطلق سراح هـذا الرجل الشاب، توفي من مرض خطير أصابه عندما كان بالسجن.

دومـاً يصبح الأخـوة الأقـويـاء غير متحـدين، بسبب كثير من الجشع، ويرفضـون ادارة ممتلكاتهم بشكل جماعي، وعندمـا يختصمون بين بعضهم بعضاً، وعندمـا تصطدم قواتهم يهلكون، لكـن غيوفري كان رجـلاً جديراً بالاعجـاب، كرّس نفسه لـلأعمال العسكرية، وكـان بالوقت نفسـه عالي الثقافـة، فصيحاً جداً بين رجـال الدين والعلمانيين، ومع أنـه عانى كثيراً على أيدي رجالـه، كان يتمتع بشعبية كبيرة لدى الجميـع لأنه أنجز أعمال الحصول على نورماندي.

وأعتقد أنـه يكفي الآن ماقيل عن أفاعيل وأعمال كونتـات أنجو، وإذا بـدا لكم أن هنـاك المزيد إلى جـانب مـاقلنـاه (وأعتقد أن هنـاك الكثير) عندها اسألوا من يعرفهم أحسن.

القسم الثاني

غيوفري بلانتغنت

١١٥٤-١١٢٨

تـزوج في سنـة ١١٢٨ غيـوفـري الجميل من مـاتيلـدا الامبراطـورة المتكبرة، وكـان قـد لُقب بـلانتغنـت لأنـه وضع قشـة مكنسـة في قبعتـه (غنت=مكنسـة)، وكان سيصبـح بعد قليل كـونت أنجـو، أمـا ماتيلـدا فكـانت ابنـة هنـري الأول ووريثتـه المسماة، وكـان هنـري الأول ملكـا لانكلترا ودوقاً لنورمـاندي، وعندما توفي هنـري في سنة ١١٣٥، استولى ابن اخته ستيفن أوف بليوس على المملكة الانكليـزية، وتحارب بيتا أنجو وبليـوس خـلال التسع عشرة سنة المقبلـة من أجل السيطـرة على انكلترا ونـورمانـدي، وزكـزت ماتيلـدا جهودهـا على المملكـة، وركز الكـونت غيـوفـري جهوده على الـدوقيـة، وقـد أصبح دوق نـورمانـدي في سنـة ١١٤٤، وفي سنـة ١١٥٣ أجبر الملك ستيفن على القبـول بـالاعتراف بهنـري ابن غيوفـري وماتيلـدا، ولياً لعهـده ووريثاً لـه في حكـم انكلترا ويبـدأ القسم الثـاني بترجمة غيوفـري بـلانتغنت، العاليـة الاطـراء والتي كانت في يـوم من الأيام منمقـة جداً، وكتبت هذه الترجمة في حـوالي سنة ١١٧٠ من قبل جـون أوف مـارموتيير، وهي مليئـة بصـور للفروسيـة، وبأفاعيل جـريئة، وكانت الغايـة منها ارضاء هنري الثاني ابـن غيوفري، وأظهـر بـالمقابل هنـري رئيس شمامسـة هنتنغـدون بـالمقارنـة قليـلاً من التصورات والمواقف السياسيـة المسبقة، في كتابه «تـاريخ الانكليز»، وقد اكتمل سنـة ١١٥٤، ووصف في كتـابـه هـذا بشكل حي سمات ستيفن

الحسنة وكذلك السيئة، وبذلك أعاد حكمه إلى الحياة.

من المعروف بشكل جيد لكل انسان أن العرق الأنجيفي قد ازدهر في ظل حكام ذوي معنويات عالية ويحبون الحرب، وقد حكموا الشعب المحيط بهم بالرعب، ولاخلاف حول حقيقة أنهم تولوا جميع أعمال التدمير التي أمكنهم القيام بها والتي عانى منها جيرانهم، وبذلك أخضعوا البلدان التي من حولهم، وبالنسبة لحكام أنجو الذين رأوا أن حكم أنجو لايكفيهم، اعتمدوا وسيلة الحرب للحصول على مناطق تور، وذلك عندما لحقت الهزيمة بأودو صاحب شامبين على يدي الناجح فولك، الذي لقبه «نيرا»، وفي معركة بري Braye هزم الكونت ثيوبولد بن أودو هزيمة ماحقة، وأخذ أسيراً بموجب شريعة الحرب، فمن هذه الجبلة الرائعة من الأمراء جاء غيوفري، الابن الواسع الشهرة لفولك، ملك القدس.

وفي الحقيقة امتلك غيوفري كلّ سمات الشهرة(٧)، وكان جديراً بالمدح والثناء، فكجندي حصل على أعظم الأمجاد، واستفاد مثل ذلك من حظه الحسن، ومما بذله من جهود، وقد أوقف نفسه على الدفاع عن الجماعة ومساعدة الفنون الحرة ورعايتها، وبذل جهوداً كبيرة لأن يحب عن جدارة، وكان شريفا مخلصا لجميع أصدقائه، ولم يكن فقط عظيما في أعين العالم على اتساعه، بل كان موضع ثقة أكثر من البقية، وكانت كلماته دوما جيدة ولطيفة وفيها مداعبة، وكانت مثله موضع اعجاب وقبول، وكان متفوقاً في الجدل حول قضاياه، وامتلك معرفة جيدة حول العصور القديمة، وبما أنه كان مثقفا، كان بإمكانه أن يتذكر تماما ليس فقط ماحدث في موطنه بل أيضا الحروب والأفاعيل في جميع بلدان الخارج.

ولم يكن متميزاً بشكل استثنائي ببراعته في فنون الحرب فقط، بل أعاد بعد تحديات عظيمة إمارته إلى السلام، وشعبه إلى الحياة الهادئة، وكان هذا الرجل جندباً عملاقاً، وكان، كما قلت، الأكثر براعة وذكاء في معاملاته المباشرة، وكان متعلماً بشكل استثنائي، وكريماً نحو الجميع، وطويلا في بنيانه الجسدي، وجذاباً له شعر أحمر، فقد كان الأب لكونتيته وموضع فخارها.

وكان منحمساً حول البراعات العسكرية، شديد التدقيق في عدالته، كما أنه حبي بكل السمات الطيبة والعادات الحسنة، ولم يكن أقل شأناً في أي مجال من المجالات، من أي واحد من الأمراء العظام في أيامه، وكان محبوبا من قبل الجميع مع أنه تحمل كثيرا من المشاكل من رجاله، وحيث أنه كان ذكيا وقوي الأخلاق لم يسمح لنفسه بالفساد عن طريق الغلو أو التراخي في أيام مراهقته، بل أمضى وقته راكباً حول كونتينه، لينجز براعات رائعة، وتحدث عن نفسه قليلاً، وكذلك عن أعماله، وكسب بهذه الأعمال لنفسه محبة الجميع، وقذف بالرعب في قلوب أعدائه، وكان لطيفاً وكريما، وامتلك نفسا رقيقة، ورحيمة نحو رعيته، وتحمل الإساءات والأذى برباطة جأش، وعندما كان يسمع بنفسه توجيه الاهانات إليه في كثير من المناطق، كان يخفي بصبر ماشعر به، وكان بشكل استثنائي أنيساً ومرحا نحو الجميع، ولاسيما نحو الجنود، هكذا كانت محاسنه وكرمه حتى أن الذين أخضعهم بالقوة، تغلب عليهم بالرحمة حسبما أنا مقبل على روايته في الحكايات التالية

سنة ثمان وعشرين ومائة وألف

عندما أصبح غيوفري في الخامسة عشرة من عمره، أنهى بذلك

طفولته، وبات أشبه بوردة في أول تفتحها، وانتشرت أخبار واشاعات، تبرهن فيها بعد أنها صحيحة بوساطة وفرة من البراهين، تحدثت كلها عن طاقات الشاب في الطول والعرض، حتى وصلت أخبار اسمه وسمعته الشهيرة إلى مسامع الملك العظيم والممجد هنري الأول ملك انكلترا، وكان الملك على معرفة واضحة أن أجداد الشاب كانوا متميزين، وأنهم نبعوا من جبلة كريمة قديمة، وكانوا مستقيمين في عاداتهم وبارعين في فنون الحرب، وسمع أن الشاب لم يكن مستثنى من هذا، بقدر ماسمح العمر بالحديث، وقرر الملك أن يربط فيها بين ابنته الوحيدة ماتيلدا، أرملة الامبراطور هنري الخامس، وبين هذا الرجل الشاب بزواج شرعي.

وبناء عليه جرى ارسال سفراء فوق العادة ليتفدموا باسم الشاب غيوفري بطلب الموافقة من أبيه فولك الخامس، كونت أنجو، ولإخباره بإرادة الملك، وكان هذا الرجل حكيما ومتيقظا في كل المسائل، ولهذا عامل المندوبين بتشريف، وعن طواعية وعدهم بالموافقة المؤكدة على المطلب الملكي، وقدم العهد وعقد الميثاق وثبّت ذلك بالأيمان، مزيلاً بذلك كلّ آثار للشك(٨)، ووافق الكونت، بناء على تعليمات الملك، على ارسال ابنه، الذي لم يرسم فارساً بعد، أن يرسله بشكل رسمي إلى روان في أحد الشعانين المقبل، من أجل أن يرسم فارسا مع آخرين من العمر نفسه، وسط احتفال ملكي، ولم تكن هناك صعوبة في الترتيب لهذا، فالمطلب الحق حظي بالموافقة السهلة.

وهكذا، بناء على موافقة أبيه، انطلق الصهر المقبل لملك انكلترا، نحو روان مع خمسة بارونات هم: جاكولين أوف ميل، وروبرت أوف سيمبلانكي، وهارودين أوف سينت مارس، وروبرت أوف بلو، وباين أوف كليرفيل، وخمسة عشر من أبناء جيله، وذلك بصحبة كثير من الفرسان، والاشاعة دوماً سباقة، هكذا أعلنت عن وصول ابن الكونت إلى عند الملك، وفرح هنري الأول بما قيل عن وصول غيوفري، وبعث

بعضاً من أعلى النبلاء مكانة لديه بمثابة ممثلين له، وليصطحبوا الرجل الشاب إلى الحضرة الملكية بالحفاوة اللائقة والرعاية، ودخل غيوفري إلى القاعة الملكية محاطاً برجاله وبرجال الملك، مع حشد من الناس العاديين واقفين من حولهم، أما الملك الذي اعتاد ألا يقف لأحد، فقد نهض وذهب لاستقباله وأمسكه بحنان وعانقه بعاطفة، وأعطاه قبلة صغيرة، وكأنه كان ابنه، ثم أمسك غيوفري بيده وأصرّ عليه أن يجلس إلى جانبه، وتحدث الملك حول مختلف الموضوعات مع الرجل الشاب وطرح عليه عدداً من المشاكل، ليكتشف كم هي حكيمة ردات فعله أثناء الحديث الخاص، وأجاب غيوفري بإحكام، لكن كما هي عادة العقلاء زين كلماته ببلاغة معروفة إلى قلة، أما الملك الذي ازداد عمق اعجابه به لحظة تلو الأخرى، فقد سر سروراً عظيماً بحكمة الشاب وبأجوبته، وهكذا مضى اليوم كله بسرور وانشراح.

ومع اقتراب حلول اليوم التالي، استعد غيوفري للحمام الطقوسي، حسبما تطلبت العادة من الرجل الشاب الذي كان على وشك أن يصبح فارساً، وعندما علم الملك من حجابه بأن الأنجيفي والذين جاءوا معه خرجوا من الاغتسال، استدعاهم إلى حضرته، وبعدما طهر الشاب جسده، جرى لف هذا النبيل المنحدر من كونت أنجو بقطع من الكتان الصفيق، ثم وضع عليه ثوباً طقوسياً حيك بالذهب، وارتدى فوقه رداء صبغ باللون القرمزي المستخرج من محار المرّيق، وارتدى زوجاً من الأحذية طرزا بأشكال أشبال، أما رفاقه، الذين كان من المتوقع تلقيهم منحة الفروسية، فقد ارتدوا مثله الكتان والقرمز، وتزينوا بشكل بهي حسبما وصفت، وخرج الصهر المستقبلي لملك انكلترا من الغرفة السرية إلى أمام الناس، وكان محاطاً بجمع النبلاء من بلاده، مشرقاً مثل زهرة اللوتس، ومغطى بالأحمر مثل وردة.

وأخرجت الخيول، وجلبت الأسلحة، ووزعت على كلّ واحد حسبما

هـو لائق، وجلب إلى الأنجيفي حصـان اسبـاني، رائع المنظـر والـزينـة، ومشهـوراً أنه يسبق كثيراً مـن الطيور عنـدمـا يعدو، ثم وضـع عليه درعـاً لانظير له، بطانتـه مزدوجة، لايمكن خرقه لابرمح ولابحـربة، ولبس زوجاً من الأحذيـة الحديديـة المدعمة بتسميكتين من الـزرد المقوى، وربط على قدميه مهمازين مـن الذهب، وحمل ترساً مغطى بصـور أسود ذهبية، ودلاه من على رقبتـه، ووضع على رأسـه خـوذة مـرصعـة بكثير مـن الأحجـار الكـريمة، وكـانت عاليـة الجودة بحيث لايمكن تحطيمها بحـد السيف، وأحضر إليه رمح طويل من خشب الدردار ولـه سنان فولاذي، وآخر شيء حمل له سيف من الخزانة الملكيـة، وكان محفوظاً بها منذ زمن بعيـد عندما صنع بعناية من قبل المعلم ويلاند Weyland.

وبعدما تسلح هكذا، انطلق إلى الأمام جندينا الشاب الذي كان زهرة الفروسيـة، واندفع مسرعـاً بشكل متوازن، وبهي في عـدوه، ثم ماذا يمكن أن يقال أكثر؟ وكرّس ذلك اليـوم لمجد وشرف الحملة الأولى، وأوقف كلية على ممارسة الألعاب العسكريـة، ولبلوغ المجد الجسدي، ولمدة لاتقل عن سبعة أيام استمرت احتفالات الحملة الأولى الرائعة للفروسية في البلاط.

ومـرة أخـرى، جـرى ارسـال الـرسـل إلى فـولك الخامس أوف أنجـو، لإعلامه هـذه المرة بوجوب ذهابه إلى لامانس، وأن يكـون هناك بعد مضي ثمانيـة أيام مـن أحد الشعـانين، لـلاحتفال بـزواج ابنـه بشكل لائق، ولم يتأخـر فـولك، بل وافق مسروراً، ووصل حسبما أمـر بأبهة عظيمـة، وكـان موجوداً باليوم المحدد والمكان المقرر.

وانطلق الملك هنـري الأول، ملك انكلترا مـن روان ومعـه ابن فـولك وابنتـه الامبراطـورة (لأنها كـانت زوجـة الامبراطـور) ووصـل أيضـاً إلى لامـانس في اليـوم المحـدد، وتقـاطـر النـاس من جميع الجهـات وتجمعـوا لشهود قـداس الزفـاف، الذي سيتـولى عقده رؤسـاء أساقفـة، وأساقفـة، ورعاة ديرة وكهنة من جميع المراتب.

وهكذا أعطيت ابنة الملك برباط الزواج إلى ابن كونت أنجو، وحصل الأساقفة على موافقة الزوجين المتبادلة على الزواج، لأن كلّ قوة الزواج وفعاليته موجودة في الموافقة، وفي الحقيقة الموافقة هي التي تصنع الزواج، ووافق الاثنان، ووعد كلّ منهما بالاخلاص للآخر، الذي كانوا على وشك زفه، واحتفل بعد ذلك بقداسات مباركة لزواجهما.

وكان هناك سرور وسط رجال الدين، ورقص من قبل الناس، وصرخات شكر من قبل الجميع بلا استثناء، سواء منهم: الأجانب أو المحليين، والأغنياء أو الوسط أو الفقراء، النبلاء أو العامة، والجنود أو الفلاحين، لقد انغمروا جميعاً في سرور عام، وكلّ من لم يهتم بالاحتفال ويشارك به، بلا شك نظر إليه على أنه خائن، وأمضى الرجال والنساء الاحتفال بالزواج في تناول مختلف أنواع الأطعمة، واستمر الاحتفال بالزواج لمدة ثلاثة أسابيع بلا انقطاع، وعندما انتهى لم يغادر أحد من الحضور بدون هدية.

ثم ترك هنري الأول صهره وابنته وودعهما بقبلة سلام، وحول انتباهه نحو مسائل أخرى، وعاد الكونت فولك مع الزوجين إلى أنغر، وعندما كانوا مايزالون على بعض المسافة منها، سارعت المدينة بأسرها للاستعداد لاستقبالهم، وصدرت التعليمات بالزينة، وزينت جدران الكنائس بالتعاليق والأغطية، وخرج رجال الدين في موكب ولاء لاستقبالهم، وهم يرتدون الألبسة الكهنوتية والشارات الطقوسية وبأيديهم الشموع، والكتب، والصلبان، ويغنون التراتيل وأناشيد الحمد، واستقبل السيد الجديد والسيدة من قبل الكهنة والشعب برقصات مهيبة، وعاشا بعد ذلك بهناء، وشرفا جزيرة بريطانيا العظمى والأجزاء البحرية الأخرى بإنتاج وريث رائع [هنري الثاني المستقبلي].

ومنذ أن ارتقى والد غيوفري إلى مملكة القدس حسبما وصفت من قبل، أوقف الكونت الشاب وقته على إجادة استخدام السلاح، والنضال

في سبيل المجد، وقبل مضي وقت طويل جرى تسمية أحد الأيام م أجل مباريات مبارزة بين النورمان والبريتانيين فوق ربوة رملية مناسبة، وجاء إلى مساعدة النورمان ووقف إلى جانبهم: وليم كليتو كونت فلاندرز، وثيوبولد كونت بليوس مع أخيه ستيفن لورد مورتين، الذي سيكون الملك المستقبلي لانكلترا، وكان هؤلاء الثلاثة أبناء أخت لهنري الأول ملك انكلترا، وقابلهم الكونت وزاد تعدادهم، واصطف الطرفان المتنازلان، ووقف هناك صف البريتانيين، خفيف التسليح، سريع الانتباه، لكن قليل بالعدد.

وعندما رأى غيوفري أن تعداد القوات البريتانية التي تجمعت كان قليلاً، انفصل عن الحشد الكبير وقدم خدماته للبريتانيين، واحتشدت القوات واشتبكت الصفوف بالقتال، وكان هناك قراع كبير بالسلاح، وزعقت البوقات، وترددت أصوات النفير بنغمات كثيرة في حين زمجرت خيولهم بأصوات مختلفة.

ولمع مونت سينت مايكل نفسه بأشعة الشمس التي عكستها ترستهم الذهبية، وكان الرجال كأنهم رجل واحد في المبارزة، وتكسرت رماحهم وتحطمت سيوفهم، وانرضت الأقدام بالأقدام، وانكدمت الأكتاف بالأكتاف، وفرغت ظهور المطايا من شاغليها وألقى بالخيالة أرضاً، وأما الخيول التي رمت بركابها، وقطعت مقاودها، فقد جرت على غير هداية وهي تصهل، وسيطر الرعب على المتصارعين بشكل واضح، وطلب غيوفري خصومه وقاتلهم، وكان يركض إلى الأمام وإلى الخلف، يرمي بالحراب ويلوح بالسيف، وقد حرم أعداداً كبيرة من حياتهم، واستمر البريتانيون يضغطون وكلهم أمل بالنصر، وكان الكونت يشق لهم الطريق ويقودهم، وقد أوقعوا كثيراً من القتلى في صفوف عدوهم، وضغط الأنجيفيون بحدة أعظم من حدة الأسد، وتقدمت صفوف البريتانيون وهي تضغط نحو الأمام، وكانت واثقة من النصر، ولحق

الإعياء بـالنورمـان نتيجة للصراع الكبير، فأبدوا ظهـورهم وأخذوا بـالفرار، وهكذا هُـزمت الأكثرية من قبـل الأقلية، وأرغم النورمـان على اللجوء إلى معسكرهم، وهنا عنـدما شعروا بالهلع نتيجة الفوضى غير المتـوقعة اقترحوا على البريتانيين اللجوء إلى المبارزات الفردية.

وعنـدما وصلت أحـاديث المبـارزات إلى مـاوراء البحر، وصل جنـدي سكسوني هائل البنيـة، وقد منحت قوته وجرأته النـورمان الاطمئنان بنيل النصر، وتقـدم هذا الجنـدي من المعسكر النـورمـاني، وكان أطـول من أي انسـان آخـر بشكل واضح جـداً، واتخذ لنفسه مـوقفـاً في مكـان واضح، وتحدى صفـوف البريطانيين في أن يتجـرأوا على تسميـة رجل يستطيع أن يـلاقيـه في مبارزة فـرديـة، وامتقعت وجـوه الـذين أصغـوا إليه وعـلاها الاصفرار، وتلاشت القـوة واختفت من صدور الرجال الشجعـان، وخافوا على الانسان الذي سيخرج لمبارزة مثل هذا الوحش الهائل.

وراقب غيـوفـري هـؤلاء الـرجال الشجعـان، وقـد تحولـوا إلى ضعفـاء يصرخون بـالويل والثبور عنـدما كانوا يـدعون شخصياً إلى المبـارزة، وهنا صرخ بشكل مخيف، ورفض تحمل مثل هذا العذاب والاهانة والتحديات التي كـانت تأتي متـوالية، فـامتطى فـرسـه، وحمل سلاحـه، ومضى نحـو النـزال أمام الحشـد الـذي وقف يراقب مـايجري من جميع الجوانب، لقـد توجـه ليبارز ذلك الجندي العملاق، وكـان القتال قاسيـاً، فقد حمل ذلك الانسـان، الذي فـاقت قـواه قوى الانسـان العـادي، رمحاً اسطوانتـه مثل جذع شجـرة، وعندما كان يقـاتل الشاب الأنجيفي خرق تـرس الكونت مع لأمتـه، لكن دون اراقـة كثير من الـدمـاء، غير أن بطلنـا ظلّ ثـابتـاً لم يتزلزل، وكأنه متجـذر على ظهر فرسه، وقام برمي خصمـه بحربة فصرعه، ومن ثم وقف فـوق جثة عـدوه فقطع رأسه بسيفـه، واقتاد فرس الـرجل المهـزوم بيده المنتصرة، وبـاستحواذه لغنيمـة حربـه هذه، جلب العـار إلى النـورمان والفخـار إلى رجالـه، وطار خبر نصره وانتشر في كلّ مكـان، ومن

عـادة النبـلاء الأشرار أن يغـاروا من الـرجـال المستقيمين، ولهذا قـالـوا: صحيح أن غيوفري هو صهر الملك، غير أنـه لايشعر بالأمان إلاّ بين رجاله حيث لايخشى من الوقـوع بالأسر، ولهذا السبب نجـد أن الفارس الأصيل والممثل الحقيقي للفروسية طلب الحصول على حـلاوة الشهرة، وكان تواقاً للريـاضة، لـذلك نشد المبارزات في فـلاندرز، ونـاضل في سبيل الحصول على فـرص يحقق فيهـا أعمالاً عظيمـة، فقـد كـان يـرغب بـالمديح وكـان يستحق ذلك.

وكان غيـوفري يتمتع بـالصيد عنـدما كـان الوقت يسمح لـه، وكانت هـذه الممارسـة مفيـدة ومتـوفـرة للبعض وفيهـا خـلاص من الاهتمامـات الثقيلة، وتعيـد الانسان متحرراً وكأنه ولـد من جديد، وهـو —فضلاً عن ذلك— مستعد للقيام بالواجب، وكـان الصيادون يدخلون إلى الأحراش، ويطلقون كلابهم الذكية حسبما جـرت العادات، وكانت الكلاب تتبع أثر الحيـوانـات بشم بقايـا روائحهـا، وهكـذا كـانت تعثر عليهـا بسرعـة من الصعب تصديقها، كما كانت تقود الكونت بوساطة عوائها.

وأسرع الكـونت هذه المرة ليجتـاز الممرات الملتـويـة والدائريـة وليبقى قـريباً من كـلابه الملاحقـة للصيد، وقـد تسلق أسرع الطرق، لكن بـدون حظ، لأن الحيوان الـذي أمل أنه اقترب منـه بوسـاطة كـلابه، أرغم على الفـرار باتجاه مـا، وفي هـذا الوقت مع أنـه اعتقـد أنه مـايـزال قريبـاً من مرافقيـه أكثر منه من كلابـه، كان في الحقيقة بعيداً عنهم كثيراً، وكـان تاه اليوم كلّه وأمضاه بحثاً، فلـم يعثر لا على رفـاقه ولا على كلابه، ولم يرهم في أيّ مكـان، وأخيراً، والشمس قـاربت على المغيب رأى عن بعـد فـلاحـاً وسط بقعـة غير مزروعـة، وكـان الرجـل مغطى بالسخـام، وارتـدى ثيابـاً سوداء غطت جسده حتى حقويه، وكانت حـرفته ظاهرة مما ارتداه، وكان يشقى في صنع الفحم للصنـاع، ولهذا السبب كـان وجهـه وكانت ثيـابـه كاسبة لهذا اللون.

وعندما رآه غيوفري لم يزدره بحكم كونه رجلاً ثرياً، وله مكانة عالية، بل تصرف تصرف رجل عارف، رجل يعاني من الوحدة، وهكذا ندب سوء الحظ، متذكراً ماقاله ذلك الرجل القديم: «بعرق جبينك تأكل خبزك».

وحياه غيوفري بكلّ لطف، وسأله: «هل يمكنك أيها الرجل الطيب اخباري عما إذا كنت تعرف الطريق الذي يقود إلى القلعة في لوشي»؟.

ورد عليه الرجل: «لو أنني لاأعرف، لما كان بإمكاني أخذ فحمي إلى هناك دوماً لبيعه».

وقال الكونت: «بناء عليه، خذني أيها الصديق العزيز معك في طريقك إلى الطريق الرئيسي، قبل أن أضيع تماماً في هذا المكان المنعزل وسط الأحراش».

وأجابه الفلاح بقوله: «أنت يامن تمتطي حصاناً لاتعاني من مشكلة اطعام نفسك، وكساء جسدك، لكن إذا توقفت أنا عن العمل سأموت وستموت أسرتي معي».

فأجابه قائلاً: «أرجوك تعال بدون تأخير، وخذني إلى حيث سألت، ذلك أنني سوف أدفع لك ثمن رحلتك».

ثم نظر الرجل إليه بشيء من الريبة، وتمتم قائلاً: «لاأدري أيّ قدر سماوي حلّ بي»، ثم انحنى وقال: «إنني لن أخاف مما سيحل بي، ولسوف أذهب معك، إلى حيث تأمر».

وعانقه الكونت بسرور، وطلب منه أن يركب خلفه فيكون رديفه على حصانه، وتولى الفلاح بكلّ سرور وضع الكونت على الطريق الذي كان يبحث عنه، ولم يستغرق ذلك وقتاً طويلاً، وكان طوال الطريق يتأمل تواضع هذا الرجل النبيل، ووداعته الرائعة.

لكن تبع ذلك أشياء أخرى:

فقد افتتح الكـونت حواراً لطيفـاً مع الفلاح، وكـان بين ماسألـه عنه: «ماالـذي يقوله النـاس عن كونتنـا؟ أخبرني أيها الصديق الطيب، وكيف يرون النبلاء ويقوّموهم، وماهي مواقف الرأي العام»؟.

وأجابه الرجل الآخر قـائلاً: «فيما يتعلق بالكونت، والأشياء التي وقعت في حضوره، لانقول، ولانشعـر بأي سوء نحوه، لكن ياسيدي مـانعاني منه هو عدد من الأعـداء الذين هو ليس على دراية بهم، والأشـد سوءاً بينهم، هم الأكثر خفاء وسريـة، لأنه ما من عدو من الصعـب الاحتراز منه، وهو جـاهـز لـلايـذاء، مثل العـدو الـداخلي، ومثل هـؤلاء نحن لانتجـرأ على مقاومتهم».

وقـال الكـونت: «لكن هل مـن الممكن لمولانـا الكـونت التغلب على آرائهم، أو التخلص منهم»؟.

وأجابـه الرجل: «يمكنه أن يفعل العملين، يمكنه فعل ذلك يـاسيدي إذا لم تنفذ هذه الأفاعيل الشريرة تحت ستار تقديم الطاعة له».

فقال له الكونت: «أخبرني بعنايـة أكبر حول هؤلاء الأعداء، وأوضح لي أفـاعيلهم الشريـرة، فلعلي حينما يحين الـوقت، لن أكـون صـامتـاً أمـام الكونت». فأجابه:

«ياسيـدي إن الذين يتـولون ظلمنـا هـم الكتاب والحجـاب والعاملين الآخرين لدى مولانا الكونت، فكلما جـاء إلى إحدى قلاعه، يستولي عماله على كثير من البضـائع على أساس السلفـة أو الـدفع فيما بعد، ويأخـذون كلّ مـايجدونـه بـدون سؤال أو تسعير، ويظـلّ الباعـة صـامتين، ويغـادر الكونت، فيطـالب أصحاب الـديون بالـدفع، وهنا يـاسيدي من المؤلم أن أذكر، أنهم إما ينكـرون كلية حصولهم على أيّ شيء أو يسوّفـون ويؤجلون الدفع حتى يقبل أصحاب الديون بكلّ سرور بنصف مالهم من مال».

ثم قـال بطلنـا وهـو يبتسم للفـلاح، ولكن وهـو أيضـاً يخفي الغضب الذي كان لايمكنه منع نفسه مـن الشعور به وأنه غذي بشكل وحشي إلى هـذه الدرجـة: «لكنهم يمتلكـون أراضي خصبة لـلاشيء هـؤلاء الرجـال الـذين اغتصبوا مـاهو حق للكـونت، وجعلوه يعيش دون أن يـدري على السحت، ثم أضـاف يقـول: سـلام، سـلام، لكن لاسـلام حيث الأرض عيث بها إلى هذه الدرجة من السوء من قبل الأعداء الداخليين».

وأخبره الفلاح: «لكنك ياسيدي لم تسمع كلّ شيء بعد»!.

وقال غيوفـري: «أنا سوف أستمع بسرور إلى كلّ شيء، اشرح كلّ شيء بعنـاية ولطـف وعدل، لأنني أحب الكـونت، ومن المفترض على أسـاس صداقتي له، سوف أخبره بكلّ تأكيد بما يفعلونه».

وتـابع الفـلاح يقـول: «لعلـه بفضل ارادة الـرب أن حـدث ولقيتك لأسمعك اليوم مالايمكنني شخصياً أن أخبر بـه الكونت، وهذا لن يخفى عن الكونت بوساطتك، ولهذا استمع ياسيدي، لكن ليس لما هو أسوأ:

بعـد جمع المحـاصيل، ينطلق وكـلاء الكـونت إلى القـرى، وبـالنسبـة للقـانـون الجديد نجـدهم يفـرضـون على كلّ فلاح حصـة يحصلـونها من محصـوله بكلّ عنف، ثـم —ومرعب أن نـروي— يطلب هـؤلاء الرجـال جزئاً من ستة عشر من المحصول، أو يطلبـون من أحدهم جزئين من ستة عشر، أو من بعضهم أكثـر إذا مـااستطـاعـوا التحصيل، وإذا مـاصـدف واعترض أحد الناس على هـذه الفريضة، يجر إلى المحاكمـة، ويعذب من قبل أتباع الوكلاء ويحاكم، ويتهم بجرائم مزيفة، وهكذا مامن أحد ينجو من الأيدي الجشعـة للقضاة الأشرار، حتى يفلس، ويـأسف أن جهوده لم تصمد أمام هؤلاء الذين يحفظون القانون».

وفكـر الكونت وردد في قـرارة نفسـه: «ليلحق الشر بـالذي أوجـد مثل هـذه القوانين»، ثم رفع صـوته وهـو يقول: «الانتقـام هو عملي، وسأنـزل

العقاب بهؤلاء قبل مضي وقت طويل»، ثم تابع يقول:

«أخبرني المزيد، ولاتبق شيئاً لديك، ماذا لديك أيضاً لتسمعني عن هؤلاء الرجال المشهورين؟، وهل يعلم الكونت بهذه الأعمال الشريرة»؟.

وأجابه الفلاح: «إنه لأمر مدهش كيف أنهم استطاعوا ياسيدي اخفاء هذه.الأعمال عن مولانا الكونت، مع أنهم يفعلونها بحضور الجميع، مالم تكن العادة الرائجة أن يكون السادة آخر من يعلم بما يجري في بيوتهم، وسأضيف حدثاً آخر لما تحدثت عنه، ثم سأوقف حكايتي، مالم أكن أسبب أذى إلى مسامعك اللطيفة»؟.

وقد قال ذلك بنبرة اعتذار ريفية.

ورد عليه غيوفري قائلاً:

«قل ولاتخف أبداً، فما من أحد يتكلم ببيان أوضح ممن يتحدث بالصدق، ويروي الحقيقة».

وتابع الفلاح حديثه قائلاً:

«عندما تسمع بعض النذر باقتراب وقوع حرب، سواء أكان ذلك صحيحاً أو مخترعاً من قبلهم، يرسل هؤلاء الوكلاء وقتها رجالهم للقيام ببذل جهود عظيمة في نشر الاشاعة، ويقومون بوساطة الاعلانات والأوامر العامة التي يذيعها المنادون بحشد الفلاحين من جميع الأجزاء لملأ القلاع بهم، بحجة تأدية واجب الحراسة، وبذلك يتركون الأرياف مهجورة، ثم يقوم أتباعهم فيبعثون بشكل سري فيستدعون بعض الأفراد، ويظهرون لهم أسفهم لما لحقهم من خسارة، وكأنهم لايريدون سوى مواساتهم دوماً، ثم يشجعون الفلاح للقيام بشراء أذن بالعودة من الوكلاء عن طريق عرض بعض الهدايا وتقديمها بشكل سري، ويعرضون ذلك وكأنه نصيحة جيدة، وكان بالنسبة لكلّ رجل سمح له بالعودة عدد آخر، من

الفـلاحين التعسـاء، المثقلين بـالـديـون ولايمتلكـون سـوى دريهات فيقـرضونها لآخـرين وبذلك يـرغمون على البقـاء بالقـلاع، هؤلاء هم يـا سيـدي الذين تتأثـر الأريـاف بهم بكل مرارة ، والـذي يشقى في السلم مثله في سـوء الحظ مثل الذي يمـوت في الحرب» وأكمل الفلاح حـديثه وقال كل هذا عندما أخذوا يدخلون إلى البلدة.

وينبغي عـدم تجاوز الاشـاعـات التعيسـة التي ازدادت أثنـاء غيـاب الكـونت، ففي بلاطـه سأل كلّ انسـان الآخر عن غيـاب غيوفـري، وأين يمكن أن يكـون، ومامن واحـد أجاب بـأخبار طيبـة، ومع حلول الظـلام تعاظمت أحزانهم كثيراً، وتـوقف الجميع عن الحركة بأعين مرعـوبة محدقة بـالطريق التي اعتـاد أن يعـود عبرها من الغـابـة، وفجأة وصل الشخص الذي طـال انتظاره، وقـام بسرور بتقديم التحيـة لأول رجل التقاه، حسبما كـانت عادتـه، ولـدى ملاحظـة ذلك الـرجل صوت الكـونت لم يستطع اجابـة تحيته لسروره، ولأنه ركض أمامـه وهو يصرخ بكلّ ماأوتيـه من قوة بأن الكونت قد عاد، وكان يشير إليه.

ثم لاحظ الفلاح وعرف الشخصية التي كـان يقودها ويتحادث معها، فاقتنع أنـه لم يعد بإمكـانه البقاء رديفـا للكونت، وهكـذا حاول فجأة أن يقفز نحو الأرض، وأدرك الكـونت مايجري وتنبه له فأمسـك به وهو يحاول النزول، وقال وهو يبتسم:

«هل يتـوجب عليّ هكـذا العمل للتخلص من الـدليل الـذي تمكنت بمسـاعدتـه من العودة إلى شعبي؟ إن هـذا لن يكون»، والجماهير تتـدفق حوله من كلّ جانب، حمل الفلاح ووضع عاليا على ظهر حصان الكونت سواء أراد ذلك أم لم يرده.

وجاء وقت المائدة، وكـان الفلاح قد غير مـلابسه وارتدى ثيابـاً فخمة زوده بها الكونت، وجلس الفـلاح وسط الرجال القياديين لـدى الكونت،

وجرى تكريم الفلاح وتبجيله بتقديم أفخر الصحون له، لقد تناول الفلاح طعامه بآنية ذهبية، أما المغامرة التي واجهها الكونت فقد تولى روايتها الفلاح وكذلك الكونت.

وعندما عاد الكونت من القداس في اليوم التالي، أمر باحضار دليله، وخاطبه قائلاً:

لقد حررتك وحررت ورثتك من جميع الضرائب والخدمات، وأمرت بأن تكون رجلاً حراً، حراً في كلّ مجال، وبناء عليه عد إلى أسرتك ومارس الحياة الهينة التي ترغب بها، وما ان أنهى خطابه حتى أمر بمرافقة الرجل إلى حيث كان يقيم.

وبات الكونت متفوقاً على الجميع لأنه جعل واجبه حماية الضعفاء، وسأعرض الآن أمامك مثلاً عن الطريقة التي عرف بها كيف يخضع الأقوياء.

وكان الكونت ثيوبولد الثاني صاحب بليوس وشامبين رجلاً مشهوراً، وكان من أغنى الفرنسيين في أيامه، وكان مستقيماً تماماً وخالياً من اللوم، وفي داخل دويلته كان وليم كونت نافار وهيو صاحب كوسني Cosne ، الذي يعرف بلقب مانسيو Manceau في خصام دائم فيما بينهما، مع أن ثيوبولد كان يدعوهما دوماً، ويعرض خلافاتهما أمام محكمته، وأخيراً قام ذلك الشرير صاحب نافار، الذي فضل أن يهزم عدوه بالقوة وليس باللجوء إلى القانون، بالفرار من بلاط ثيوبولد.

كان في تلك الأثناء لويس السادس ملك فرنسا يسعى بهدوء نحو تمتين سلطانه بتوجيه من سوكر راعي دير سانت دينس(٩).

وفي خلال الصراع الطويل والمستمر الذي تلا ذلك طلب كونت نافار

مساعدة ملك فرنسا لويس السادس مع مساعدة أسقف أوتون Autun وساق هـذان الرجـلان جيّشين عظيمين وزحفا إلى جـانبه، ذلـك أنه أراد محق عـدوه تمامـاً، وعلى هـذا الأسـاس حشـد الملك والأسقف والكـونت جيوشهم الثـلاثة وحـاصروا هيو في القلعـة التي اسمها كـوسني، ولم يعد أمامه أدنى أمل بالنجاة، طالما أن القـوات طوقته من كلّ جانب، ولم يعد أحد يتمكـن من الدخـول إلى القلعة أو مغـادرتها، وفي حالة اليـأس هذه بعث مانسيو بـرسل إلى الكونت ثيوبولـد ليشرح له المأزق الصعب الذي هو فيـه وليطلب المساعدة، وبدون تـأخير، لوجود خطر كبير بـالتأخير، أمر ذلك الانسـان الجيـد رجـالـه بـالـذهـاب إلى هنـاك، وطلب من جيرانـه وحلفـائه المساعـدة أيضاً، ونشـد بين هؤلاء مسـاعدة غيـوفري صـاحب أنجو، وكان واثقـاً من قدومها، لأنه اعتمد اعتماداً كلياً على مسـاعدة هذا الكونت، ولم يتقاعس بطلنـا، فقد كان دوماً سريعاً جـداً في تقديم العون إلى أصـدقائه، وإذا مـا وعد بتقـديم قـوة كان يفي بتعهـداتـه لأنه كـان صادقاً.

وحشـد غيوفـري كـوكبـة تألفت من مـائة وأربعين فارسـاً من النخبـة والمسلحين بشكل جيـد، وأرفقهم بثـلاثمائه مـن قـوات الاحتيـاط وبـادر مسرعاً بـالتقدم، ووحـد قواتـه مع قوات ثيـوبولـد، وزحف الرجـلان معاً لانقاذ مانسيو المحاصر، لكن أخبـار قرب وصولهما طارت أمامهما ووصلت إلى مسـامع ملك فـرنسا، الـذي قـام بعقلانيـة وحكمـة بـازالة معسكـره والتخلي عن الحصار.

وجعلت كراهية الأعداء كونت نـافار يتأخر ويتقاعس عن الفرار بعض الـوقت، وتـولى على كلّ حـال الكـونت غيـوفري مطـاردتـه، بينما تعـامل الكونت ثيوبولد مع الذين بقـوا، ثم ما كان عليك سوى أن ترى غيوفري النبيل ومعه رفاقه الشرفاء، وهو يحمل تـرسه المزين بصورة أسد، مع أنه في الحقيقـة لم يكن أقل شجاعـة أو حدة مـن الأسد، وطـارد الفارين وكأنـه

صاعقـة عسكريـة، أو توجـه لمساعـدة رفاقـه، فاستطاع أن يفتـك بسيفه ببعض الفـاريـن، أو يلقي ببعضهم الآخـر أرضـاً وهـم مصـابين، فما من واحد من الهاربين نجا دون اصابة بجراحة.

ثم ماهـو المزيد؟ فعندما مات كثيرون، وفـرّ أكثر، أخذ غيوفـري كونت نافار نفسه أسيراً، وسلمه مكتوفاً إلى الكونت ثيوبولد.

تميز كـونتناغيوفري آنئـذ بهذه الفضائل السامية وبتماسك الـذات، فقد كان بإمكانـه بلحظة واحدة أن يكون انسـانياً ورحيماً ولطيفاً ومستقيماً، ثم قوياً شجاعاً متحمساً، فهكـذا كان بإمكانه حقاً أن يحافظ على الضعفاء، ويخضع الأقوياء.

كان في الوقت نفسه فولك صـاحب أنجو، وملك القدس يصطرع في الأراضي المقـدسة ضـد القـوى المتنـامية للمسلمين بقيـادة زنكي، الـذي حكم الموصل منذ سنة ١١٢٧، ولقد أوحت نجاحات زنكي المتوالية أن القدس ربما تسقط، لـولا أن بادر في ثلاثينات القـرن الثاني عشر كلّ من أمير دمشق وامبراطور القسطنطينية إلى مساعـدة فولك. وفي سنة١١٣٦، استدعى فولك ريمـوند أوف بواتيه، وهو الابن الـوسيم والقادر للدوق وليم التاسع صاحب أكوتين، إلى فلسطين، وجعله خطيباً لأميرة أنطاكية كـونستـانس التي كـانت في التـاسعـة من عمـرهـا، وكـان هـذا عمـلاً استراتيجياً هـاماً اعتمدت عليـه مملكة القـدس، فقد توفـرت الحاجة إلى ريموند لتقديم المساعدة لفولك في دفاعه عن الأراضي المقدسة.

بعد مـرور عدة سنـوات، وبينما كان الكونت غيـوفري ينعم بـالازدهار، شن روبرت أوف سابل Sable مع حلفائه الحرب ضد غيوفري.

يتـولى الآن يوحنـا أوف مارمـوتيير ***Marmoutier*** *بالتفصيل وصف الحمـلات الكثيرة التي قـام بها غيوفـري ضـد أصحـاب قلاعـه العصاة، الذين كان بينهم سادة سابل.*

صار روبرت صاحب سابل بارونـاً لجميع المنطقة بوساطة أيمان فاسدة أداهـا له رفـاقـه، حتى إلياس، الـذي كـان آنذاك كـونت مين Maine وهـو أخو كـونت أنجـو، تأثـر بنصائح الـرجـال الشريريـن فقاتل أخـاه، وعنـدما أسر غيـوفري إليـاس، أبقـاه في السجن لأيام كثيرة في تـور، لكن بعدما أطلق سراحـه منه، توفي هذا الشاب، بسبب اصـابته بمرض خطير وهو في السجن.

وأمسك في الوقت نفسـه غيوفري بـالفرصة التي تـوفرت له، فقـام بعد استشـارته لـرجـاله، بـدخول أراضي أعـدائه، مقـدراً أنه من الحكمـة أن يهاجم في أراضيهم، بدلاً من أن يـدعهم يتولون مهـاجمته، وبناء عليـه قام الكونت نفسـه وبصحبته نخبة من فرسـانه مع أعداد كبيرة من الرجـالة، بـالزحف ضـد أولئك النـاس العصـاة والمعادين لـه، وأرغمهم فـوراً على الفرار، وكـذلك أرغم مشاتهم على الهرب، وهنـا خرج رجال روبـرت ضد الكـونت، وهنـا تمنع عن القتـال مواجهـة، ذلك أن قـوات سـابل غيرت أوضاعهـا لدى اقترابه وأقامت عـدداً من الكمائن، وهنا رأى غيوفـري أنه بات من الضروري بالنسبة له أن يعدّ قـواته من أجل القتال، فاستطاع ردّ روبرت أوف سـابل إلى داخل القلعة، وذلك بعدما عـرّض عدداً كبيراً من رجـالـه للموت أو الاصـابـة بجـراح أو السقـوط بـالأسر، وإثر هـذا قـام الكونت المنتصر بالعودة إلى مكانه.

- ٤٣٠ -
سنة اثنتين وثلاثين ومائة وألف

بعد مضي أربع سنين على الزواج السالف الذكر [بين غيوفري وماتيلدا] ولد هنري الابن الأول للكونت غيوفري، وهو سيكون هنري الثاني الملك المستقبلي لانكلترا، وفي السنة الخامسة ولد غيوفري، وفي السنة السادسة جاء وليم.

سنة خمس وثلاثين ومائة وألف

في سنة ألف ومائة وخمس وثلاثين، وفي اليوم الأول من كانون الأول توفي هنري الأول ملك انكلترا،وكان عمره سبع وسبعين سنة تماماً، وجاء موته بعدما أمضى بالحكم خمساً وثلاثين سنة وأربعة أشهر، وحدثت الوفاة في روان Rouen في مكان يحمل اسم ليون —لى— فورت Lyons-La-Foret واحتفظ النورمان بأحشائه، وحمل الانكليز بقية الجسد إلى قبر في دير في ردنغ.

وإثر وفاة الملك هنري اعتلى العرش بشكل غير شرعي ستيفن، كونت مورتين Mortain ، وكان أخاً لثيوبولد الثاني، كونت بليوس وشامبين، وابن أخت للملك المتوفى، وتتوج ملكاً في انكلترا.

ودخل في تلك السنة غيوفري صاحب أنجو، ومعه رجال منتخبين، إلى نورماندي، عازماً على الاستيلاء عليها، لأنها ميراث لابنه.

وفي الوقت نفسه عبرت الامبراطورة ماتيلدا البحر، وبصحبتها كوكبة من الفرسان، ومع أنها امرأة، هاجمت بكلّ قوة ورجولة الانكليز، مصرة على أن ميراثها الشرعي سوف تحصل عليه بقوة السّلاح، وانتشرت الأخبار

بسرعة، ووصلت إلى مسامع الملك ستيفن، وأعلنت أن المملكة باتت في خطر، لأن الامبراطورة أخضعت بالقوة كثيراً من الانكليز، وأعداد كبيرة منهم استسلمت لها على الفور، وأنه مالم يبادر بالعودة مسرعاً إلى انكلترا سوف يفقد تاج المملكة، وقام الملك المرغم بالأخبار السيئة بالابحار مع أكبر عدد من الرجال الذين توفروا له من حشود عساكره.

ثم أعطانا يوحنا أوف مارموتيير رواية مثالية عن احتلال غيوفري لنورماندي [١١٤٢-١١٤٤] تدلل —بشكل غير صحيح— أن تقدم الكونت قوبل بحماس أعظم من العدوانية في الدوقية.

ثم إن الكونت النشيط القوي، أدرك في حربه وصراعه ضد الجيش المحشود من قبل ستيفن وتأكد أن الرب سيقاتل إلى جانبه ضدّ قلاع الملك غير التقي، ولدى معرفته بأخبار تراجع الملك، لم يضع فرصة تقدمه في تلك الساعة، بل تابع زحفه نحو الأمام، فدخل إلى البلاد، وحاصر مورتين، وأخذ رهائن وتأمينات، واستقبل السكان بسلام، وحكمهم بشكل انساني، وحافظ على ممتلكاتهم دون أن تتعرض للأذى من الجيش.

ثم نقل الكونت جيشه، وجاء إلى كيرنتان Carentan ، وبعدما تسلم هذا الموقع بدون قتال، بادر مسرعاً إلى مدينة بيو Bayeu ولدى سماع السكان والأسقف باقترابه، خرجوا بسلام وهم يبدون سرورهم، وتقبلوه وتقبلوا سلطته، وقدموا له الولاء وأقسموا متعهدين بمساعدته ضد جميع أعدائه.

وتحرك الكونت من بيو، وأخذ طريقه نحو سينت لو، حيث كان أسقف كاوتنس Cautances المسيطر على الموقع، قد تولى تحصين الموقع ضده، وكان عدد الجند في داخله حوالي المائتين، وقد خرجوا لانشاب القتال ضد الكونت، وقد أرغموا مع أول اصطدام على الفرار عائدين إلى البلدة، وصمدوا فقط في اليوم الأول والثاني، واستسلموا في

اليـوم الثالث وفتح المدافعـون الأبواب، وطلبـوا السلام، وقـدموا رهـائن، وأقسموا على تأدية الولاء، وعلى الطاعة للكونت(١٠).

ثم قصـد مـدينة كـاوتنس ووصلهـا، وهي مـدينـة واقعة في مقـاطعـة كوتنتـن، ودخل الكونت إلى هـذا الموقع، واستولى عليـه بلا مقـاومة (لأن الأسقف كان بعيداً)، وكـان مشحوناً بالقـوات والعتاد، ثم جمع بعد ذلك بارونـات مقاطعـة كوتنتن، وطلب تقـديم الـرهائن منهـم، وجـاءوا جميعاً، وأدوا الخدمـات المطلـوبة، بـاستثنـاء رالف مع أخيـه رتشـارد دي لى هي Haye ، وقام الأول بتحصين قلاعه ضـد الكونت، بينما تمركز الآخر مع قـوة كبيرة من الجنـد فيهـا مـائتين أو أكثـر من العســاكـر، في شيربـورغ Cherbourg ، حيث ظن أن بإمكــانـه هنــاك امتـلاك القــدرة على الصمود في وجه الكونت، غير أن الكـونت، صاحب القلب العظيم، تولى أولاً العيث فساداً في منطقة رالف، وحـاصر قلاعه، ثم تمكن بوسـاطة قوة عسكريـة من أسر رالف نفســه، ولقد تأخر رالـف كثيراً في تقديم التـوبة، وذلك بعـدمـا تـولى قتال الآخـرين، لـذلك تقبل بهدوء الـوقـوع بـالأسر والخضوع.

وزحف غيـوفري الآن إلى شيربـورغ، وذلك بعـدمـا قام بتنظيم الجنـود الـذين رافقـوه، وأعد بكل بـراعـة وحـرص آلات الحصار، وبـذلك كـان جاهـزاً باستعـداداته الحربية، وكـان يوليـوس قيصر قد شيـد في شيربورغ حصنـاً، وذلك أثناء استعـداده لغزو بـريطـانيا، وقـد أحاط هـذا الحصن أسـوار على درجة عـالية من القـوة، وأقيمت أبـراج كثيرة في اطار السـور، حتى بـات من المتعذر أن يستطيع جنـدي غرس رمحه بينهم، وأقـام برجـاً أعلى من الأبراج الباقيـة وسط التحصينات، وشيد قاعـة ملكية، وإلى هذا الحصن فـرّ بعد أول هجـوم قام بـه ضد بـريتاني، وأطلقت لـذلك بعض الروايات العادية اسم قلعة قيصر على هذا الحصن.

وبعـدمـا احتل رتشـارد دي لى هي هــذا الموقع، شحنـه بـالفـرسـان

والجنـود، والـرجـال المسلحين مع كميـة كبيرة من المؤن والعتـاد، ثم حرضهم على مقاومة غيوفري بكل ثبات [ذلك أن رتشارد قرر عبور البحر والذهاب إلى الملك ستيفن، على أمل أن يعود من عنـده وهو يقود قوة من الجند، يـرغم فيها الكونت غيـوفري على الفرار وذلك بعد رفعـه للحصار] وفي الوقت نفسه تابع الذين كانـوا في الحصن مقاومة الكونت، معتمدين ليس فقط على شجـاعتهم وعلى المخـزون العظيم من المؤن الـذي خـزنـه الطاغيـة رتشارد دي لى هي هنـاك، بل أيضـاً على دفاعات الأبـراج التي لاترام، وقـد قذفـوا المهاجمين بـالحراب الحربية، وبـالشتائم المقـذعة، ورد عليهم المهاجمون كلّ رماية برمية، لكن ليس كلّ كلمة بكلمة، غير راغبين في أن تكون ردودهم فارغة، وقاتل الـرب الذي بيده جميع القوى والممالك لصالح الكونت، فصـد أعداءه، وأنجح مقاصده، ذلك أنه عنـدما أبحر رتشارد دي لى هي، وقع بأسر القرصان الذين حملوه إلى أراض أجنبية.

وحملت الأخبار غير المفرحة إلى الذين كـانوا يقاومون الكونت، واربدت وجـوه المحـاصرين وعـلاهـا الحزن، وتهاوى أملهم المهـزوز، ولم يعـد في مقدورهم سوى التفكير بالفـرار، ولم يجدوا أمامهم منفذاً لفعل ذلك، ولهذا سلمـوا الحصن القوي المشحـون بالمؤن، وأعلنـوا عن رغبتهم بالاستسـلام لسلطـة الكـونت ووضع أنفسهـم تحت تصرفـه، وتعهـدوا بأيمان مغلظـة بالـولاء له، وإثـر تنفيذ هـذه الأعمال، قدر الكـونت أن حلول الشتـاء قد اقترب، وبعدما أخذ ما أخذه من القلعة أذن لجنده بالانصراف.

واستمـر الصراع طـويـلاً فيما بين ستيفن، الملك المزيف، وغيـوفـري كونت أنجـو، وكان شأن غيـوفري يـزداد علواً دوماً وهـو يزداد نشـاطاً في نفسه، بينما كان ستيفن يضعف يومياً.

واعتاد الملـوك والأمراء التـوجه إلى الحرب بعـد انقضاء الشتـاء القاسي والعاصف، وعندما تبدأ رائحـة الربيع الدافئة تملأ الهواء، وتتحول البراعم إلى زهور، وعندما تغـدو حدائق الورود تعج بالورود الجديدة بعـدما كانت

قبل قليل جرداء، وعندما تأخذ أزهار الليلك البيضاء تتمايل أمام الأعين...

يرسم هنري أوف هنتنغدون Huntingdon صورة مختلفة تماماً حول الصراع بين أسرتي بليوس وأنجو في سبيل السيطرة على نورماندي وانكلترا والتحكم بها، ولم يكتف المؤرخ في اظهار بعض التعاطف —المحق— نحو ستيفن، بل نظر إلى حوادث حكمه وتفحصها في الاطار الانكليزي —والسكوتلندي— تماماً، وسيظهر هذا على الفور في وصفه لموت هنري الأول، ووصول ستيفن إلى العرش في سنة١١٣٥ .

إثر وفاة الملك هنري الكبير (١١٣٥) تناول الشعب البحث بحرية حول أخلاقه، وذلك حسب العادة ، بعد وفاة الناس، فقد أصر بعضهم واتفقوا على أنه كان متميزاً تماماً بثلاث مواهب، وكانت هذه:

حكمته العظيمة، لأن آراءه كانت عميقة، وكانت بصيرته نافذة، ولفصاحته الآسرة ولنجاحه بالحرب، فبالاضافة إلى كثير من النجاحات والانجازات، كان هو المنتصر على ملك فرنسا [لويس السادس]، ولثرائه، الذي فاق به جميع سلفه من الملوك، واتخذ آخرون —على كلّ حال— مواقف مخالفة، وعزوا إليه ثلاثة معائب: فبالنسبة لثرائه، صحيح أنه كان عظيم الثراء بالمقارنة مع أجداده، إنه أفقر الناس بالضرائب والمكوس، وأرهقهم بالمتاعب على اختلاف أنواعها، وكان بلا رحمة، وفي هذا المجال اقتلع عيني قريبه، كونت مورتين الذي كان لديه أسيراً، علماً بأن هذه الفعلة الشنيعة والمرعبة لم تكن معروفة، وكشفت بعد وفاته مع أسراره، وقد ورد ذكر أمور أخرى وحوادث، أنا لن أقول عنها شيئاً، وكان شبقاً، ذلك أنه كان مثله مثل الملك سليمان مستعبداً من قبل الاغراء الجنسي النسائي، وكانت الأخبار منتشرة من حوله ومتداولة، لكن كلّ مافعله

الملك هنري سواء بالطغيان أو عدلاً كملك يبدو رائعاً بالمقارنة مع الأيام المقبلة بعده التي ألهبت الأمور بوساطة عنف النورمان.

فقد جاء ستيفن بكلّ سرعة، وهو الأخ الأصغر لثيوبولد كونت بليوس، وكان صاحب عزيمة، ورجلاً جريئاً، لم يقم اعتباراً ليمين ولائه لماتيلدا ابنة هنري، جاء متحدياً الرب بالاستيلاء على عرش انكلترا بجرأة ووقاحة، وكرس وليم رئيس أساقفة كانتربري الملك الجديد، مع أنه كان أول من أقسم يمين الولاء لماتيلدا، ولهذا يالأسف زاره الرب ومعه الحكم نفسه الذي أوقع على الرجل الذي ضرب أرميا، الراهب الكبير، فمات خلال العام، وكذلك حدث لروجر الأسقف القوي لسالسبري، وكان قد أدى يمين الولاء نفسه، والآن أقنع الآخرين أن يفعلوا الشيء نفسه، وصرف جميع قواه في سبيل رفع ستيفن إلى العرش، وتعرض هو أيضاً لحكم الرب العادل، فألقي بعد أمد في السجن، وواجه نهاية مؤلمة، أوقعها عليه الملك نفسه الذي ساعد على صنعه.

وباختصار حوّل جميع الايرلات والبارونات الذين قد أدوا يمين التبعية لماتيلدا، ولاءهم إلى ستيفن وقدموا له فروض الطاعة، ولقد كان فألاً سيئاً أن تقوم انكلترا كلها بسرعة، وبدون تردد أو صراع، وبلحظة مثل طرفة عين، فتخضع لستيفن، وبعدما جرى تتويجه عقد بلاطه في لندن.

سنة ست وثلاثين ومائة وألف

وجاء الملك ستيفن في السنة الأولى من حكمه إلى أكسفورد، فأخبر أن داود ملك السكوتلنديين، تظاهر بأنه قادم لزيارته زيارة صداقة، فزحف إلى كارت ايل ونيوكاسل، واستولى عليهما مخادعة، ورد الملك على الرسول الذي حمل إليه الأخبار: إن ماحصل عليه بالمخادعة سأرغمه على التخلي

عنـه، وبنـاء عليه حشـد الملك ستيفن على الفـور أعظم جيش حشـد في انكلترا عرفه الناس حتى الآن، وقـاده ضد الملك داود، ولقد التقيا في دور هام، وهناك تصالح ملك السكوتلنـديين مع ستيفن وسلمه نيوكاسل غير أنـه احتفظ بكـارآيل وذلك بمـوافقـة من ستيفن، ولم يقـدم الملك داود الـولاء للملك ستيفن، لأنـه كـان أول الناس من غير رجـال الـدين، قـد أقسم يمين الولاء لابنـة الملك المتوفى، التي كانت ابنة أختـه، وقد اعترف بها ملكـة على انكلترا بعد وفـاة أبيها، لكن الملك هنـري ابن الملك داود، قدم الولاء لستيفن، وأعطاه ستيفن بالاضافة لما تقدم بلدة هنتنغدون.

وبعد عـودة الملك ستيفن من الشمال، عقد بلاطه خـلال عيد الفصح في لندن، بطريقة أروع ممـا عرف قط من قبل، ليس فقط بعدد الحضور بل بما جرى عـرضه من روائع من ذهب وفضـة وجواهر، وثيـاب ثمينة، وكلّ شيء كان فائقاً.

سنة سبع وثلاثين ومائة وألف

في السنـة الثـانيـة من حكمـه، أمضـى الملك ستيفن عيـد الميـلاد في دنستيبل Dunstable ، وفي الصوم الكبير أبحر إلى نـورماندي، وعبر معـه الاسكندر أسقف لنكـولن وعـدد كبير آخر من النبـلاء، ونجح الملك هنـاك بفضل خبرتـه بـالحرب في جميع ماقـام بـه، وأحبط خطط أعـدائه، وهـدم قلاعهم وحصل على أعلى المفـاخر والأمجاد، وأقـام سلماً مع الملك الفرنسي، الذي قدم ابنه يوستـاس الولاء له من أجل نورماندي، التي هي اقطاع تابع للتاج الفرنسي.

وكان غيوفـري كونت أنجو العدو اللدود للملك ستيفن، لأنـه كان قد تزوج ماتيلدا ابنة الملك هنـري، وهي التي كانت امبراطورة ألمانيا، وكانت

قد تلقت أيمان التبعية بالنسبة لمملكة انكلترا، وبناء عليه ادعى الزوج والزوجة بحقهما بالعرش الانكليزي، لكنه وقد رأى أنه في الوقت الحاضر لايستطيع التقدم بنجاح ضد الملك ستيفن، بحكم امتلاكه لقوات لاتحصى مع كميات هائلة من المال وجدها في خزائن الملك المتوفى، ولهذا تصالح كونت أنجو مع الملك ستيفن، وبناء عليه وبعدما حقق النجاحات عاد الملك إلى انكلترا منتصراً، وكانت عودته عشية عيد الميلاد.

وكانت السنتان الأوليتان من حكم الملك ستيفن سعيدتان، لأن السنة التالية التي أنا مقبل الآن للحديث عنها كانت عادية وموائمة، لكن السنتان الأخيرتان كانتا مدمرتان ويائستان.

سنة ثمان وثلاثين ومائة وألف

ذهب الملك ستيفن (١١)، في السنة الثالثة من حكمه، بنشاطه المعتاد، مسرعاً نحو بدفورد Bedford ، وحاصرها عشية يوم الميلاد، وشدد الحصار خلال مدة العيد كلها، مما أغضب الرب بقدر ماجعل ذلك الموسم ضئيلاً أو بلا قيمة.

وبعد استسلام بدفورد، قاد قواته داخل اسكوتلندا، ذلك أن الملك داود، قام نتيجة لليمين الذي أداه لصالح ماتيلدا ابنة الملك هنري، وتحت غطاء ديني، فجعل أتباعه يتعاملون بشكل وحشي، فقد اغتصبوا بشكل مكشوف النساء الحبالى، وبقروا بطونهن لاخراج الأطفال الذين لم يلدوا بعد، ورموا بالأطفال وأرجحوهم على أسنة رماحهم، وذبحوا رجال الدين عند المذابح، وقطعوا رؤوس تماثيل الصلب، ووضعوهم على أجساد الذين ذبحوهم، وبالمقابل وضعوا رؤوس ضحاياهم فوق

التماثيل، وحيثما حل السكوتلنديون أو جاءوا كانت هناك المناظر نفسها من الرعب والوحشية: نساء يولولن، شيوخ يندبون وسط الذين يموتون من الآلام واليائسين من الحياة، ولهذا غزا الملك ستيفن اسكوتلندا وسلط السيف والنار على الأجزاء الجنوبية من ممتلكات الملك داود، الذي لم يتجرأ على التصدي له.

اتخذ الكاتب المجهول، لكن المعاصر الذي كتب أعمال ستيفن، موقفاً أقل حدة ونقداً تجاه السكوتلنديين.

كان ملك اسكوتلندا، الذي تحد بلاده انكلترا، حيث يفصل نهر بينهما، عظيم المشاعر الانسانية، وقد ولد لأبوين متدينين، ولم يبتعد عن فضائلهما وتقواهما، وكان مع مجموعة من الرجال العظماء، لابل في الحقيقة كان الأول بينهم، أدى يمين الولاء لماتيلدا، ابنة الملك هنري، في حضوره ولهذا غضب غضباً شديداً لأن ستيفن اغتصب تاج انكلترا، لكن بما أن ستيفن استقر بالملك بوساطة البارونات بدون حضوره وموافقته، فقد جلس بكل حكمة ينتظر النتيجة، ويراقب مجرى الأحداث.

وأخيراً استلم رسائل من ماتيلدا، تتشكى فيها بأنها حرمت من وصية أبيها، وسرق منها التاج الذي تمت ضمانته لها ولزوجها بأيمان مغلظة، فقد أزيحت الشريعة ورميت جانباً وديس على العدالة بالأقدام، وأيمان التبعية لها التي أقسمها البارونات الانكليز قد خرقت ولم يقم لها وزن، وباخلاص وأسف طلبت منه بحكم قرابته منها أن يعمل على ضمان حاجتها، وأيضاً بحكم كونه تابعاً شرعياً لها أن يقوم بمساعدتها في وقت ضيقها.

وشعر ملك اسكوتلندا بحزن عميق، وتعاظم غضبه من أجل المطلب الحق، وروابط الدم، وتقديراً ليمينه قرر القيام بغارة يخرق بها انكلترا،

اعتقـاداً منه انـه بقيامـه بهذا يمكنـه بمعونـة الرب أن يـرغـم ستيفن على التخلي عن الحكم لصالـح المالكة الشرعية للتـاج، التاج الـذي وضح له أنه تمّ الاستيـلاء عليه بصورة غير عادلة، واعتنى ملـك السكوتلنديين في بلاطه بـالمنفيين الانكليز الذين حرضوه باستمـرار لاتخاذ هذه الاجراءات، ولهذا قـام الملك داود —لأن هـذا كـان اسمه— فنشر مـرسـومـاً في جميع أرجاء اسكـوتلندا يـدعو فيه شعبـه إلى حمل السلاح، وتغيير مجرى حيـاته، ومن ثم المبـادرة لـلاقـلاع بهجـوم عاصـف ومدمـر هـائل ضـد الشعب الانكليزي.

وتـدعى اسكوتلنـدا أيضاً ألبـاني Albany ، وهي بـــــلاد مغطاة بمروج واسعة، وفيهـا غابات مزدهـرة مع المراعي التي تطعم قطعان كبيرة من الأبقـار والثيران، وفيهـا مـوانىء آمنـة، وهي محاطـة بجـزر خصبـة، والسكـان المحليون متـوحشون، وعـاداتهم غير نظيفة، لكنهم غير معـاقين بـالبرد الشديـد، ولايعانـون من العوز الكبير، سرعتهم كبيرة على أقـدامهم وأسلحتهم خفيفـة، ويتخـذ منهم جنـد شجعان ذوي فعـاليـة، وهـم بين أنفسهم لايعرفون الخوف ولايبالون بـالموت، ووحشيتهم بين الغرباء عنيفة ويبيعون نفوسهم بأثمان عالية.

ونعود الآن إلى حكاية هنري أوف هنتنغدون

ظهـرت الخيانـة الانكليزيـة وتجلت بشكل واضح بعـد فصح ١١٣٨، فقد قـام تالبـوت Talbot، الذي كـان واحداً مـن الثوار بـــــالاستيلاء على إحدى القـلاع في ويلز، وأعلن العصيـان بها ضد الملك ستيفن، غير أنه حـاصرها واستـولى عليها، وتحصن الايـرل روبرت أوف غلـوستر، وهو ابن طبيعي للملك هنـري الأول في قلعة بـرستول المنيعـة وفي قلعة ليـدز، واستولى وليم فتز ألان Fitz Alan على قلعة شروبـري، التي اقتحمها

الملك أخيراً، وشنق عدداً من الأسرى.

وفيما كان الملك مشغولاً على هذه الصورة في الجنوب، قاد داود صاحب اسكوتلندا ثانية جيشاً كبيراً إلى الشمال من انكلترا، وقد عارضه بشدة وقاومه نبلاء الشمال تحت قيادة ثيرستان Thurstan رئيس أساقفة يورك، ونصب العلم الملكي في نورثألرتون Northallerton ، وحيث أن رئيس الأساقفة منعه المرض من حضور المعركة، فقد فوض إلى رالف أسقف أوركني Orkney أن يشغل مكانه، ووقف رالف على ربوة صغيرة في وسط الجيش، ورفع من معنويات النبلاء الانكليز بخطاب ألقاه عليهم.

ثم صرخ الانكليز رادين عليه بصوت واحد رددت صداه الجبال والتلال قائلين «آمين، آمين»، وإثر هذا وفي الوقت نفسه ردد السكوتلنديون صيحات حربهم «ألبان، ألبان»، حتى وصلت إلى عنان السماء، ثم اختفت الأصوات وسط قعقعة السلاح.

وفي الحملة الأولى نال رجال لوثيان Lothian شرف توجيه الضربة الأولى، فوجهوا نحو الفرسان الانكليز الدارعين زخات من النشاب، وذلك دون أذن من ملك السكوتلنديين، غير أنهم وجدوا الصفوف الانكليزية منيعة لايمكن خرقها مثل جدار من الفولاذ، واختلط النبالة الانكليز بالفرسان وتوزعوا بينهم، وفيما هم كذلك أصابوا السكوتلنديين غير المسلحين برماياتهم المتوالية، ووقف الجيش الانكليزي بأجمعه مع النورمانديين متماسكاً حول العلم في كتلة متراصة قوية.

ثم سقط مقدم رجال لوثيان نتيجة اصابته بنشابة، وأدى هذا إلى فرار جميع أتباعه، لأن الرب القادر كان غاضباً عليهم، وهكذا تحولت قوتهم وغدت أشبه بنسيج عنكبوت، وعندما رأت الكتلة الرئيسية من السكوتلنديين هذا، وكانت تقاتل في قطاع آخر بشجاعة، فقدت

إقدامها، وتـراجعت هي أيضاً، وعندما رأت فرقـة الملك داود هذا، بدأت أيضـاً بالفـرار، أولاً على شكل أفراد ثم بشكل جماعي، مع أن عسـاكرهـا كانوا نخبة اختـارهم الملك من مختلف القبائل، واستمر الحال هكذا حتى وقف الملك لوحده ولم يبق معـه أحد تقريباً، وبناء عليه أرغمـه رفاقه على امتطاء ظهـر جواده والنجـاة بنفسه، لكن ابنـه هنري الشجـاع لم يبال بما كـان يفعلـه بني قومـه، وظل متمسكـاً بـالـرغبـة في متابعـة القتـال ونيل الفخـار، فترك الذيـن يفرون وشأنهم، وقـام بحملـة شـديدة على صفـوف الأعداء، وتألفت القـوات التي كانت تحت امرتـه من انكليز ونورمـانديين ارتبطـوا ببيت أبيه، واحتفظـوا بخيولهم، لكن هـذه الفرقـة من الخيالـة لم تستطع أن تزلـزل الرجال الـذين غطتهم سوابغهم ودروعهم وقـاتلوا على أقـدامهم متراصين، وهكـذا أرغم هـؤلاء على التراجع بخيـول معقـورة، ورماح محطمة، وذلك بعد حملة رائعة، لكن غير موفقة.

ويقـال سقط على أرض المعـركـة أحد عشر ألفـاً من السكـوتلنـديين، وذلك بالاضافـة إلى الذين عثر عليهم في الأحراش وحقـول القمح وقتلوا هناك، ونال جيشنا النصر بعد هدر قليل من الدماء، وكان قادته هـم:

وليم كـــونـت أوميل Aumale ، ووليم بيفيريل peverel ، أوف نـوتنغهــام Nottingham ، وولتر اسبك Especv ،وغلبرت دي لاسي Lacy ، الـذي كـان أخـوه الفـارس الـوحيـد الــذي قتل، وعندما نقلت أخبار المعركة إلى الملك ستيفـن، قدم هو وجميع الذين كانوا معه الشكر إلى الرب القدير، وقد وقعت هذه المعركة في شهر آب(١٢).

وخـلال حلول الآحـاد الأربعـة التي تقـدمت على عيـد الميلاد، عقـد المندوب البـابوي وهـو أسقف أوستيا ostia مجمعاً دينيــاً في لندن، تمّ خـلاله رسم ثيـوبـولد راعي ديـر بلك Bec رئيسـاً لأساقفـــــة كانتربري، وذلك بموافقة من الملك ستيفن.

سنة تسع وثلاثين ومائة وألف

وفي السنة الرابعة من حكمه، وبعد مضي عيد الميلاد، حاصر الملك ستيفن قلعة ليدز واستولى عليها، وقصد بعد هذا اسكوتلندا، فدخلها، وبوساطة السيف والنار أرغم ملك السكوتلنديين على طلب الصلح، وجلب إلى انكلترا هنري ابن الملك داود، ثم حاصر ستيفن لودلو Ludlow ، التي كان هنري خطف إليها من على ظهر حصانه بوساطة كلاب حديدي، فكاد أن يقع أسيراً، لكنه أنقذ من أيدي الأعداء بشجاعة من قبل الملك ستيفن.

وترك الملك ستيفن لودلو Ludlowدون الاستيلاء عليها وذهب إلى أكسفورد حيث اقترف عملاً دنيئاً جداً، تخطى به كلّ ماتقدم،فبعدما استقبل بحفاوة وود روجر أسقف سالسبري مع ابن أخيه الاسكندر أسقف لنكولن Lincoln ، قام هذا الملك باعتقاله بكل عنف في قصره، مع أنهالم يرفضا شيئاً من مطالب العدالة، وطالبا بكل اخلاص بذلك، وألقى الملك بالأسقف الاسكندر بالسجن، وأخذ معه أسقف سالسبري إلى دفزس Devizes التي كانت قلعة هذا الأسقف، والتي كانت من أقوى القلاع في جميع أوروبا، وعذب هناك روجر باجاعته، وأهان ابنه الذي كان حاجب الملك ومستشاره بربط حبل حول عنقه وجره إلى قفص جعله زنزانة له، وحصل منه بهذه الطريقة على الموافقة على تسليم القلعة، ناسياً جميع الخدمات التي قدمها له الأسقف أكثر من سواه، ولاسيما الخدمات التي بذلها له في بداية حكمه، فعلى هذه الصورة جازى الأسقف على اخلاصه.

وبطريقة مشابهة استولى الملك على قلعة شيربورن Sherborne التي كانت أدنى قليلاً من قلعة دفزس، وبعدما حصل على أموال الأسقف، استخدم هذه الأموال في سبيل تأمين زواج لابنه يوستاس من كونستانس أخت لويس الملك الفرنسي، ثم أعاد الملك ستيفن معه إلى نيوآرك Newark الاسكندر أسقف لنكولن الذي كان قد ألقاه من قبل في سجن في اكسفورد، وكان هذا الأسقف قد شيد في نيوآرك قلعة حمراء كأنها وردة بطراز عمارتها وهندستها، وكان منظرها جذاباً وسط المروج، ويمر بقربها نهر ترنت Trent ، وما ان شاهد الملك هذه القلعة ووقع نظره عليها حتى فرض على الأسقف صوماً لم ترخص به الكنيسة، وأقسم أنه سيظل محروماً من الطعام حتي يستجيب إلى تسليمه القلعة، وقد واجه الأسقف بعض المصاعب في اقناع حامية قلعته، وبالدموع والرجاء الحار استجابوا إلى التنازل عن القلعة إلى الغرباء، وكان هناك قلعة أخرى من قلاعه اسمها سلي فورد Sleaford ، لم تكن أقل جمالاً من القلعة المتقدمة، وقد تم التخلي عنها وتسليمها بطريقة مشابهة.

ولم يمض وقت طويل على هذا حتى قام هنري أسقف ونشستر، وأخو الملك، ونائب البابا بعقد مجمع ديني في ونشستر، وقد شاركه ثيوبولد رئيس أساقفة كانتربري وجميع الأساقفة الحضور بالطلب من الملك، وهم جاثين على ركبهم في أن يقوم برد ممتلكات الأساقفة الذين ورد ذكرهم أعلاه، مع تفاهم ضمني أنهم سوف يتغاضون عن الاهانات التي تعرضوا لها، ومهما يكن من أمر، لم يتحرك الملك ليتجاوب مع طلبات هذا الجمع المتميز، وأخذ برأي شرير واتبعه. فرفض الاستجابة لهذا المطلب.

وهيأ هذا السبيل إلى الدمار النهائي لبيت ستيفن، ذلك أن الامبراطورة، ابنة الملك هنري المتوفى، والتي كانت قد تلقت عهد تبعية

الـولاء من الانكليـز، جـاءت على الفـور إلى انكلترا، وجـرى استقبـالها في قلعـة آرونــدل Arundel وحـوصرت الامبراطـورة هنـــــاك من قبل الملك، الـذي إمـا أنـه أصغـى إلى مشـورة غير مخلصـة، أو انـه وجـد أن القلعة قـوية جداً وانه لايستطيع الاستيـلاء عليها، لذلك أعطاهـا الأمان في أن تذهب إلى برستول.

وتـوفي في تلك السنـة نفسها روجـر، الأسقف الـذي تحدثت عنـه قبل قليل، وذلك بعدما أنهكته المشاكل مع ثقل السنين، وقد يدهش القارىء تجاه هذا التبـدل المفاجىء بالحظ بـالنسبة له، لأنــه منذ شبابـه والسعادة ترافقـه، إلى حد يمكن للمرء أن يقول فيـه، بأنها نسيت أن تقلب اتجاهها نحوه، فهو لم يواجه خلال حياتـه كلها أية حوادث معاكسة حتى تجمعت سحب التعاسة حـوله، وتمكنت من قهره في آخر المطـاف، لذا ينبغي على أي انسـان ألا يعتمد على استمـرار حسن الحظ، وألا يفترض أن السعـادة دائمة، وألا يظن أن بإمكانه الاستقرار طويلاً فوق دولابها المتحرك.

سنة أربعين ومائة وألف

وقام الملك ستيفن في السنـة الخامسة من حكمـــه بطرد نيغل Nigel أسقف إيـلاي Ely ، لأنـه كـان ابن أخ لأسقف سـالسبري المتـــوفى، والذي كان الملك يبغضه إلى حد أن غضبه شمل جميع أقربائه.

ولم يعد هاماً المكان الـذي أمضى فيه الملك عيد الميلاد والفصح، لأن هذا كلـه جعل البلاط رائعاً، واختفت الشعارات الملكيـة التي ورثها من الخط الطويل لأسـلافه، والخزانـة التي تسلمها مليئـة، باتت الآن فـارغة، وانعـــدم الأمن في المملكـــة، وانتشرت أعمال القتل، والاحـــراق، والنهب والـدماء خـلال الديـار، وارتفعت صرخات اليأس، والـرعب، والأسى في

كلّ مكان.

سنة إحدى وأربعين ومائة وألف

وفي السنة السادسة من حكمه، قام الملك ستيفن بعد عيد الميلاد بإلقاء الحصار على قلعة لنكولن، وكان المدافع عنها رانولف Rannulf إيرل تشستر، الذي استولى عليها بالخدعة، وبقي الملك هناك حتى الثاني من شباط، ثم اجتمع الايرل مع روبرت صاحب غلوستر، وكان ختن الايرل وابن الملك الملك هنري، وانضم إليهما عدد من النبلاء الأقوياء، وقرروا رفع الحصار، وعبر الايرل الجريء سبخة كانت صعبة جداً، وصف عساكره واستعد للاشتباك بالقتال في اليوم نفسه، وتشكل الصف الأول منه ومن رجاله، وكان قوام الصف الثاني الذين حرمهم الملك ستيفن من ميراثهم، وشكل روبرت ورجاله الصف الثالث، ووقف على الجناحين حشد من رجال ويلز الذين كانت شجاعتهم أعلى من تسليحهم.

وفي الوقت نفسه حضر الملك ستيفن وهو عظيم القلق، قداساً دينياً، وفي تلك الأثناء وبينما كان يضع الشمعة —وهي التقدمة الملكية المعتادة— في يدي الأسقف الاسكندر، انكسرت، وكانت هذه الحادثة علامة فأل سيء بالنسبة للملك، وانقطعت آنذاك السلاسل الحاملة للصندوق الحاوي لجسد الرب، وذلك أثناء قيام الأسقف بالقداس، ووقع الصندوق على المذبح، وعدّت هذه اشارة إلى أن ملك الملك سيلحقه الدمار، ومع ذلك انطلق بكل شجاعة، وصف قواته بعناية، ووقف شخصياً على قدميه، وترجل وقتها رجاله ورصوا صفوفهم من حوله، وصدرت الأوامر للأمراء بأن يشكلوا مع رجالهم صفين من

الخيالة، لكن قوات الخيالة كانت قليلة جداً، فقد جلب الأمراء المزيفون المرائون قوى قليلة معهم، لكن قوات الملك كانت كبيرة جداً، وقد رافق بعضها الراية الملكية، وبما أن الملك ستيفن لم يمتلك صوتاً موافقاً، فقد طلب من بلدوين فتزغلبرت، وكان رجلاً نبيلاً وفارساً شجاعاً، أن يخطب بالجيش، وقبل أن ينهي خطابه سمعت أصوات الأعداء، وصدحت الأبواق، وجعلت حوافر الخيول الأرض تهتز.

وبدأت المعركة، وانقض المحرومون من ميراثهم، والذين وقفوا في الساقة، على الفرقة الملكية التي كان فيها الايرل آلان كونت ميولان، وهيوج ايرل ايست أنغليا، والايرل سيمون، والايرل وارين Warenne ومع تلقى هؤلاء للصدمة تفرقوا في رمشة عين، فقتل بعضهم، ووقع بعضهم بالأسر، وفرّ بعضهم الآخر.

وهاجمت الفرقة التي كانت تحت إمرة الكونت صاحب أوميل Au-male ووليم صاحب يبرس Ypres ، الولزيين على الجناحين، وأرغمتهم على الفرار، لكن مالبثت هذه الفرقة أن هوجمت من قبل رجال ايرل تشستر، ومزقوا في لحظة مثل الآخرين، وهكذا فرّ جميع فرسان الملك وكذلك وليم صاحب يبرس، وكان رجلاً من فلاندرز، من أصل أرستقراطي وصاحب مكانة عالية، وبما أنه كان رجلاً خبيراً بالحرب، ورأى من غير الممكن له أن يساعد الملك، وفرّ عونه إلى وقت أفضل، وهكذا ترك الملك ستيفن واقفاً وحده على قدميه وسط أعدائه، وأحاط هؤلاء بالقوات الملكية وهاجموها من جميع الجهات، وكان الشرر يتطاير من السيوف لدى وقوعها على الخوذ، وكانت أصوات الأسى وصرخات الرعب يتردد صداها ويعود رجعها من التلال ومن أسوار المدينة، وهاجمت الخيالة الجيش الملكي فقتلت بعضه، وداست بعضه الآخر، ووقع بالأسر أعداد كبيرة.

ولم تكن هناك استراحة أو وقت لتنفس الصعداء، إلا حيث كان الملك

نفسه، الذي كان قـوياً جداً، وكان صامداً، لأن أعـداءه كانوا يخافون من شدة ضربـاته، وعنـدما رأى ايـرل تشستر هذا حسـد الملك على صموده، وحمل عليـه حملـة منكـرة ومعـه الـدارعين من رجـالـه، ثم إن قـوة الملك أشعت بالفعل وهو يقاتل ببلطته حيـث قتل بعض مهاجميه ومزق صفوف آخرين، ثم ارتفع صـوت نادى: «على الجميع التوجه ضـده، إنه ضد كلّ واحـد»، وأخيراً تحطمت بلطـة الملك من الضربات المتـواليـة، ثم سحب ستيفن سيفـه، وكان سيفـاً جديـراً بذراع ملكي، وفعل أفـاعيل مدهشـة حتى انكسر، وعنـدما رأى وليم أوف كاهـاغنس Cahagnes هذا، وكان فـارساً شجـاعاً، حمل على الملك وأمسكـه بوسـاطة الخوذة، وصرخ: «إليّ كلّ واحـد، إليّ هنـا، لقد أمسكت بـالملك»، وانـدفع الجميع نحـوه، ووقع الملك بـالأسر، كما جـرى أسر بلـدوين الـذي تولى مخاطبـة الجنـود، وكان قـد أصيب بجراح كبيرة، وقد نـال من مقاومته مجداً سرمـدياً، ووقع رتشارد فتـز أورس Fitz Urse أيضـاً بالأسر، ونـال هو فخـاراً عظيماً أثناء القتال.

وتـابع جيش الملـك القتـال حتى وقع بـالأسر، وجـرى تطـويق هـذا الجيش، وهكـذا لم يستطع رجـالـه الفـرار، فكـان إمـا أن قتلـوا أو أسروا، وأبيحت المدينة للناهبين، واقتيد الملك بشكل تعيس إليها.

وهكــذا جـرى حكـم الـرب على الملـك ستيفن، وقـد اقتيـد أمــام الامبراطورة مـاتيلدا، وسجن في قلعة بـرستول، وعدّ الانكليـز الامبراطورة سيـدتهم باستثنـاء كنت، حيث قـاتلت الملكـة ضدهـا ومعهـا وليم أوف يبرس، وذلك بكل مـاأوتيـا من قـوة، وقـد اعترف بها في البـدايـة أسقف ونشستر، ثم النائب البـابوي، ثم مالبث أن اعترف بها اللنـدنيون، غير أنها امتلأت بغـرور عظيم لأن أتباعها نجحـوا نجاحـاً عظيماً في حرب لم تكن نتـائجها مـؤكـدة، ولهذا السبب جعلت كلّ واحـد يبتعـد عنها، وهكـذا طـردت من لندن إمـا بسبب خياني أو لحكمـة ربانيـة (لأن كلّ مايفعلـه

الناس هو بإرادة الرب)، وبناء عليه قامت وهي تحمل حقد المرأة، فوضعت الملك ستيفن —وهو الملك المرسوم بإرادة الرب— بالأغلال.

وقامت ماتيلدا بعد وقت قصير ومعها خالها ملك السكوتلنديين وأخيها روبرت أوف غلوستر بحشد قواتها، وحاصرت قلعة أسقف ونشستر، وبعث الأسقف خلف الملكة ووليم أوف يبرس مع غالبية بارونات انكلترا، وحشد الطرفان جيشان كبيران، وكان هناك قتال في كلّ يوم، لكن لم تحدث معارك عظيمة واقتصر الأمر على المناوشات، وسجلت خلال هذه الاشتباكات أعمال شجاعة، ومع أنهم كانوا أشبه بالعميان في الحرب، كان من الممكن رؤية شجاعة كلّ واحد مع تقدير أعماله المجيدة، وهكذا كانت هذه الفرصة وقتاً ممتعاً لكل انسان يحكم انه كان من الممكن رؤية أفعالهم الرائعة.

وبعد انتظار طويل وصل جيش اللندنيين، ولأنه زاد من تعداد أعداء الامبراطورة، قضي عليها بالفرار، ووقع بالأسر عدد كبير أثناء الفرار، كان بينهم أخوها روبرت، الذي كان الملك مسجوناً في قلعته، والذي مكن أسره الملك من التبادل به، وهكذا حدث أن الملك الذي وقع بالأسر بحكم رباني، نال حريته برحمة من الرب، وقد استقبله بارونات انكلترا بفرح عظيم.

سنة اثنتين وأربعين ومائة وألف

وفي السنة السابعة من حكمه، حاصر الملك الامبراطورة ماتيلدا في اكسفورد من عيد القديس ميكائيل [٢٩-أيلول] حتى حلول الميلاد، وقبيل حلول الميلاد بوقت وجيز هربت الامبراطورة عبر نهر التيميز المتجمد، وهي متدثرة بثياب بيضاء، فخدعت المحاضرين بظهورها

وكأنها شبح من الثلج، ولقد فرت إلى قلعة وولنغ فورد Wallingford واستسلمت أكسفورد إلى الملك.

سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف

وفي السنة الثامنة من حكمه، حضر الملك ستيفن المجمع الديني الذي عقد في لندن في منتصف الصيام وقد عقده نائب البابا، الأسقف هنري أوف ونشستر من أجل الأوضاع المتردية جداً التي وضع فيها رجال الدين، حيث أن الاحترام لم يقدم لهم ولا إلى كنيسة الرب المقدسة من قبل الغزاة، وأودع رجال الدين السجون، واتخذوا رهائن مثلهم في ذلك مثل المدنيين، وبناء عليه قرر المجمع أن كلّ من يتعرض بالأذى إلى رجال الدين يحرم ويطرد من الكنيسة ولايمكن تحليله إلا بوساطة البابا شخصياً، لكن هذا القرار لم يخفف الأذى عنهم بالفعل إلا قليلاً جداً.

واعتقل الملك في السنة نفسها الايرل غيوفري دي ماندفيل Mandeville ، في البلاط الملكي في سانت ألبان، بتهمة استحق بها الايرل الاعتقال، وكانت للمصلحة أكثر منها تطبيقاً للعدالة العامة، ولو لم يقدم الملك على هذه الخطوة لكان طرد من عرشه بوساطة مؤامرات الايرل ولكي يكسب الايرل غيوفري حريته تنازل عن قلعة لندن، وعن قلعة والدن Walden وقلعة بليشي Pleshey، وهكذا حرم من جميع ممتلكاته، ولذلك استولى على دير رامسي Ramsey ، وطرد الرهبان منه، وحصنه بمجموعة من اللصوص وبذلك حوّل بيت الرب إلى وكر للصوص، ولقد كان في حقيقة الأمر رجلاً عظيم الشجاعة، لكنه كان متصلباً وعنيداً في أعماله اللاربانية، متيقظاً تجاه الأعمال الدنيوية، ومهملاً للأعمال الروحانية.

- ١١٤٥ -

سنة أربع وأربعين ومائة وألف

ألقى الملك ستيفن الحصار في السنة التاسعة من حكمه على قلعة لنكولن، وبينما كان يعد أعمال الحصار من أجل الهجوم على القلعة، التي استولى عنوة عليها رانولف ايرل تشستر، اختنق حوالي الثمانين من رجاله في الأنفاق، لذلك رفع الملك الحصار وتخلى عنه في حالة من الفوضى.

وسبب في السنة نفسها الايرل غيوفري دي ماندفيل الكثير من المتاعب للملك، وميز نفسه أكثر من الآخرين، وفي شهر آب أظهرت الحكمة الربانية عدالتها بشكل رائع، حيث واجه اثنان من النبلاء الذين حوّلوا الديرة إلى مواقع حصينة، وطردوا الرهبان، عقوبة مماثلة لأن ذنبهما كان نفسه، وكان روبرت مارميون Marmion أولهما، فقد كان قد اقترف هذا الجرم في كنيسة كوفنتري Coventry كما أن غيوفري دي ماندفيل كان قد اقترف الشيء نفسه —كما قلت— في دير رامسي، وفيما كان روبرت مامرميون متقدماً ضد أعدائه، قتل تحت أسوار الدير، وكان وحده الذي سقط، مع أنه كان محاطاً بقواته، وقد مات وهو محروم كنسياً، فخضع إلى الموت الأبدي، وبطريقة مماثلة جرى تمييز الايرل غيوفري بين أتباعه، وأطلق عليه سهم من قبل أحد الجنود الرجالة العاديين، ومع أنه جرح جراحة خفيفة فقد توفي خلال عدة أيام وهو محروم كنسياً، وكان هذا هو الحكم العادل للرب، دائم الذكرى خلال الأجيال، وعندما كان هذا الدير محولاً إلى حصن رشح الدم من جدران الكنيسة والأماكن المجاورة، شاهداً بذلك على الغضب الرباني، ومبشراً بدمار غير الربانيين، وقد شوهد هذا من قبل الكثيرين، وقد شاهدت ذلك أنا نفسي بعيني.

- ٤٥١ -

سنة خمس وأربعين ومائة وألف

وفي السنة العاشرة من حكم الملك ستيفن، كان هيوج بيغود Bigod أول من قام بالتحركات، وفي الصيف شرع الايرل روبرت مع كتلة أعداء الملك يعملون لبناء قلعة في فارنغدون Faringdon ، ولم يضع الملك الوقت، حيث جمع الجيوش وزحف إلى هناك على رأس حشد كبير ومرعب من اللندنيين، وبعد هجمات يومية على القلعة، وفيما كان الايرل روبرت مع حلفائه ينتظرون وصول قوات جديدة لم تكن بعيدة عن جيش الملك، جرى الاستيلاء على القلعة بعد سقوط كثير من القتلى.

سنة ست وأربعين ومائة وألف

وحشد الملك ستيفن في السنة الحادية عشرة من حكمه جيشاً عظيماً، وبنى وسائل حصار لاتقهر ضد قلعة والنغفورد، وكان رانولف ايرل تشستر، الذي انضم الآن إلى الجانب الملكي، حاضراً هناك مع قوة كبيرة، وحدث بعد هذا أنه عندما كان الايرل حاضراً بأمان في بلاط الملك في نورثأمبتون، ودون أن يخشى من أي سوء، اعتقل، وأودع في السجن حتى تنازل عن قلعة لنكولن الحصينة، الذي كان قد استولى عليها بطرق بارعة، كما تنازل عن القلاع الأخرى التي عادت بملكيتها له، وبعد هذا أطلق سراح هذا الايرل وسمح له بالذهاب إلى حيث أراد.

- ٤٥٢ -

سنة سبع وأربعين ومائة وألف

وفي السنة الثانية عشرة من حكمه، لبس الملك ستيفن التاج أثناء عيد الميلاد في لنكولن، الأمر الذي لم يقدم عليه ملك قبله لأسباب غيبية، وأظهر هذا مدى تصميمه، وكيف أنه أعار قليلاً من الأهمية لمثل هذه الغيبيات، وبعد مغادرة الملك جاء ايرل تشستر إلى لنكولن مع قوة مسلحة لمهاجمة القلعة، لكن قائد قواته، وكان رجلاً عظيم الشجاعة والحظ، لاقى مصرعه عند مدخل الباب الشمالي للبلدة، ثم تبع ذلك أن فقد الايرل نفسه عدداً كبيراً من أتباعه، ولذلك أرغم على التراجع، وبناء عليه قدم سكان البلدة أثناء احتفالهم بنجاحهم في الدفاع شكراً خاصاً إلى العذراء المباركة حاميتهم والمدافعة عنهم.

وقام في أحد العنصرة لويس ملك فرنسا، وتيري كونت فلاندرز، وكونت سانت جايل (صنجيل) مع حشد كبير من كلّ جزء من فرنسا، وعدد عظيم من الانكليز، بحمل شارة الصليب، والسفر نحو القدس، عازمين على طرد الكفار الذين استولوا على مدينة الرها(١٣).

سنة ثمان وأربعين ومائة وألف

محقت في هذه السنة جيوش امبراطور ألمانيا وملك فرنسا، مع أنها قيدت من قبل قادة لامعين، وبدأت زحفها بفخار وثقة، لكن الرب ازدراهم، وتضاعفت دعارتهم وفجورهم حتى عليين، ولأنهم تخلوا عن أنفسهم بشكل مكشوف لصالح الزنا والاتصالات الجنسية البغيضة إلى الرب، وإلى اللصوصية وكلّ نوع من أنواع الآثام، وعانوا في البداية من

المجاعة بسبب الارشاد الفاسد لامبراطور القسطنطينية، وتعرضوا بعد هذا للدمار بسيوف الأعداء، والتجأ الملك لويس والامبراطور إلى أنطاكية، ورغبوا بعد هذا وهم في القدس مع بقايا أتباعهم بالقيام بعمل مفيد، وأراد ملك فرنسا، في أن يفعل شيئاً ما يرد إليه احترامه، فألقى الحصار على دمشق وذلك بمساعدة من فرسان داوية القدس مع قوة حشدت من جميع الأرجاء، لكن كان يعوزه رضا الرب، ولهذا لم ينل النجاح، فعاد إلى فرنسا.

سنة تسع وأربعين ومائة وألف

وفي السنة الرابعة عشرة من حكم الملك ستيفن رسم داود ملك السكوتلنديين هنري ابن بنت أخته فارساً، واجتمعت بهذه المناسبة قوة كبيرة، وامتلك داود حاشية واسعة، وكان لدى ابن أخته أتباعه من نبلاء غربي انكلترا، وشعر الملك ستيفن بالخوف، وخشي من أن يأخذوا طريقهم إلى مهاجمة يورك، ولهذا تمركز شخصياً في تلك المدينة ومعه جيش كبير، وبقي هناك جميع أيام شهر آب، وقام في تلك الأثناء يوستاس بن ستيفن، الذي رسم أيضاً فارساً في العام نفسه، بغزو بلدان البارونات الذين كانوا حضوراً مع هنري ابن الامبراطورة، وحيث لم يجد من يعترض سبيله عاث في البلاد بالسيف والنار، غير أن ملكي انكلترا و اسكوتلندا، وكان أولهما في يورك وثانيهما في كارل آيل، خشيا من بعضهما بعضاً، فتجنبا المواجهة واللقاء، وهكذا انفصلا بسلام، وعاد كلّ منهما إلى بلده.

- ٤٥٤ -

سنة خمسين ومائة وألف

وفي السنة الخامسة عشرة من حكمه، هاجم الملك ستيفن مدينة وورستر الجميلة، وبعدما استولى عليها جعلها طعمة للنيران، غير أنه لم يستطع الاستيلاء على القلعة التي كانت داخل المدينة، وكانت ملكيتها عائدة إلى وولران Waleran كونت ميولان Meulan ، وكان الملك ستيفن قد منحه إياها، وكانت هذه المنحة لغير صالحه، وبعدما أكمل الجيش الملكي نهب المدينة، عاث فساداً بالمناطق العائدة للأمراء المعادين، وحيث لم يقاومهم أحد، حملوا كميات هائلة من الغنائم والأسلاب.

سنة إحدى وخمسين ومائة وألف

وتوفي في هذه السنة غيوفري الجميل، كونت أنجو، صهر الملك هنري الأول، وابن فولك ملك القدس، وهو نفسه كان رجلاً عالي المكانة.

ونالت وفاة غيوفري عناية أكثر اشراقاً من قبل جون مارموتيير Marmoutier

وحدث أنه عندما كان في الحادية والأربعين من عمره، وفي اليوم السابع من أيلول لسنة إحدى وخمسين ومائة وألف، واجه الدوق المنتصر لكل من نورماندي، ولشعب أنجو، وتورين، ومين، وهو عائد من اجتماع ملكي، مرضاً شديداً، وأصيب بالحمى في شاتودولور، وسقط على فراشه، ثم نظر نحو مستقبل بلاده وشعبه بروح تتطلع إلى ماسيكون، فحظر على

ابنه هنـري أن يدخل عادات نـورمانـدي أو انكلترا إلى بلاده، أو أن يفعل العكس، حسبما يمكن أن يحدث تبعاً لتعاقب تبدلات الحظ.

ثم بعـدما قـام بإعطـاء بعض المنح، والأعطيـات والحسنات، ظهـرت علامـات موت هذا الأمير العظيم من خـلال أحد المذنبات، فـرد جسده روحه ورفعهـا من الأرض إلى السماء، فهل كان عجيباً لـو أن الموت الذي يعارض الطبيعـة ويجردها صارع من أجل غيـوفري منذ شبابـه، حيث أنه كما يقول شيشرون:

«غالبـاً مايبـدو موت الشباب مثل إطفـاء نار متقـدة عظيمة بكثير من الماء، ومثل تفـاحة غير نـاضجـة قطعت قسراً من الشجرة، ومع هـذا إنها تسقط وكأنها نـاضجة وجـاهزة، وهكـذا تنتزع القـوة الحياة من الشبـاب، وبأخذها النضج من المسنين».

ودفن غيوفـري في الكنيسة العظيمة القداسـة المكرسة للقديس يـوليان في لامانس، في ضريح عظيم جـداً، بناه بشكل لائق الأسقف التقي وليم أوف بيوس فيم، وجرى صنع تابوت يشبه الكونت المحترم هناك، وقد تم ترصيعـه بشكل مناسب بالـذهب والأحجار الكريمـة، وجاء هذا مـذكراً بـالموت للمتعجرف وبـالنعمة للمتـواضع، وجـرى تعيين قسيس من قبل الأسقف، ليبقى دوماً إلى جـانب مذبح الصلب حيث مدد جسـد الرجل المتـوفى، وفرض لهذا القسيس عطـاء دائم، وكـان عليـه أن يقدم كلّ يـوم أضحية إلى الرب من أجل الكونت، حتـى يتفضل الرب المقدس والرحيم فينـزل رحمة يزيل بها تعـاسة الكـونت، ذلك أنه الـرب الذي يعيش أبـداً ويحكم دوماً.

قام هنـري أوف هنتنغدون بعقلانية بتمجيـد اتخاذ ستيفن هنري أوف أنجـو ودوق نورمـاندي خليفـة له وذلـك على الرغـم من عـدم محبته لـه ـــستيفنـــ وميله إليه.

سنة اثنتين وخمسين ومائة وألف

ترك غيوفري لابنه هنري أوف أنجو ونورماندي ادعاء الحق بوراثة عرش انكلترا، الأمر الذي لم يفلح به شخصياً، وحدث الآن أن انفصل لويس السابع ملك فرنسا عن زوجته، ابنة كونت بواتو على أساس القرابة المحرمة، وإثر هذا تزوجها الدوق الجديد هنري، ومن خلالها استولى على بلاد بواتو، وزاد من مكانته وعلوه كثيراً (١٤)، وكان هذا الزواج السبب في اثارة كراهية عظيمة وخلاف بين ملك فرنسا والدوق.

وقام الآن يوستاس ابن الملك ستيفن مع ملك فرنسا بحملات على نورماندي، وقاومها الدوق بكل شجاعة وردهما مع الجيش الفرنسي، ثم حشد الملك لويس جميع خصومه، وهاجم قلعة منيعة الجانب، كانت لاترام وكان اسمها نوف مارشي Neufmarche واستولى عليها، وأعطاها إلى يوستاس ابن ملك انكلترا، الذي زوجه من ابنته.

واقترح الملك ستيفن في السنة السابعة عشرة من حكمه تتويج ابنه يوستاس، وطلب من رئيس الأساقفة والأساقفة الآخرين الذين جمعهم القيام برسم —يوستاس— ومباركته، فقوبل طلبه بالرفض، لأن البابا حظر برسائله رئيس الأساقفه ومنعه من تتويج ابن الملك لأن الملك ستيفن كان بالنسبة له قد استولى على العرش بشكل غير شرعي، وانزعج كلّ من الأب والابن من هذا، وغضبا غضباً عظيماً، فأمرا بسجن رجال الكنيسة في أحد البيوت وحاولا بالتهديد ارغامهم على أن يفعلوا ماطلباه منهم، وقد خاف هؤلاء وارتعبوا لأن الملك ستيفن لم يحب رجال الدين مطلقاً، وسلف له أن تولى سجن اثنين من الأساقفة، ومع هذا صمدوا على الرغم من أنهم خافوا على رؤوسهم، وبعد طويل وقت نجوا دونما

ايذاء، مع أنهم جردوا من مقتنياتهم، التي أعادها الملك إليهم فيما بعد، عندما تاب.

وحاصر الملك في السنة نفسها قلعة نيوبري Newbury ، التي لم تكن بعيدة عن ونشستر، واستولى عليها، ومن هناك تولى حصبار وولنغفورد، وبنى قلعة حصار على مدخل الجسر، فحال بذلك دون الوصول إلى المحاصرين ودون ايصال المؤن إليهم، وعندما ضغط على هؤلاء بشدة، طلبوا من مولاهم، دوق نورماندي، إما أن يرسل المساعدات إليهم، أو منحهم الاذن بتسليم القلعة إلى الملك.

سنة ثلاث وخمسين ومائة وألف

وفي السنة الثامنة عشرة من حكم الملك ستيفن، أرغمت الضرورة هنري صاحب أنجو ودوق نورماندي على القيام بزيارة غير متوقعة إلى انكلترا، وبوصوله بدت هذه البلاد التعيسة، والتي عانت من قبل من العيث والفساد، وكأنها تكسب حياة جديدة.

وعندما وطأ الدوق العظيم شواطىء انكلترا، امتلأت الأرض بالأخبار، مثل حقل قصب حركته الرياح، وانتشرت الأخبار بسرعة، وكما هي العادة جلبت الفرح والسعادة إلى بعض الناس والخوف والأسف إلى آخرين، لكن الذين اعتراهم السرور لدى سماعهم خبر وصوله، انزعجوا قليلاً لدى معرفتهم أنه جلب معه عدداً قليلاً من الرجال، وفي الوقت نفسه كان انزعاج أعدائه من أخبار وصوله ضعيفاً أيضاً، ورأى بعضهم أن عبوره للبحر الهائج في وسط الشتاء عمل شجاع، ووجد بعضهم أن ذلك كان حماقة، ولكن الشاب الشجاع حشد إليه جميع مؤيديه ومزجهم: هؤلاء الذين جلبهم مع الذين وجدهم، وبما أنه كان يكره

التأخير فوق كلّ شيء، ألقى الحصار على قلعة مالمزبــري Malmes-bury.

وبما أن فضائل هذا الرجل كانت كثيرة وعظيمة، فإنني سأتولى معالجتها بسرعة حتى لاتطول حكاية أعماله وتأخذ حيزاً كبيراً، وحوصرت القلعة (لأنه كان رجلاً لايحب تأجيل الأعمال) وهوجمت، ومالبث أن استولى عليها، وعندما سقطت البلدة، قاوم الحصن الكبير لصالح الملك، وتولى الدفاع فيه جوردان، وبات من الممكن السيطرة عليه بوساطة التجويع فقط، وخرج جوردان وذهب مسرعاً نحو الملك ستيفن ليخبره بما حدث، ولقد انزعج الملك لدى سماعه هذه الأخبار السيئة، واربد وجهه وعلاه الحزن بدلاً من مظهر الفخار والعظمة، وبادر بنشاط كبير فجمع قواته، وعسكر على مسافة لم تكن بعيدة عن مالمزبري.

واستعرض في اليوم التالي جيشه، الذي حوى عدداً كبيراً من الفرسان المتميزين الرائعين، وكان جيشاً لجبا فيه كثير من البارونات، وكانت راياتهم تلمع بالذهب، وكانت جميلة ومرعبة بالفعل، لكن الرب الذي عنده وحده ومعه الأمان والسلامة، لم يكن معهم، لأن بوابات الفيضان من السماء انفتحت، وجاء برد شديد وريح صرصر، وانهمرت الأمطار في وجوههم، حتى بدا كأن الرب نفسه كان يقاتل لصالح الدوق، غير أن الجيش زحف بانتظام، وكأنه يقاتل قدرات الرب وطاقاته، ولهذا عانى كثيراً.

واعتمد جيش الدوق الشاب على الشجاعة أكثر من اعتماده على الأعداد، خاصة وأن عدالة القضية التي كانوا يقاتلون من أجلها قد ضمنت لهم أنهم مدعومين بنعمة الرب، وقد اصطفوا ليس بعيداً عن أسوار بلدة مالمزبري، على طرف نهر صغير، أعطته الأمطار الغزيرة والثلوج قوة أصبح بها مخيفاً إلى حد أنه ما إن يصبح الانسان هناك حتى يعجز عن الخروج.

وكـان الشـاب النبيل على رأس جيشـه، وكان جمالـه الجسـدي أخـاذ للنفس، وقد تميز بسلاح جدير به، وكـان مناسباً له إلى درجة يمكن القول فيهـا إن سلاحـه لم يمنحـه الشهرة بل هـو منح السـلاح شهرتـه، وجعل الكونت مع رجـاله السبخة وراء ظهـورهم، وكانت هذه السبخـة في وجه جيش الملك، ولذلك كـانوا لايستطيعون إلا بصعوبـة حمل أسلحتهم فوق رماحهم المبللة.

وبما أن الـرب عزم على أن ينـال طفله البـلاد من دون سفك للدمـاء، وألا يتمكن أيـاً من الفريقين من عبـور النهـر، ولأن الملك بات غير قـادر على تحمل المطر المنهمـر والفيضان النـاتج عنه، عـاد أدراجه نحـو لندن، وبـذلك باتت هـزيمته كـاملة، ولـذلك استسلمت القلعة المحـاصرة إلى الدوق، الـذي بادر مسروراً وبكل سرعة نحو انجـاز ماتوجب عليـه وجاء من أجله، أي التفريج عن قلعة والنغفورد التي كانت على حافة المجاعة.

وقد حشد كتلة كبيرة من العسـاكر ليحمل المؤن إلى الحامية المحاصرة، وسهل الرب نـواياه بشكل كبير، حيث حمل هـذه المؤن ووصل بها دون أن يلقى معارضة، مع أنه كان هنـاك الكثير من القلاع في تلك المنطقة كانت في أيـدي القوات الملكيـة، فمن خـلال عـون الـرب وارادته لم يستطيعـوا منعه من الـذهاب والإياب، وبعد مضي وقت قصير حشـد الدوق المقدام جميع الفـرسان الـذين وقفوا إلى جـانبـه وشرع في حصار قلعـة كرومـارش Crowmarsh ، وقد بـدأ هذه المهمـة المتعبة والصعبـة بحفر خنـدق حول كلّ مـن قلعة الملك وجيشه الخاص، وبـذلك بات طـريقه الـوحيد للخروج يمر عبر قلعة والنغفورد، بينما لم يبق للمحاصرين طريق للخروج.

وعندما سمع الملك بهذا جمع جميع القوات التي تـوفرت له من المناطق الخاضعة لـه، وانحدر غاضباً نحـو الدوق، الذي لم يكن خائفـاً أبداً، مع أن قواته كـانت أقل من قوات الملك، وقد أمـر على الفور أن يطم الخندق الـذي أمـر بحفـره لحمايــة جيشـه، ورفع الحصــار، وزحف بشكل رائع

لمواجهة الملك، وعندما رأى الجيش الملكي المشهد غير المتوقع، وهو جيش عدوه، وقد اصطف للقتال واقفاً أمامه، استولى عليه الرعب فجأة، ولكن الملك لم يكن خائفاً أبداً، وأمر رجاله بالزحف إلى خارج المعسكر على شكل صفوف قتالية، لكن البارونات، أولئك الخونة لانكلترا، رفضوا هذا وعارضوه، ودعوا إلى التوصل إلى مصالحة، ومع أنهم لم يحبوا شيئاً أكثر من حبهم للتمزق، كانوا غير راغبين في انشاب القتال وحدوث معركة، لأنهم لم يرغبوا في أن يربح أياً من الطرفين، لأنه إذا ما انهزم أحد الطرفين سيكون من السهل وقوعهم تحت سيطرة الطرف الآخر، لكن إذا ظلّ كلّ طرف يخشى الآخر، فإنه من غير الممكن ممارسة السلطة الملكية عليهم.

ولم يرغب الملك ولا الدوق في أن يرغما على اقامة هدنة، وقد أدرك كلّ منهما خيانة مسانديه، لكن كما هي العادة، كان الرب واقفاً إلى جانب الدوق، غير أنهم وافقوا على أنه ينبغي هدم القلعة الملكية التي حاصرها الدوق، وعقد الملك والدوق مؤتمراً منفرداً، عبر واحد من الأنهار الصغيرة، وتباحثا فيما بينهما حول السلام، واشتكى كلّ واحد منهما إلى الآخر من خيانة نبلائه، وهنا بدأت معاهدة السلام، ولكنها لم تكتمل حتى مناسبة أخرى.

ولم ينته صراعهما عندما عاد كلّ واحد منهما إلى مقره، لكن الضوء بدأ يبزغ حول حظ الدوق العظيم، حيث أن اثنين من أكبر أعدائه وأعظمهم قوة، وأعني بهما: يوستاس ابن الملك، وسيمون ايرل نورثأمبتون تمزقا وغابا بحكمة من الرب، واختفيا في الوقت نفسه، ونتيجة لهذا فقد جميع خصومه بشكل مفاجىء الأمل والشجاعة.

لقد ماتا كلاهما بالمرض نفسه في أسبوع واحد نفسه، ودفن الايرل سيمون، الذي فعل كلّ شيء غير شرعي أو خلقي، في نورثأمبتون، ودفن ابن الملك في دير أسسته أمه في فيفرشام Faversham ، وكان

فارساً مجرباً، لكنه كان رجلاً غير رباني عنيف جداً مع قادة الكنيسة، وكان مضطهدهم الثابت المصمم، وبازالة الرب لأعظم أعداء محبوبه هنري، مهد له بلطف السبيل إلى حكمه السلمي.

وتناول الحصار الثالث قلعة ستام فورد، وسقطت البلدة دونما تأخير، لكن حامية القلعة راسلت الملك طالبة المساعدة، وكان الملك يحاصر ابسوتش Ipswich ، التي كان يدافع عنها، ويقف ضده فيها هيو بيغود، وبما أن الملك لم يكن يرغب في رفع هذا الحصار، وبالتالي لايمكنه الذهاب لنجدة تلك الحامية، فقد استسلمت القلعة إلى الأمير هنري، وكذلك استسلمت القلعة التي كان يحاصرها الملك، وترك الدوق النورماندي ستام فورد وذهب إلى نوتنغهام، واستولى على البلدة على الفور، وقد أحرقت هذه البلدة إثر هذا من قبل حامية القلعة، ولحزنه على ماحدث أخذ الدوق جيشه إلى مكان آخر.

وكان في الوقت نفسه رئيس الأساقفة ثيوبولد يبذل غاية جهده في سبيل إعداد اتفاق سلام، حيث ناقش هذا الأمر مراراً مع الملك، وعالجه مع الدوق عن طريق المبعوثين.

ورأى هنري أوف بليوس، رئيس أساقفة ونشستر، وهو الذي خبط المملكة بإعطاء أخيه ستيفن التاج، أن كلّ شيء قد دُمر بوساطة النار والقتل، وبعدما رأى هذا أسف لما حدث، وسعى نحو وضع نهاية لهذه الشرور بتمكين الأميرين من الاتفاق.

ووضعت حكمة الرب، التي خلقت كلاً من الخير والشر، نهاية لآلام انكلترا، وحققت الوصول إلى محصلة لما بدأ بجعل السلام مؤكداً على الطرفين، وأ ن ينتشر ذلك باخلاص.

ولكم كان السرور عظيماً، والبهجة كبيرة، أيها اليوم المبارك، الذي استقبل فيك الملك نفسه الأمير الشاب في ونشستر، في استعراض رائع

للأساقفة والنبلاء خلال أصوات تحيات الجماهير.

واستقبله الملك وكأنه ابنه المتبنى، واعترف به وريثاً له، ومن هناك أخذ الملك الدوق إلى لندن، حيث جرى استقباله بفرح عظيم من قبل الجماهير، وبمواكب رائعة لائقة برجل عظيم مثله، وهكذا بفضل من رحمة الرب بزغ فجر السلام على مملكة انكلترا المدمرة، ووضع نهاية لليلها المضطرب.

وبعدما انتهى هذا افترق الملك ستيفن عن ابنه الجديد بسرور ومحبة على أن يلتقيا ثانية في أقرب وقت، لأن السلام كان قد تأكد قبل عيد الميلاد.

سنة أربع وخمسين ومائة وألف

والتقيا ثانية في الثالث عشر من كانون الثاني في أكسفورد، وذلك بعد مضي سنة أمضاها الدوق في الاستيلاء على انكلترا، أو بالحري في إعادة توحيدها، وقدم هناك جميع عظماء انكلترا —بناء على طلب من الملك— الولاء مع يمين التبعية إلى مولاهم الدوق، ولم يستثنوا سوى التمجيد والاخلاص اللذين هما من حقوق الملك طوال حياته، وتركوا جميعاً هذا الاجتماع الرائع وقد امتلأوا بالغبطة، وكانوا مسرورين بسبب السلام الجديد.

ولم يمض وقت طويل حتى التقيا ثانية في دنستيبل Dunstable ، حيث ظهرت بعض الغيوم المكدرة في الأفق، ولم يكن الدوق راضياً تجاه القلاع التي بنيت في كلّ مكان لأسباب شريرة بعد وفاة الملك هنري

الأول، والتي لم تهدم حسبما تم الاتفاق عليـه في السلام الـذي عقد أخيراً بينه شخصياً وبين الملك ستيفن، وكـان عدد كبير منها قد هـدم، باستثناء بعضهـا من خلال الملك ستيفن، فهـو قد وفـرهـا لبعض رجالـه إما بنيـة سيئة أو عطفـاً عليهم، وبدا هـذا التصرف وكأنه يلغم المعـاهدة، وتشكى الدوق حـول هذا الأمر إلى الملك، لكنـه دوفع، فتغاضى مكرهـاً عن هذه القضية، وتخلى عنهـا لوالـده الجديد، ذلـك أنه خشي أن تفسـد اتفاقهما، وقد افترقا متصادقين.

وبعـد هــذا بـوقـت قصير، عـاد الــدوق بإذن من الملك، منتصراً إلى نورمـاندي، فهذا ماكـان هنري، أكثر الشبـاب شهرة، قد فعله في زيـارته الثانية إلى انكلترا.

هذا وآمل ألا يصدر حكم ضدي لإقدامي على رواية أخبار العديد من أعماله الرائعة بشكل موجز ايجازاً شـديداً، حيث يتوجب عليّ رواية أخبار العديد من الملوك مع أخبـار أفعالهم عبر عدد كبير من القرون، ولاشك أن هـذا عمل متعب سوف يحتـاج إلى عدة مجلـدات، وكانت فكـرتي هي أن أقوم باختصـار التاريخ في كتاب واحد، على أن لا أتجاهل تمامـاً ماسيكون في المستقبل.

ونعود الآن إلى العمل، فعندما عاد الـدوق إلى فرنسا، استقبل استقبالاً كلـه سرور وتمجيـد من قبل أمــه مـاتيلــدا، مع اخـوانــه وجميع شعب نورمـاندي، وأنجـو، ومين وبواتـو، وكان الملك ستيفن الآن يحكـم بسلام وذلك للمـرة الأولى، وبفضل ابنـه المتبنى نـال التشريف الـلائق بملك، لكن كم هم حمقى النـاس الفانـون، ولكم هي خطايـاهم التي لاتنتهي! فقـد حـاول بعض النـاس «الـذين أسنـانهم حـراب ونشـاب، وألسنتهم سيـوف حادة» قـدر استطاعتهم أن يـروا عدم الـوفاق بين الملك والـدوق الغـائب، ولم يكن باستطـاعة الملك، أو لم يـرغب في مقـاومة ضغـوطهم، وبعـد وقت قصير اعتقد بعضهم انـه تـوقف عن المقـاومة، وصحيح انـه

تظاهر بعدم الرضا، لقد كان بالواقع راغباً بالاصغاء إلى آرائهم الشريرة.

ومهما يكن من أمر، إن الرجال شيء، وحكم الرب شيء آخر، وهو الذي أنهى ماشرع به، بأن جعل نهاية مؤامرات ذوي الآراء الشريرة تصل إلى لاشيء، فقد حاصر الملك ستيفن قلعة دريك Drake قرب يورك، وبعدما هدمها واستولى على عدد آخر من القلاع ذهب إلى دوفر للتحادث مع كونت فلاندرز، ووقع أثناء المؤتمر مريضاً، وفي الخامس والعشرين من تشرين الأول لعام ١١٥٤ فارق الحياة، ودفن في دير فيفرشام إلى جانب زوجته وولده، وقد حكم غير سعيد ومع متاعب شديدة لمدة تسع عشرة سنة.

وبسرعة أرسل رئيس الأساقفة ثيوبولد مع عدد كبير من النبلاء الانكليز رسائل لإخبار مولاهم دوق نورماندي حتى يحضر سريعاً ويتولى مقاليد المملكة، وقد تأخر بسبب الريح والبحر ولأسباب أخرى، غير أنه نزل إلى اليابسة قبيل حلول عيد الميلاد بعدة أيام في نيوفورست، ومعه زوجته واخوانه، والعديد من النبلاء وقوة كبيرة، ومكثت انكلترا بدون ملك لمدة ستة أسابيع، لكن بنعمة من الرب لم يضطرب الحال، إما بسبب حب ملك المستقبل أو خوفاً منه، وبعدما نزل هنري إلى اليابسة ذهب إلى لندن، وهناك بورك بشكل لائق ورائع جدير برجل له مكانة عالية، وحين نال المباركة كملك، تم ذلك وسط غبطة عظيمة، وصيحات كلها فرح وسرور، وجرى تتويجه بشكل رائع ومهيب.

القسم الثالث

هنري الثاني: ١١٥٤-١١٨٩

حكم في سنة ١١٢٤، فولك الخامس، كونت أنجو، إحدى أعظم اقطاعيات فرنسا فقط، وأصبح بعد ذلك بثلاثين سنة حفيده هنري بلانتغنت ملك انكلترا، ودوق نورماندي وأكوتين مع كونه كونت أنجو، وكان هنري حاكماً ناجحاً إلى أقصى الحدود، غير أن مجرد حجم ممالكه أوجد له مشاكل واسعة عملاقة، وأنجب هو وإليانور النارية، دوقة أكوتين أربعة أولاد، كانوا يماثلون ثلاثين في قوتهم مثل أبيهم، وكان لويس السابع ثم فيليب الثاني ملكي فرنسا، سادة قاريين للأراضي الأنجيفية، ولهذا كانا حليفين نافعين لهم، وذلك مثلما كانت إليانور، التي أصبحت أخطر خصوم هنري، وفيما بعد سجينته التي لاحول لها ولاطول، وكان توماس بكت **Beckt** *في البداية المستشار المخلص للملك، ثم رئيس أساقفة كانتربري المعادي له، ذلك أنه كان واحداً من الشخصيات الرئيسية.*

ورسم «تاريخ الشؤون الانكليزية» الذي كتبه وليم كاهن نيوبيرغ المشهد أثناء بداية حكمه، ولكن المصدر الأساسي هو الجزء الثالث من كتاب «صورة التاريخ» تأليف رالف أوف ديسيتو **Diceto** *عميد كاتدرائية القديس بولص من حوالي ١١٨٠ حتى وفاته في حوالي ١٢٠١.*

في السنة ١١٥٤ لتجسيد ربنا، وبعد موت الملك ستيفن، جاء هنري حفيد الملك الأول، عن طريق ابنته الامبراطورة المتوفاة، من نورماندي، واستحوذ على مملكته الموروثة أمام الجميع، وقد جرى رسمه وتعميده ملكاً، بينما صرخ الشعب في أرجاء انكلترا «ليحيا الملك حياة طويلة»، وفي الحقيقة ظهرت شرور كبيرة أثناء الحكم المتقدم، وأمل الشعب، بعد معاناته الماضية، من أجل أشياء أفضل من الملك الجديد، خاصة عندما رأى هذا الشعب انه امتلك حكمة متميزة، ومثابرة، وغيرة من أجل العدل، وظهر في كلّ خطوة من خطواته انه أمير عظيم، ومنذ البداية أصدر مرسوماً ضد المرتزقة الذين تدفقوا في ظل حكم الملك ستيفن على انكلترا من جميع المناطق الأجنبية، من أجل الحصول على الغنائم وكذلك في سبيل حرفة القتال، لاسيما الفلمنكيين منهم، حيث عمل حشد كبير منهم في البلاد، وأمر هؤلاء بالعودة إلى بلادهم، وعين لهم يوماً إذا ماتأخر أحدهم عنه وبقي في انكلترا فإنه يتعرض لبعض المخاطر ويواجهها، واستولى عليهم الرعب بسبب هذا المرسوم، وتسللوا هاربين في وقت قصير، بدوا فيه وقد اختفوا مثل اختفاء الشبح، واندهش كثير من الناس أمام سرعة مغادرتهم، وأمر بعد هذا بهدم جميع القلاع التي لم تكن موجودة في أيام جده، وذلك باستثناء عدد قليل منها قامت في مواقع هامة ومفيدة، وقد رغب في ابقاء بعض هذه القلاع لنفسه، أو وضعها في أيدي رجال أمناء للدفاع عن المملكة.

وأولى هنري الثاني في هذه الأيام الأولى لحكمه عناية حقة لمسألة النظام العام، وعمل جاهداً في سبيل بعث النشاط القانوني في انكلترا، هذا النشاط الذي بدا وكأنه مات ودفن أيام الملك ستيفن، وعين القضاة في جميع أرجاء المملكة مع موظفين قانونيين لقطع دابر مساوىء الأشرار، ولإيصال العدالة إلى المظلومين تبعاً لأهمية قضاياهم، وكان سواء انشغل في مسائل فرح ومتعة أو في شؤون الدولة يراقب مراقبة حثيثة المصالح

الملكية، وغـالباً إذا ما كـان أي واحد من قضـاته متراخياً أو خشنـاً جداً، كان يصغي هو إلى شكاوى أهل المنطقة، ويقـدم علاجاً ملكياً، واصلاحاً فعالاً لإهمالهم أو تجاوزهم.

تلك كانت الأعمال الأولى للملك الجديـد، وقد أكسبته الحمـد والثناء من قبـل محبي الأمن وألجمـت الأشرار وقطعت أذاهم، وأرغـم الـذئاب المفترسـون على الفـرار أو على التحـول إلى شيـاه، أو أنهم إذا لم يتغيروا حقيقـة، فقـد اضطـروا خوفـاً من القـانـون على السكـون دونما إيـذاء مع الشياه، وحل العمل بـالمحراث محل العمل بـالسيف، وأخذ مقص تقليم الأشجـار مكان الـرمح، ومامن أحـد ربط نفسه الآن بأعمال القتـال، بل تمتع بنعمة مـن الرب بمذاق السلم، الـذي تطلعوا إليـه وانتظروه طـويلاً من قبل، وكان هـذا شأن الناس سواء اهتموا بمباهجهـم أو انصرفوا نحو أعمالهم.

مع بدايـة حكم هنري، ظهـر تومـاس بكت وبرز في خدمـة ثيوبـولد رئيس أساقفة كانتربري، ويقدم لنا وليم فتز ستيفن صورة لاهوتية، لكن فيها حياة، عن طفولة بكت وأعماله المبكرة.

علم الـرب وقضى أن يكرس تـومـاس المبارك [لخدمتـه] قبل أن يخرج من الـرحم، وأظهر لأمـه أي نوع من الـرجال سيكـون، ذلك أنها رأت في المنـام أثنـاء حملهـا بـه أنها تحمل في رحمهـا جميع كنيسـة كـانتربـري، وفي اللحظـة التي رأى فيها الطفل ضـوء النهـار، حملته الـوصيفة ورفعتـه بين يديها قائلة: « لقـد رفعت من الأرض رئيس أساقفة مستقبلي»، وبينما كان رضيعاً في المهـد، حلمت أمه في إحدى الليـالي أنها كانت توبخ الممـرضة لعدم وضعها غطاء عليه، وردت عليها الممرضـة قائلة: «لاياسيدتي، لديه أفضل أغطيـة» وقالت لها السيـدة: «أرينيها»، وجلبت الممـرضة الأغطيـة إليها وأرتها إيـاها، وعندمـا حاولت فتحها لم تستطع ذلك وقـالت لأمها: «إنها واسعـة جداً لاأستطيع مـدها فـوق الفـراش»، وبناء عليـه أجابتهـا

أمها: «تعالي إلى القـاعة وافتحيها هناك»، وبذلت الممرضـة جهدها لفعل ذلك، لكنها أخفقت، وقالت: «ببساطـة إنني لاأستطيع مدها كلها هنا»، وقالت الأم المندهشة وقتها: «اذهبـي إلى الشارع، إلى مكان السوق، الذي هو الآن فـارغ، فلاشك أنك ستنجحي في مدها هنـاك»، لكنها لم تستطع أن تفعل ذلك لاهي ولا الممرضة، فقالت والدهشة تعلوها:

«إن الغطـاء واسـع إلى حـد انني لاأستطيع ايجاد نهايتــه، وأعتقـد أن انكلترا كلها ستكون صغيرة جداً ليغطيها»!.

لقـد ولد تـوماس من زواج شرعي، ومن أبـوين شريفين، وكان والـده غلبرت في بعض الأحيان عمدة لنـدن، وكان اسم أمه ماتيلدا، وكـانا معاً من أهل لندن، من الطبقة الوسطى، ولم يكـونا ممن يربح المال عن طريق الربا، أو متورطاً بالأعمال، بل عاشا بشكل محترم على دخليهما.

ويمكن لنـا أن نستنتج أن والـده تلقى بعض الاشـارات العلويـة' فيما يتعلق بمستقبلـه، ونعلم ذلك من أنـه عنـدمـا كان طفـلاً أمـره أبـوه أن يـذهب إلى روبــرت رئيس ميرتـون Merton حتى يتعلم لبعض الوقت في ذلك البيت الـديني، وجاء في أحد الأيـام أبوه لرؤيته، وعنـدما جلب الطفل إلى حضرة راعي الديـر مع والده، قام الأب بالسجـود أمامه متعبداً إيـاه، وغضب الراهب وقال والـدهشة تعلوه: «ماالـذي تفعله أيها الرجـل الأحمق، أتسجد أمام قـدمي ابنك؟ إن التمجيـد الذي تفعلـه له، ينبغي بالحري أن يفعلـه لك»، ورد عليه الأب بصـوت منخفض: « إنني أعلم يامولاي الذي أفعله: إن هذا الطفل سيكون عظيماً في نظر الرب».

وهكذا أمضى تـوماس سنوات طفـولته، ثم عنـدما صار صبيـاً، وبعد ذلك عندمـا وصل سن البلوغ ببسـاطة في بيت أبيـه وفي مدرسـة المدينة، وعندمـا كان شابـاً درس في باريس، وشـارك بعد عودتـه في بعض شؤون مدينـة لندن، حيث صار كـاتباً ومحاسباً لـدى عمد المدينة، وخـلال هذه

الوظـائف وجه نفسه بطريقـة جديرة بكل مديح، وحصل على معلـومات عن العالم، لـذلك لم يجد في مستقبل الأيام صعوبة في ادارة شـؤون كنيسة انكلترا ورعـاية مصـالحهـا العامـة مع شؤون المملكـة ومشـاكلها بحـذر وحكمة، وبرهن على كفاءة وعظمة حقيقية.

وأظهر بكت امكانـات واعدة في عمله لدى رئيس الأساقفة ثيـوبولد، ممـا جعل الملك يتخـذه مستشـاراً لانكلترا في سنة ١١٥٥، وأعطـاه هـذا مسؤوليـة الاشراف على الأعمال الديـوانية لهنـري، وكذلـك نال دوراً في الادارة الملكية.

سنة خمس وخمسين مائة وألف

وبعد تتويـج هنري الثاني ملكاً على انكلترا على يدي رئيـس الأساقفة ثيـوبـولـد، وبنـاء على تـوصية من رئيـس الأساقفـة هـذا، وبـوسـاطتـه، وبتحـريض أيضـاً من هنـري أوف بليـوس، أسقف ونشستر، أخـو الملك ستيفن، جعل تـوماس مستشـار الملك، مؤثـراً إياه على الآخـرين، لكونـه رجلاً يقظـاً، وفاعـلاً، وعى مسائل عظيمة في عقلـه، وكان مجربـاً في عدد كبير من الأعمال، ولقد قام بأعباء واجباته العملاقة وماافتضاه منه منصبه في سبيل شكـر الـرب ولصـالح رخـاء المملكة وتقـدمهـا كلهـا، وكـانت انجـازاته كبيرة إلى حـد يمكن للمرء أن يشك فيـه: هل خدم هـو الملك بتميز عظيم وكفـاءة أكثر، أم عمل في سبيل المنفعة العامـة أكثر في السلم أو في الحرب.

وتمتعت انكلترا النبيلة بـربيع ثان، جاء بالفعل من خـلال نشاط وآراء المستشـار، ومن خـلال التعـاون المخلص لـرجـال الـدين والايـرلات والبـارونات، فقـد جـرى احترام الكنيسـة المقدسـة، وأضفيت المنـاصب

الشاغـرة على الأساقفـة ورعاة الديـرة وعلى رجال الـدين الأمناء من دون رشـوة أو شراء، وحقق الملك بفضل من ملك الملـوك في أعماله الازدهـار، فـازدادت مملكة انكلترا في غنـاها، وانهمـرت عليها البركـات، ونبعت من نبع الخصب والكثـرة، فقـد زرعت التـلال، وبـذرت الـوديـان بـالقمح، وامتلأت، وعجت الحقول بالقطعان والحظائر بالأغنام.

وكانت لنـدن مسقط رأس بكت أوسع مدن البلاد وأكثرهـا ازدهاراً، وفي سبعينات القرن الثاني عشر عنـدما كتب فتزستيفن سيرة حياة بكت، غدت عاصمـة انكلترا، فقد أعاد فتزستيفن إلى الحيـاة أبنيتها وشعبها من خلال وصفه المشرق.

يوجـد في كنيسة القديس بـولص المقر الأسقفي، وقد كـانت في إحدى المرات رئاسة أسـاقفة، واعتقـد بعضهم أنها ستكون كـذلك مـرة أخرى، لـولا أن لقب رئاسة الأسـاقفة للشهيـد المبـارك تومـاس، ولولا أن وجـود جسده قد حفظ ذلك الشرف والمكانـة إلى الأبد لكنيسة كانتربري، حيث هـو الآن، لكن بما أن القـديس تـوماس جعل المدينتين ممجـدتين: لنـدن بـولادته، وكـانتربـري بموتـه، فإن كلّ واحـدة منهما يمكنهـا محقة ادعـاء التقـدم على الأخـرى وذلك بـالنسبـة لاحترام ذلك القـديس، وفيما يتعلق بممارسـة العبـادة المسيحية يـوجـد في لنـدن وفي ضواحيهـا ثـلاث عشرة كنيسة دير عظيمـة، وإلى جانبها هناك مائة وست وعشرين كنيسـة أبرشية أصغر.

ويوجد إلى الشرق قلعـة بالاتاين Palatine [قلعة لندن] وهي قلعة عظيمـة جداً وحصينة: وقـامت الأسوار على أساسـات عميقة، وهي مثبتة بملاط مـزج بدماء الحيوانـات، ويوجد إلى الغرب قلعتـان محصنتان تحصينـاً عظيماً، ويمتد من هنـاك منهما سـور عمـلاق وكبير جداً لـه سبع بوابات مزدوجة، وأبـراج على طول الجانب الشمالي توزعت على مسافات منتظمة، وكانت لنـدن في إحدى المرات مسورة وقد استـدار حولها السور

من جهة الجنوب، غير أن نهر التيمز العملاق، والمليء بالأسماك بكثافة مع مدّ البحر جرى ضد الفتحات التي وجدت في السور، ومع الأيام هدم هذه الأسوار، وفي أعلى المجرى النهري إلى الغرب هناك القصر الملكي لـ [وستمنستر] وهو واضح تماماً مرئي فوق النهر، ذلك أنه بناء لامثيل له في شرافاته الدفاعية وحصانته، وهو يبتعد حوالي الميلين عن المدينة، ويتلاقى هناك مع ضاحية شعبية.

وهناك في كلّ مكان خارج هذه البيوت في الضواحي، وعلى مقربة منهم حدائق واسعة وجميلة عائدة إلى السكان، وقد زرعت هذه أيضاً بالأشجار، كما ويوجد على الجانب الشمالي مراعي وأراضي مرجية جميلة، يجري خلالها أنهار صغيرة، في نهاياتها طواحين تصدر أصواتاً مفرحة، ويقوم بالجوار القريب غابة عظيمة، فيها مراعي حيث هناك مساكن حيوانات متوحشة مثل: الوعول، والأيل، والخنزير الوحشي والجواميس، ولم تكن الأراضي المفلوحة التابعة للمدينة حقولاً جرداء، بل كانت سهولاً خصبة مليئة بالمزروعات، تنتج محاصيل ممتازة، وتملأ مخازن الفلاح بكميات الحبوب.

وكان هناك أيضاً خارج البلدة في الجانب الشمالي آباراً جوفية، مياهها حلوة نقية، تتدفق فوق الحجارة البراقة، وبين هذه الآبار آبار مقدسة منها بئر كليركن Clerken وبئر القديس كلمنت، وهي آبار مشهورة ويتردد على زيارة هذه الآبار كثير من الناس، ويؤمها عدد كبير من التلاميذ من المدارس، والشباب من المدينة وذلك عندما يذهبون في نزهات للاستمتاع بالهواء النقي في أمسيات الصيف، والحياة في الواقع في هذه المدينة طيبة عندما يكون لها حاكم طيب.

ويمضي الذين يشاركون في مختلف الأعمال، والذين يبيعون البضائع، أو يؤجرون أنفسهم للعمل، كلّ صباح إلى أماكن أعمالهم تبعاً لمصالحهم، وبالاضافة إلى هذا يوجد في لندن على ضفاف النهر بين الخمور المعروضة

للبيع في السفن والحانات العـائدة لباعـة الخمور حوانيت تقـدم الأطعمة المطبـوخـة للنـاس، وهكـذا يمكنك أن تجد الطعـام تبعـاً للمـوسم: من اللحوم المشوية والمقليـة والمغلية، والأسماك الكبيرة والصغيرة، وهناك لحوم عادية للفقراء، وأنواع فاخرة للأغنياء، وتتوفر أيضاً أنواع الطيور من صغير وكبير، وإذا مـاحدث بشكـل غير متوقع أن استقبل أحـد السكـان بعض الزوار المتعبين من سفـرهم، والذين يمكن أن يفقدوا وعيهم إذا مـاتوجب عليهم الانتظار حتـى جلب بعض الطعام الجديد لطبخـه، أو حتى يجلب الخدم الخبـز، أو الماء لـلاغتسـال، إنهم يبـادرون مسرعين إلى ضفـة النهـر فيجدون هنـاك كلّ مايحتاجونـه، ومهما كانت عظيمة أعداد حشـود الجند والرحالـة الذين يدخلون إلى المدينة، أو يستعدون لمغـادرتها، في أي ساعة من سـاعات النهـار أو الليل، إنهم لن يصبروا كثيراً عن الطعـام، ومثلهم الذين يخرجـون من المدينة من دون عشـاء، فلقد كان بإمكـان كلّ انسان تجديد نشـاطه وانعـاش نفسه بالطـريقة التي يـرغب بها، والذين يـرغبون بتسلية أنفسهم بشكل مميز، لايحتـاجون للبحث حتى يجدوا سمك الحنش أو طيور افريقيا أو الكروان الايـنوني، ذلك أن هذا المطبخ العام كان موائماً جـداً للمـدينـة، وجزء مـن أجزاء خـدمـاتها اللطيفـة، ذلك أن الحكمـة الموروثة عـن أفلاطون قـررت أن فن الطبخ هـو تقليد لصنع الـدواء، وهو يزين مناطق الحياة الحضارية.

ويوجد مبـاشرة خارج أحد الأبواب حقل منبسط نـاعم [سمث فيلد] بـالحقيقـة والاسم، ويقام هنـاك خـلال كلّ ستـة أيام من أيـام الاسبـوع —مـالم يعترض ذلك يـوم عيـد رئيسي— عـرض شهير للخيـول الجميلـة للبيع، ويحضر هنـاك الايرلات والبـارونـات والفرسـان الـذين يكونـون في المدينة، ويخرج عدد كبير من أهل المدينـة إلى المعرض للمشاهدة أو للبيع، وإنه لمن الممتع أن تـرى الخيول القصيرة والسريعة بألوانها الـلامعة، وهي تجري في حلباتها في حـركات رشيقـة تضع خلالها حوافـرها الأمـامية على

جهة واحدة، ثم يمكن للمرء أن يشهد إثر هذا الخيول الصالحة للسادة، وهي تتحرك حركات أقل انسيابية لكن فيها رشاقة وقوة وذلك أثناء ركضها، وتجد هنا خيولاً أصيلة، لكن لم تتعود بعد على اللجام، وهي تقفز قفزات عالية أثناء سيرها، وكانت هناك أنواع أخرى من الخيول المعدة للنقل وهي قوية ونشيطة، وبعد هذا كله هناك خيول الحرب، وهي عالية الثمن ذات قوام جميل ومنظر بهي مع أذنين تتحركان بسرعة، ورقبة مرتفعة وأرداف كبيرة، وعندما تعرض هذه وتظهر طريقة سيرها، يجرب الباعة أولاً الخيول اللطيفة، ثم الخيول السريعة، حيث تتحرك الأطراف الأمامية معاً وكذلك الخلفية، وعندما يكون هناك سباق على وشك الشروع به، تدخل به الخيول القوية والسريعة وهنا تتعالى الأصوات، وتصدر الأوامر باستبعاد الحيوانات الضعيفة، ويحضر الفرسان الذين سيمتطون هذه الخيول السريعة أنفسهم للسباق، وقد يكونون ثلاثة، وأحياناً اثنين على حسب الاتفاق، وينبغي أن يكون هؤلاء الفرسان بارعين في قيادة الخيول، ويضعون بالعادة اللجم في أفواه الخيول، ومن أجل أن يبدأ السباق بشكل جيد هناك رئيس مسؤول، وتحضر الخيول وتدخل في أجواء السباق حسب الامكان، وتتحرك أطراف الخيول، وهي عديمة الصبر أثناء الانتظار لذلك لايمكنها الوقوف بثبات، وعندما تصدر شارة السباق يعدون بأقصى ما أمكنهم، ويندفعون في الحلبة بسرعة شجاعة، ولأن الفرسان حريصين على نيل النصر، فإنهم يستخدمون مهامزهم لحث الخيول المطلقة العنان، ويحثونها أيضاً بالصراخ وبالسوط، ولابد أنك ستوافق هرقل على قوله: « كلّ شيء بالحركة»، وستعرف أن زينون قد أخطأ تماماً عندما قال: «لاتوجد حركة ولايوجد هدف للوصول إليه».

وإلى جانب هؤلاء تقف في طرف آخر من الميدان بضائع أهل المنطقة من أدوات الفلاحة إلى الخنازير بأطراف طويلة، والبقر بأثداء مليئة،

والثيران ذوات الحجم الهائل، والأغنـام ذات الأصـواف، وتقف أيضـاً أكاديش صالحة للفـلاحة، بعضها كبير مع فلوه، ويتبع بعضهـا الآخر عن قرب مهرها.

ويقدم إلى هذه المدينة كلّ أمـة تحت قبة السماء، ويجلب التجار بسرور بضائعهـم بوساطـة البحر، فـالعرب يـرسلون الـذهب، والتوابل السبـأية والبخور، ويجلب السكيزيـون الأسلحة، وتأتي زيوت التمور من بـلاد بابل الغنية والكبيرة، وترسـل بلاد النيل أحجاراً كريمة، ويجلـب رجال النروج وروسيا الفراء وجلـود السمور، ولم تكن الصين غائبة بحريـرها الأرجواني، ويأتي الغاليون ومعهم خمورهم.

وبالنسبة للتـاريخ ظهر أن لندن أقدم بكثير من مـدينة روما، ومع أنهما تنحدران من الجدود التراجانيين، لقد تأسست مـن قبل بروتوس قبل روما التي تأسست من قبـل روميلـوس وريمـوس، حيث مـابـرحـوا يمتلكـون الشرائع نفسهـا من أصلهم العـام، وهـذه المدينـة مثل رومـا مقسمـة إلى أقسـام، ولها مجلس عمـد سنـوي بـدلاً من المجـالس، ولها تنظيم للسـادة ومجالس اداريـة أدنى، وتمتلك في شـوارعهـا مجاري وقنـوات ميـاه، وفيهـا أمـاكن محددة لسماع القضـايـا ولعرضهـا والحكم فيهـا، وفيهـا عـدد من المحاكم، وهي تعقد اجتماعاتها المنفصلة في أيام محددة.

ولا أعتقد بوجود مدينـة سجلها أفضل بالنسبة للكنيسة ولأعمالها، فهي تقدم الاحترام والتبجيل للأوامر الربـانية، وتحافظ على أيام الأعياد، وتقدم المساعـدة والضيافـة للغربـاء، وتؤكـد أعمال الخطوبـة، وتعقد الـزيجات، وتحتفل بـالأعـراس، وتقيم الاحتفـالات، وتحتفي بـالضيـوف، ويمكن أن نضيف أيضـاً: تهتم بـالجنـائز وبـدفن الموتى، ومصـائب لنـدن هي السكارى الحمقى الذين يشربون بلا حدود، والحرائق المتوالية.

ونضيف إلى ماتقـدم أن غالبيـة الأساقفـة ورعاة الـديرة في انكلترا هم

من أهل لنـدن ورجالها الأحـرار، ويمتلك كلّ واحد منهم بيتـه الفخم في بلدته، ففيها يعيشون ويمضون معظم أوقـاتهم، ويذهبون إلى لندن عندما يستدعون لحضور اجتماع مع الملـك أو مع مطرانهم، أو ينحدرون إلى هناك لقضاء مشاغلهم الخاصة.

وينشغل الشباب في أيـام الأعياد خلال الصيف في رياضـات الرمي، والركض، والقفـز، والمصارعـة، ورمي الحجارة، وقـذف الرمـاح إلى ماوراء اشارات محددة، وبالقتال بالسيف والترس.

وتقود أفـروديت رقصات الفتيات، حتى تجد الأرض تهتـز تحت الأقدام المتطايرة، حتى ظهور القمر.

وفي الشتاء هنـاك قبل كلّ يوم عيـد تقريباً، وقبل الغـداء، إما خنـازير وحشيـة مسلحـة بأنيـاب قـاطعـة تقـاتـل من أجل حيـاتها، أو من أجل لحمهـا، أو ثور قـوي مع قرون متينـة للنطح، أو دببة كبيرة تترك لانشـاب قتال مع كلاب صيد تطلق عليها.

وعنـدما تثـور الزوابع العظيمـة في الشمال، ويتجلد السـور الشمالي من المدينـة، ينطلـق إلى هنـاك جماعـات مـن الشبـاب للعب فـوق الجليـد، فبعضهم يركض بسرعـة فائقـة فوق الجليد وهـو مفتوح السـاقين أو يتزلج فوق كتلـة كبيرة من الجليد، ويصنع آخـرون مقاعد مـن كتل ضخمة من الجليد، وفي الوقت الذي يجلس فيه أحـدهم فوق المقعد، يركض الآخرون بأيدي متشـابكة نحـو الأمام ويجرون المقعـد خلفهم، وغالبـاً ماينـدفعون بسرعة عظيمـة إلى حد أنهم قـد ينزلقـون فينكبون جميعهم على وجـوههم، ويضع آخرون أكثـر براعـة في رياضة الشتـاء، على أقدامهم عظـام الساق لبعض الحيوانات، ويـربطوها بإحكام حول كعـابهم، ويحملون في أيديهم أعمدة مغطاة بالحديد، يضربون فيها من وقت لوقت ضد الجليد، وتراهم مندفعين بسرعة فائقة فـوق الجليد، حتى لكأن أحدهم طائر يطير، أو رمية

قـذفت من آلـة حـرب، ويقوم في بعض الأحيـان اثنـان منهم، بنـاء على اتفاق ضـد بعضهما من مسافة بعيـدة جداً، وعندمـا يقتربان من بعضهما بعضاً، يرفعان الأعمدة ويسـدد كلّ واحد منهما على الآخر، والذي يحدث هو أن يسقط أحـدهما أو كلاهما، لكن ليس بدون جراحـة جسدية، لأنهما عندما يسقطـان تندفع أجسادهما إلى مسافـة بعيدة عن بعضهما بفعل قوة ركضهما، وحيثما لامس الجليـد رأسيهما، يكشط الجلـد تمامـاً، وغـالبـاً مـايحدث أن تنكسر ذراع أو ساق، إذا مـاسقط الضحية مع عمـوده تحت خصمـه، لكن أعمارهم فيها جشع نحـو الفخـار، فالشبـاب يتشوقـون إلى النصر، ويمارسـون المبـاريـات الخادعـة من أجل تعـويـد أنفسهم على الشجاعة في معارك حقيقية.

ويجد كثير من النـاس المتعـة بـالـريـاضـة مع الطيـور في الهواء، ومع الصخـور والنسـور والعقبـان، ومع الكـلاب التي تصطـاد فـريستهـا في الغـابات، وامتلك السكـان الحق بمطـاردة الفرائس في مـدل سكس وفي هارتفورشير، وفي جميع منطقة تشلتيرن Chiltern ، وفي كنت حتى نهر كري Cray.

وأنجبت هذه المدينة في العصـور المسيحية الامبراطور قسطنطين الكبير ابن الامبراطـورة هيلينـا (حنـه)، وهـو الـذي منح رومـا وجميع الشـارات الامبراطـورية للـرب وللقـديس بطرس، وللبـابا سلفستر، البـابـا الرومـاني [منحة قسطنطين]، فله فوّض منصب السياسة، فهو لم يعد يشعر بالسرور إذا مادعي بـاسم الامبراطور، بل بـات يفضل لقب «المدافع عن الكنيسة الـرومانيـة المقدسـة»، وخشية منـه أن ينزعج المولى البـابا بضجيج الحيـاة المدنية وصراعاتها التـي تحدث أثناء حضوره، آثر هـو نفسه أن يترك المدينة التي منحها للمولى البابا، وبنى لنفسه مـدينة بيزنطة، وفي العصور الحديثة أنجبت لندن أيضاً الملوك الرائعين المشهورين:

الامبراطـورة ماتيلـدا، والملك الشاب هنـري بن هنري الثـاني، ورئيس

الأساقفة توماس المبارك، ذلك الشهيد الرائع في سبيل المسيح، فهي لم تنجب قديساً طاهراً خيراً منه، ولا واحداً عزيزاً أكثر منه على قلوب الرجال الطيبين في جميع أرجاء العالم اللاتيني.

هناك تعارض معتبر بين رواية فتزستيفن، وماكتبه بمهارة روائية جيرالد أوف ويلز، وفي نظرة نحو أخبار حوادث أيام هنري الثاني الأخيرة، نجد هذه الرواية القصيرة عنه وعن إليانور أوف أكوتين تظهره في ذروة حقده وضغينته.

عندما انقضت سنتا الحرب (١١٧٤) وتوقف القتال مع التعذيب، عزا الملك نجاحه —مثله في مثل فرعون آخر— لا إلى الرحمة الربانية بل إلى قوته، وجعل قلبه قاسياً، وعاد برعونته إلى بؤرة شروره المعتادة، أو بالحري، عاد إلى بؤرة أعظم شروراً، ومنذ أن انحدر أخذت الأشياء تزداد سوءاً، ولكي أتولى ذكر واحدة من هذه المساوىء، وأدع البقية: لقد تولى سجن زوجته الملكة إليانور عقوبة لها على تدمير زواجهما، ذلك أن خيانته الزوجية التي كانت سرية من قبل، باتت الآن مكشوفة وواضحة، وهي لم تكن مع «وردة نقية» حسبما دعيت بشكل زائف وسميت، بل بالحري مع واحدة غير طاهرة أو نقية، وبما أن الناس يقلدون ملوكهم، هو لم يسىء فقط بسلوكه الشخصي، بل بالمثل السيء الذي ضربه(١٥).

هذا ومعروف عظيم المعرفة كيف تصرفت إليانور ملكة فرنسا عندما كانت في فلسطين فيما وراء البحار، وكيف تصرفت لدى عودتها نحو زوجها الأول، ثم نحو زوجها الثاني، وكيف أن أولادها بعثوا آمالاً عظيمة عندما كانوا شباباً، لكن هذه الآمال ذبلت وتلاشت.

فمن ابنتيها: الصقلية والسكسونية، توفيت الأولى دون أولاد، وتوفيت الثانية بدون سعادة، واحدة بدون نتاج، والثانية لم تكن خلوة من

التعاسـة، أما فيها يتعلق بالآخـرين: الفرع الاسباني والفـرع الألماني، والفرع البريتـاني، ستكـون الأجيـال المقبلـة في وضع يمكنهـا من الحديث عن مصيرهم، دعونا لانمضي فيها بينهم، حيـث أن بعضهم قد يجد هذا مضراً ومؤذياً، ومن المؤمل، بإرادة الـرب أن يأتي بعض الخير من الزواج الاسباني السعيد.

ومن المعـروف أيضـاً بشكل واضح أن ابنتيهـا من الملك لـويس ملك فرنسـا: واحدة تـزوجت من هنري كـونت شامبين، وتـزوجت الثانيـة من أخيه ثيـوبولـد كونت بليوس، وقـد سقطتا مع مـاأنجبتاه في فلسطين وفي بلاد الاغريق. .

ولكي نبين كيف كان نسل الملك هنري ممتحنين، علينـا فقط أن نتذكر أن الامبراطور هنري الخامس الذي تزوجت إليـه ماتيلدا، ابنة هنري الأول وأم هنري الثاني، قـام من أجل مطامح دنيوية بـأسر أبيه الطبيعي وتقييده بـالأغـلال، ثم كرر فعلتـه هـذه مع أبيـه الروحـي —أعني بذلك البـابـا باسكـال— وبعد ذلك تخلى عن حكم الامبراطـورية، وذهب للترهبن في غـربي بريطـانيا، قـرب تشستر، وعـاش حياة قـداسة وتـوبـة حتى موتـه، وعندما عادت الامبراطورة ماتيلدا إلى أبيهـا في بلدها، زوجها من غيوفري كونت أنجـو، مع أن زوجها كان مايـزال حياً، ورزق غيوفري منهـا بثلاثة أولاد، اثنـان منهم توفيـا بسرعـة كبيرة وبترا وهما في ريعان الشبـاب على الرغـم من الآمال العظيمة التي علقت عليهما، وبدأ الثالث بشكل أفضل مما انتهى إليه.

ومجدداً، عندمـا كان غيوفري أوف أنجـو كبير أمراء فرنسـا، استفاد من الملكة إليـانور، ولهذا السبب غالبـاً ماحذر ابنه هنـري، وأنذره، وأخبره ألا يلامسهـا، وقد قيل إن سبب ذلك لكونها زوجة مـولاه، ولكونه قد عـرفها هو نفسه شخصيـاً، وآخر هذه الآثار المرعبـة المغضبة، لقد روي أن الملك هنري قد نـام زانياً مع ملكة فرنسـا المذكورة، وانتزعها مـن مولاه وزوجها

من نفسه، وإنني أتساءل: كيف يمكـن لأي شيء سعيد أن يأتي من هذه الزيجات؟.

وليس على غـرار جيرالد أوف ويلـز، قام المؤرخ رالف أوف ديسيتـو Diceto بالكتـابة حـول الأحداث التاريخية بطريقـة ايجابية، وقـد بدأ حكايته عن حكم هنري الثاني مع حوادث سنة١١٥٥ .

ولـد الـولـد هنـري في لنـدن لهنـري ملك انكلترا والملكـة إليـانـور في ٢٨شباط، وقد جرى تعميده من قبل رتشارد أسقف لندن.

وتم انتخاب روبـرت عميد سـالسبري أسقفاً لإكستر Exeter ، وجرت سيامته من قبل ثيوبولد رئيس أساقفة كانتربري.

وجـرى تتـويج فردريـك ملك ألمانيا امبراطـوراً من قبل هـادريـان في كنيسة القديس بطرس [رومـا]، وغادر هنري أوف بليوس أسقف ونشستر، انكلترا دون الحصول على إذن الملك، ونتيجـة لذلك أمـر الملك بهدم ستة من قلاعـه. وتم حرمـان وليم بيفيريل Peverel أوف نوتنغهام من ميراثـه لأنـه أعطى السم إلى رانـــولف ايـرل تشستر، واستـولى الملك على حصن غلوستر وعلى قلعتي بـردجنورث Bridgnorth وويغمور Wigmore ، الـذين حصنهم هيــوج أوف مـورتـايمـر Mortimer ضده.

سنة ست وخمسين ومائة وألف

عبر الملك هنري القنـاة من دوفر، ونـزل خارج وزانت Wissant ، حيث قابل ثيري كونت فلاندرز والكونتسه سيبل، التي كانت عمته.

سنة سبع وخمسين ومائة وألف

أنجبت الملكة إليانور ولداً ذكراً في اكسفورد، أطلق عليه اسم رتشارد، وعبر الملك هنري عائداً إلى انكلترا، وأعاد مالكولم ملك اسكوتلندا إليه مدينة كارل آيل، وبلدة بامبره، ونيوكاسل فوق التاين Tyne، ومنطقة لوثيان Lothian.

ووصل ثيري كونت فلاندرز والكونتسه سيبل إلى القدس.

سنة ثمان وخمسين ومائة وألف

ذهب هنري ملك انكلترا ليلبس التاج في وورستر، غير أنه بعد القداس الديني وضع التاج على المذبح، غير راغب في أن يتوج ثانية [لأنه كان لديه اهتمام ضئيل بالرسوم].

وولدت الملكة إليانور ولداً سمي غيوفري.

وجرى صك نقد جديد في انكلترا.

وقدم توماس، مستشار الملك إلى باريس، وسط احتفال عظيم، بغية تلقي مرغريت ابنة ملك فرنسا، لتكون زوجة لهنري ابن ملك انكلترا.

وعبر هنري ملك انكلترا القنال فور سماعه نبأ وفاة أخيه غيوفري، واستولى على ننتس Nantes.

ومضى لويس السابع ملك فرنسا متقدماً خلال نورماندي، عازماً على الوفاء بنذره في جبل القديس ميكائيل، وقد جرى استقباله في الكنائس

الكاتدرائية بـرسوم دينية، وجاء الناس واحداً واحـداً للترحيب به، وقدموا له كثيراً من الهدايا.

وقـدم ملك انكلترا إلى بـاريس بناء على دعـوة الملك لـويس السـابع ملك فـرنسا، وجـرى استقبالـه بالقصر، وأعطي مكـاناً لـلاقامـة في رواق كهنة نوتردام.

سنة تسع وخمسين ومائة وألف

قاد هنري الثاني ملك انكلترا جيشاً ضد طولوز، واستولى على عدد من القلاع الحصينة في تلك المنطقة، ولقد قيل:

لم يهاجم ملك انكلترا طـولوز نفسهـا احترامـاً لملك فرنسـا الذي كـان مقيماً بها، أمـا بالنسبـة لملك فـرنسا، فقـد رغب عن طـواعيـة بالبقـاء بها مساعدة لكـونت سانت جايل (صنجيل) الذي تـزوج من أخته وأنجب منها أولاداً، وهكذا غدا الملكان متعاديان.

سنة ستين ومائة وألف

كان هناك انشقاق كنسي بعـد وفاة البابا هادريان، فقـد جرى انتخاب اثنين من البابـوات، مع أن الاسكندر كـان هو البابـا الحقيقي، وقبل ملك انكلترا وكذلك ملك فـرنسا بـالاسكندر واعترفا بـه كبابـا، لكن امبراطور ألمانيا وجميع رجـال الدين الألمان أيـدوا أوكتافيـان، وبعث الامبراطور إلى ملكي فـرنسا وانكلترا يطلب منهما أن يقـدمـا مسانـدتهما إلى هـذا البابـا

نفسه، لكنه عبثاً فعل.

وتوفيت ملكة فرنسا، ابنة ألفونسو امبراطور اسبانيا أثناء الولادة، وقد ولدت ابنة، لحسن حظها بقيت حية، ولم يتقيد الملك لويس بوقت الحداد المعتاد، بل خلال أسبوعين تزوج من آدلا، ابنة الكونت ثيوبولد كونت بليوس، ورفض سمسون رئيس أساقفة رايمس تعميدها ملكة، لأن زواج أخت آديلا من فيليب أخي الملك قد فسخ بسبب القرابة الوشيجة بينهما.

وخطب هنري ملك انكلترا مرغريت ابنة ملك فرنسا، التي كانت تحت حمايته لابنه هنري، وبهذا ربح السيطرة على قلعة غيسور Gisors وكانت لديه نوايا منذ زمن طويل تجاه هذا الحصن، الذي كان موكلاً إلى فرسان الداوية، حتى يحين الوقت، يوم العرس بين الولدين حيث يجري تثبيته، ومهما يكن من أمر لقد ادعى ملك فرنسا الآن مع اخوان الملكة أن تاريخ اليوم قد حدد أبكر مما توقعوه، وكانوا لهذا مزعوجين جداً، وانطلاقاً من شعور العداوة نحو ملك انكلترا، انطلق ملك فرنسا وكونت ثيوبولد مع حلفائهما نحو تحصين دفاعات شومونت Chau-mont ، آملين بذلك تسبيب الأذى وجلب العار لعدوهم، وجاء على كلّ حال ملك انكلترا مسرعاً مع رجاله وحاصر القلعة، وعندها انهزم الملك الفرنسي وكونت ثيوبولد، وبعد مضي عدة أيام أرغم القلعة على الاستسلام، واحتجز خمساً وخمسين من فرسان ثيوبولد أسرى في داخلها، وجرى الاحتفال بزواج ابن ملك انكلترا من ابنة ملك فرنسا بموجب السلطة المفوضة لهنري أوف بيزا، ووليم أوف بافيا، وهما كاردينالان كاهنان ومندوبان للكرسي المقدس، ومع هذا كله كان الطفل مايزال فقط في السابعة من عمره والطفلة في الثالثة، وحدث هذا في نوفبورغ Neufbourg يوم الخامس من تشرين الثاني.

- ٤٨٣ -

سنة إحدى وستين ومائة وألف

جرت سيامة رتشارد رئيس شمامسة كوفنتري أسقفاً للكنيسة نفسها، وكان أبوه رتشارد أسقف تشستر، والذي تولى السيامة هو رئيس الأساقفة ثيوبولد، لأن القاعدة قضت أنه إذا كان أولاد الكهنة سلوكهم بالحياة جديراً بالتقدير، لايجري استبعادهم من المناصب المقدسة، ولامن الكاتدرائيات الكنسية، لابل حتى ولامن البابوية نفسها، فعلى سبيل المثال كان نيكولاس رجلاً من أصل انكليزي، وكان أبوه كاهناً، فغدا هو بابا باسم هادريان الرابع.

سنة اثنتين وستين ومائة وألف

حشد لويس ملك فرنسا وهنري ملك انكلترا قواتهما من جميع الجهات، وبدا أن الصدام المسلح بينهما أمر لايمكن تجنبه، وعلى كل حال لقد تصالحا مع بعضهما بعضاً وجرى الصلح قرب فرتفال Freteval.

وولدت ملكة انكلترا بنتاً في روان، وقد منحتها اسمها، أي إليانور، وتوفي رتشارد أسقف لندن في الخامس من أيار. وأقسم أساقفة انكلترا ورعاة ديرتها يمين التبعية لهنري الابن الأكبر للملك، وكان الملك هو الذي أصدر أوامره إليهم للقيام بذلك، وكان توماس، مستشار الملك الأول بينهم في تأدية يمين الولاء، واحتفظ باخلاصه للملك مادام حياً، وبقدر مارغب في أن يحكم.

والتقى فردريك امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة مع لويس

ملك فرنسا على مقربة من بيسانكون Besancon ، لاتخاذ قرار حول أي واحد من البابوين سيفضلان، وأعنى بذلك: أوكتافيان أو الاسكندر، وبذلك ينهيا الانشقاق الذي عانت منه الكنيسة.

وأوجدت وفاة ثيوبولد رئيس أساقفة كانتربري في ١١٦١ ضرورة اختيار خليفة له.

وجرى استدعاء جميع رجال الدين في منطقة كانتربري إلى لندن، وبحضور هنري ابن الملك والقضاة تم انتخاب توماس رئيس شمامسة كانتربري بشكل مهيب وبالاجماع رئيساً للأساقفة، وحمل هنري أسقف ونشستر الأنباء في أن توماس قد انتخب بلا معارضة، إلى قاعة الرهبان في وستمنستر، يوم الأربعاء قبل أحد الشعانين.

وتمت سيامته في يوم الأحد التالي من قبل هنري أسقف ونشستر، الذي كان آنذاك نائب الكرسي المقدس في لندن .

وجرى أرسال الرسل إلى البابا الاسكندر بأن المقترعين من الأساقفة في كانتربري قد اختاروا رئيساً لهم، باجماع كلّ الأصوات، وقد سيم رئيساً للأساقفة من قبل مجمعهم، ولدى سماع البابا بهذا أعطى موافقته، وبناء عليه، عندما قرئت رسائل الأساقفة، ورسالة راعي دير الثالوث [أي راعي كاتدرائية كانتربري]، ورسالة الملك وضع الطلب بالموافقة أمام مجمع الكرادلة الكنسي، وقد وافق الجميع بدون اعتراض أو تردد وإثر هذا جرت مناولة طيلسان رئيس الأساقفة إلى الرسل وسط احتفاء عظيم واحتفال، وتناول رئيس الأساقفة توماس —المقيد بالشروط المعتادة، وفي ظل قيود القداسة— الطيلسان من على المذبح العالي لكاتدرائية كانتربري.

وعندما ارتدى هذه الأثواب، التي حبست، بناء على أوامر الرب، على

أعلى رجـال الـدين، لم يغير فقط مظهـره الخارجي، بل طـرائق تفكيره وتـوجهـات عقلـه، حيث تـوقف عـن الـرغبة بـالاهتمام بمسـؤوليـات المستشارية، وأراد بالحري أن يعفى منها، وبـذلك يمكنه أن يكرس المزيد من الـوقت لمخـاطبـة رعيته، والاشراف على شـؤون الكنيسـة، ولهذا بعث توماس بـرسالة إلى ملك انكلترا، الـذي كان آنذاك في نورمـاندي قدم بها استقـالتـه من المستشـارية وتخلى عن الختم، وكـان السبب الـوحيـد لهذه الاستقالة المفاجئة هو تصوره لواجبات المنصب الجديد.

يتعارض اطراء فتزستيفن حول تحول بكت مع معايير تحليل ديسيتو

في سيامتـه كان تومـاس بكت قد مسح بدهن الـرحمة الربانيـة المرئية، حيث وضع جـانبـاً الـرجل الـدنيـوي، وتلبس يسـوع المسيح، وتخلى عن الواجبـات الدنيـوية لأعمال المستشـارية، وكـان مهتماً بالقيـام بواجبـات رئيس أسـاقفة جيـد، وفي سبيل هذه الغـايـة راقب عقله مـراقبة دقيقـة، وكانت خطابـاته حزينة، ولمصلحة ونجاة المستمعين إليـه، وكانت أعماله أعمال رحمة وشفقة، وكانت قراراته مقرونة بالعدل والمساواة.

وكان يـرتدي قميصـاً من الشعر من أكثـر الأنواع خشـونة، وكـان هذا القميص يصل إلى ركبتيـه، وهـو مليء بـالطفيليـات والحشرات، وغـذى نفسه بقليل من الطعـام، وكان شرابه المعتاد هـو الماء المعد لطبخ العلف، وكـان على كلّ حـال أول من يتـذوق الخمرة قبل أن يقـدمهـا إلى الـذين يجلسون إلى المائدة معه، وكان يأكل بعض اللحم الموضـوع أمامه، غير أنه تغـذى بشكل رئيسي على الخبـز، علماً أن كلّ شيء كـان نقيـاً للنقي، والمسألـة هنـا هي لـوم الشهيـة وليس لـوم الطعام، وعـرّض مـراراً ظهـره العاري لسوط النظـام، ولبس فوق قميصه الشعري مبـاشرة رداء الرهبان، بحكم كـونـه راعي رهبـان كـانتربـري، وارتدى فـوق هـذا ثـوب شماس

ليماشي عادات رجـال الدين، وكانت ربطـة العنق، وهي رمز النير الجميل للمسيح، حول رقبتـه ليل نهار، وكان مظهره الخارجي مظهـر رجل عادي، لكنه في داخلـه كان مختلفاً، وفي هـذا قلد القـديس سيباستيان والقـديسة سيشيليـا، فـالأول مارس تحت رداء جنـدي أعمال جنـدي المسيح، وبينما غطت القديسـة جسدهـا بمسح خشن لايساوي شيئـاً، تزينت خـارجياً بثوب حيك من الذهب.

وكان يغسل في زنزانتـه الخاصة كلّ يوم أقدام ثلاثـة عشر متسولاً، وهو راكع على ركبتيـه، وذلك تخليـداً لـذكـرى المسيح، ومن بعـد تـزويـدهم بالطعـام كان يعطي لكل واحـد منهم أربعة شلنات، وإذا حـدث في أية مناسبة —وهـذا أمر نادر— وحيل بينه وبين ممارسـة هذا العمل شخصياً كـان يحرص عظيم الحرص أن يوكل إلى أحـدهم القيـام بـذلك، وعندمـا يكون وحيداً، إنه لمدهش حقاً كيف كـان يستغرق بالبكاء، ويتمثل عندما يكـون أمام المذبح آلام الـرب وكأنها قائمـة بالجسـد أمامـه، وكان ينـاول القربان المقـدس بطريقته الخاصة التي كان يقـوى بها إيمان وسلوك الذين يشاهدون ذلك.

زد على هـذا كان يـرعى في بيته المعـوزين والمحرومين، فيعطي الثيـاب لعـدد كبير حتى يتمكنوا من مقـاومة قسـاوة الشتاء، وكـان في كانتربـري يستقبل كثيراً منهم شخصياً، ويجلس ملاصقاً لهم كأنـه واحد من رهبانه، فيـدرس واحـداً من أكبر المجلـدات، ويـذهـب بعـد هذا ليـزور الـرهبـان المرضى، من أجل أن يعلـم مـايحتـاجون إليـه وليلبي رغبـاتهم، ولقد كـان المستشـار للمظلوم، وللـزوج الأرمل، والصديق لليتـامى، يضاف إلى هـذا كان متواضعاً مواسياً للطيف وقاسياً تجاه المتكبر.

وكان رئيس الأساقفة توماس الـرائع، معارضاً لتوقعات الملك، وكذلك لتوقعات كلّ انسـان آخر، لذلك هجر العـالم بشكل كلّي، ولهذا عانى من تلك المحنـة بشكل مفاجيء، التي هـي من عمل يد الـرب، وهي المحن

التي دهش الناس جميعاً تجاهها.

ثم نعود إلى ديسيتو ومعالجته للشقاق المتصاعد بين الملك ورئيس الأساقفة.

سنة ثلاث وستين ومائة وألف

عندما أعد الملك هنري ملك انكلترا أراضيه في نورماندي، وبريتاني، ومين، وأنجو، وتورين، وأكوتين، بما رآه مناسباً، عاد إلى انكلترا، ورسا في ثاوثأمبتون في يوم ٢٥ كانون الثاني، وجاء توماس رئيس أساقفة كانتربري لمقابلة الملك وعانقه، لكن بدون مشاعر طيبة، مشيحاً بوجهه بعيداً، الأمر الذي كان بإمكان كلّ واحد من الحضور أن يراه، ووضع توماس الذي ارتقى من رئيس لشمامسة كانتربري إلى رئيس للأساقفة، جانباً استقالته من رئاسة الشمامسة وأجلها لبعض الوقت، وذلك على الرغم من طلب الملك الملح جداً، وأخيراً استقال من هذا المنصب لأن الملك استجاب لذلك، ومع أنه بهذا استرد رعاية الملك التي حرم منها نتيجة لهذا التأخير، هو لم يعترف بهذا بشكل صريح(١٦).

جرى في ٢٢ تموز استدعاء روجر دى كلير، إيرل أوف هارتفورد إلى وستمنستر وذلك من قبل توماس رئيس أساقفة كانتربري ليقدم له الولاء من أجل قلعة تونبردج وأراضيها، لكن الإيرل رفض بتصميم طلب رئيس الأساقفة، مؤكداً أن الاقطاع المختلف عليه كان عائداً إلى الملك وليس إلى رئيس الأساقفة، وحقوق الخدمات العسكرية المترتبة عليه والشؤون المالية العامة عائدة إلى الملك.

وقدم مالكولم ملك اسكوتلندا، وريس Rhys أمير جنوبي ويلز،

وأوون Owen أمير شمالي ويلز، وجميع نبلاء ويلز، الـولاء إلى ملك انكلترا، وإلى ابنه هنري، وجرى ذلك في وودستوك يوم الأول من تموز.

وجرى بحث عام وتقصي في جميع أرجاء انكلترا لإيجاد من يمتلك حق الخدمة المدنية تجاه كلّ واحد على حده، وفي أثناء البحث في كنت قرر القضاة أن وليم أوف روس Ros يجب عليه تقديم الـولاء إلى الملك وليس إلى رئيس الأساقفة، وذلك في أي عمل من أعماله، وهكذا سببت الكراهية الشخصية الأذى للكنيسة بشكل عام.

وعندما نقل رئيس الأساقفة توماس منصب مسؤولية المعيشة في آينزفورد Eynesford الشاغر وسلمه إلى واحد اسمه لورانس، ادعى وليم صاحب آينزفورد أنه هو نفسه يمتلك الحق للتعيين في ذلك المنصب وطرد لورانس، ورد عليه رئيس الأساقفة فحرمه من الكنيسة، ولأن هذا حدث دون إخبار الملك، كان الأخير غاضباً، وأكد بالحقيقة أن كرامة الملك غير مفصولة عن كرامة مملكته، وأنه مامن قائد وجندي تابع للملك، ومامن واحد من وزرائه، ولاواحد من التابعين له (مهما كانت مكانتهم) سواء احتفظوا بقلعة أو بلدة أو غابة، يجوز حرمانه من الكنيسة بقرار من أي واحد من دون علم الملك، وذلك خشية تدنيس الملك من قبل المحروم، لدى زيارة قائد محروم له وقيام الملك بمعانقته أو باستقباله في مجلسه.

وبعث الملك هنري أرنولف أسقف ليزوكس Lisieux ، ورتشارد رئيس شمامسة بواتيه بسفارة إلى البابا الاسكندر، الذي كان آنذاك في منطقة الشقاق في فرنسا، ولقد عانيا لمدة ثلاثة أشهر، وتعرضا للمخاطر من البحر الهائج والأمواج العاتية ست مرات، ومع أنهما بذلا جهوداً عظيمة ليحصلا على التأييد بشأن قوانين المملكة في سلطات البابا، لقد كانا غير قادرين على تحقيق أي شيء، لذلك عندما عادا أخيراً لم يكن بإمكانهما فعل أي شيء للتخفيف من غضب الملك الذي انفجر الآن

ضد عدد كبير من الأشخاص.

سنة أربع وستين ومائة وألف

وقيل رغب ملك انكلترا في انـزال عقوبـات قاسية على بعـض أعضاء رجـال الدين الـذين كانـوا مدانين بجـرائم، مقدراً أن تسلم مثل هـؤلاء الـرجال عقـوبات أدنى ممـا يستحقون يحط من النظـام ككل، ولهذا رسم بتحويل رجـال الدين الذين عدّوا مجرمين بشكل واضح من قبل قضـاته، إلى أسقفهم، والـــذيـن يجدهم الأسقف مجرمين، عليـــه أن يجردهـم من سلطـاتهم بحضـور واحـد من قضاة الملـك، ويتوجب عليـه أيضـاً بعـد المحاكمة أن يسلمهم لتلقي العقوبة.

وإثر هـذا وضع رئيس أساقفة كـانتربري أمام المحاكمـة بسبب أعماله كمستشـار، وظهـر أمـام المحكمـة في ١٢ تشرين الأول في نـورثأمبتـون، واجتمع هنـاك الأساقفـة والإيرلات والبـارونات من جميع المملكـة، وذلك بناء على الأمر المستعجل من الملك، وجرى استـدعاء روجر رئيس أساقفة يـورك، وظهر هنـاك، وكان قـد جرى بأمـر من مستشاريـة تومـاس تعيين مشرفين على ممتلكات الأسقفيـات، وبما أن توماس تجاوز كمستشـار حدود سلطاته في حاشية الملك (استحـوذ لسنوات كثيرة على قلعتي بيركهامستد وآي، وكان يفعل بهما مايشـاء) بدا ذلك لمعظم الناس متوائماً مـع القانون الـذي ينبغي اتخاذه لحسـاب مبلغ المرابـح، ومع هـذا كلـه، كـان قبل أن يـرسم رئيسـاً للأسـاقفـة قد نـال من هنـري ابن الملك وولي عهـده حق الحرية والاعفاء من الـواجبات القاضية بتقـديم حساب، وعلى كلّ حال، بما أنه كان من غير الممكن بالنسبة لتـوماس أن يوثق هذا الإعفاء ويبرهن أنه قد منح لـه، قام قادة الكنيسة بإصدار حكم ضده، ولم يستطع هو لا

الاعتراف بـالتهمـة ولا بـالادانـة، بل ادعى ان ذلك كـان لصـالح رجـال الدين.

وعلى هـذا كان رئيس الأسـاقفة في وضع صعب، متهم بعـدد كبير من التهم، ومصـاب بكثير من الاهـانـات، ومحروم من تأييـد الأساقفـة، فقـام برفع الصليب الذي كـان يحمله، وغادر قاعة المحكمة، وفي الليلـة التالية ترك المدينة بشكل سري، وأخفى نفسه عن مشـاهدة الناس خلال النهار، وارتحل أثنـاء الليل، وبعـد سفـر عـدة أيـام وصل إلى مينـاء سنـدويش Sandwich ، ومن هنـاك عبر في قـارب صغير إلى فـلانـدرز، وأرسل الملك بعـد اختفاء رئيس الأسـاقفة رسـلاً إلى البابـا الاسكندر الثـالث في سنس Sens.

وكان بين التعليمات التي حملهـا الرسل من الملك عـرضاً إلى البـابا أن بإمكانه أن يبعث بقاضيين إلى انكلترا، يتـوليان بحضور من الملك ورئيس الأساقفـة حل الخلاف اللاديني بين الملك ورئيس الأساقفة، الـذي جرت مناقشتـه في نورثأمبتـون، وإيجاد حل لأي قضية يمكن أن تظهـر أثناء سير المناقشـات، وذلك بعد سحب الاستئنـاف، وعلى كلّ حال عنـدما وصل رسل الملك إلى قصر رئيـس أســاقفـة سنـس، لم يكن رئيس الأســاقفــة موجـوداً، لذلك لم يستطع بلاطـه اعطاء جواب حـاسم لمطالبهم، حيث أن ماطلب لايتهاشى مع القانون ولا مع العقل.

سنة خمس وستين ومائة وألف

وولدت آديلا ملكة فرنسا ولداً أطلق عليه اسم فيليب، وولدت إليانور ملكة انكلترا ابنة سميت جوانا، وعاد البـابا الاسكندر إلى ايطاليا، ورحب به في روما.

وعنـدمـا كـان الملك مقيماً في وستمنستر[القصر الملكي قـرب لنـدن] جاء رينالـد رئيس أساقفة كولون إلى انكلترا ليتسلم مـاتيلدا، كبرى بنات الملك هنـري، لتكـون زوجـة لهنـري، دوق ساكسـوني(١٧)، وحـدث أنـه عنـدما جـاء نبلاء المملكـة في أبهة عظيمـة لإستقبالـه واللقاء بـه، رفض روبرت إيـرل أوف ليستر، ورئيس القضاء الملكي، أن يعانقـه، على أساس أنـه منشق عن الكنيسة، ثم قلبت جميـع المذابح التي أقام عليهـا المنشق قداساً.

هرب بكت إلى البـابا في سنس، وذهب من هناك إلى ديـر سسترشيان Cistercian في بونتغني Pontigny، وتبنى هناك طريقاً للحياة كرسه على العـزلة والدراسة، وزار في أحد الشعانين ١١٦٦، عنـدما كان حـاجاً، فيـزلي، حيث تـولى حرمـان عـدد من الأساقفـة الانكليـز كانـوا يساندون الملك.

سنة ست وستين ومائة وألف

[بعث رئيس الأساقفة من منفاه رسالة إلى الملك جاء فيها:]

«من توماس رئيس أساقفة كانتربري إلى ملك انكلترا:

إنني أرغب رغبـة عظيمـة في رؤيـة وجهك والحديـث معك، وذلك لصـالحي، ولكن أكثر لصـالحك، ذلك أنك بـرؤيتك لوجهي ستعيـد إلى ذاكـرتك الخدمات التي قـدمتها لـك، عندمـا كنت تحت طاعتك، لقـد خدمتك باخـلاص مرضياً ضميري، حتى —لعل الرب يسـاعدني في يوم الحساب— عندما يقف الجميع أمـام حكمه ليتسلموا الثواب أو العقاب تبعاً لما عملـوه عندمـا كانـوا أحياء، ولابـد أنك ستتحرك شفقـة عليّ، أنا

الـذي توجب عليّ أن أعيش بمثـابة متسـول بين الأجانب، حتى في هـذا الحال —شكراً للرب— لدينا كثيراً من الخيرات والنعم».

ووضعت الملكة إليانور ولداً ذكراً سمته جون(١٨).

ودعا الكاردينالان: وليم أوف بافيـا، وجون أوف نابل —نائبا الملك— ملك انكلترا، ورئيس أساقفة كانتربري إلى الحضور معاً إلى مونت ميريل Montmirail, ومع أن رئيس الأســاقفـة شعـر أنها يميــلان أكثــر إلى جانب الملك، سمح بمعالجة القضية، وجلس الكـاردينالان جلسة علنية، وبذلك كـان من الممكن إعادة اعتبار كـاملة له شخصياً ولأتبـاعه وذلك وفقـاً للقانـون الـلاهوتي، لكن رئيس الأسـاقفـة المسلوب لم يـرغب في أن يتعرض للمحاكمة، ولم يكن من الممكن ارغامه بأي شكل من الأشكال، حيث أن النائبين اللذين لم يستطيعا ارغامه، ولم يرغبا بالقيام بذلك، عادا إلى البلاط البابوي مخفقين.

وجـاء الملك لـويس السـابع، ملك فرنسـا إلى بـونتغني، حيث أظهـر الرهبان كلّ لطف نحو رئيس الأسـاقفة توماس لمدة عامين، ومن أجل ألا تتعرض رهبـانية سسترشيان في انكلترا إلى أي أذى أخـذه معه إلى سنس، ودفع نفقاته لمدة أربع سنوات في دير القديس كولومب Colombe.

سنة سبع وستين ومائة وألف

تزوجت ماتيلدا ابنة الملك هنـري الثاني من هنري دوق ساكسوني، وقد رافقها إليه كلّ من إيرل آرندل وإيرل بمبروك وعدد كبير آخر.

وتخاصم ملكـا فرنسـا وانكلترا: وأحرق النورمـان كومـونت Chau-mont قـرب غيسـور Gisors وأسروا عـدداً كبيراً من الفرســـان

والمدنيين، وانتقاماً لما حدث أحرق الملك الفرنسي أندل Andelys وهو بيت ريفي لرئيس أساقفة روان، وعاد إلى فرنسا في اليوم نفسه، بعدما خسر أكثر من ألف رجل أثناء السفر، ووقع بعد هذا عدد كبير من الفرسان الفرنسيين بأسر النورمان في بيرش Perche, ثم تصالح الملكان، وخطب رتشارد دوق أكوتين وابن الملك الانكليزي، إلى أليس الفرنسية، ابنة الملك.

سنة تسع وستين ومائة وألف

تزوجت إليانور ابنة ملك انكلترا من ألفونسو الثامن ملك كاستيل.

وعقد يوم ١٨ تشرين الثاني مؤتمر فيما بين الملك لويس السابع ملك فرنسا، والملك هنري الثاني ملك انكلترا، قرب باريس، حيث كان رئيس أساقفة كانتربري مقيماً، لكن توماس لم يقدم نفسه إلى ملك انكلترا، وكان هناك نقاش طويل حول إقامة سلام فيما بين الملك ورئيس الأساقفة، وبناء على نصيحة ملك فرنسا والأساقفة والنبلاء، زود ملك انكلترا بالتماس منه على شكل رسالة جاء فيها مايلي:

«نلتمس من مولانا الملك، بناء على نصيحة من البابا ورعاية، ومن أجل محبة الرب والبابا، وتشريفاً للكنيسة المقدسة، وفي سبيل نجاته ونجاة ولي عهده أن يتقبلنا ويشملنا برعايته وأن يعفو عنا وعن الذين معنا، والذين غادروا انكلترا من أجلنا، وأن يمنحنا سلامه مع الأمان الكامل منه ومن رجاله، بدون مشاعر رديئة، وأن يعيد كنيسة كانتربري إلينا حرة، وكاملة حسبما كانت بأيدينا بعدما صرت رئيساً للأساقفة، وأن يعيد جميع الممتلكات والمقتنيات التي كانت لنا، لنتملكها بشكل حر، ومجيد وسلام، وذلك مثلما كانت الكنيسة وكنا أنفسنا وامتلكنا عندما

رقينـا إلى رئاسة الأسقفيـة، وكذلك الأمـر نفسه بـالنسبة لأتبـاعنا، وعليـه أيضاً أن يأذن لنـا في استحواذ الكنائس العـائدة لرئاسة الأسـاقفة، والتي غدت شاغرة بعدما تركنـا البلاد، وبذلك يمكننا أن نفعل بها مانرغب به ويرضينا».

ولم يعط ملك انكلترا مـوافقـة كـاملـة لسببين: بما أنـه لم يطـرد رئيس الأسـاقفة، هـو لم يكن ملـزمـاً —تماشياً مـع سمعة المملكـة— بتغيير أي شيء بـاسم اعادة الاعتبـار، كما أنـه لم يكن ملزمـاً بأن يعلن إلغـاء تمليك الممتلكـات الشاغـرة، التي جـرى منحها لبعض الأشخـاص، لكن حتى يعبّر عن نفسه بـأنه حاكم ملتـزم بالقـانون، أعلن أمـام ملك فرنسـا، أنه جاهز لإرضاء رئيس الأساقفة من جميـع الجوانب، أو أنه إذا ما قرر مناقشة القضية، وعـرضها للمحـاكمة في القصر في بـاريس، بوجـود نبلاء فـرنسا هناك، أو بوجود الكنيسـة الفرنسية واستخدامها لنفوذهـا، أو بوجود علماء من مختلف المناطق، يتولون فحص الأعمال بشكل عادل.

وهكـذا تمكن ملك انكلترا، الذي أثـار من قبل كـراهية عـدد كبير من النـاس ضده، بـوسـاطـة هذه الكلمات أن يكسب الكثيريـن إلى جانبـه، وبهذه الواسطـة كان من الممكن لملك انكلترا ولـرئيس الأساقفة الـوصول إلى نـوع من الاتفاق، وذلك إذا مـارفض الملك رفضاً تـاماً إعطـاء رئيس الأساقفة قبلة السلام.

سنة سبعين ومائة وألف

عقـد الملـك يـوم عيـد الميــلاد بـلاطـه في بلـــدة نينتس Nentes, بحضور الأساقفة والبارونات لجميع بـلاد بريطانيا، وقد أقسم هؤلاء يمين الولاء لـه ولابنه غيـوفري معـاً، وعاد في أيـام الصيام إلى انكلترا، وعنـدما

تعـرض عـدد كبير من حـاشيتـه لمخـاطـر عـاصفـة بحـريـة هبت بشكل مفاجىء، نجـا هو نفسه منهـا دون أن يصاب بأذى بفضل نعمـة التقوى للرب.

وفي أثناء غيـاب بكت عن انكلترا، قرر هنري الثـاني استخدام رئيس أساقفة يـورك لتتويج ابنه الملك الشاب، وبهذا أعـاد الخلاف الطويل بين رئيسي الأساقفة الانكليزيين حول الريادة.

وجـرى في ١٤ حـــزيـران رسم هنـري، أول أولاد الملـك هنـري، ملك انكلترا، ولادة، ملكـاً، وكـان ذلك في وستمنستر، من قبل روجـــر رئيس أساقفة يورك.

وعبر الملك القنـاة، بعد تتـويج ابنـه، وعقد مـؤتمراً في مونتميريل بينـه وبين رئيس الأساقفـة توماس، حيث كـان ملك فرنسا حـاضراً، لكن بعد جهـود كبيرة، عندمـا جاءت سـاعـة العناق، ولأن رئيس الأسـاقفة قـال: «إنني أقبلك تمجيداً للـرب»، رفض الملك القبلة لأنها عـرضت مشروطة، فلأن أجـدادنا اعتـادوا أن يولوا اهتمامـاً عظيماً للصيغ في القانـون، هكذا اعتـاد الملك على التمسـك بنهـايـات بعض العبـارات في كلمات رئيس الأسـاقفة، مع أنـه تلفظهـا بضمير نقي، مثل أن تقول أحيـانـاً: «حافظاً أمري» وأحياناً: «حافظاً مجد الرب» وأحياناً أخرى: «حافظاً إيمان الرب».

والتقى ملك فـرنسا ووليم رئيس أسـاقفة سنس، وأسقف نـافار Nev-ers ثانية في فرتفال Freteval, وعندها —على كلّ حال— تفارق ملك انكلترا ورئيس الأسـاقفـة مـرتين، وتـرجـلا مـرتين، ومـرتين امتطيـا فرسيهما، وأمسك الملك مرتين بـالركاب لرئيس الأساقفـة، ثم حدث لقاء آخـر في أمبويـز Amboise للـوصـول بسرعة لتفـاهم أسهل، وهنــــا توصـل الملك ورئيس الأساقفـة إلى اتفاق، وتـدبر هـذه المرة السلام بينهما

روترو رئيس أساقفة روان [الذي كتب]:

«إلى هنري ملك انكلترا، وإلى ابنه هنري ملك انكلترا، التحيات.

هل لك أن تعلم أن توماس، رئيس أساقفة كانتربري، قد أقام سلاماً معي، وفقاً لرغباتي، وبناء عليه إنني آمر أن يستطيع هو وأتباعه امتلاك سلام، وأن تنظر أنت إلى ذلك وترعاه، وفي أن يحصل هو وأتباعه الذين غادروا انكلترا من أجله، على مقتنياتهم بسلام وشرف، وأن يكون الحال مثلما كانوا عليه قبل ثلاثة أشهر من مغادرتهم انكلترا، واستدع إليك بعضاً من خيرة الفرسان ذوي الشرف في سولتوود Saltwood, وعليك —اعتماداً على أيمانهم— أن تقوم بالبحث بشأن تقرير اقطاع رئيس أساقفة كانتربري هناك، واعمل مايلزم لتتأكد من حصول رئيس الأساقفة على اعتراف به كجزء من اقطاعه.

الشهود: رئيس الأساقفة روترو أوف روان، في شينون».

وبناء على هذه الضمانة عاد رئيس الأساقفة إلى انكلترا، ورسا في ميناء سندويش في الأول من كانون الأول .

وبعدما عاد توماس رئيس أساقفة كانتربري، وإثر دخوله إلى انكلترا، كتب رسالة إلى البابا، جاء في بعضها مايلي:

«....بعد وصولنا إلى كنيستنا، واستقبالنا بمحبة عظيمة من قبل رجال الدين والشعب، جاء إلينا عدد من الرسميين التابعين للملك وهم غاضبين، وقد طلبوا بناء على رغبة الملك ولصالحه أن نقوم بتحليل الأساقفة الذين كان قد جرى حرمانهم، أو جمدوا، لأن ماصنع ضدهم تنامى ليصل إلى العدالة على أنه ضد الملك، وقد أزاح جانباً عادات المملكة وقلبها... وقد أجبناهم: إذا مارغب أسقفا لندن وسالسبري أن يقسما أمامنا أنهما سيطيعان أمرنا، إننا سنحللهما من أجل سلام الكنيسة وصدوراً عن احترام الملك، وعندما حملت هذه الاجابة إلى الأسقفين،

أجـابـا أن قسماً من هـذا النـوع لاينبغي تأديتـه إلا إذا تـوافق مع رغبـات الملك»!.

وبينما كان تـوماس، رئيس أساقفـة كانتربـري في طريقه لـزيارة الملك الشـاب هنـري، الـذي كـان في ذلك الـوقت مقيماً في وودستـوك، جـرى استقبالـه بحفاوة كبيرة مـن قبل سكان لنـدن، وفي يوم ١٨ كـانون الأول، عندمـا كان ضيفاً في سـاوثوورك Southwark, وصل رسل من عند الملك الشـاب إليه، محظـرين عليه، بنـاء على أوامر الملك، أن يـذهب إلى رؤيته، وبنـاء عليه، وعـوضاً عن الذهـاب، عاد إلى كنيستـه، وهكذا رجع إلى كانتربـري، وأعدّ العـدة للاحتفـال بعيد الميـلاد هناك، وذلك بـوجود عدد كبير من رجـال الدين جاءوا من مختلف المناطق، لـلاجتماع هناك في سبيل معالجة عدد من مختلف الأعمال.

وفي يوم الميلاد صعد توماس —رئيس أساقفة كانتربري المنبر— ليتولى أداء مـوعظة للشعب، وعنـدمـا انتهى، وقام بـالصلـوات المعتادة للـرب، وللبابا، وللملك، ولخلاص الشعب، وفيها الشمـوع مضاءة، قام بكل وقار بحرمان نيغل دي ساكفيل Nigel de Sackville, وهو ظالم عنيف لكنيسة هـاردرز Hardres وكـاهن الكنيسة نفسهـا، وحرم أيضـاً روبرت دي بـروك الذي شوه فـرساً من خيـول رئيس الأساقفة نفســه كان يحمل طعاماً، وذلك بهدف الاهانة والحط من القدر.

وفي اليـوم الخامس من أيـام عيـد الميـلاد، عنـد حلـول الظـلام، وفيها رئيس الأسـاقفة مقيم في جنـاحـه، ومعه أعـوانـه، حمل الغضب الشديـد وليم دي تريسي Traci, وريناك فتزأورسن Fitzursen, وهيوج دي مورفيل Moreville, ورتشارد برتو Brito وكان هؤلاء فـرساناً أربعة جاءوا مـن نورماندي، حملهم الغضب على اقتحـام الجناح، وهددوا بـاسم الملك، الـذي كـان مقيماً في نورمـانـدي، وطـالبـوا بأن على رئيس الأسـاقفة أن يعيـد الأساقفـة الانكليز المجمـدين إلى مراكـزهم، وأن يحلل

المحرومين، فأجابهم: إنه ليس من صلاحية القاضي الأدنى إلغاء حكم الأعلى، ولايمكن لأي انسان أن يؤثر بما رسم به الكرسي المقدس، ومهما يكن الحال، إذا ماأقسم أسقفا لندن وسالسبري أنهما سوف يطيعان أوامره، سوف يحللهما من أجل سلام الكنيسة، ومن خلال الاحترام للملك، واستبد بهم الغضب الشديد، واربدت وجوههم، وبادروا نحو تنفيذ الجريمة النكراء التي دبروها،ومن أجل تنفيذها انسحبوا مسرعين.

ودخل رئيس الأساقفة إلى قلب الكنيسة، وذلك على الرغم من تحذير أعوانه،وكان الوقت قد قارب ساعة انشاد قداس العشاء، وهكذا تبع الرجال المتقدم ذكرهم، والعازمين على تنفيذ الجريمة خطوات رئيس الأساقفة، بعدما سلحوا أنفسهم، وعندما وصلوا إلى الكنيسة وجدوا أبوابها مفتوحة، تماشياً مع تعليمات رئيس الأساقفة التي قال فيها:

«نحن سوف لن نحوّل كنيسة الرب إلى قلعة، إنها ينبغي أن تبقى ملاذاً عالمياً في الأيام التي أطيح بها بالنظام فحلت الفوضى»، وفيما الحركة تغطي كلّ الجوانب، دخل الأربعة بوقاحة إلى الكنيسة، وبدأوا يصرخون: «أين الخائن للملك؟ أين رئيس الأساقفة»؟ وعندما سمع رئيس الأساقفة ذكر اسمه، نزل من الدرجة الثالثة أو الرابعة للمنصة لمقابلتهم، وكان لتوه قد بدأ يصعد إلى المنصة، وقال: «إذا كنتم تطلبون رئيس الأساقفة، إنني هنا»، ورد على أجوبتهم الخشنة: «أنا مستعد للموت، إنني أفضل تأكيد العدالة، وحرية الكنيسة، على حياتي، وأعلن أن أتباعي ليسوا مسؤولين ليكونوا عرضة للعقوبة، ذلك أنهم لم يكونوا المثيرين للحالة» وعندما اندفع منفذوا الجريمة نحوه بسيوف مشهرة، قال: «إنني أعهد بنفسي وبشؤون الكنيسة إلى مريم المباركة، حامية قديسي هذه الكنيسة، وإلى دايونيسيوس المبارك»(١٩).

وفي أيام حياة بكت قدم وليم فتزستيفن صورة رفيعة التلوين وصف بها مقتل رئيس الأساقفة من قبل الفرسان الأربعة.

وضربه أحـد الفرسـان بسطح سيفه بين كفيـه، وهو يقـول: «طر، إنك رجل ميت»، غير أن رئيس الأسـاقفـة وقـف دونها حـراك وقـدم رقبتـه [للقطع]، وأوقف نفسـه وكرسهـا للرب، بينها كـانت شفتاه تـرددان أسماء رؤسـاء الأسـاقفـة المقـدسين الـذين استشهـدوا قبلـه، وصرخ واحـد من الأعـداء قائلاً: «أنت أسيرنـا، تعـال معنا» ووضعـوا أيديهم عليـه وأرادوا جره إلى خارج الكنيسة، ولكنهم كانوا يخشـون أن الناس قد يتولون انقاذه من بين أيـديهم، وأجابهم رئيس الأسـاقفة قـائلاً: «لن أتحرك من هاهنـا، عليكم هنـا اتمام عملكم وتنفيـذ رغبـاتكم واطاعـة أوامـركم»، واصطـرع معهم بقوة وارادة، وذلك بينها أمسك بـه الرهبـان وردوه أيضاً إلى الخلف، وكان معهم أيضـاً السيد ادوارد غرم Grim, وقد صب عليـه سلاحه [ليصـد الضربـات]، ولقـد تلقى أول ضربـة بـالسيف وجههـا وليم دي تـريسي نحـو رأس رئيس الأسـاقفـة، وجرح بهذه الضربـة جـراحـة كبيرة رئيس الأساقفـة في رأسه أثنـاء انحنائه نحـو الأمام، وكذلـك أصيب غرم اصابة بالغة.

ومسح رئيس الأسـاقفـة بذراعـه الـدم الـذي تدفق مـن رأسه، وقـدم الشكر للرب قائلاً: «بين يـديك، أضع أيها الرب روحي»، ولقد قال ذلك بعدما ركع، وكـان يصفق بيديه، ويمدّهما نحو الرب، وتلقى ضربـة ثانية على رأسـه، سقط على إثرهـا منكباً على وجهـه، إلى جانب المذبح الـذي كان هناك، وكـان مكرساً للقديس بندكت، ولقـد اعتنى به ومنحه —على كلّ حال— النعمـة في أن سقط بشكل مجيد، مغطى حتى عقبيـه بردائه، وكأنـه كان يصلي ويتعبد، ولقـد سقط على الجانب الأيمن، وكأنـه يتقدم نحو اليد اليمنى للرب، وفيها هو ممدد من اثر الضربة، ضربه رتشارد بريتو ضربـة شديـدة إلى حـد أن السيف تحطم أمـام الـرأس وبلاط الكنيسـة، وكـان يردد حين ضربـه: «خذ هـذه الضربـة من أجل حبي لمولاي وليم،

أخـو الملك» [الـذي حـرم تومـاس زواجـه من الكـونتسـة وورين Wa-renne] لقـد أصيب رئيس الأسـاقفـة المقـدس بأربع اصـابـات، تلقاهـا جميعاً على رأسه، وكانت كـلّ واحدة منها مميتة، فقـد فصل غطاء الرأس عن الجمجمة، ثم تمت مشاهدة كيف أن أطـرافه أطاعت حركات روحه، وظهر واضحـاً أنِ ماكان يدور في عقلـه، اختلج في جسده، وأنه في تصـديه للضربـات وفي محاولـة تجنبه لها لم يكـن يصارع ضـد الموت، بل تقبل الموت عن طـواعية، ولـرغبتـه في أن يكـون مع الرب، وليس نتيجـة ضربات قـاتلة مـن سيوف الفرسـان، ووضع واحـد اسمه هيـوج هورسي Horsea ولقبـه موكـلارك Mauclerk قدمـه على رقبة الشهيـــد الممـدد، وأخرج بـرأس سيفـه الدم والـدمـاغ من قحف الرأس المقطـوع، وكان هـذا مشهداً محزنـاً مرعبـاً، لم يسمع بمثله من حيث الـوحشية، من جـانب الذين يـدعون المسيحيين، وهبت عـاصفة مخيفـة تعلقت غيومهـا بقبة السماء، وهطل مطر سريع، وكانت هنـاك رعود تزمجر حول السموات، وتحول بعد هـذا لون السماء إلى أحمر قـانىء تجاوباً مع الـدم الذي سفك، وتعبيراً عن الرعب والغضب.

وتحدث ديسيتو عن الأحـداث التي تلت مقتل بكت، وهو وإن كتب بطريقة أقل إثـارة من طريقة فتزستيفن، كـان الغضب الشديد تجاه مقتل رئيس الأساقفة مايزال واضحاً.

ونهب روبـرت دي بـروك مـع أصحـابـه ممتلكـات رئيس الأســاقفـة، واستولوا على ثياب رجال الدين والخدم، لابل حتى استولوا على الأدوات من أيدي العمال، وهـربوا بسرعة كبيرة ومعهم جميع الخيول التي وجـدوها في الاسطبلات، وعدّوها بين الأسلاب.

وحمل جسد رئيس الأساقفـة الغارق في البلاط على الجانب الأيمن من مـذبح القديس بنـدكت، ووضع أمـام المذبح الـرئيسي، وكان ذلك عنـد الغسق، وهناك بـات ماكان معـروفاً فقط من قبل حاجبـه واضحاً لجميع

الحضور، ذلك أنه صحيح أن رئيس الأساقفة أخفى بهدوء ثوبه الرهباني، الذي ارتداه لـزمن طويل، بتغطيته بردائه الـرسمي، اهتم أيضاً في تطويع جسده بارتداء ثياب داخلية مصنوعة من الشعر، وكان اليوم التالي هو يوم الأربعاء، وراجت في الصباح الباكر لهذا اليـوم اشاعة شريرة، تأكدت فيما بعد، بأن المجـرمين الأشرار الذين نفـذوا جريمـة القتل قد تـآمروا على أن يجروا جسد رئيس الأساقفة ويخرجوه من المكـان المقدس، وأن يرموه خارج أسـوار المدينة ليمـزق من قبل الكـلاب، أو من قبل الطيـور، ولذلك قـرر راعي دير بـوكسلي ورئيس وأعضاء ديـر كنيسة كانتربـري قراراً حكيماً، في أن يقـوموا بـدفن الجثة وإن كـان الوقت متأخـراً، وبدا لهم أنـه لاتوجـد حاجة لغسلـه بالماء، خاصة وأنه كان نـال النقاء بسبب التقشف الطويل لرئيس الأساقفـة، لهذا مسح بقطعة من القماش الشعري، وقد تطهـر بدمه نفسه.

سنة إحدى وسبعين ومائة وألف

كان الملـك هنري ملك انكلترا في تلك الآونـة مقيماً في نورمـاندي، في أرغنتان Argentan, عندما حمل بعض الناس إلى مسامعه الاشاعات المؤسفة، انقلـب فوراً إثـر سماعه للقصة الشريـرة، إلى جميع أنـواع البكاء وضروب التعاسة، وبـدل ثيابه الملكية تبديـلاً كاملاً ولبس الأثمال ووضع على رأسه الـرماد، داعيـاً الرب القـدير ليكـون شاهـداً لصالـح نفسه، أن الفعلة الشريـرة لم تنفذ بـارادة منه، ولابعلـم منـه، كما أنها لم تكن واردة في مخططاتـه، مالم يكن قد أذنـب في اعطاء الشعور أنـه حمل قليلاً من الحب لـرئيس الأسـاقفة حتـى ذلك الوقـت، وعلى رأس هذا كلـه وضع نفسـه مباشرة أمام عـدالة الكنيسة، ووعد بكل تواضع في أن ينفـذ كلّ ما سوف

تقرره.

وأرسل الملك رسلاً إلى البابا للدفاع عنه، وليبرهنوا على براءته، ولم يرغب البابا في رؤيتهم، كما أنه لم يعانقهم، كما لم يسمح لهم بالركوع أمام قدميه، وحاول الرسل ثانية، فاستقبلهم بعض الكرادلة، لكن فقط للتحدث إليهم، ولهذا سقطوا في لجة من الفوضى لوقت طويل، وشعروا لذلك بالحزن وتدني المعنويات، لكنهم تابعوا تزويد الذين كانوا أكثر مواءمة بشكل مستمر، حتى يمكن بوساطة تدخلهم أن يقبل البابا بإعطاء بعضهم فرصة اللقاء به، غير أنهم لم يتقدموا في هذا المجال مطلقاً، واقترب حلول يوم الأربعاء المتقدم على عيد الفصح، الذي اعتاد فيه البابا، تبعاً لعادات الكنيسة الرومانية، إما أن يعلن عن حرمان عام أو تحليل من حرمان، ووصل إلى مسامعهم عن طريق بعض العاملين لدى البابا، أن البابا قرر بلا تراجع أن يفرض عقوبة الحرمان ضد ملك انكلترا بالاسم وضد جميع أراضيه على طرفي القنال.

وعندما حل ذلك اليوم حرم البابا بشكل عام القتلة الشريرين جداً الذين ذبحوا رئيس أساقفة كانتربري مع جميع الذين زودوهم بالمساعدة أو بالرضى، والذين يمكن أن يقدموا المساعدة لإيوائهم، ومع هذا بقي القتلة في نيرسبرا Knaresborough في مقاطعة نورثأمبريا North-umbria لمدة سنة.

وبدأ في حوالي عيد الفصح المولى يسوع المسيح، الموجود دوماً في قديسيه وفي كلّ مكان، يشع بشكل اعجازي على الحياة الجديدة بالمدح لشهيده الأعظم روعة، وأعني به توماس رئيس أساقفة كانتربري، ويشع أيضاً على ثباته الذي لانظير له في وجه الموت، وتجلى هذا بوساطة معجزات متوالية، وبذلك نجد أن الذي أوقف نفسه ونفوس أتباعه، وعاش مع الحرمان في سبيل حماية حرية الكنيسة المهددة، ينبغي أن يُعترف أنه قد حاز على نصر جدير بالتقدير.

وفي ٦آب وصل الملك الكبير إلى انكلترا، وكـان أثنـاء سفـره قـد زار هنري أوف بليوس أسقف ونشستر، الـذي كان على فـراش الموت، ووجه هذا الأسقف النقـد واللوم إلى الملك بشأن وفـاة الشهيد الرائع، وتـوقع له أن يعاني كثيراً بسبب ذلك الموت، ومـات هذا الأسقف العجـوز، بعد أن اكتملت أيامه، في يوم ٨آب.

سنة اثنتين وسبعين ومائة وألف

سمع في ليلـة عيـد الميـلاد رعد في ايـرلنـدا وانكلترا، وفي جميع أرجـاء فرنسا، وكان مفاجئاً وشديداً، منذراً بوقوع شيء جديد وغير اعتيادي.

ومنذ أن وصل الملك إلى ايـرلندا حيث نـزل إليها مع جيش في تشرين الثاني ١١٧١، ولمدة تقـارب العشرين أسبوعاً، لم يصل إليه ولا تقـرير من مملكته أو أي جزء من ممتلكـاته التي كانت واسعة جداً وعـريضة، والذي حال دون الوصول إليه وجود رياح مضادة مستمرة.

وبينما كـان الملك متأخـراً في ايـرلنـدا، بـدأ هيــوج أوف سينت مـور ورالف دي فيّ Fayes, وهـو عم الملكـة إليـانـور، في حــرف عقل الملك الشاب، وابعاده عـن أبيه، وقد قيل كان هذا بنـاء على نصيحة من الملكـة، وقـالا لـه: إنه لمن الـواضح أنـه من غير الـلائق أن تكـون ملكـاً ولاتمارس حكم المملكة.

وأصيب كثير من رجال جيش الملك هنـري الثاني في ايرلندا بـالاسهال في المعـدة، بسبب أكلهم لحماً جـديـداً وشربهم الماء، وهـو أمـر لم يعتـادوا عليه من قبل، ثم إنهم عانوا من نقص بالخبز.

وعنـدمـا فهم سكـان ايرلنـدا تمام الفهم كيف أن نـوايـا ملك انكلترا

تتعلق بـالكـامل في تأسيـس السلم والحفـاظ عليـه، وأنـه لم يشجع على الجريمـة بـالتـورط بها، كما أنـه لم يسرع قط بإصـدار الحكـم على أحـد بالاعـدام، عند هذا وعنـدما جمعهم بمرسـوم صادر عنه التقـوا به للبحث حول السلم، لأنه لم يكن هناك مؤسسـات شعبية بينهم ولاسلطات قائمة يمكنها أن تمنحهم الأمـان، من خلال الخوف من العقـوبة، ولأنهم عـانوا مراراً من قتل آبائهم لبعضهم بعضاً في حـروب أهلية، فقاموا بنقل شؤون العـدالـة والسلطـة بينهم إليـه وفيـه، وهكـذا حصلـوا على السلم بسبب الملك.

ونظراً لأن العديـد من القضايا المختلفة استـدعت وجود الملك، ركب هنـري ظهر سفينـة عند حلـول الظلام، ووصل في اليـوم التالي إلى ويلـز، ورسا على مقربة من سينت ديفـد، وذهب من هناك مباشرة إلى بورتشستر دون أن يلتفت إلى اليمين أو إلى اليسـار، وكـأنـه يـريـد مستعجل، وهنـا صعـد إلى أحد المراكب، وقـال وداعـاً لانكلترا، وبعد عبـور لطيف وصل إلى نورماندي، وعنـدما وصلت أخبار قدومه إلى مسامع ملـك فرنسا، قال مندهشاً:

«في سـاعة ملـك انكلترا موجـود في ايـرلندا وفي سـاعـة ثـانية هـو في انكلترا، وفي ساعة تاليـة هو في نورماندي، لابد أنه طار ولم يسـافر بواسطة فرس أو سفينة».

وعنـدما وصل هنـري إلى نـورمانـدي بـادر على الفور إلى زيـارة ألبرت وثيـودين، وهما كاردينـالان وممثـلان للبابـا، وبعد منـاقشـات ومباحثـات طويلـة، أولاً في سيفني Savigny ثم في أفـرانشز Avranches, أقسم الملك بحضـور المنـدوبين أن مـوت الشهيد الـرائع تـومـاس لم يتم الإعداد لـه بالتـوافق مع رغباتـه، ولابمعرفتـه، ولم ينفذ بـوساطـة خططه، ولكن بما أن المجـرمين اغتنموا فرصـة قتل الرجل المقـدس بسبب كلمات تلفظها بـدون انتباه عنـدما كـان غاضبـاً بشدة، فإنه طلب بكـل تواضع

التحليل منهما، وقد منح ماطلبه، وعلى هذا بات هو في نظر الكنيسة قد حظي بالتحليل الكامل، ووعد، بناء على رغبات الكاردينالين وأمرهما، أنه سيدفع ابتداء من حلول الصوم وكلّ سنة مبلغاً من المال يكفي بتقدير فرسان الداوية للدفع إلى مائتي فارس للدفاع عن أراضي القدس لمدة سنة.

ووعد أن دعاوى الاستئنافات يمكن القيام بها بكل حرية، وأن الممارسات التي فرضها حكمه ضد حرية الكنيسة سوف تزال، وسيتم بالكامل رد جميع الممتلكات العائدة إلى كنيسة كانتربري، تلك الممتلكات التي نقلت بعد مغادرة رئيس الأساقفة صاحب الذكرى المقدسة، كما سيسمح لرجال الدين وسواهم من كلا الجنسين، الذين غادروا المملكة تعاضداً مع توماس بالعودة بسلام من الملك وأن يستلموا جميع مقتنياتهم، ولوعوده هذه ولتنفيذه إياها، منح البابا الملك غفراناً من ذنوبه، وقام الملك هنري الشاب ابن هنري الثاني بإقسام اليمين والوعد مثلما فعل أبوه.

ووصل في آب التالي الملك الشاب وزوجته مرغريت، ابنة لويس ملك فرنسا، إلى انكلترا، وتوج رئيس الأساقفة مرغريت ملكة على انكلترا في ٢١آب، في ونشستر، ووضع التاج الملكي على رأس الملك الشاب مع أسقف افروكس Evreux وكان يتلو معه القداس وكذلك فعل الأساقفة المساعدون العائدين لكنيسة كانتربري.

وبناء على طلب ملك فرنسا ورغباته، جرى منع حضور التتويج على رئيس أساقفة يورك، وأسقفي لندن وسالسبري [لأنهم تولوا تتويج الملك الشاب أثناء غياب بكت عام١١٧٠]، كما حظر عليهم اعاقة التتويج بأية طريقة من الطرق.

سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف

وخطب هنري الثاني، ملك انكلترا، لابنـه جون المدعو Laukland [لأنه لم يعط شيئاً عندما وزع هنري الثاني ممتلكاته في ١١٦٩] الذي كان في الســابعـة من عمــره، الابنـة الكبرى لـــ «همبرت Humbert» كونت مورين، التي ولدتها له أرملـة الدوق هنري صاحب سكسوني، وبما أن هـذا الكونت لم يكن لـديه أمل بـالحصول على ولـد ذكر جـرى وضع أربعـة من قـلاعـه، المشهـورة بأنها أفضل القـلاع التي حصنهـا البشر أو الطبيعة تحت وصاية الملك، وذلك بناء على رغبته.

وبناء على نصائح شريرة قـام الملك هنري ابن الملك، بالتخلي عن أبيه فغادر أرغنتـان Argentan ليلاً، ولم يعلـم عبيد والده الـذين تــولوا خدمته شيئاً حول ماحدث، وهكذا ذهب في ٢٣آذار عبر مورتان Mor-tagne —وهي قلعـة عـائدة إلى ثيوبـولـد كونـت بورش— إلى ختنـه الملك لـويس ملك فـرنسا، وكـان والـده في تلك الليلـة نائماً في ألنكـون Alencon وقـد أوقظ وأخبر بفرار ابنـه، فقـام على الفور بـامتطاء ظهـر فرســه، وسار ومعه عـدد قليل من أتباعـه، على طول الحدود، حيث وضع قلاعه في حـالة الدفاع، ومع تغييره لعدد من المطايـا وصل عند الفجر إلى غيسور Gisors التي كان الملك لويس قد أعطاها إلى الملك الشاب بائنـة [دوطة] عن ابنته مـرغريت، واختـار رتشارد دوق أكوتين وغيـوفري دوق بـريتـاني، وهما الابنان الأصغـر للملك، أن يلتحقـا بأخيهما بـدلاً من أبيهما، وقيل كان هـذا لاتباعهما نصيحة أمهما إليانور، وبـات هناك في كلّ مكـان تآمـر، ونهب، وحـرق، وإذا ماأخـذنـا النذر من المواسم، نجـد أن الابن حمل السلاح ضد أبيه في الوقت الـذي كان فيه المسيحيون يلقون في كلّ مكـان أسلحتهم، احترامـاً لعيـد الفصـح، وشقـاقـاً من هـذا النـوع لايمكن أن ينتهي بسعادة(٢٠).

وجاء مائة وأربعون فلمنكياً إلى قرب باسي Passy وأغاروا على نورماندي باستخدامهم لأحد الجسور، وامتلأ المكان على الفور بأصوات الأبواق، وبصراخ الناس، وبالرجال المسلحين يركضون هنا وهناك، وجعلت المقاومة النورماندية الشجاعة الفلمنكيين يفكرون بالانسحاب بأقصى سرعة ممكنة، لكن الجسر الذي عبروا عليه كان قد جرى تدميره من قبل إحدى النساء الصغيرات، وكان الماء عميقاً في طريق تراجعهم، وقد اندفعوا نحو الماء فغرقوا جميعاً، وعندما سمع ملك فرنسا بهذا قال:

«إن عناصر الطبيعة إلى جانب النورمان، فعندما غزوت أنا نورماندي آخر مرة مات جزء كبير من جيشي عطشاً، ويمكننا اليوم أن نشكو من كثرة الماء».

وأرسلت رسائل من الملك الكبير ومن الكردناليين إلى انكلترا في ٦ تموز تحث على العمل من أجل كنيسة كانتربري، وعندما اجتمع الأساقفة للتداول حول هذا، قام أودو رئيس كاتدرائية كانتربري مع الجزء الأكبر من الدير باصرار منذ البداية في طرح رأي لم يسمع به من قبل، في أنه يتوجب اختيار رئيس الأساقفة من قبل جماعتهم، وأن يعلن اسمه بشكل عام من قبلهم، وحيث أن هنري الثاني*كان آنذاك مهتماً عظيم الاهتمام في أن يكون الانتخاب بدون اضطراب، جرى اختيار اثنين من بين العدد الكبير للرهبان وهما: أودو رئيس دير كانتربري ورتشارد رئيس دير دوفر، وعندما قدمهما الرهبان إلى الأساقفة، كانت كلّ رهبانية تأمل في انتخاب رئيسها، وقام غلبرت أسقف لندن قبلهم جميعاً وصب كثيراً من المديح على الرئيس أودو، ثم نزل باتفاق مع الأساقفة ووقف في الجانب الآخر قائلاً: «لقد انتخبنا الرئيس رتشارد»، وحدث هذا كله في بيعة القديسة كاترين بحضور قاضي الملك وبموافقة منه، وجرى بشكل علني في اليوم نفسه الذي انعقد فيه المجلس لانتخاب رئيس أساقفة لكانتربري، تلاوة الرسالة التالية التي وصلت من البابا:

«من البـابـا الاسكنـدر، إلى اخـوانـه المحترمين رؤسـاء الأسـاقفـة، والأسـاقفة، وإلى أبنـائه مطارنة الكنائس الأخـرى، وإلى جميع رجال الدين مع شعب انكلترا، تحيات ومباركات رسولية.

نشرت انكلترا شـذى ومحاسن المعجـزات التي عملهـا الـرب القـديـر خـلال فضـائل تـومـاس المقـدس والمبجل، الـذي كـان من قبل رئيسـاً لأساقفـة كانتربـري، ولقد أشعت حياتـه بمجد عظيم جـداً، وقد ختمت أخيراً بالمعركـة الرائعة للشهادة، ومامن واحـد يسمع عن حياته التي هي مـوضع الاعجـاب، ويقـدر آلامه الـرائعـة، يمكنـه أن يمتلك أدنى شك حـول قـداسته، ولإخبـارنـا بشكل مستمـر من قبل جميع المؤمنين بأخبـار المعجزات العظيمة التـي لاتعد، والتي جرت من خلال فضـائله، وتماشياً مع شهادات التقدير لكثيرين، نقرر هنا بكل إجلال، أمام المجمع الديني العظيم الـذي ضم رجال الـدين وغير الدين «تطـويب» رئيس الأساقفـة السالف الـذكر، ورسمنا بـادراج اسمه في جدول أسماء القـديسين، وبناء عليه إننا ننصح، ونأمـر من خلال سلطاتنا جميعكم أن تحتفلوا بـوقار بعيد الشهيد الرائع السالف الذكر كلّ سنة في يوم آلامه.

صدر في سغني Segni, ١٣-آذار».

ومـا ان انتهت قراءة الـرسالـة حتى رفع الـذين كانـوا هناك أصـواتهم بمديح الشهيد، والانتصار لصراعه الرائع، وأنشدوا: «الحمد للرب».

وبناء على تحريض من لويس ملك فرنسا ضم الملك الشاب إلى جانبه فيليب كونـت فلاندرز وأخيـه ماثيـو كونت بـولون، وقـد كسبهما بوسـاطة وعود سخيـة، وحشدوا عدداً كبيراً من الـرجال المسلحين فور الـدعوة إلى ذلك وبأقصى سرعة ممكنة، وذلك للوقـوف في وجه المقاومة الصادرة عن النبلاء الفلمنكيين، وهـاجموا نورمانـدي في أبهة عظيمة، وجـرى الاستيلاء على قلعـة أوميل Aumale بسرعـة كبيرة، وكـان ذلك على حسـاب

سوء سمعة عدد من الناس، ثم شرعوا بحصار درنكورت Drincourt وهي قلعة جيدة التحصين، وكانت بأيدي نخبة من الفرسان، وجرى اقتحامها أيضاً، ثم وضعت تحت الحراسة، ثم تابعوا من هناك زحفهم نحو قلعة أركوي Arques وأصيب كونت بولون بجراحة قاتلة من قبل أحد المرتزقة، وحدث ذلك يوم عيد القديس جيمس ٢٥ تموز، وكان الكونت فيليب راغباً بالعودة السريعة، ولقد كان بإمكانه وقتذاك العودة إلى بلده وهو فرح بالنصر، لولا أن ذلك العمل الخياني عتم على نجاحه، ولولا حدوث وفاة أخيه، التي وقعت بعد وقت قصير، مما أكد عدم تأكده من نتائج الحرب، ولهذا عاد من خلال منطقة ايو Eu التي كانت تحت الاشراف الكامل للملك الشاب.

وما أن سمع الملك هنري بأن فيليب كونت فلاندرز قد غادر نورماندي، حتى بادر على الفور إلى حشد جيش كبير قدر المستطاع، وقدّر انه إذا ماالتقى بملك فرنسا داخل حدود نورماندي يستطيع أن يشتبك معه في معركة.

ولدى سماع ملك فرنسا بهذا، ولمعرفته أن ملك انكلترا كان قوياً جداً، ويحمل مشاعر مريرة نحوه، مثله مثل دب سرقت جرائه، فأخذ يجول في الغابة وهو يزمجر غضباً، قرر أن أفضل طريق عملي ينتهجه من أجل رجاله ومن أجل نفسه، هو الفرار، وبناء عليه امتطى فرساً سريعاً، وتراجع منسحباً بالسرعة القصوى نحو فرنسا، وتركت الأثقال العائدة للفرنسيين لتنهب من قبل المحاصرين، والنورمان الآخرين الذين وصلوا إلى هناك، ونهبت في يوم ٩آب جميع المؤن والأطعمة التي جرى جلبها للجيش الفرنسي على ظهر الشاحنات والعربات وخيول التحميل من قبل المرتزقة البرابانكونيين Brabancon.

وطالب وليم ملك اسكوتلندا بأنه يتوجب على هنري الثاني أن يعيد إليه الممتلكات الموجودة في نورثأمبرلاند Northamberland التي

كـانت أعطية إلى جـده الملك داود، فهذامـؤكـد له بـوثيقة رسميـة، وهي الممتلكـات التي بالـواقع احتلها داود لعـدة سنوات، لكن مطلبـه رفض، ولـذلك جمع جيشـاً مـن الأعـداد الكبيرة للغـالـويين Galwegians وجعله تحت تصرفـه، وكان سـلاح هؤلاء خفيفـاً، وكانـوا رجالاً يتمتعـون بـالرشـاقة، يمكن تمييزهم بسهـولة بـرؤوسهم الصلعاء، وكـانوا يحملـون سكـاكين على الجانب الأيسر،كـافية لإخـافـة أي جنـدي، كما أنهم كانـوا راغبين في رمي الرمـاح إلى مسافات طـويلة، واعتادوا على أن يـرفعوا رمحاً طـويلاً اشـارة على أنهم زاحفين نحو المعـركة، واستحـوذ الملك وليم على جواز آمن خلال ممتلكـات هيوج أسقف درم Durham وبدأ يعيث فساداً في انكلترا، ملقيـاً النار في المدن، ومستـولياً على كميـات هائلـة من الأسـلاب، وآخـذاً النســاء أسرى، وممـزقـاً الأطفـال نصـف أحيـاء بعـد اخراجهـم من بطون أمهـاتهم، وبغية ايقـاف هذه الفظـائع ومنعها، حمل النبـلاء الانكليـز السـلاح بـالسرعـة القصـوى، وأرغمـوا على الفـور ملك السكـوتلنديين على الفـرار، والانسحاب إلى اسكـوتلنـدا، وساروا في إثـره فدمروا بالنار جميع لوثيان Lothian وكل شيء وجد خارج أسوار المدينــة وقع في أيـــدي الانكليــز كأسـلاب، وبنــاء على طلب ملك السكوتلنـديين جرى عقـد هدنة حتى ١٣كـانون الثـاني [١١٧٤]، وعاد النبلاء الانكليز منتصرين.

سنة أربع وسبعين ومائة وألف

قام الملك الشاب وبصحبته ثيوبولد كونت بيرشي Perche وكونت ألنكون Alencon ومعهم حوالي الخمسين فارساً، بمهاجمة مدينة سيز Sees ولكن الذي حدث أنه مع أن سكان المدينة لم يكن لديهم أمير أو قائد، قاوموا بشجاعة، وهكذا لم يتم تحصيل شيء.

وخشية من هنري الثاني من أن يقوم الملك الشاب، أو واحد من الجيران على الحدود بمهاجمة بلاده والعيث فساداً في نورماندي، عهد بحماية نورماندي إلى أقرب الأصدقاء إليه وإلى الذين سلف لهم أن قدموا له تأييداً مخلصاً، وأخذ هو نفسه اثنين فقط من المرافقين هما:

أليورد دي فافاشي Alured de Vavaci وغيوفري استورمي Esturmi كإختبار لإخلاصهما له، ودخل في ٣٠نيسان إلى مين، فتدفق السكان عليه من جميع الاتجاهات ومنحوه ولاءهم بكل شكل ممكن، سواء أكان ذلك خشية من الحرب، أو خوفاً من أي نوع آخر من الأزمات، لابل حتى من مخاطرة بالحياة.

وهكذا ارتحل خلال البلاد، وقد أحاطت به أعداد كبيرة من الجند، فتولى تمتين ثقة الناس به، وحث النبلاء المحليين على الدفاع عن مناطقهم وحمايتها، وعندما وصل إلى الحدود مع أنجو صرف كلّ واحد كان معه باستثناء الرجلين اللذين ذكرا أعلاه، ورحب الأنجيفيون بالملك بسرعة أكبر وبأعداد أعظم من سكان مين، لأنهم خضعوا لرغباته بحب أكبر وباستعداد أعظم.

والآن وقد سار كلّ شيء طبقاً للخطة، احتفل هنري بعيد الشعانين في بواتيه، وعندما سمع أن جيش ابنه رتشارد كان يحتل مدينة سينتس Saintes أخذ سكان بواتيه معه، وذهب مسرعاً ليفرج عن المدينة، ولم

يظهر جند رتشارد احتراماً للرب أو للكنيسة المقدسة، ودخلوا الكنيسة الكبرى وبأيديهم المشاعل ووسائل الإضاءة الأخرى، وحولوها على الفور إلى حصن، وملأوها بالسلاح وبمؤن الطعام، ووصل الملك إلى المدينة بسرعة أكبر مما توقع هؤلاء الجند، وأخبر أن المدينة مدافع عنها بوساطة ثلاثة حصون، وقد ركز أولاً القتال على المدينة، وتمكن في البداية من الاستيلاء على الحصن الذي بني منذ وقت بعيد عند مدخل المدينة، وتابع من هناك فهاجم القلعة بنجاح مماثل، وكانت قلعة أكبر من الحصن الأول، لكن أقدم بكثير منه، ووصل أخيراً إلى الكنيسة الكبيرة، التي اكتظت بجند مسلحين وامتلأت حتى حدود الانفجار بالرماة، وكانت مداسة من قبل حفظة بيوت الدعارة، ولاحظ وهو يقترب منها أنه إذا مااقترف شيء ضد الديانة المقدسة، سيعاني من ذلك كلّ انسان، ومع ذلك اقترب منها وهو لايريد أن يؤذي الكنيسة أو يقترف العنف ضدها أو الاستخفاف بها، بل أراد تنظيفها من الدنس، وسحب من الكنيسة الذين خرقوا حرمتها، لقد سحبهم جراً إلى خارجها، لأن كلّ من خرق حرمة القانون، عبثاً يثيره ضده، وألقى القبض على حوالي الستين من الفرسان مع نحو أربعمائة من الرماة من داخل هذا الحصن، وفي داخل الحصنين الآخرين.

ولمعرفة هنري ملك انكلترا بما كان يجري في فلاندرز قرر العودة، فأوكل أكوتين إلى ستة من النبلاء، وبنى على الحدود بين نانتس Nantes وأنغر Angers قلعة أنفق عليها كثيراً، وسميت أنسينس Ancenis ظهرت فيها جميع معارف وبراعة النجارين من أنجو ومين، وأوكل شؤون هذه القلعة بشكل خاص إلى موريس أوف كرون Craon وأسند إليه حمايتها، وأصدر عند وصوله إلى نورماندي مرسوماً في بونفيل سمى فيه جميع الذين عهد إليهم بأمور الحدود والذين جعلهم شحن لقلاعه.

وأقسم فيليب كـونت أوف فلانـدرز، أمام لويـس ملك فرنسـا ونبلاء المملكة، بـوضع يده على بعض الآثـار المقدسة، أنـه سيقوم خـلال خمسة عشر يـومـاً بعد مضي عيـد القـديس جـون المقبل في ٢٤حزيـران، بغـزو انكلترا بقوة كبيرة، وأن يخضعها ويضعها تحت ولايـة الملك الشاب، وتأثر الملك الشـاب بهذا العـرض للـولاء، فـذهب إلى وزانت Wissant يـوم ١٤تموز ليرسل رالف أوف لى هي Haie إلى انكلترا مع جيش كبير، وبعث كـونت فلانـدرز بثلاثمائة وثمانية عشر رجـلاً أمامـه من أجل العبور، والذين أرسلهم لم يكونوا ماحدث وتوفر من السكان المحليين، بل جنـوداً ذوي خبرة اختير عـدد كبير منهم مـن الفلمنكيين، وبعـدمـا نـزل هؤلاء في انكلترا في أورول Orwell يوم ١٥أيار، في وقـت كان فيه حلفاؤهم في خطـر، هاجموا من هنـاك نوروك Norwick يرافقهم إيرل هيوج، واستولـوا عليها في ١٨حزيران، ونهبوها، وحملـوا مبالغ ضخمة من المال، كما حملـوا معهم عدداً كبيراً من الأسرى وأرغمـوهم على دفع فديـة كبيرة.

وعندما رأى قضاة هنري الثـاني سوء الأوضاع وترديها في انكلترا أرسلوا إليـه عـدداً كبيراً من الـرسل عبر القنـال، غير أنهم لم يتلقـوا أيـة أجـوبـة مـؤكدة بأن هنـري قد خطط للعـودة إلى انكلترا، وقامـوا بمحاولـة أخيرة بهذا الصـــدد فبعثـوا رتشـــارد الأسقف المنتخب لـونشستر ليتحـــدث إلى الملك، وكان رجـلاً يعرفـون بشكل مؤكد بأنـه كان صـديقاً حميماً للملك وقريباً منـه أكثر من الآخرين، وكان بارعـاً وعالي الحماسة، ويمكن الاعتماد عليه في أن يبين للملك جميع الخسائر، والمصاعـب، والمخاطر التي تحملها شعبـه، وأن يقـدم له صـورة صحيحـة عن الصراعـات التافهـة للنبـلاء، والحالة غير المستقرة في المدن، وتذمر النـاس وضيقهم، الذي سيزداد سوءاً بحكم أنهم يتطلعـون نحـو التغيير، وقـد يقومـون بحـركـات سيكـون من الصعب معالجتها.

وهكذا عبر الأسقف المنتخب القنال بسرعة، ووجد الملك في بونيفيل، عاقداً مؤتمراً عاماً مع النورمان في يوم ٢٤ حزيران.

وعندما عرف النورمان أن الأسقف المنتخب لونشستر قد وصل، وعلموا سبب قدومه، قالوا: «بما أن الانكليز أرسلوا عدداً من الرسل، وأرسلوا الآن هذا الرجل، يبدو أن شيئاً ليس أقل من الهجوم على قلعة لندن قد استدعى الملك للعودة إلى انكلترا».

واستقبل الملك هذا الرسول الخاص بالحفاوة الجديرة به، وأظهرت الحوادث المدى الذي وثق به بكلماته، وناقش مع رفاقه في ذلك اليوم نفسه مسألة الدفاع عن حدود المنطقة وحماية القلاع، واستعد للعودة خلال أيام قليلة، ومعه جميع حاشيته وأهل بيته، ومصطحباً برفقته الملكة إليانور، والملكة مرغريت، وابنه جون وابنته جوانا وزوجات أولاده.

وأرسل أمامه إيرل تشستر، وكونتسة لستر مع عدد كبير آخر كان قد أخذهم أسرى إلى بارفلير Barfleur حيث توفر عدد كبير من السفن الراسية، وجمهور كبير ينتظر وصول الملك، وعبر جيش كبير من المرتزقة البرابانكونيين مع أسلحته وعتاده، القنال عند كوسترهام Quistreham وأسرع الملك إلى المرسى في ٨ تموز، وتحركت السفن وأقلع في منتصف النهار، وما ان تحركوا داخل البحر، حتى أصبحت الأمواج تبدو قاسية، وهبت الرياح واستمرت كذلك، فجعلت البحارة مترددين بشأن العبور، وأظهروا أمام الملك مشاعر خوفهم، وعبرت وجوههم عن علامات الشك والدهشة.

وعندما علم الملك أن الرياح كانت تهب ضده مباشرة، وذلك عندما كانت السفن قد شرعت في أخذ طريقها المباشر إلى انكلترا، وأن عاصفة قوية تزداد سوءاً، عندها رفع عيناه نحو السماء وقال أمام كلّ واحد:

«إذا كان السلم بين رجال الدين والشعب هو غايتي، وإذا كان رب

السموات قد قضى باستعادة السلم عندما أصل، عندهايمكن برحمته أن يمنحني رسواً سالماً، لكن إذا كان معادياً، وإذا كان قد قرر زيارة المملكة بالعصا، ليكن حظي بعدم الوصول مطلقاً إلى سواحل بلادي».

ومن الممكن افتراض أن صلاته قد سمعت، ذلك أنه وصل في اليوم الذي أقلع فيه عند حلول الظلام إلى ساوثأمبتون، مع كلّ شيء سليماً، وتناول هناك وجبة بسيطة من الخبز والماء، ووضع جانباً أعمال استرداد النظام، وتجنب مقابلة الشعب حتى يفي بوعوده التي قطعها على نفسه أثناء صلاته، بالقيام بالصلاة في مشهد الشهيد الرائع توماس.

وقام بعد برهة قصيرة برحلة سريعة عبر انكلترا، وعندما وصل إلى كانتربري قفز من على ظهر حصانه، وخلع ثيابه الملكية، وارتدى ثياب حاج تائب متضرع، وذهب في يوم الجمعة ٢٥تموز إلى الكاتدرائية، وهناك وسط الدموع المنهمرة والتنهدات والحزن الواضح شق طريقه إلى قبر الشهيد الرائع، وسجد أمامه ماداً ذراعيه نحو الأمام، وبقي هناك وقتاً طويلاً وهو يتضرع ويصلي، وخلال هذا الوقت، وأمام أسقف لندن الذي كان يعظ الناس، أعلن أمام الناس، وهو يدعو الرب ليكون شاهداً عليه، أنه لم يأمر، ولم يرغب، ولم يتآمر بشأن موت رئيس الأساقفة، ولكن بما أن القتلة قد أثيروا بكلماته التي لم يقدرها تمام التقدير عندما تلفظ بها، فقد سأل التحليل من الأساقفة الحضور، ووضع جسده للقصاص الصارم بالضرب بالعصا، وقد تلقى ثلاث، لابل حتى خمس ضربات من كلّ واحد من الرهبان بدوره، وكان قد اجتمع منهم عدد كبير.

ونهض من صلواته، ووضع عليه ثيابه التي خلعها من قبل، وقدم التمجيد للشهيد السامي القدر بهدايا ثمينة، وعين مبلغاً قدره أربعين جنيهاً ليكون ايجاراً سنوياً لتزويد وسائل الاضاءة بشكل دائم حول قبر الشهيد احتراماً له.

وأمضى بقية النهار ومجمل الليلة التالية في تأنيب النفس وندامتها، منصرفاً إلى الصلاة وعدم النوم، وتابع صومه لمدة ثلاثة أيام، وحيث أن ندامة الروح، والأسف العميق، وتواضع الروح هي التضحيات التي ترضي الرب أكثر من أي شيء، في كلّ وقت، وذلك تقليداً للملك داود، كان يدعو بشكل متواصل قائلاً: «لقد أذنبت ضد الرب، لقد أذنبت ضد الرب»، ولهذا استحق أن يسمع من النبي كلمات: «لقد غفر لك الرب أيضاً ذنوبك».

ولاشك أنه الآن قد أرضى الشهيد، ويمكننا القول بأمان بأن ذنبه قد غفر وأزيح عنه، ففي ذلك السبت بالذات، عندما صلى من أجل أن يظهر توماس الرحمة نحوه، ألقى الرب بين يديه وليم [الأسد] ملك السكوتلنديين، فقد استسلم إليه ليكون معتقلاً لديه في رتشموند، وبذلك تحققت نبوءة [ميرلين Mirlin] التي قال فيها: «سيعثر بين فكيه على قطعة لفقت في خليج أرموريكا Armorica» ولقد أراد بخليج أرموريكا قلعة رتشموند، لأنها كانت قد احتلت من قبل أمراء بريتانيين بوساطة قانون الوراثة الآن والذي كما هو منذ قديم الزمان.

ووصف جوردان فانتوسمي Fantosme قبل ١١٨٣ في تاريخه المنظوم ردة الفعل البهيجة لهنري الثاني لدى اعتقال وليم الأسد:

وهكذا رافقوا الملك حتى

وستمنستر

وأبدى اللندنيون سروراً عظيماً لدى وصول

مولاهم

وأعطوه الهدايا وقدموا له الاحترام العظيم

غير أنه كان حزيناً ومهموماً إلى حدما

بسبب ملك اسكوتلندا الذي تصرف
بشكل مجنون
وروجر دي ماوبري Mowbray وهو مقاتل نبيل
الذي كان يعاث فساداً في أرضه ليلاً ونهاراً
وقبل أن تحل ساعة ذهابه إلى الفراش
وصلته قطعة من الأخبار كسب منها
شرفاً عظيماً
دخل الملك إلى حجرته الخاصة
عندما جاء الرسول، عانى من
كثير من المتاعب
هو لم يشرب ولم يأكل لمدة ثلاثة أيام
من الأسبوع
ولم ينم ولو للحظة واحدة بسبب بعض الأخبار
بل أنهك نفسه في الليل والنهار
بالترحال.
لقد عمل بشكل حكيم جداً وسينال جائزة جيدة
كان الملك متكئاً على مرفقه وقد نام قليلاً
ووقف خادم عند قدميه وأخذ يمسحهما بلطف
لم يكن هناك صوت ولاصراخ، كما لم يكن من

بتكلم هناك
ولم يكن أبصا لاطبل ولامزمار ولاآي شيء يصدر عنه صوت
في تلك الساعة.
عندما وصل الرسول إلى الباب وبلطف
دعا
وقال الحاجب: من هناك؟
أنا رسول، صديق، حثث الآن مسرعا عبر هذا الطريق
لورد رانولف غلانفيل بعث بي إلى هنا
حتى أتكلم مع الملك، لحاجة ماسة
تعنيني من أجلها
وقال الحاجب: دعْ العملَ الآن
حتى الصباح
وقال الرسول: بحق إيماني، أنا سوف
أتكلم إليه الآن مباشرة
في قلب مولاي حزن وأسى
لذلك دعني ادخل أيها الحاجب الجيد
وقال الحاجب: أنا لن أجرؤ
ان أفعل ذلك
الملك نائم، عليك الانسحاب

وفيما هما يتكلمان، أفاق الملك

وسمع صراخاً عند الباب: افتح.. افتح

وقال الملك: من هذا، هل يمكنك اخباري؟

وقال الحاجب: سيدي، ستعرف

مباشرة

إنه رسول من الشمال، حسناً

إنك تعرفه

رجل من عند غلانفيل، اسمه

هو برين Brien

وقال الملك: بإيماني، أنا الآن مرتبك جدا

إنه يحتاج للعون، دعه يأتي إلى هاهنا

ودخل الرسول الذي كان من أصل طيب

وحيا الملك قائلاً كما ستسمع بعد قليل:

سيدي الملك، علّ الرب الذي بسكن

في التثليث يحفظك

يحفظ شخصك أولا، ثم جميع

أصدقائك المقربين

وقال الملك: برين ماالذي تحمله من أخبار؟

هل دخل ملك اسكوتلندا إلى رنشموند؟

هل جرى الاستيلاء على نيوكاسل الواقعة على التاين، وكذلك
على الحصون؟
هل أودنيل أوف أمفـــرافيل Odinel of Umfravile أسر وحمل بعيداً
وجميع باروناتي طردوا من ممتلكاتهم؟
بإيمانك أيها الرسول، أخبرني الصدق
لقد خدموني بسوء، لذا يمكن أن
يعاقبوا بسببها.
ثم قال الرسول: سيدي، اسمعني قليلاً
باروناتك في الشمال أناس طيبون مستقيمون
باسم مولاي تلطف واصغ إليّ
لقد بعث لك بوساطتي تحية وصداقة
وبعثت بتحيات أكبر مولاتي التي تعرفها
أنت معرفة جيدة
لقد أرسل معي يقول لك: إنك سوف تقترف
خطأً في تعذيب نفسك
لقد جرى أسر ملك اسكوتلندا وجميع باروناته
فقال الملك هنري: هل تقول الصدق؟
نعم ياسيدي، الصدق، وفي الصباح سوف تعلم بذلك:

– ٥٢١ –

رئيس أساقفة يورك، رجل حكيم ومتعلم
سيبعث إليك باثنين من المبعوثين الخاصين
لكن أنا بدأت أولاً، وأنا الذي أعرف الصدق
لم أنم سوى قليلاً خلال الأيام الأربعة الأخيرة
كما أنني لم آكل ولم أشرب، لذلك أنا جائع جداً
لكن، من فضلك أعطني جائزة لإخباري إياك
ورد عليه الملك: ستكون مخطئاً إذاً
شككت بذلك
إذا كنت قد أخبرتني الحق، ستكون غنياً بما فيه الكفاية
هل جرى أسر ملك اسكوتلندا؟ أخبرني الحق
نعم ياسيدي، بإيماني، لأصلب
على الصليب
أو أشنق بحبل، أو أحرق على نار عظيمة
إذا غداً، قبل الظهر، لم يتأكد هذا كله
عندها قال الملك: الحمد للرب من أجل ذلك
وللقديس توماس الشهيد ولجميع
قديسي الرب
وبناء عليه ذهب الرسول إلى مضافته
وكان لديه الكثير الوفير ليأكل وليشرب

وكان الملك في تلك الليلة فرحا مسرورا إلى حد
أنه ذهب إلى الفرسان
وأيقظهم جميعا قائلا:
أيها البارونات، استيقظوا، إنها ليلة طيبة بالنسبة لكم
لقد سمعت شيئا سيجعلكم جميعا مسرورين
وقع ملك اسكوتلندا بالأسر، هكذا
صدقا أخبرت
الآن للتو وصلت الأخبار إلي، عندما نوجب
أن أكون في الفراش.
وقال الفرسان. الآن شكرا للمولى الرب
الآن انتهت الحرب، ومملكتك
في سلام
وبدت هذه الليلة جميلة جدا للملك هنري
وفي اليوم التالي، قبل الظهر، الأخبار نائمة
وصلت إليه
من رئيس أساقفة يورك، الذي
يدعونه روجر
الذي حبا مولاه واهتم بالاخلاص
عندما رأى الملك الرسل، لم يكن قط

أعظم سروراً

وخمن أنهم سيقولون الشيء نفسه، ولهذا

أجابهم:

سمعت الأخبار في الليلة الماضية عندما كنت

قلقاً جداً

للذي جلبها إليّ جائزة

سوف تعطى

وتناول عصاً صغيرة، وأعطاها لبرين

عشرة من أرضه سوف يعتقون للمتاعب

التي قاساها

ونعود الآن إلى رواية ديسيتو عن حملات هنري الثاني ضد أعدائه.

الآن وقد نفذ جميع الوعود التي قطعها على نفسه أثناء الصلاة، بكل تقوى، عاد الملك الكبير، ومكث قليلاً من الوقت في لندن، حيث اكتشف أن النبلاء الانكليز قد قدموا لمواجهته هناك، عندها انطلق على رأس قوة، ووصل إلى هنتنغدون Huntingdon فاستولى على القلعة التي كانت تحت الحصار منذ ٨أيار، وحدث ذلك في اليوم التالي لوصوله.

واستولى نبلاء نورثأمبرين Northumbrian ومعهم ابن الملك، والأسقف المنتخب للنكولن، الذي كان قائدهم، على كيركباي مالزيرد kirkby Malzeard وعلى قلعة روجر ماوبري Mowbray بالقوة، وعندما جمع الملك جيشاً كبيراً في بري سينت إدموند، مع حشد

من الجند كان يتدفق من جميع الاتجاهات، أمرهم، بناء على نصيحة عامة، القيام بحصار قلعتي هيوج بيغود Bigod إيرل نورفولك: فراملنغهام Framlingham وبنغي Bungay وكان لدى الإيرل خمسين فارساً، وجيشاً جيد الحجم، لكنه بالواقع أدنى كثيراً بالقوة، ويائساً من قدوم أي انسان لمساعدته، ولهذا أرغم بسبب الضرورات على أن يقدم رهائن وأن يدفع مائة قطعة ذهبية حتى يحصل على السلام من الملك، وفي يوم ٢٥ تموز قدم الولاء للملك، وأقسم على الاخلاص له، وجدد تابعيته له.

وكان ماحدث لجيش الفلمنكيين، الذي أعده الكونت فيليب ليرسله أمامه إلى انكلترا قبل قدومه إليها، وذلك بعدما كان قد أعطى وعداً مؤكداً للملك الفرنسي بوضع يديه على بعض الآثار المقدسة: فقد أقسم يميناً بعدم غزو انكلترا بقوة معادية، وعاد أفراده إلى بلادهم بناء على إذن من هنري، وغادر أيضاً جيش الملك الشاب الذي كان تحت قيادة رالف أوف لى هي، بدون اعاقة ومعه أسلحته وعتاده، وهكذا حدث في الساعة الحرجة، من خلال تدخل القديس توماس الشهيد، أن بات الملك الكبير مسيطراً على جميع انكلترا، والآن وقد حاز ذلك فقد أقلع يوم ٧آب من بورشستر Porchester ومعه ملك السكوتلنديين، ووصل في ١١آب، بعد رحلة موفقة إلى روان، التي وجدها تحت الحصار.

وكان لويس ملك فرنسا، والملك الشاب، وفيليب كونت فلاندرز قد جمعوا القوات من جميع المناطق، فتوفر لديهم جيشاً كبيراً، وهكذا خلفوا السين على يسارهم، وحاصروا روان في ٢٢تموز، آملين أنهم إذا استولوا على روان، يمكنهم إزالة ماتلطخوا به من عار سببه خرق اليمين أثناء الحصار الفرنسي لفيرنويل Verneuil والعمل الخياني الذي شغل الدور فيه وسببه الفلمنكيون أثناء حصار درنكورت Drincourt وقاوم النورمان الذين توفر منهم الآن قلة مقارنة بالحشد الكبير الذي

وصل، بشجاعة، واعتمدوا على دفاعات الأسوار، واستخدموا حجارة مربعة، وقطع طويلة من الخشب مدببة، فأرغموا الأعداء على فرار طويل، وذلك بعدما هاجم هؤلاء الأعداء الأسوار الخارجية بتشكيلات قتالية واستخدموا آلات الحصار، ولم يعرف الذين كانوا تحت الحصار الاستراحة، واستطاعوا أن يضعوا قوتهم تحت الاختبار بنشاط أكبر واصرار، وتبادل الفرنسيون والفلمنكيون حملات القتال، وعندما شرع الفرنسيون يضعفون شجع الفلمنكيون أنفسهم وانخرطوا بالعمل، واستخدموا كلّ مالديهم من قوة للغم الأسوار، وبقي النورمان غير هيابين لتهديدات الأعداء وهجماتهم، واثقين من توقعات النصر، ونجوا من الهجمات المتوالية والاشتباكات الحادة بكل ثبات، وكان عددهم يزداد يومياً، وكانت المؤن والأطعمة لديهم وفيرة، وفي الجانب المقابل أخذ كثير من الناس بالفرار من الجيش كلّ يوم، لأنهم كانوا تحت خطر المجاعة.

واستمرت هذه الحالة الحرجة لأيام كثيرة، حتى تسلم الملك الفرنسي تقارير معتمدة أن ملك انكلترا قد اقترب من روان في قوة معتبرة، وهكذا آل إلى حالة رعب وحيرة، ذلك أنه بات خائفاً حسبما استخلص من الأقاويل، أن الملك سوف يهاجم فرنسا ويلقي الحصار على باريس، وبحث مع مستشاريه حول أفضل طريقة لايقاف الحصار، بدون أذى لأنفسهم، وبعد اتخاذ قرار عام، أقدم الفرنسيون مع الفلمنكيين على احراق آلات حصارهم، وعلى تمزيق خيمهم،، وعلى إلقاء النار في أكواخهم وفي أبنية الأسواق، وفي يوم ١٤آب تراجعوا وانسحبوا من قرب المدينة، وذلك على الرغم من موت الاشاعات والأقاويل، وبهذا أزاحوا جانباً جميع تهديداتهم، وتبجحاتهم، وقطعهم العهود على أنفسهم بهدم روان، العهود التي غالباً ماقطعوها بحماقة وعجلة، وهاجم أناس من منطقة الحدود الجزء الأقصى من التحصينات ونهبوا بسرعة أعداد كبيرة من السلاح وكذلك العتاد.

وكـان الفرنسيـون قلقين بشأن النفقات، كما كـان الفلمنكيون خـائفين على حياتهم، لذلك اجتمعـوا معاً للبحث حول الأضرار التي لحقت بهم، وبما أن الفـريقين رأيـا أنهما يبـددان جهـودهما قـررا ايقـاف الهجـوم على النــورمـــان والانسحــاب من الحدود، ونظــروا نحـــو سلمهم أنفسهم وهـدوتهم، لـذلك قـرروا بذل أقصى مـايستطيعـون لـردم الهوة بين ملك انكلترا وبين أولاده، ويمكنك القـول: إن الأولاد قـد أضروا قضيـة أبيهم، وجلبوا بغضـاء رجال الـدين ولعنة النـاس، ومع هذا ينبغي العفـو عنهم لأنهم كانوا شبابا.

وتوجه الـرئيس المنتخب لأساقفة كانتربـري إلى روما بغية تجنب كمائن الانشقاق. وكـان العالم بأسره مرعوبـاً في هذا الوقت من الاصابـة بعدوى صـادرة عن غيـوم الهواء الفاسـد، وكـانت تسبب سعـالاً عامـاً واسهـالاً بـالمعـدة، وكـان هذا خطـراً بـالنسبـة للجميع، وأدى إلى مـوت كثيرين، ووصل إلى رومـا، وبعـدما اجتـاز مـاوراء حـدودهـا، ذهب ليجد البـابـا الاسكنـدر —الذي كـان آنـذاك حياً— في أنـاغني Anagni ووجد هنـاك في البــلاط نـوابـاً للملك الشـــاب مضـادين لــه، ويفعلـون كل مـايستطيعون لتسـويد صـورة الأسقف المنتخب، وأخيراً طرحت مسألـة: مـوافقـة من على الانتخابـات والاجـراءات التي أعقبتهـا ستفضل؟ أهي مـوافقـة الملك الكبير أم الملك الشـاب؟ واستغـرق النقـاش حـولها وقتـاً وبحث فيها بـاستمرار، وبدا أنه تم التـوصل إلى حل عادل لها، ثم أثيرت شكـوك كبيرة حول ولادتـه، وهنـا أقسم عـدد كبير من الـرجال العقـلاء، الـذين توفـر عدد كبير منهم إلى جـانب رئيس الأسـاقفة، على الأنـاجيل، أنهم لم يسمعـوا لاقبل الانتخـاب ولاخـلالـه أكثـر من أنـه تم الحمل بـه وولادتـه على فـراش زواج شرعي، وبعـد هـذا جـرى في ٢نيسـان تأكيـد الانتخاب.

وعاد رئيس الأساقفة إلى لندن، وجـرى استقباله بحفاوة من قبل حشد

من بـارونـات انكلترا، احتشـدوا هنـاك يـوم ٣أيلـول، لكن بسبب أن السعادة غالبـاً ما مزجت بالحزن، ما ان أكمل رحلتـه بسعادة حتى دمرت —ياللأسف— كاتدرائية كانتربري بالنار يوم ٥أيلول.

وجرت دعـوة أعيان الكنائس الشاغـرة للاجتماع بغية انتخاب أسـاقفة لأنفسهم، وبما أن منـدوبي الملك الشـاب قـد أخبروا البابـا بأشيـاء كثيرة حـول الأسقف المنتخب لكنيسة إيـلاي Elyوخشية مــن الاساءة إلى سمعته وتشـويهها بين النـاس الطيبين، أقسم في احتفال مهيـب جرى في بيعة القـديسة كـاترين في وستمنستر أنه بـريء من موت رئيس الأسـاقفة تومـاس، وأنه لم يعرف شيئـاً عن الموضوع ولم يشارك بـه لابقول أو عمل، وأنه لم ينم بعذ سيامته مع أية امرأة.

رفض هنـري الملك الكبير الطغيـان بقلبـه وروحه، وعـدّ من واجبـات الجلالـة الملكيـة ابعـاد رعـايـاه عن الجولان حـول البـلاد، لسلب الفقير، وايـذاء الأرامل واليتـامى، واغتصـاب العـذارى، واهتـم بشكل خـاص بمنعهم عن سفك الـدمـاء، فضـلاً عن هـذا لقد عـرف أن التـذلل غير الاعتيـادي الذي أبـداه الفـرنسيون والفلمنكيـون ورغبتهم في صنع سـلام بينــه شخصيـاً وبين أولاده صـــادر عن عجـزهم عن مقـــاومتـه، وكــان سيتجنب الفرنسيين حتى عنـدما يحملون الهدايا، مالم يكن قـد أغري بأي نـوع من الاذلال والتحالف مـع أعداء من هـذا النـوع، من خلال رؤيتـه المستقبلية بإمكانية استدعـاء أولاده —الذين كاد كلّ واحد منهم أن يظن أنهم ضلـوا بـالفعل— إلى ثمار حيــاة أفضل، أولاده الـذين أحبهم كثيراً، والـذين جعل منهـم سـادة لكثير من الأمم، والـذين لم يتـوقف قط عن محاولة رفعهم إلى أعلى مـراتب الشرف، حتى يكبحوا النـاس، ويحكموهم بحكمة، ولإرعاب الطغاة، ومحق أعدائه.

وبما أن أعـداءه كانـوا يتفوهـون كلام سـلام، وأرادوا التباحث معـه، ذهب لمقــابلتهم في ١١ تشرين أول، بين تــور وأمبـويــز Amboise

والذي ظهر قد نشر في الوثيقة التالية:

«من ملك الانكليز إلى جميع رعاياه المخلصين، التحيات:

اعلموا انني بنعمة من الرب قد أقمت سلاماً مع الملك الفرنسي، ومع أولادي ورجالي، في سبيل تمجيد الرب ومجدي، وتم الاتفاق بأن أعطي ابني الأكبر هنري خمسة عشر ألف قطعة ذهبية من الأموال الأنجيفية كلّ سنة مع قلعتين في نورمانـدي حسب رغبتي، ولسوف أعطي رتشارد نصف دخل بواتيه مع قلعتين لايستطيع منهما إلحاق الأذى بي، وإلى غيوفري نصف دخل بريتاني، ولقد عاد جميع رجالي الذين تركوني إلى طاعتي والولاء لي، وذلك بحضور أولادي وبأمر منهم، وقد أقسموا يمين التبعية لي ضد جميع الناس، وسيحتفظون بالأراضي التي كانت بأيديهم عندما تركوني، إن ملك اسكوتلندا مع ايرلي ليستر وتشستر مع آخرين عقدوا اتفاقات معي أو أعطوني رهائن قبل هذا السلام، هم تحت رحمتي، وخارج هذه الاتفاقية مع أولادي، أما الرجال الذين أسرتهم، والذين لم يقدموا رهائن ولم يعملوا اتفاقية، سوف يحررون، على أساس ضمانات أمنية جيدة وبناء على طلب أولادي، وعادت إليّ جميع القلاع التي كانت بيدي أو بأيدي رجالي في بلادي عند بداية الحرب، وجميع القلاع التي حصنت ضدي سوف تعود إلى ماكانت عليه عندما بدأت الحرب».

ووضع الرب في أيدي الملك الكبير لدى هزيمته لأعدائه تسعمائة وستة وتسعين فارساً، لم يرغمهم على دفع فدية أنفسهم بالمال، وفي الحقيقة فك أسار المهزومين من الأغلال إذا قدموا له رهائن، أو لمجرد اعطائهم كلمتهم، وكانت هناك قلة حفظت بالاعتقال الشديد، وهم الذين تدفع جرائمهم الهائلة وماسببوه من كراهية كبيرة، تدفع أكثر

الأمراء رحمة إلى الغضب والتفكير بالعقوبة.

ومن جانب آخر أطلق الملك سراح الذين أسرهم هو أو حلفاؤه، أو الذين اعترض سبيلهم بموجب قانون الحرب أو الوسائل الأخرى، وجاء اطلاقهم مقابل المال، وقد تجاوز عددهم المائة قليلاً.

ولوحظ يوم ٤ تشرين ثاني، في حوالي منتصف الليل، ولمدة ساعة وأكثر أن لون السماء الشمالية كان أحمر بلون الدم.

ووضع وليم ملك السكوتلنديين بالأغلال واعتقل في نورماندي، وقد سمح له أن يزار من قبل حشد كبير من رعاياه، وأقام الأساقفة ورعاة الديرة والإيرلات والبارونات العائدين لمملكته سلماً مع الملك الانكليزي في فالونز Valognes يوم ٨ كانون الأول.

وقدم ملك السكوتلنديون الولاء لهنري الثاني، وربط ورثته في أن يفعلوا الشيء نفسه، ووعد أن تكون الكنيسة السكوتلندية خاضعة للكنيسة الانكليزية، وأنها لن تؤوي لاجئين معادين لانكلترا، وكعلامة أخيرة على خضوعه سلم قلعتي روكسبرغ Roxburgh وبيروك Berwick إلى رجال هنري الثاني.

وكان لغيوفيري، أبو هنري الثاني، وكونت أنجو، ابنة تدعى إمّا Emma ولدت له بشكل غير شرعي تماماً من اتصاله بسيدة من لامانس، وعرف داود أمير شمالي ويلز بأمرها وأنها أخت هنري، فطلب منها أن تكون زوجته، وقد حصل عليها بعد إلحاح شديد، وقد استهدف من وراء ذلك اعطاء الفخار إلى أولاده بالانحدار من بيت ملكي إذا مارزق أولاداً، وأن يدخل الرعب إلى قلوب الويلزيين بسبب أقربائه الجدد.

سنة خمس وسبعين ومائة وألف

ترك وليم ملك اسكوتلندا رهائن في نورماندي، ورجع إلى انكلترا في ١١كانون الأول [١١٧٤]، وقد بقي حراً دون سجن حتى يتم تسليم القلعتين اللتين ورد ذكرهما في الاتفاقية إلى حفظة تابعين لملك انكلترا حسبما تم الاتفاق.

وجرت إزالة جميع القلاع في انكلترا ونورماندي التي اعتقد الملك أنها ظلمت الفقراء خلال الصراع الطويل مع أبنائه.

وهكذا أمكن لأبناء ملك انكلترا، الذين أبعدتهم آراء الرجال الفاسدين عن أبيهم، أن يعودوا إلى الرعاية وإلى حياتهم القديمة والطبيعية، ولهذا قرروا ازالة جميع الشكوك بتقديم الولاء والطاعة لأبيهم، وقدم ذلك أولاً الولدان الأصغر: رتشارد وغيوفري في لاماناس، وبعد هذا فعل ذلك أيضاً الملك الشاب في بور Bur يوم ١ نيسان.

وجاء ملكا انكلترا معاً، وهما اللذان في السنة الخالية لم تكن المملكة كبيرة بما فيه الكفاية لاستيعابهما، وعبرا إلى انكلترا في مركب واحد يوم ٩أيار، ولقد أكلا معاً في الأوقات المعتادة للطعام على المائدة نفسها، وأراحا أطرافهما في غرفة النوم نفسها، وأكرم الشهيد الكاشف توماس وفادتهما معاً بالتساوي أثناء حجهما إلى كانتربري، يوم ٢٨أيار، ولقد اعتنى بهما بالطريقة نفسها، باستثناء أن الملك الكبير مكث طوال الليل مستيقظاً، وهو يصلي، وظل صائماً يعذب نفسه حتى اليوم الثالث.

وقيل بأن فيليب كونت فلاندرز أمسك وولتر أوف فونتين Fon-taines في حالة زنا مع زوجته الكونتسة ايزابل، فعرضه للضرب حتى الموت في ٢آب، وبادر إلى تعليق جسده بشكل معكوس فوق مقعد مرحاض، رابطاً قدماه مع بعضهما، وحضر بسرعة مشنقة، وهكذا لم يفقد

شيئاً من الوحشية، واكتمل غضبه ضد الرجل الميت، فأمر بعرضه بشكل عام لينظر الجميع إليه.

وكان جون عميد سالسبري قد دعي إلى تسلم الأسقفية في آينشام Eynsham يوم ٢٦تشرين الثاني، فاستلم حكم كنيسة شرق أنغليا Anglia بموافقة الشعب من نورك Norwick وبرضا الملك، ومباركة رئيس الأساقفة، وبموجب سلطات الكاردينال، وتمت سيامته من قبل رئيس أساقفة كانتربري في لامبث Lambeth يوم ١٤كانون الأول.

وحول الملك الكبير نظراته نحو حاجيات أولاده، ودفع عن الملك الصغير ديوناً هائلة، فقد تم الاعتراف بكل ماأخذه وزراء الملك الكبير من أجل استخدامات الملك الصغير على الطعام والشراب في نورماندي، ومين، وأنجو، وذلك خلال السنوات الثلاث التي مضت، وعندما دفع خازن الملك تماماً لكل شيء، جرى صرف الدائنين.

سنة ست وسبعين ومائة وألف

عين الملك، بناء على نصيحة ابنه، وموافقة أساقفته، والإيرلات والبارونات، والفرسان والرجال الآخرين الذين كانوا حضوراً، قضاة، ثلاثة لكل واحدة من مناطق المملكة الستة، وقد أقسموا على توفير العدل لكل انسان، وقد تم هذا يوم ٢٦كانون الثاني في نورثأمبتون.

وبناء على أوامر صدرت عن الكاردينال هيوج بيرليوني Pierleoni اجتمع رجال الدين لجميع انكلترا في لندن يوم ١٤آذار، ووقف رئيس أساقفة يورك ضد رئيس أساقفة كانتربري، مدعياً أن البابا غريغوري

الكبير قال: «ليكـن هناك تمييـزاً في المكانة بين أسقفـي لندن ويـورك تبعاً لـدرجـة قـدم السيامـة»، وطـالب بتطبيق ذلك على كـانتربـري ويـورك، واستمر يقـول إنه بحكم سيـامته ينبغي أن يجلس على يمين الكـاردينال، ومن جانب آخر قـال رئيس أساقفة كانتربري بأن كنيستـه امتلكت الرتبة والتقدم والـرفعة تماشياً مع أوضاع الآبـاء الكنسيين، ومع المراسم الملكية، والامتيـازات البـابــويـة، لـذلك ادعت دومــاً بحق أنها الأولى بين جميع كنائس انكلترا.

ومع استمـرار الأسقفين في عملهما الغبي هـذا، جلس في يوم الثـلاثـاء التالي الكـاردينال في بيعـة القديسـة كاتـرين في وستمنستر، ووصل رئيس أساقفة كانتربـري، يساعده أسقف إيلاي Ely وماكاد يجلس على يمين الكاردينـال، حتى انفجر قتـال فيما حول المكـان، وازداد الاضطراب والشجـار سـوءاً، وارتفعت الأصـوات، وتعاظم التهـديـد، وجـرى ضرب بعض النـاس، فغـادر الكـاردينـال مسرعـاً جـداً، وجـرت مهـاجمة رئيس أساقفة يورك شخصياً، وقد قال بحضور الملك والكاردينال:

يقع اللومُ على تسبيب الجراحة له، وتمزيق ثيابه، على أسقف إيلاي.

ولهذا السبب كانت هنـاك اتهامات ودعاوى من كـلا الجانبين، وجرى اهمال المجلس والتخلي عن الاجتماع، وتكلم الكاردينـال إلى رجال الدين والشعب في الســاحـة الــداخليـة لــوستمنستر، وطــالب بـالسماح لــه بالانسحاب والمغـادرة، لكن جرت تهدئته بعد ذلك بـرجاوات من الملك، وقد قبل تماشياً مع رغبات الأساقفة [ثم صدر عن البابا المرسوم التالي]:

«البابا الاسكندر

رغبــة في حفـظ التمجيــد الكلي لكنيســة يــورك، وسيراً على خطى أسلافنـا، أصحاب الذكرى السعيـدة الأحبار: كاليكستوس، وأونـوريوس، وانوسنت ويوجينيـوس، وبموجب السلطات الرسـولية: نحظر على رئيس

أساقفة كانتربـري انتزاع أي اختصـاص من يورك، ونحظـر أيضاً الشيء نفسـه على رئيس أسـاقفـة يــورك، كما لايجوز أن تكـون يـورك خـاضعـة لكانتربـري، وذلك توافقاً مع الحظـر الصادر عن القديس غـريغوري، بل عـوضاً عن ذلك إن التمييـز بالمكـانة ينبغي أن يحفظ بينهما، على أسـاس ماشرعه ذلك الأب، أي إن الذي يحتل المكان هو الذي سيم أولاً».

وكـانت مقـاطعـات الحدود العـائدة لكـل من آنجـو ومين تعـاني من نقص الخبـز، وأمن هنري الثـاني مـايكفي لاطعام عشرة آلاف من النـاس كلّ يوم اعتباراً من ١ نيسان حتى بـات هناك مايكفي من القمح الجديد، وبنـاء على الأمر الملكي جـرى توزيع كـلّ ماكـان محفوظـاً لاستخدامـات الملك سواء في الاهراءات أو أقبية الخمـور أو المخازن، على زملائنا الأتقياء وعلى جميع الفقراء.

وجمع فولغرين Vulgrin كونت أنغوليم Angouleme عصابة من البرابـانكونيين الأشرار، وتجرأ على الاغـارة على بواتو، وحشـد بالمقـابل جون أسقف بواتـو العساكر من جميع الجهات، كما وجمع كثيراً مـن المرتزقة الذين توحدوا مع ثيـوبولد شابوت Chabot قائد فرسان رتشارد دوق أكـوتين —الـذين كـان آنـذاك في انكلترا مع أبيـه الملك— لانقـاذ الشعب الـذين أوكل إليـه أمـر حمايته، مـن أيدي أعـدائه، وانقسمـوا إلى ثلاث فـرق، والتقوا بهؤلاء الأشرار، الذين خـربوا القلاع، وأفرغـوا الحقول من سكانها، وأحـرقوا الكنـائس، ومارسو الطغيـان على الراهبـات في دير باربزيوكس Barbezieux وقد جرى قتل العـــديد منهم في المعارك، وأعداد ليست قليلة أغلقت عليهـا القلاع وأحرقوا فيهـا، وقرر البقية منهم الفرار، فتخلـوا عن معداتهم وتـركوهـا غنيمة، وعلى هـذا تمت حماية أهل بـواتـو لابفضل السيـوف والخوذات بقـدر مـاكـان ذلك بفضل العنـايـة الربانية، حيث خرقوا فـرق تشكيلات أعدائهم بدون أذى، والذين فقدوه كان أربعـة من عددهم فقط، وهكـذا جاءت السـلامة على أيـدي رجال

الدين الذين أظهروا أنهم لايفتقدون الروح، بل السلاح.

واستدعى الملك الملك الشاب الذي كان مشغولاً في الخارج، وجاء رجال الكنيسة وبارونات المملكة معاً إلى لندن، فقد جرى ارسال سفراء في قطار كبير من قبل وليم ملك صقلية ليطلبوا يد جوانا أصغر بنات الملك للزواج، وقد استجيب للطلب بعد مداولات، وكان ذلك يوم ٢٠ أيار، وتحول طلب الزواج والوعد بالاجابة بالأيمان من جانب الملك، إلى خطبة وزواج مؤكد، وأرسل ملك انكلترا رسلاً إلى صقلية بهدف اقامة حلف مع ملك صقلية فعال، وأن يزدادا تقارباً، وأن يوثقا التحالف، وبعدما اتفقوا على الهدايا التي ستمنح بسبب الزواج، عجلوا بالعودة، وتم هذا بحضور الكاردينال، وبموافقة رؤساء الأساقفة والأساقفة، وجرى تمتينه برضا النبلاء.

وفي يوم ٢٧آب، أبحرت جوانا ابنة الملك الصغرى للزواج من ملك صقلية، وتولى أسقف ونشستر تأمين النفقات والمؤن المحتاجة للرحلة، مع عدد كبير من الخدم، وبناء على أوامر الملك جرى تعيين رجال شرفاء كمرافقة، وقد توجب على بعضهم الذهاب حتى سانت جايل، وعلى آخرين تسلق جبال صقلية والذهاب إلى قصر بلرم، ولم يتوجب عليهم العودة حتى يشهدوا حفل الزواج، ويروا ملك صقلية وجوانا تتوجا برباط الزواج.

وما ان عبر سفراء ملك صقلية البحر الهائج، حتى جرى تعيين ابنة ملك انكلترا زوجة للملك أمام مجموعة من النبلاء في كنيسة سانت جايل، في يوم ٩تشرين الثاني، وذلك على يد جون أسقف نوروك Nor-wick حسبما كان قد وعد في بلرم يوم ٩آب.

وكان جون أسقف نوروك قد أبحر نحو صقلية، بناء على أوامر الملك، وذلك في أحوال مناخية خطرة وقد تحمل العديد من المصاعب، وكان

من المتوجب عليه التوجه مباشرة إلى روما لـولا أن اللومبارد كانوا مايزالون متورطين بـالانشقاق، وكانت المنطقـة الجنوبيـة التي كان بإمكانـه العبور منها، متأثرة بشكـل حاد بالمجاعة، وكـان من الصعب جداً تأمين العلف للحيوانـات، وتألم الأسقف أثناء سفره خـلال أوفرن Auvergne من عـويل الناس الـذين كانـوا مـرميين في الشوارع، وقـد تورمـوا من الجوع، وكان مايزال بحـالة صحية جيدة عندما دخل إلى مـدينة فالانس Va-lence غير أنـه تسـاءل عن أمـانـة مضيفيـه، فلقـد امتـلأت الفـرش بـالحشرات، التي سببت عـدم نومـه لليـال، واجتاز الأسقف بـلاد امبرون Embrun وتجنب منطقة جبـل جنفري Genevre ووصل إلى الحدود الايطالية، ثم أبحر فوق بحر تيرهنيان Tyrrhenian.

ومن هنـاك، وبسبـب وعـورة المنطقـة، اعتمـد على عــدد من السفن المتنـوعة، والخفيفـة والسريعة، وفضل مـراكب التجـديف واعتمد عليهـا أكثر من اعتماده على السفن الشراعية، وقـد عبر دوقية أبوليا، وإمـارة كابوا Capua ورؤوس كالبيريا Calabria بعد المضيق، وإنني لم أحذف ذكر المخـاطر المعروفـة أيضاً للناس الذين أبحـروا إلى ايطاليا بعـد سقوط طروادة، وتجنب الأسقف رأس بـالينوروس Palinurus وصخور سيلا Scylla ودوامـة تشـاريبـدز Charybdis مع شيء من الخوف، وكـانت لحظات رهيبـة لـدى التفكير أن أعماق البحار الهائجـة يمكن أن تبتلع الانسـان بلحظة، وهكـذا حكم على الرحلـة بقلة الـراحة، وبـدوام القلق، فلقد كان التهديد من امكـانية هجمات القراصنة يمكن أن يرعب أكثر البحارة ثباتاً، ونشأت الاصـابة بدوار البحر من الحالات الصعبة التي عاش فيهـا المجدفين، فقد تأثـرت أجهزتهم الحيويـة بالهواء غير الصحي، ويمكن للمرء أن يتخيل أنـواع المخاطـر التي يواجههـا الناس في الخارج [وذلك بين جميع مشـاكلهم الأخـرى] عنـدما كـانت أوراق الأشجـار في صقلية مع براعـم الكرمة والقصب في المستنقعات كانـت كلها قد ذبلت

بسبب الجفاف، فقـد كان الـوقت آنذاك هو منتصف آب، وعنـدما كـانوا على وشك الإرسـاء، كان مـركبهم صغيراً بالكـاد يمكنه استيعـاب ثمانية رجال، وقـد غمرتهم ميـاه الأمواج، وكـانوا يـائسين وهم يحاولون استرداد قوتهم، ولقد نـاموا مرغمين تحت السماء المكشوفة لعـدة أسابيع، واضطروا أثناء الليل للتعامل مع الحجارة الصماء عـوضاً عن الفراش الناعم الوثير، أو أن التيـار منحهم استخدام الـرمال، وعلمتهم الحيـاة أن يحشوا فـرشهم بالحصباء.

وبعـدمـا أمضـى الأسقف عـدداً كبيراً من الأيـام في هــذا النـوع من الشقاء، دخل إلى بلرم، وهنـاك التقى بثلاثة من أصحابـه الرسل، وتسلم في خـلال أيام قليلـة اجـابة مـرضيـة من الملك الصقلي، ولو أنـه امتلك الوقت لسأل فيما إذا كـانت صقلية قد دعيت بالمثلثة بسبب قمم جبالها الثـلاثـة أو بسبب شكلهـا المثلثي، لكنه كـان يمضي خـريفـاً غير منتظم، وفقد اثنـان من المرافقين الذين ورد ذكـرهم أعلاه حيـاتهم في حادث من الحوادث، وأصيب الثـالث بحمى شديـدة ألـزمته الفـراش، وهكذا عـاد الأسقف لوحـده إلى انكلترا، بعد بعثـة ناجحـة، انتهت بزواج الأميرة من الملك الصقلي، ووجد الملك في نوتنغهام ليلة عيد الميلاد.

سنة سبع وسبعين ومائة وألف

وتألقت مـدينة بلـرم وقتذا ك بـاحتفـالات زواج ملك صقلية من ابنـة ملك انكلترا، وتدفق رؤسـاء الأساقفـة والأساقفة والكـونتات والبـارونات ورجال الدين والشعب في لحظـة واحدة ليباركوا الـزواج وليشهدوا تتويج الملكـة الجديدة، وقـام وولتر رئيس أسـاقفة بلـرم بـاتمام مراسم الـزواج في ١٣ شباط.

وتوجـه الملك هنري إلى فـرنسا يـوم ١٨آب، وذلك بعدمـا تولى تنظيم مملكته وفقاً لرغباته، [وهناك أبرم مع ملك فرنسا الاتفاق التالي]:

«أنا لويس ملك فرنسا، وأنـا هنري ملك انكلترا، نرغب أن يعرف كلّ انسـان أننـا، وعـدنـا بكل وقـار، بإلهام مـن الـرب، أن نحمل الصليب ونـذهب إلى القدس، ونـرغب أيضـاً أن يعرف كلّ انسـان اننا منـذ الآن ودوماً نـريد أن نكـون أصدقـاء، وأن كلّ واحـد منا على استعـداد لحماية الحياة والأطراف والشرف الدنيوي للآخـر ضد جميع الناس، وبقدر ما أوتي من قـوة، وإذا ماحـاول انسان أن يـؤذي أي واحد منـا، فإنني أنا هنـري سوف أقسم على حماية مـولاي لويس ملك فرنسا ضـد جميع الناس بقدر مـاأوتيت من قوة، وأقسم أنـا لويس على حمايـة هنري ملك انكلترا ضـد جميع الناس بقدر ماأوتيت من قـوة، ذلك أنه تابعي وحليفي، وأن نحفظ العهـود التي نـدين بها لـرجـالنـا مـادامـوا مخلصين لنـا. وأبـرم هـذا في نونانكورت يوم ٢٥أيلول».

وأخضع صـلاح الدين، وهـو مُعذب بـوحشية لاسم المسيحيـة، مصر وسوريـة، واستولى بـالقوة على بابليـون ودمشق. وعندمـا جمع كونت أوف فـلاندرز ووليم إيـرل دي مانـدفيل قوة كبيرة من سكـان القدس لمهـاجمة حارم Agarenes على الحدود مع أنطاكية، حاصرا حماه Hareng يوم ٤تشرين الثـاني، وكان يـوم عيد، واعتقـد صلاح الديـن، الذي حقق المكانـة الساميـة بقوة السلاح لابقـوة الأصل والنبالـة، أن مدينـة القدس المقدسـة كانت شاغرة مـن المحاربين، على هذا حشد جيشـاً كبيراً، وغزا أراضي عسقلان بالقـوة، وأقام معسكره في مكان اسمه الـرملة، وقام ملك القـدس والبطريـرك وجيش صغير من فـرسان الـداويـة والاسبتاريـة بقي معهما، مع عـدد قليل من المقـاتلين، بإعـداد أنفسهم بسرعـة للحـرب، معتمديـن لاعلى السيف والرمح، والقـوس والنشاب بل على عون الـدين فقط، ولقد سلحـوا أنفسهم بشارة صليب الرب واستلهموهـا على الفور،

وساروا مسرعين خلال الليل لمقابلة المسلمين، متذكرين أن من السهل إلحاق الهزيمة بحشد كبير من قبل عدد صغير، وأنه لافرق في أعين الرب بين الربح بين كثير أو بين قليل، وعندما جاء الصباح انعكست أشعة الشمس على ترستهم المذهبة، وتسلق المسيحيون قمة جبل هناك، بينما اصطف المسلمون للقتال في سهل تحت الجبل، وبدا لمن يستطيع الرؤية بوضوح أن المسلمين تفوقوا بالعدد على المسيحيين بنسبة واحد لمائة، ولهذا تعلم المسيحيون من السيدة الحاجة ايجاد مخرج جديد، فحولوا صفوفهم الأربعة التي عبأوها للقتال إلى صف واحد على شكل إسفين، وبذلك تمكنوا بثبات من تلقي الهجمات القاسية التي شنها الناس المطوقين لهم من جميع الجهات، وبينما كان المسيحيون في هذا الوضع الخطر، وحينما باتت المسألة مسألة حياة أو موت، أخذ أودو مقدم فرسان الداوية —مثله مثل يهوذا المكابي— أربعة وثمانين من فرسانه معه، والتحم بطرفهم مع فرسانه، مدافعاً عن شارة الصليب، وشرع الفرسان رماحهم، وحملوا كأنهم رجل واحد، غير ملتفتين إلى يمين أو يسار، وبعدما تعرفوا إلى الصف الذي تحت إمرة صلاح الدين والذي يضم عساكر كثيرة، هاجموه بشجاعة، وخرقوه ومروا فيه بدون تردد، وتابعوا الضرب بدون توقف، فمزقوهم، وسحقوهم وفرشوهم فوق التراب، وتملكت الدهشة صلاح الدين تجاه هذا النجاح، وعندما رأى رجاله قد تفرقوا في جميع الاتجاهات، وأرغموا على الهزيمة، وصاروا طعمة للسيف، قرر هو نفسه اللجوء إلى الفرار، فألقى بسرعة أثقاله، وتسلق ظهر واحد من جمال السفر، ونجا بكل صعوبة من الموت مع عدد قليل من الرجال، ولم يعبأ بالعار الذي تركه لأحفاده، وصح عليه القول: «يطارد واحد ألفاً، ويهزم اثنان ألفين»، وهكذا ربح المسيحيون يوم ٢٥تشرين الثاني ونالوا النصر، وبفضل الأوامر الربانية تم تدمير قوة المسلمين وأشعلت النيران يوم ٢٩تشرين الثاني في جميع أنحاء المملكة.

وجـاءت في يــوم ١كـانــون أول ريح عـاليــة من الشرق، فحطمت الأشجار، ودمرت الأبنية.

سنة ثمان وسبعين ومائة وألف

ثلج ثقيل.

وكان على السـاحل أعمال ترابيـة كبيرة مشكلة من المروج، وقـد جرى تدميرها بفيضان من البحر، لاسيما مـن الشمال، وفي ٨كانون الثاني جرفت الــريـاح العـاتيـة مـن الشمال السكـان، والمواشي، والقطعــان في جميع الاتجاهات.

ومتن هنري ملك انكلترا سيطرته على جميع الدفاعـات في المقاطعات الواقعة تحت سيطرته، والقائمة على مقربة من الحدود مع فـرنسا والقنال الانكليـزي، وبعدمـا رتب كلّ شيء حسبما رغب، عاد إلى انكلترا في يـوم ١٥تموز، وإثر عودته زار قبر توماس الشهيد الرائع.

وذهب وليم رئيس أسـاقفة ريمـز Reims إلى كـانتربري يـــوم ٢٧تموز مع مـرافقة كبيرة، وكـان قصـده الوفـاء بـالنذور التي قطعهـا على نفسه أثنـاء الصلاة، إلى تـوماس الشهيـد الرائع، وجـاء ملك انكلترا، مع عـدد من الأساقفـة والعديـد من النبلاء لملاقـاته، وتم استقبـاله بحفـاوة عظيمـة، وقـد أمضى ثـلاثـة أيـام في قصر الملك في لنـدن، على حسـاب المملكة، وعندمـا بعث الملك إليه هدايا ضيافـة تألفت من عدد من آنية الزينـة الثمينة، تمنع عن لمس أي منهـا، وذلك خلافاً لعـادات الفرنسيين، وتقبل فقط بعض الأشياء التي لم تقدم على شكل هـدية، بل كدليل محبة من الملك.

- ٥٤٠ -

وأعطى الملك هنري ملك انكلترا ابنه غيوفري حزام الفروسية في وودستوك Woodstock يوم ٩آب.

وفي يوم ١٣أيلول كان هناك كسوف للشمس.

سنة تسع وسبعين ومائة وألف

ترك الملك هنري الشاب ابن الملك، انكلترا، وأمضى ثلاث سنوات في المبارزات، وأنفق كثيراً من المال، وحينما كان مندفعاً يجول حول جميع أرجاء فرنسا، خلع الشارات الملكية، وحول نفسه من ملك إلى فارس، وقد حصل على النصر في كثير من المنازلات، وجعلته شعبيته مشهوراً، وكان الملك الكبير مسروراً تجاه ذلك وقد تولى تعداد انتصاراته وأعجب بها، ومع أن الملك الشاب كان مايزال دون السن القانونية، أعاد والده إليه جميع ممتلكاته التي سلف انتزاعها منه، وظل هكذا مشغولاً بأعمال الفروسية، حتى لم يعد ينقصه الفخار، عندها أبحر من وزانت Wiss-ant وقد استقبل بحفاوة لائقة به من قبل أبيه الملك، في يوم ٢٦شباط.

وسمعنا أنه في عيد الفصح، وفي احتفال عظيم، تزوجت أغنس ابنة لويس السابع من ألكسيوس بن مانويل، امبراطور القسطنطينية، وأراد الرب هذا الزواج أكثر حظاً من الزواج فيما بين ابنة شارلمان والامبراطور قسطنطين، الذي انسحب من زواج بلا أولاد، وكان قسطنطين قد طرد أمه إيرين من حكم الامبراطورية، لكن عندما عادت إيرين إلى السلطة سملت عيناه.

وقرر الدوق رتشارد صاحب أكوتين قهر غيوفري دي رانكون المتبجح، فجمع قوة وحاصر يوم ١أيار قلعة تيلبيرغ، وكانت هذه العملية مغامرة

مرعبة جداً، وكانت شيئاً لم يتجرأ أي من أجداده على محاولته، فقد كانت القلعة المذكورة في تلك الأيام محاطة بثلاثة خنادق مع ثلاثة أسوار لمقاومة العصيان، ومشحونة بشكل جيد بالأسلحة والحواجز والموانع، ومحلاة بالأبرجة المقامة على مسافات معينة، وكانت محصنة بشرافات حجرية، وفيها وفرة بالمؤن، ومليئة بآلاف الرجال المدربين على القتال، لهذا لم تخش من وصول الدوق، وأغار الدوق نفسه بعنف على المنطقة، وحصل على كثير من الأسلاب، وقطع كروم العنب وأحرق القرى، وأزال البقية وعاث فساداً فيه.

ووصل إلى القلعة، فنصب خيامه وآلات قتاله إلى جانب السور، وأرعب بذلك ساكني القلعة تماماً، لكن مع ذلك بدا لهم أنه من العار البقاء داخل أسوار القلعة دونما هجوم، فاتفقوا على الاندفاع نحو الخارج من خلال الأبواب، والانقضاض بشكل مفاجىء على جيش الدوق، وعندما لاحظ الدوق هذا، استنفر رجاله، وأرغم العدو على التراجع، وكان هناك قتال عنيف عند الباب، واستخدم وقتذاك كلّ شيء في القتال من : الخيول، والرماح، والسيوف، والخوذ، والأقواس، والقسي العقارة، والترسة، والدروع والهراوات أو الحراب، وفي الأخير كسبت الخبرة الجولة، ولم يعد بإمكان أصحاب القلعة الصمود أمام الحملة العنيفة للكتيبة القيادية التي وجهها الدوق من الخارج، وانسحبوا بسرعة إلى خلف الأسوار، ولم يتوقف الدوق فدخل البلدة، وكان هناك اندفاع إلى هنا وهناك في أرجاء المكان، ثم تلا ذلك حرق ونهب، وفي يوم ١٠ أيار استسلمت القلعة، وخلال أيام سويت الأسوار بالأرض، وخضعت بقية القلاع في المنطقة وهزمت خلال شهر واحد، والآن وقد تم وكمل كلّ شيء كما رغب به، عبر الدوق رتشارد إلى انكلترا، واستقبل بحفاوة عظيمة من قبل والده هنري الثاني.

وتفوق الملك لويس السابع ملك فرنسا على أجداده في أبهته مع

كـرمـه، وكـان قـد فـرّج عن القـديس تـومـاس أثنـاء وجـوده في المنفى، والقـديس تـوماس هـو رئيس أسـاقفـة كـانتربـري السالف، وقـد عـاش لسنوات عـديدة في فـرنسا، وتلقى من الملك الفـرنسي كثيراً من الألطاف بها تـوافق مع أخلاقـه، وأمل في أن يظهـر طاعتـه للـرب بمعاملـة رئيس الأساقفـة بتقوى واحترام، ومع انتشار الحكـايات عن معجزاتـه في الطول والعرض، قرر لويس أنه يرغب في تقـديم تبجيله لجسده بكل تقوى، بغية أن تعبر صلواته واستغفاراته من المملكـة الفانية إلى المملكة السرمدية، ولم يتقـدم له أو لـواحـد من أجـداده، في أي وقت من الأوقـات سواء أكـان ذلك في السلم أو في الحرب، زيـارة انكلترا، واتخذ لـويس لنفسـه ثيـاب حاج واسمه، واصطحب معـه مجموعة متواضعة من النبلاء، وقـام بزيارته بكل تقوى واخلاص.

وما ان سمع هنـري الثاني ملك الانكليز وأبـوهم، بقرب وصـوله حتى بادر إلى التوجه لاستقباله، وسـار بسرعة مزدوجة والتقى بالملك الفرنسي في دوفر في ٢٢آب، وقدم إليه كلّ حفاوة ممكنـة التصور، وكانت هناك مسيرة وقورة في الكنيسة الكبيرة، حضرهـا رئيس الأساقفة، والأسـاقفة والإيرلات والبارونات، ورجال الـدين والشعب، وتمت يوم ٢٣آب، كما وكانت هناك تـراتيل وأناشيـد وسرور عظيم احتفـالا بوصـول شخص عظيم مثل هـذا الأمير، وأنا لاأعـرف كم من الفضة الفـرنسية والـذهب قد أعطى بمثـابة هبات، ومنح ملك فرنسا منحة سنوية هي مائة وحدة قياس باريسية من الخمـرة، لصـالحه ولصـالح ورثتـه، تقـدم بشكل دائم احترامـا للشهيـد، وكانت هـذه الخمرة مكـرسة لتستخـدم من قبل رهبان كـانتربري، ونحن نحيي ذكـراه، وخشيـة أن يظهـر الفرنسيـون أنهم يبتغـون أي شيء سـوى الشهيد، فقـد منعوا أيـديهم من الامتداد إلى خزانـة أموال الشهيـد، وهو شيء ربما كان في أذهانهم.

وهكذا أمضى ملك فـرنسا ثـلاثة أيام في كـانتربري في صيـام وصلاة،

وقيام، وتقبل من هنري بعض الهدايا الصغيرة، كعلامة على المحبة، وغادر لويس ثانية يوم ٢٦آب من دوفر.

ولندع الآن لبعض الوقت الحملات والسياسة، ونتوجه نحو كتاب آدم آينشام «حياة القديس هيوج أوف لنكولن»، وكانت شخصية محط اعجاب كبير ومحبة في دير لى غراند تشارتريوس **Grande Chartreuse** *قرب غرينوبل، وقد جرى اختيار هيوج من قبل هنري الثاني ليكون رئيساً لديره الجديد في ويتهام في سمرست، الذي تأسس عام١١٧٧ ، وكان مايزال يصارع من أجل وجوده منذ ثلاث سنوات عندما وصل هيوج إلى هناك.*

أسس هيوج أخوانيته في دوثان Dothan التي ترادف اسمها مع الفقر المدقع، فقد كانوا يعيشون في غابة قرب الفيلا الملكية في ويتهام، وهو اسم تنبؤي معناه باللاتينية بيت، أو منزل العقل، وهو ما أصبحه المكان بعدما جاء إليه فيلسوف المسيح الحقيقي، وأوجد هيوج الاخوانية ليعيش أفرادها في خلوات مصنوعة من أعواد الخشب، ومحاطة بخندق ضيق وحاجز، وإلى أن وصل، ومن ثم حتى تمكن من إعادة تنظيم الاخوانية، نقول باختصار:

إنهم افتقدوا كلّ شيء، لابل كلّ شيء ضروري حتى لأبسط متطلبات اخوانيتهم، ولم يكن قد تقرر بعد أين ستبنى الكنيسة مع الخلوات ودير الرهبان أو الدير الصغير، مع الساحات وبيوت الضيوف واستراحة الاخوان، وكان السكان القدماء مايزالون يعيشون هناك في مكان توجب تسليمه إلى الرهبان، كما لم يكن قد تم تجهيز أي شيء ليمكن هؤلاء من التخلي عن بيوت أجدادهم وتسليمها لهؤلاء الذين جاءوا ليخلفوهم، وما كان ذلك بالممكن دون أن يشعروا بالاهانة وبخسارة كبيرة لأنفسهم.

وبـادىء ذي بدء عقـد هيوج اجتماعـاً مع الـذين لديهم ممتلكـات أو أشيـاء أخـرى سـوف يتخلـون عنهـا لأن الأصـوات ومجيء الـزوار بشكل متـواصل سـوف يخرب، أو على الاقل سـوف يسبب الاضطـراب لخلـوة الرهبان ولصمتهم الدائم، وبتفـويض من الملك عرض عليهم واحداً من اختيـاريـن، إمـا: أن يعطـوا حقـولاً وأمـاكن للسكنى من النمـط نفسـه الموجـود في ويتهام أو أي عـزبة ملكيـة يختارونها، أو أن يتم تحريـرهم من التبعية الاقطاعية وأن يذهبوا ليعيشوا حيث شاءوا، وعندما اختار بعضهم الأرض واختار آخرون الحرية، كان هيوج مقرراً مـزج العدالة بالكرم، فقال هذا لهنري الثاني ملك انكلترا:

«والآن عليك يامـولاي أيضاً أن تنظر أنهم نالـوا تعويضات مـالية من أجل بيـوتهم، ومقـابل كلّ نـوع من أنـواع الأتعـاب التي أنفقـوهـا على ممتلكاتهم وأبنيتهم من كلّ نوع، وإلا فإنني لاأستطيع قبـول هذا المكان»، وهكـذا أرغـم الملك على أن يشتري بأثمان مـرتفعـة أشيـاء ظن أنها لاتساوي شيئاً تماماً، من مثل: أكواخ قديمـة، ودعامات ملتوية، وجدران نصف مهدمة،وبذلك أنفق مبالغ كبيرة مقابل منافع قليلة، وعندما جرى الـدفع للبـاعـة، كـانوا مسرورين تمامـاً تجاه هـذا الأسلـوب الجديـد من الشراء، الذي أغنـاهم بشكل معتبر، وباركوا الراعي الجديـد الذي جلب خبزه من مكان بعيد، وهو الخبز الذي منح القوة لكل انسان.

وعلى كلّ حـال لم يكن رجل الأعمال راضياً بـالصفقة، التي بـدت له عـادلة لكن غير كـريمة، ولهذا تكلم ثـانيـة إلى الملك وهو يبتسم: «انظـر يـامولاي الملك، كيـف تمكنت أنا الفقير الغـريب من اغنـائك في أرضك بكثير من البيوت»، وضحك الملك لـدى سماعه هذا وأجابـه قائلاً: «إنني لاأرغب بتسلم هـذا النوع مـن الغنى، الذي جعلني تقـريبـاً معدمـاً، كما انني لاأعـرف أي انسـان يمكن أن تكـون هـذه الأشيـاء ذات نفع لـه»، فقـال لـه: «عظيم جـداً، أرى أنـك غير مهتم كثيراً بصفقتك، ويمكنك

العمل على الاحتفاظ بكرمك باعطائي هـذه الأبنية، فأنا ليس لدي مكان أريح فيـه رأسي» ووجـد الملك نفسـه غير قـادر على الاجـابــة، وحـدق مندهشـاً بالسـائل، ثم قال مجيبـاً له: «إنك راع غير اعتيـادي، هل تعتقد حقيقـة انني غير قادر على أن أبني لك أبنيـة جديـدة؟ أخبرني على الأقل مـاأنت مقبل على عملـه بهؤلاء»؟ فأجـاب هيـوج قـائلاً: «إنـه غير لائق بكرمك الملكي أن تسأل عن مثل هذه التـوافه، إن هذا أول طلباتي منك، وبما أنها توافه لماذا لايجري منحها فوراً»؟.

وشعر الملك، الذي امتلـك حسّ الدعابة، بالسرور الكـامل تجاه سرعة بديهته، وعن عمد أطال المساجلة الكلامية قائلاً:

«هل يمكن أن يكون هناك انسـان على أرض غريبة بمثل هذه الجرأة؟ ماالـذي يمكن أن يحدث لو أنه استخدم قبضتـه، طالما لسانـه بمثل هذا العنف، ومن أجل ألا نعاني من الأسوأ، دعوه يأخـذ الذي أراده»، وعندها أعاد هيـوج الأبنية التي كان قـد تسلمها إلى أصحابها القـدماء، مع أنهم كـانوا قـد تسلمـوا أثمانها، وقـام الملاّك إما ببيعهـا مـرة ثـانية، أو بنقلهـا ليعيشوا فيهـا في مكان آخر، وهكذا تبين أنـه: موهوب بـالبصيرة والتقوى مثل نحميا، وبفضائل سليمان، وبغيرة داود، وبذلك أمكنه بناء قدس بلا دماء، وانطلق على الفور يعمل على انشاء المبنى الذي نراه اليوم.

وعندمـا اكتمل تشييد الأبنية التـي تطلبتها عادات الاخـوانية، وأصبح عدد الاخـوان تامـاً، ركز الراعي الجيـد جهوده على تـدريب النفوس التي أسنـد إليـه أمـر رعــايتهـا في مجال الاحتراف المقـدس، وصرف الكثير من الـوقت والجهـد في سبيل تصنيع وشراء، والحصــول على المخطـوطـات الدينيـة بكل وسيلة ممكنة، لأن هذه المخطـوطات كانت عونـاً كبيراً له في مهمته.

وفي إحـدى المرات كـان يتحـدث مع الملـك فـورد ذكـر قلـة الكتب،

وعنـدمــا وجهت إليـه النصيحـة في أن يبـذل جهــده في الحصـول على المطلـوب ونسخها بـوسـاطة نسـاخ مختصين، أجـاب أنه لايمتلك الـرق للكتابة، وهنا سأله الملك: «كم من المال تعتقد عليّ أن أدفعه لك لتدارك هـذا النقص؟» فأجابـه: «إن قطعـة نقديـة فضية واحـدة ستكـون كافيـة لوقت طـويل»، وعندها ابتسم الملـك وقال: «ماأثقل هـذه المطالب التي طلبتها منا»، ثم أمر على الفـور بإعطاته عشر قطع تسلم إلى الراهب الذي كان مرافقـاً له، ووعده كذلك بأن يرسل إليه نسخـة من الكتاب المقدس تحتوي على العهـدين، وعاد الراعي إلى بيتـه، غير أن الملك لم ينس وعده، وحـاول جاهـداً أن يجد نسخـة فخمة حقـا من الكتـاب المقدس، وبعـد جهود حثيثة وبحث نشيط ، بلغـه أن رهبان القديس سوزن Swithun [ونشستر] قـد صنعـوا حـديثـا نسخـة ممتـازة من التـوراة نسخت بشكل جميل، استخـدمت للقـراءة في غــرفـة طعـام الـديـر، وقـد سر كثيرا بهذا الاكتشاف، واستـدعى على الفور راعي الديـر، وسأله إعطـاءه الهدية التي صنعهـا وتسليمها لـه، واعـداً إيـاه بجائزة قيّمـة، واستجيب لطلبـه بكل سرعة، وعنـدما تسلم راعي ديـر ويتهام ورهبانـه نسخة الكتـاب المقدس وتفحصوهـا كانـوا مسرورين بها كثيرا، وأعجبهم صحة النص كثيرا، وزاد هذا حتى على جمال النسخ والروعة الكاملة للنسخة المخطوطة.

وعندما أخبر راهب من ونشستر زار ويتهام هيوج بأن هنري الثاني قد أخذ نسخة الكتـاب المقدس الجديدة والجميلة من ديـره، أعاد هيوج على الفور هذه النسخة الخطية الثمينة إلى ملاكها الأصليين، وذلك على الرغم من خوف رهبـان ونشستر من غضب الملك، وكان هيـوج على كلّ حال قـادراً على التعامل مع الغضب الأنجيفي لهنـري، وتظهر القصـة التاليـة كيف أثار أسقف لنكولن حنق الملك بحرمانه رئيس الأحراج الملكية.

وعندمـا بات تصرف الأسقف الجديد لدير لنكولن معروفـاً في البلاط،

بـذل عدد من النـاس جهدهم لـزيـادة تأجيج غضب الملك ضد هيـوج بكلمات كلها سم مثل قولهم:

«إن النكران الأسـود للرجل لاحسانك غير العـادي نحوه واضح الآن تمامـاً، والجائزة التي تلقيتهـا مقابل مـابـذلنـه من جهد في سبيـل تقدمـه ظاهرة تمام الظهور».

وتصرف الملك بصبر وأنـــاة وذلك على الـرغم من غضبـــه، وأرسل من استـدعى الأسقف، وعنـدمـا عـرف أنـــه قـرب وصـولـه، ركب فـرسـه، وانسحب مع جميع نبلائه، الذين كانوا بعدد معتبر، إلى غابة مجاورة.

وجلس أرضـاً في بقعة جميلـة، وشكل الإيرلات والبـارونات حلقـة من حـوله، وأمـر هؤلاء بعـدم الوقـوف أو تحيـة الأسقف عندمـا يصل، ولكي نجعل القصـــة الطـويلـة قصيرة، جـــاء الأسقف وقـدم التحيـــة للملك وللجماعة، لكن ما من واحـد ردّ عليه تحيته، وعندمـا رآهم جالسين هناك صـامتين وغير عابثين، جـاء ووضع يـده بلطف على كتف أحد الإيـرلات الـذي كـان يجلس إلى جـانب الملك، وجعلـه يعطه مكـانـه إلى جـانب الملك، وتلا هذا صمت عميق، وانتظر كلّ واحد منهم وقتا طويلا.

وأخيراً رفع الملك رأسـه وأمر واحـدا من خدمـه بإعطاته إبـرة وخيطا، وبعدما تسلمهما بـدأ بنفسه يخيط رباطا وضعـه حول اصبع مجروح في يده اليسرى، وسـاد الصمت، في حين عمل هذا لبعض الـوقت لكي ينجنب الاحراج في صنع لاشيء، ولقـد اعتاد النـاس الغضابى على التصرف وفق هـذه الطـريقـة، لأن غضبهم ألـزمهم بـــالصمت، ولايمكنهم أن يجدوا متنفساً له.

ونظر الأسقف إلى مايجري، ولاحظ أن مظـاهر عرض الغضب لصالحه، وتأمل هـــذا الصراع للعـواطف الانسـانيـــة وكأنـه واقف مـن أعلى بـرج للمـراقبـة وللتحليل العقلي، والتفت آخيراً نحـو الملك وقـال: «كم تشبـه

أبناء خـالكم في فالاسي Falaise » ، ونفذ هـــذا التعليق الذي قـالـه بلطف وصـوت منخفـض إلى أعماق الملك، فضغط على أصـابعـه وأخـذ يضحك دون أن يسيطـر على نفســه، واستلقى على الأرض لـوقت طـويل دون أن يتمكن من كبح سروره، وانـدهش النـاس الـذين فهمـوا العبـارة الـلاذعة تمام الانـدهـاش واحتـاروا كيف أمكن لـرجل في وضع هيوج أن يتجـرأ بالمزاح في حضرة ملك جبـار في مثل تلك اللحظة، وعلى كلّ حـال لم يستطيعوا منع أنفسهم من الابتسـام، وانتظروا بعض الـوقت ليسمعوا رد الملك، وكـان معظمهم غير فاهم لمعاني مـاقاله هيوج، وكـانوا في ضياع تجاه التبدل المفاجىء لميول الملك وتصرفاته.

وأخيراً بات الملك مدركاً لحالة إلتباسهم فقال مايلي:

«لايمكنكم فهم الطريقـة التي أهاننا بها هذا المتخلف، لـذلك سوف أشرح: كـان من المعـروف أن أم جدنـا العظيم وليم فـاتح هـذه الأرض، كـانت من أصل وضيع، وأنها جـاءت من فـالاسي وهي بلـدة نورمـانيـة هامة، مشهـورة بصناعة الجلديات، فلقـد رآني هذا المزوح أخيط أصابعي ولهذا أطراني لمشابهتي أخوالي في فالاسي» .

ثم قـال مخاطباً الأسقف : « والآن أخبرني أيها الصـديق الطيب ، لماذا رأيت من المنـاسب دون اخباري، القيـام بحرمان رئيس أحـراجي، ولماذا عـاملت طلبـاتي التـافهـة منك بمثل هـذا الاستخفـاف، حيث لم تقـدم شخصياً لتشرح لي لماذا رفضتها، كما أنك لم ترسل أي اعتذار مع رسلنا»؟ وعلى الفور أجاب الأسقف على هذه الاحتجاجات بهذه الكلمات:

«إنني أعلم أنك عملـت بجـد لتجعلني أسقفـاً، ولهذا إننـي مكـرس لانقاذ روحك من المخـاطر التي قد تلم بها، لولا أنني حـريص على تأدية واجبي الصريح نحــو الكنيســة التي عهـد بها إليّ، وإنــه لمن الضروري حرمان المعتـدي على كنيستي والظالم لها، وأكثر من هذا القيـام برفض كلّ

من يحاول أن يتملك بشكل غير شرعي شيئـاً من أوقـاف تلك الكنيسـة، ولقد رأيت من غير الضروري الاتصـال بسموك، لأنك عاقل تمامـاً وقادر على ملاحظـة ماهو صحيح، ومن المؤكـد أنك ترغب في اظهـار موافقتك على ماتعرف أنه كذلك».

ولم يجد الملك أي اعتراض على هـذا التوضيـح، والآن وقد زالت آخـر آثار غضبـه المتسرع، عانق الأسقف بـوجه مشرق، وعهـد بنفسه لصلـواته بشكل ملح، وتـرك له حـرية القـرار بشأن مسألـة تحليل الرجل المحـروم، الـذي اعتـذر وتـذلل كثيراً، وأقسم يمينـاً حسب الصيغـة التي وضعتهـا الكنيسـة، وبعـدمـا جلـد مع شركـائه، جـرى تحليلـه، ومنحـه الأسقف تبريكاته، وقد كرس حياته كلها له، وأصبح صديقه الخاص ومعاونه.

وقـدم ديسيتو وصفـاً لطـريقة تفكير هنـري الثـاني الفجـة العادلـة في تغييراته القضائية في انكلترا(١١٧٩).

طلب الملك الكبير، هنـري الثاني، ملك الانكليـز في هذه الأيـام صنع أشياء كثيرة كانت صعبـة التحقيق، فقد وجد العمال لايرغبـون في ممارسة الأعمال العامة، ولايهتمـون بواجباتهم، ويصرفون اهتمامـاتهم نحو شؤونهم الذاتيـة، وبات قلقاً أكثـر فأكثر تجاه الصـالح العام، وهكذا عهـد بشؤون القضـاء في بعض الأماكن لـرجال آخـرين أمنـاء، وعلى هذا تـوجب على السلطات العامة في الأقاليم قمع المجـرمين والذين يستولون على الأموال ويسيئون إلى الجلالـة الملكية، فهؤلاء يستحقـون الغضب الملكي، وستنزل العقـوبات بـالذين يسـارعـون لاصطياد الحيـوانـات المتوحشـة بالتغـريم وبـالسجن الطويل، ويتـوجب أن تقمع عقـوبات المجـرمين، وينبغي أن ينال الـذين يلقى القبض عليهم عقـوبات ثقيلـة، ويجب معاقبة القـاتل بشنقـه، والخائن بإدانته ونفيـه، أما الـذين ألقي القبض عليهم لإقترافهم

جرائم أصغر، فتقطع أصابعهم، وعلى رجال العدالـة منع أعمال العدوان والتعويض عن الأضرار.

ومرة أخرى بعد مضي بعض الوقت، اهتم الملك اهتماماً كبيراً بـاظهار العدالـة لكل انسان، وأمر بتأمين المزيـد من الحماية لرعيتـه، وأراد امتحان اخلاص عدد كبير من الناس، وبحث بعناية عن محبي العدل بين مختلف طبقـات الناس، وشـد الحصول على الـرجال الـذين يمكن ايجادهم بين الآلاف، الرجـال الذين لاتفسـدهم الأموال، لأن عـرضاً مـالياً يمكن أن يغير عقل انسـان مـا، ومع النـاس المتغبرين يمكن تبـديل الأحكـام التي لايجوز تبديلها، وقام رجال الدين بـالتفريج عن شكاوى الفقراء، كما قاوم الفرسـان المخولين بالسلطـة الناس الذيـن كانوا أكثـر قوة وأجبروهم على التعايش مع القانون العام، وهكـذا باتت مآسي المظلومين واضحة، ذلك أنه عين رعاة ديـرة جدد، وإيرلات جدد، وقـادة جدد، بعضهم من أفراد بيته وبعضهم من أقـرب الناس إليه وكلفهم بـالاستماع لكل قضية واتخاذ القرار حولها.

وبعدما عين الملك عدداً كبيرا من رجاله المخلصين من جميع الطبقات ووجدهم يضرون بالـرفاه العام، وبما أن أيا منهم لم يعـد النظر في أي قرار، وعندما لم يجد أيـه وسيله لمساعدة أفراد الشعب، قـرر أنه يستطيع أن يفرز بعض الـرجـال عن المجموع العـام، رجـال مع أنهم كـانوا يعيشـون بين الناس، كانوا فوقهم، وكانـوا ممن شعر وجرب أشياء أكثر من الناس، ولهذا حـوّل كلّ شيء كـان عرضـة للتغيير ونقلـه إلى الكنيسـة، وعيّن أساقفـة: ونشستر، وإيلاي، ونوروك مترفين رتيسيين على العـدالة في المملكة، لكن لبعض المناطق فقط، معتقدا أن الذين سلف له تعيينهم منذ وقت طويل مضى كانوا أقل احتراما، فإن هؤلاء الأفـراد من جهة أخرى كانوا أصلب عودا، ويخشـون الرب عن إيمان، الرب ملك الملوك، وخـالق الناس، وهم سـوف يحكمـون اعتمادا على ضمائرهم، فينتقمون لـلأفـاعيل، ولايلتفتـون

يمنـة ولايسرة، وهـم لن يظلمـوا الفقير في محكمـة ليست فـاسـدة بقبـولها الـرشوة، ووقتهـا إذا مـاتـورط رجال الـدين في قضـايـا غير دينية مضـادة للقـانون، وبسبـب هذا استـدرجـوا للمساءلـة، يمكنهم الاحتجـاج أنهم قاموا بها قـاموا به بناء على طلب الملك، وأن مقاصد الملك كـانت تقوية، وأنـه رغب في إرضـاء الـرب عن أعمالـه، وأن ينـال ثنـاء النـاس، وتقـرر جلوس هؤلاء الأسـاقفة وأتباعهم من القضاة لسماع القضـايا، لكن جرى الاحتفـاظ ببعض القضـايا للملك، وقـد تقـرر عـرضها في وستمنستر يـوم ٢٧آب.

وكانت هـذه السنة سنـة جيدة: بعـد مرور شتـاء جاف، وبعـد هبوب رياح شمالية في الربيع وبعـدما عبرت بلطف وسط البلاد من الغرب إلى الشرق، سقت أمطـار خفيفـة الحقـول في ١٣حـزيـران، فأنعشت نفـوس الفلاحين الذين اعتقدوا أن بذورهم قـد ضاعت، وساعدت هذه الأمطار على نمو أشجار الفواكه وصغار الحيوانات التي كانت أشبه بالموتى، وكان المناخ لطيفاً نحو البذور، لامس فقط الجذور الصغيرة، وتتابع هطول المطر والـرزاز فأعـاد الخصب، وساعـدت الحرارة الصـادرة عن أشعـة الشمس على زيـادة خصـوبـة الفـواكـه، وبشكل غير متـوقع أعطت الأرض التي كانت من قبل جـافة، مواسم عظيمـة، وعلى هذا كان بإمكـانك أن ترى في بعض الأمـاكن سبع سنـابل على سـاق واحدة، وعليك أن تتـذكـر أن شيئـاً مـا أو شيئـاً آخـر يحدث فجأة، بـدون أمل، وبشكل غير اعتيـادي، وربما يحدث هذا لك في أيامك.

وثـانيـة أنـزلت السماء نعمهـا ورحمتها على رعـايـاهـا وكـذلك فعلت الطاقات والقـوى الأرضية، وهكذا نجد أن كلّ انسان كانت لـديه قضبة في محكمة مدنيـة أو دينية بات لايشك أن المحصلة ستكـون خيرة بالعون الـرباني، لأن المراسيم صـدرت —كما قلنـا من قبل— بتعيين أساقفـة في المنـاطق بنـاء على أوامـر من الملك، وأن يجلس هـؤلاء لـلاستماع إلى

الخلافات ويبتون فيها، لكنهم كانوا لايملكون حق فرض عقوبة الاعدام، فإذا كنت أميناً يمكنك القدوم بسلام إلى المحكمة المشكلة برئاسة رئيس أساقفة كانتربري، وأنت مطمئن تماماً في نفسك حول المشكلة التي ستعرض، ومن أجل عدم انحراف مساعديه الذين يقدمون له المشورة وكذلك الطاقم الذي يتولى الأمور الإجرائية، وابتعادهم عن جادة الصواب، ولكي لايتم افسادهم بالمال لصالح الخصوم، أقسموا يميناً على الكتاب المقدس وفقاً للقانون المدني، وبما أن الجميع يتحملون مسؤولية عامة فقد أقسموا على الأناجيل أنهم لن يلوثوا مطلقاً أيديهم بالمال، وأنه ليس هناك استثناء لأحد، ووعد رئيس الأساقفة بهذا في خطبته التي ألقاها في باغهام Pagham.

وغالباً ماعبر كادوالون Cadwallon الذي امتلك إمارة في جنوبي ويلز، الحدود القديمة بين الانكليز والبريطانيين، وكان يدخل إلى التخوم فيقتل بعنف عدداً كبيراً من الناس، وقد أمضى حياته بالقيام بالغارات والهجمات السرية، وأخيراً جرّ إلى أمام الملك، بعدما جرى اتهامه من قبل كثيرين، وعندما كان مع الملك كان تحت حمايته، ولكن بسبب جرائمه الوحشية كان دوماً خائفاً جداً.

وفي طريق عودته إلى بلاده وقع في كمين وألقي القبض عليه وقتل يوم ٢٢أيلول، وقد أضر هذا السلطات الملكية ضرراً كبيراً، وهتك القانون العام الذي توجب أن تحفظ به المملكة سليمة، لأن كادوالون، وإن استحق الشنق مرات كثيرة لجرائمه، توجب حفظه احتراماً للملك الذي كان عائداً من بلاطه، ولأنه كان قد حصل على أمان لمدة محددة من الزمن.

ومع أنه مامن أحد خاف من هذه الحادثة، ومامن شيء يشبهها قد حدث في أيامنا، لم يدعها الملك تذهب بدون عقوبة، فقد عاقب المعتدين بقسوة، فإذا مادعيت إلى البلاط الملكي لاتحتاج إلى الخوف،

وواسى الويلزيون بعضهم بعضاً، لأن موت واحد من رجالهم كان معناه جنائز حزينة وبغيضة لكثير من النورمان والانكليز من سكان التخوم، فقد اعتقل الملك الذين عرف أنهم القتلة مع الذين شكك فيهم، وبرهن على تجريمهم في محاكمة علنية، وأصدر أحكاماً قاسية قضت بشنق بعضهم على المشنقة، وبتدمير مقتنياتهم بعد مصادرتها، وأرغم آخرين على العيش حياة تعيسة بمثابة هائمين في الغابات.

وكان القدر لطيفاً تجاه لويس السابع ملك فرنسا في أيامه الأخيرة، فيما يتعلق بزواجه الثالث، فلقد تزوج ثلاث مرات بشكل قانوني، وفي الوقت الأعظم سعادة —كما كتب في الحوليات الفرنسية— نتج عن زواجه الثالث انجاب ولي للعهد ذكر، وكان الملك قد رزق من زواجيه الأولين بأربع بنات فقط، ورزق بعد طول انتظار، إنما بسعادة بولده فيليب، من زواجه الثالث، من أديلا ابنة ثيوبولد العظيم، كونت بليوس، وقد أحب الشعب هذا المولود، وكان رجال الدين على استعداد لتقبله، وذهب فيليب عندما كان في الرابعة عشرة من عمره إلى ريمس، وذلك بعدما التقى برؤساء أساقفة المملكة، وأساقفتها وبأمرائها، فقد كان بحاجة إلى موافقة هؤلاء تماشياً مع عادات المملكة، ورسم في الأول من تشرين الثاني ملكاً على فرنسا، وجاء هذا بموجب حق الوراثة، وبرضى والده الذي كان أباً وحاكماً لجميع رعاياه، وجرى الرسم في ظل وقار جميع القديسين حتى يتولوا حمايته ضد أعدائه، وكان الذي تولى رسامته وليم رئيس أساقفة رايمس، وهو خال الملك، وفي أثناء هذا التتويج كلف فيليب ملك فرنسا فيليب كونت فلاندرز أن يكون تابعه الشخصي الذي يحمل سيفه، ويعدّ الاحتفالات الملكية، وامتلك كونت فلاندرز حقاً مضاعفاً بهذا المنصب، وجاء ذلك من خلال والده ومن خلال زوجته.

وحضر الملك هنري، ابن هنري الثاني، ملك انكلترا، وزوج أخت ملك فرنسا، هذا التتويج للروابط الوشيجة التي تربطه بالمتوج، ولأنه

دعي لمشـاهدة الاحتفـال، ومع أن بـريطـانيا تستحق إلى أبعـد الحدود أن ندعى عـالما آخر، وغالبا مـانسمع أن البريطانيين منفسمين بين أنفسهم، يبقى من الـواضح أن مامن واحـد من ملوك بـريطانيـا أو انكلترا اعترف بأن ملك فرنسـا متفوق عليه، وهـم بـالحري اعتادوا أن يكونـوا في الغالب أصدقـاء، وقد قرروا في الـرسائل المتبادلـة فيما بينهم دعوة أحـدهم الآخر بـالآخ، وهذه عـادة نحد حتى شـارلمان قـد راعاهـا بعدمـا جرى تتـويجه امبراطورا للـرومان، ولاحظ هنـري الملك الشاب أنـه حظي بتميز واهتمام أثناء الاحتفالات المهيبة، وقد مـارس هذا الامتياز فتحدث مع جميع النبلاء أثناء وجوده، وهكـذا تعلم من أفواه الشعب الفرنسي ماتعلـق بالأحداث المستقبلية، واحتفـظ الملك هنري الثـاني بالتاج على رأس الملـك الجديد، وذلك خشية من قـول الذين قالوا إنـه مازال شابا وأن التـاج يجرحه، وأن هناك من هم أكثـر لياقة بالقيـام بهذا الواجب منه، فهو قـد رفض دعوى هؤلاء، وكان من معاني هذا أن الفـرنسيين إذا ما احتاجوا في أي وقت إلى مساعدة، يمكنهم بأمان طلبها من واحد ساعد أثناء تتويج ملكهم.

سنة ثمانين ومائة وألف

وكان الملك هنري يعلم أنه غـالبا ماتسود آراء المستشارين الأشرار، في ظل كلّ أمير جديـد، لاسيما إذا ما كان ملكا شابـا، لهذا اتخذ الملك هنري ملك انكلترا الاحتياطـات خشية أن يتحـول هذا لغير صـالحه، لقد خشي من أن يقـدم الذين يضمـرون له السـوء ويـرغبون بـه إليه، فيقترحـوا على ملك فرنسا بعض الخطط الضـارة بالنسبة لأراضي نورمـاندي، لأن الذين عاشـوا قرب حدودهـا خافوا من قـوة النورمان وممـا يتمتع به اسمهم من جبروت، فهذا كـان معروفا في جميع أنحـاء العالم، وجـرى تكليف رتشارد

أسقف ونشستر من قبل الملك بـالعنـايـة بهذه المسألـة، فعبر الفنـال يـوم ٦أيار،وأخـذ معه سفيراً تـابعاً وهو وولتر صـاحب كاونتننس، وهـو حافظ ختم الملك، وعنـدمـا وصـلا إلى بـاريس وجـدا الملك لـويـس طـريح الفراش، قد حنته طول أيام عمره مع المرض.

وانتخب رجـال الـديـن في ليمـوغـز Limoges سيبراند Se-brand عميد كنيسـة بواتـو أسقفاً لهم، وجـرى هذا دون الحصـول على موافقـة هنري الثاني ملـك انكلترا، أو رتشارد دوق أكوتين، وكعقـوبة لهذا السلـوك المهين، تمت مصـادرة ممتلكـاتهم، وهـدمـت بيـوتهم، واقتلعت كـرومهم، وعندمـا سمع البـابـا الاسكندر بهذا، أرسل تعليماتـه إلى وارين رئيس أسـاقفة بورغـز، ليتولى البحث في المسـألة، وليسعى لايجاد تسـوية، ومهما يكن الحال، عنـدمـا جـاء رجـال الـدين من ليمـوغـز إلى رئيس الأساقفـة، وجدوه ميتـاً، وهنا حتى لايبـدو أن جهودهم قـد ذهبت عبثاً، دس رئيس كهنة بـرايف Brive رسـائل البابـا، التي كـانت ماتـزال مختومـة في أيدي الرجل الميت قائلاً: «إن مـالم يمكنه انجازه أثناء حيـاته، دعوه ينجـزه في موتـه»، وقالوا: إنـه بهذه الوساطـة البارعـة توصل أسقف ليموغز إلى مصالحة مع الملك ومع الدوق.

وجـاء الملك هنري الشـاب، ابن الملك الكبير إلى انكلترا في الأول من نيسـان، وقـد استقبل بحفـاوة عظيمـة من قبل والـده، وأقسم في ردنغ بحضـور الآثار المقـدسة، أنـه سوف يتبع جميع تـوجيهات والـده في جميع المسـائل، لاسيما في توزيع البلـدات، والقـلاع والمنافع حسبما هـو وارد في مـرسـوم كـان مـوجـوداً هنـاك، وبعـد هـذا عبر الملك الكبير القنـال من بـورتماوس، وعبر الملك الشـاب من دوفـر، واحتفل الملك الكبير لـدى وصوله إلى فرنسا بعيـد الفصح في لامانس، وتزوج فيليب ملك فرنسا من مرغـريت ابنة بلـدوين كونت هينولت، التي كـانت أمها مـرغريت أخت كونـت فلاندرز، وجـرى العرس في لي تـرونشت Tronchet واحتفل

بالعرس في بابوم Bapaume وقد سمعنا الكثير عن روعة ذلك الزواج الذي لاينسى، وقد حدث في يوم ٢٩ أيار، وهو يوم عيد القديس دينس، وكان غي رئيس أساقفة سنس هو الذي تولى سيامة مرغريت زوجة فيليب، ملكة لفرنسا.

وبعدما كان لويس السابع، قد تخلى عن صلاحياته وسلطانه للملك فيليب، سلمه خاتمه أيضاً، وهكذا بات من غير الممكن اتخاذ أي قرار يتعلق بالمملكة بدون معرفة ابنه، وثار نزاع بين الملك فيليب وأمه أديلا، فقد جرى الاستيلاء على عدد من القلاع مما تسلمته الملكة هدية زواج، وقام وزراء الملك فيليب فطردوا بعنف شحن هذه القلاع، وذلك بناء على تعليمات من الملك، وعلى كلّ حال تصالح الملك مع أمه عندما طالبا بتحكيم ملك انكلترا، وكان ذلك في مؤتمر الملكين الذي عقد في قصر غيسور Gisors يوم ٢٨ حزيران، [وصدر عن هذا المؤتمر الاتفاق التالي نصه]:

«أنا فيليب ملك فرنسا بنعمة الرب، وأنا هنري ملك انكلترا بالنعمة نفسها، نرغب في أن نضع أمام انتباه جميع الناس، أننا الآن وفي المستقبل جددنا بإيمان وأيمان المعاهدة والصداقة التي عقدها سيدي الوالد ملك فرنسا، وهي المعاهدة التي أكدتها أنا هنري الثاني ملك انكلترا في آيفري بحضور الكاردينال بيتر، ورتشارد أسقف ونشستر، وقد أزيل كلّ سبب للخلاف بيننا، ويتعهد كلّ واحد منا أنه لن يطلب من الآخر أية أراض أو بلدان، أو أية أشياء أخرى يمتلكها، والاستثناءات لهذا سوف تكون أفرين Auvergne التي سببت الخلاف بيننا، واقطاع شاتورو Chateauroux والايجارات الصغيرة لأراضي بيري Berry وإذا ما احتل أي جزء منها، سواء ضدنا معاً، أو ضد واحد منا، أو على أي حال إذا لم نكن نحن قادرين على الوصول إلى اتفاق من خلال مناقشاتنا، فيما يتعلق بهذه المناطق التي استثنيناها من مواد الاتفاق العام،

فإنني أنا فيليب ملك فرنسا قد اخترت ثلاثة أساقفة وثلاثة بارونات، واخترت أنا هنري ملك انكلترا، ثلاثة أساقفة وثلاثة بارونات للبحث في هذه المسألة، وسنعترف بصدق بما سيوصون به مهما كان، ونعد بإيمان وأيمان أننا سنلتزم بجميع الشروط المتقدمة، وأبرمت هذه الاتفاقية يوم ٢٨حزيران فيما بين غيسور وتراي Trie».

واستلقى الآن لويس السابع مريضاً مرضاً شديداً في باريس، وقد أمر أن يجلب إلى أمامه جميع ذهبه، وكلّ فضته وجواهره وخواتمه، وثيابه الثمينة، وشارات زينته الملكية، ثم قام بناء على نصيحة أسقف باريس وراعي دير القديسة جينفف Genevieve بإصدار تعليماته بتوزيع ذلك كله بين الفقراء، وفي يوم ١٣أيلول توفي، ودفن في دير تابع لرهبنة سسترشيان Cistercian يدعى باربو Barbeaux الذي كان قد بناه على نفقته الخاصة.

وجاء فيليب أيمري، وهو رجل من مواليد تور، إلى انكلترا، بناء على دعوة الملك له، وتولى مهمة اصلاح النقود، وهكذا جرى في ذلك الشتاء، في يوم ١١تشرين الثاني سحب النقود القديمة، وحلّ محلها بالتداول في جميع أرجاء المملكة نقود جديدة شكلها دائري، وتقرر استخدامها في جميع مجالات الأعمال، وأسند إلى فيليب نفسه واجب مراقبة فوائد الخزينة، وهكذا بات عليه أن يكبح أساليب وخطط المزيفين، وعندما اكتشف أن الذين يتولون ضرب العملة يتلاعبون بالنقود، تعرض لنقد شديد، وعلى كلّ حال هو لم يتعرض لغضب الملك الذي حرره من خوف العقوبة، ومع هذا كله عزل من عمله وأعيد إلى فرنسا بدون وداع.

سنة إحدى وثمانين ومائة وألف

قيل اجتمع أربعة ملوك في معركة واحدة، وماهو أكثر إثارة وعجباً أن أربعة اجتمعوا بسلام في مؤتمر وغادروه متفقين وهؤلاء هم: فيليب ملك فرنسا، وهنري ملك انكلترا، وهنري ابن ملك انكلترا، ووليم ملك اسكوتلندا، لقد جاءوا واجتمعوا معاً، ثم افترقوا بسلام، وقرر فيليب ملك فرنسا، بناء على نصائح ملحة واقتراحات متتابعة أن يحذو حذو هنري ملك انكلترا، الذي تدبر ممارسة الحكم فوق مملكته الواسعة، مع أنها كانت مهددة بغارات السكوتلنديين والويلزيين المتوحشين، ومن أجل أن يتعلم بدقة أكثر مذاهب هذا الملك، قرر بناء على نصائح مستشاريه الداخليين، أن يخضع نفسه تماماً لتوجيه هنري وقيادته.

ووضع ملك انكلترا الكبير جميع نورماندي تحت اشراف ولده الملك الصغير، وأوعز إلى جميع وزراء تلك البلاد بطاعته، وتركه ليتولى المراقبة العامة مع الحماية لفيليب ملك فرنسا، إذا ما اقتضت الحاجة، والآن وجميع المقاطعات كانت تدار وفقاً لرغباته ولقوانينه السلمية، وكانت كلها تتمتع بفوائد السلم الذي جاء بوساطة حكمه، عاد إلى انكلترا يوم ٢٨تموز، وقام بزيارة كانتربري وهناك صلى ووهب صلواته للقديس توماس.

وعندما سمع فيليب كونت فلاندرز كيف أن فيليب ملك فرنسا وهنري ملك انكلترا متعايشان بشكل حميم، جند أكبر عدد تهيأ له من الفلمنكيين حتى يتمكن من القتال ضد مولاه الاقطاعي، وأعلن أن الأمور قد وصلت إلى نقطة بات عليهم فيها إما تدمير حصون أعدائهم، أو أسرهم ومن ثم إرغام الملك على التسليم والتفاوض، وحاول الآن أكثر من هذا فبعث برسل إلى فردريك امبراطور الألمان، ثم ذهب إليه

شخصياً لاقناعه بالوقوف ضد ملك فرنسا، ومدّ حدود مملكته إلى القنال الانكليزي، وهكذا لم يقم الكونت فيليب رعاية إلى العمر الغض لمولاه الملك، وتناسى تماماً العهود التي أكدها للملك لويس في أنه سيراقب الأمور وسيتولى حماية ابنه وتوجيهه إلى ماهو صحيح، وهنا هاجم نويون Noyon مع أكبر قوة استطاع حشدها وقد عاثوا فساداً في المنطقة الموجودة حول سنلس Senlis فهدموا البيوت واقتلعوا الكروم.

وكان هنري الملك الشاب ابن الملك الكبير، ورتشارد دوق أكوتين، وغيوفري دوق بريتاني —ثلاثة أولاد يحملون شهادة على انجاب أمهم— متشوقين إلى شغل الفراغ الناجم عن غياب أبيهم، بتقديم البرهان على شجاعتهم، وقد خططوا للتصدي بكل ماأوتوه من قوة لخطط هؤلاء الرجال الأشرار، الذين يرغبون بالتسلط على الملك البريء، ملك فرنسا الشاب، وحشدوا ثلاث قوى من جميع أرجاء البلاد، وجاءوا بمثابة قوة واحدة لمساعدته.

وقرروا أولاً أن يتخلصوا من كونت ستيفن، السيد الشرير لقلعة سانسير Sancerre وتمكنوا في أيام قليلة من نهب ممتلكاته وتدميرها، مع بلداته وقلاعه وأراضيه، وأعطوا بمثابة غنيمة نحو خمسة آلاف آلة فلاحة مع ثيرانها إلى شعب برابانت، وبما أن قوات الكونت كان مُتفوق عليها وكانت غير قادرة على المقاومة، فقد انكب الكونت على قدمي ابن أخته الملك فيليب وسأله العفو والمغفرة ونال ذلك منه تجاه أعماله العدوائية، وتحرك الملكان (فيليب وهنري الشاب) نحو الأمام ومعهما قواتهما، فألحقا خسائر فادحة بدوق بيرغندي، وبالكونتسة صاحبة شامبين التي كانت أختاً لكلا الملكين، وبأتباعهما، اللذين —ثانية— كانت قواتهما قد تم التفوق العددي عليها، ثم تحركا نحو الخلف شمالاً، فأرغما كونت فلاندرز على التراجع، وخشي الكونت من مواجهة الملك هنري ابن ملك انكلترا وجهاً لوجه، فأغلق على نفسه أبواب قلعة كريبي

Crepy واتخذ موقف الدفاع، وقد قيل لولا المشورة الخادعة التي تلقاها ملك انكلترا من مستشاريه لم تعق خططه، لجرى ارغام الكونت الذي اتخذ موقف الدفاع في قلعته، على الاستسلام، لأنه امتلك من الطعام مايكفي لعدة أيام فقط.

سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف

التقى فيليب ملك فرنسا مع ملكي انكلترا: الأب والابن، وفيليب كونت فلاندرز، والكونتات الذين جاءوا من جميع مناطق فرنسا، وكانوا بناء على نصائحه قد حنثوا بعهودهم تجاه مولاهم، التقوا في سنليس Senlis بعد عيد الفصح، وكان هناك هنري أسقف ألبانو وممثل البابا، ووليم رئيس أساقفة ريمس مع كثير من الأساقفة، ومن الممكن رؤية ماتفقوا عليه من الوثيقة التالية:

«من ملك الانكليز إلى رتشارد أسقف ونشستر.. التحيات:

أعاد فيليب كونت فلاندرز بيرفورد Pierrefords إلى ملك فرنسا، وأعادها الملك إلى أسقف سواسون، وأعادها الأسقف إلى أغاثا أرملة هيوج أوف أوسي Oisi التي تملكتها بحق الوراثة، باقرار صحيح منه في بلاطه أو في بلاط الملك، وبقي كونت كليرمونت ورالف دي كوسي Chuci تماماً في أيدي ملك فرنسا، محررين من كونت فلاندرز، وحلل فيليب كونت فلاندرز ابني هنري من جميع الاتفاقات المعقودة بينهما، ووافق على وجوب قيام بارونات الفلمنكيين بالخدمة لدي مقابل أجر أعطيهم إياه، وسيفقدون ايجاراتهم بدون تعويض إذا لم يقوموا بخدمتي، واتفقنا زيادة على هذا أن لايفقد أحد من رجاله أراضيه في فلاندرز بسبب خدمتهم لي،

وذلك إذا ماجاءوا لخدمتي في أراضيّ، ومادام قد عاد كلّ شيء إلى السلام، فالذين تخلوا عن الولاء والتبعية لملك فرنسا، سوف يعودون إلى الخضوع له، وذلك بناء على رأي وعمل ملك الانكليز، وتمت تسوية مسألة الأضرار على كلا الطرفين بتعويضات متبادلة».

وبينما كان روجر رئيس أساقفة يورك حياً، طلب من البابا الاسكندر الامتياز التالي:

إذا ماقام واحد من رجال الدين العاملين تحت ادارته بكتابة وصية وهو على فراش الموت، لكنه لم يوزع ممتلكاته بيديه، لرئيس الأساقفة الحق في أن يضع يديه على مقتنيات الرجل الميت، وبما أنه يتوجب على كلّ من يصدر قرارات قانونية حول انسان آخر، أن يتنبه لنفسه،هكذا نفذ حكم الله العادل، فبعد وفاة رئيس الأساقفة جرت مصادرة كلّ شيء وجد في خزانته، وبلغ هذا أحد عشر جنيهاً من فضة العملة القديمة، وثلاثمائة قطعة ذهبية، وطشت من الذهب، وسبعة طشوت من الفضة، وتسعة كؤوس من الفضة، وثلاثة طشوت من خشب القيقب، وثلاثة ممالح من الفضة، وأربعين ملعقة من الفضة، وثمانية صحون من الفضة، ووعاء كبير من الفضة وقواعد فضية.

وثار هنري دوق السكسون، وزوج ماتيلدا كبرى بنات ملك انكلترا، ضد فيليب رئيس أساقفة كولون، وسبب له مضاراً كبيرة جداً، وحشد رئيس الأساقفة قوى من جميع المناطق من حوله، وقاوم الدوق برجولة، وتلقى العون والعناية من الامبراطور، وتطورت الأمور بشكل وصل إلى حد أنه عندما أعلن قرار جميع أمراء الامبراطورية، أرغم الدوق على الخضوع للنفي، فجاء إلى ختنه في نورماندي ومعه الدوقة مع اثنين من أولاده: هنري وأوتو، وابنة كانت في سن الزواج، أما الابن الثالث ويدعى لوثر فقد بقي في ألمانيا، وقد استقبل هناك بحفاوة، ومكث هناك أكثر من ثلاث سنوات وهو يلقى الرعاية والعناية والكرم الملكي.

سنة ثلاث وثمانين ومائة وألف

في سنة ١١٤٣ توفي جون بورفيروجنتوس Porphyrogenitus امبراطور القسطنطينية، متسمماً في أنطاكية، مخلفاً وراءه ولدين، وقد اختفى الابن الأكبر مخلفاً ولداً اسمه أندرونيكوس، وجرى تعيين الابن الأصغر، أي مانويل، امبراطوراً، ذلك أنه كان أكثر شعبية لدى الاغريق.

وتوفي الآن في حوالي هذا الوقت مانويل في القسطنطينية، بعدما حكم لحوالي أربعين سنة، تاركاً وريثاً له ابنه الأصغر ألكسيوس، الذي كان قد رزق به من ابنة الأمير ريموند، أمير أنطاكية، الذي كان عم إليانور صاحبة أكوتين، وتظاهر أندرونيكوس بالسلام، فجاء إلى القسطنطينية وأقسم يمين التبعية لألكسيوس في كنيسة أياصوفيا، ووضع التاج الملكي على رأس ألكسيوس، وركب وسار خلال المدينة وألكسيوس على كتفيه.

لكن مالبث أندرونيكوس أن غير سياسته: فذبح بشكل وحشي البروتوفستياروس Protovestiarus [المسؤول عن القصر]، وقتل الامبراطورة، أم ألكسيوس، وكلّ واحد عرف أنه كان مخلصاً للامبراطور مانويل، واغتصب العرش لنفسه، وقد قيل إنه أغرق ألكسيوس ثم تزوج من أرملته، يعني أغنس ابنة الملك لويس السابع ملك فرنسا.

وفيما أجاب الموت البشري على كلّ إيماءة عملها الملك الكبير حول كلّ شيء تقريباً، كان هذا الملك حريصاً على ممارسة توقعاته من أجل ازدهاره، خشية أن يتبدد كلّ شيء مفيد للسلام، وكان قلقاً حول إقامة سلام أكثر ثباتاً بين أولاده، وذلك حتى يتجنب الخصام بين الأخوة الذي هو أمر طبيعي في كثير من الأجيال، وهكذا سأل الملك الشاب أن يتلقى الولاء والتبعية من أخيه غيوفري من أجل دوقية بريتاني، التي تملكها غيوفري بمثابة بائنة —دوطة— لزوجته كونستانس، وكانت الابنة

الوحيدة والوريثة لكونت كونان Conan وكان كونتـات بريتاني مرتبطين منذ قديم الزمان بـرباط الخضوع هـذا لدوقات نورمـاندي، من خلال منحة من ملوك فرنسا.

وجرى تنفيذ ماطلبه الأب في أنغر Angers وحتى يعقد الأب الأمور أكثـر، طلب بعد ذلك من ابنـه هنري أن يتخلى لأخيـه رتشارد عن دوقية أكـوتين حتى يتملكها رتشارد وورثتـه بشكل دائم، ثم أعلن الملك الشاب أخيراً لوالـده أنه متحالف مع عدد كبير من بارونـات أكوتين ضد أخيه رتشـارد، وأنه التجأ إلى هـذا في الوقت الذي قـام فيه رتشـارد، ضد رغبـاتـه ومصـالحه، بتحصين قلعـة كليرفـو Clairvaux بشكل كبير، وهذه القلعة قد كانت من أقدم الأزمنة خاضعة لكونتات أنجو،

لكن حتى لايـزعج والده، أقسم بكل تـأكيد على كلّ مـاسأله والـده، وكـان ذلك في ميربـو Mirebeauواشترط أن يقـوم رتشارد بعـدمـا يقدم له الولاء والتبعية أن يقسم أيضـاً على التبعية له على الآثار المقدسة، ولدى سماع هذا، انفجر رتشارد غاضبـاً، وقال كما يبدو: بما أنه انحدر من الأب نفسه ومن الأم نفسهـا مثله مثل أخيه، لايجوز بالنسبـة له الاعتراف بأخيه الأكبر منـه بالتفـوق عليه مع نـوع من الخضوع، لكن بحكم قـانون المنفعة لـلأخ الأكبر الحق بالأشياء العـائدة للأب، ثم ادعى حقاً مسـاوياً لأخيه في الأشياء العائدة للأم.

وعندمـا سمع الملك الأب هـذا انفجر غاضبـاً، وهدد بخلق المتـاعب لـرتشارد، وقـال بصيغة تـوبيخ بأن الملك الشـاب كان على وشك القيـام بتأديب رتشارد وإزالة غطرسته، وطلب من غيـوفري دوق بريتاني الوقوف باخلاص إلى جانب أخيه بحكم أنـه مولاه الاقطاعي، وهكذا حمل الملك الشـاب السلاح ليس ضـد والده، كما فعل ذلك مـراراً، بل ليقدم العـون

إلى البوتيفيين Poitevins الـذين كـان رتشـارد يتـولى ظلمهم بعنف ويغير عليهم بشكل غير عادل، وهـؤلاء البوتيفيون كـانوا يقاتلون ليكـونوا خاضعين لـه بموجب القانون العـام، دون أن يكون أي واحد من أخـوته متسلطاً عليه.

ولقد تحدثـوا فيما بينهم، لكن عندمـا لم تظهر بـارقة أمل بـالسلام، جمع الملك الشـاب جيشـاً كبيراً، وتـرك والده الـذي يعـرف أن حكم أكـوتين عائد إليـه طوال حياتـه، وأمر جميع حلفائه حيثما كـانوا وأينما كانـوا وكان عددهم بالالتحاق به للقتال ضـد رتشارد، لكن حدث أن حياته قطعت وهي قصيرة، وكأنها قطعت بيد حـائك، وانقطعت معها آمـال عدد كبير كانوا يقاتلون من أجله ويأملون بالحكم معه بعد وفاة والده.

فالذي حـدث أنه في يوم ١١حزيران، في منطقـة تدعى تورين Tu-renne في غسكـوني، بين أناس متخلفين تمامـاً في قلعـة مارتل، تـوفي هنـري الملك الشـاب، بعـدمـا عـاش ثمان وعشرين سنـة، وأربعـة عشر أسبـوعاً وستـة أيام، تـاركـاً للرأي الحكيم الموافقـة على أن الأبناء الـذين يثورون ضد آبائهم، الذين يـدينون بكل شيء لهم: بوجودهم وبما يعيشون منه، وبمن من ثرواتهم يتـوقع أن يصبحوا أغنياء، جديـرون فقط بالحرمان من الميراث.

ودهن جسـد الملك الشاب بكل عنـاية، ولف بـالأردية الكتانيـة التي لبسهـا وقت تتـويجه، وحمل على أكتـاف رفـاقـه خـلال القـرى والقـلاع والبلـدات، والنـاس يهرعـون من كلّ جـانب للنظر، حتـى وصلـوا إلى لامانس، حيث وضع في شرفـة جوقة المرتلين في كنيسة القديـس جوليان، وهرع أعيـان البلدة فجأة إلى الكنيسة، وبموافقـة شعبية عامـة جرى دفن جسد الملـك هناك بسرعـة، وذلك مثلما رقد جسـد جده لأبيـه في المكان نفسـه، لكن نقل فيما بعـد إلى روان بناء على طلب روبـرت عميـد روان، لأن الملك عندما كان حياً اختـار ذلك المكان ليكون موضع دفنه، وأدخل

بـالتـوقير الـلائق بأمير إلى كـاتـدرائيـة روان ووضع على الجانب الشمالي للمذبح المرتفع.

سنة أربع وثمانين ومائة وألف

وبعـدما رتب ملك الانكليـز جميع المقاطعـات التي تحت حكمه وفقـاً لـرغبـاتـه، وبـاتت جميع رعـايـاه تتمتع بمنح السـلام، عبر إلى انكلترا في ١١ حزيران، وعبر خـلال فلاندرز بأذن وترحـاب من الملك الفرنسي وقدم في هـذه الآونة دوق سكسـوني مع بيتـه وحـاشيتـه ومقتنياتـه إلى انكلترا، وبعد أيام قليلة ولدت الدوقة في ونشستر ولداً ذكراً أطلق عليه اسم وليم.

وجـاء فيليب رئيس أساقفـة كولـون بـرفقة فيليب كـونت فلانـدرز في رحلتـه إلى انكلترا ليقدم الصلـوات إلى القـديس تـومـاس في كانتربـري، وقدم الملك لاستقبال رئيس الأساقفـة والكونت، وطلب منهما السفر حتى لنـدن، وعندمـا وصلا استقبـلا استقبـالاً لانظير له، وكـانت المدينة مليئـة بـالـزينـة، وكـانت الشـوارع مكتظـة بحشـود مسرورة، وجـرى الترحيب بالـزائرين بحفاوة وسرور عظيمين، ورافق رئيس الأساقفـة موكب رسمي، وتم الترحيب به في كاتدرائيـة القديس بولص، كما واستقبل في وستمنستر أيضاً، في اليوم نفسه، وكان هنالك مـوكب رسمي آخر مع تزيينات ملكية رائعة، وكـان الانفاق كبيراً، وقـدمت في الموائد العظيمـة أطعمة أكثـر مما يستطيع الضيوف تناوله، ومكث رئيس الأساقفـة خمسة أيام بمثابة ضيف في القصر الملكي في وستمنستر، وعندما غادر أتحف بكثير من الهدايا.

واعترف البابا برهبانيـة سانتياغو Santiago العسكرية، وتميز هـؤلاء الجنـود عن الآخـريـن بـالسيـف الأحمر الـذي كـان شعـارهم —رنكهم— وكانت قاعدتهم في اسبـانيا، وكان المطلوب منهم استخدام

طاقاتهم في الصراع ضد المسلمين.

ومات أرنولد مقدم فرسان الداوية في فيرونا Verona.

سنة خمس وثمانين ومائة وألف

قام هرقل بطريرك القدس مع روجر مقدم بيت الاسبتارية، برحلة إلى الغرب، وقد ىتافرا خلال ايطاليا إلى فرنسا يطلبان العون، لكن ليس من المولى البابا، ولا من امبراطور الرومان ولامن ملك فرنسا، وعوضاً عن ذلك أبحرا إلى انكلترا، وقدما إلى الملك في ردنغ وقد شرحا الأسباب التي حدت بهما للقيام برحلتهما الكبيرة (فهي رحلة لم يكن لها نظير) ورويا بالتفصيل المضار العظيمة التي لحقت بالمدينة المقدسة، وقد حركا عواطف الجماعة كلها، ودفعا الملك وجميع الحضور إلى التنهد والدموع، ووضعا بين يدي الملك بعض الأشياء التذكارية المتعلقة بميلاد يسوع المسيح، وبآلامه ثم بقيامته، ذلك أنهم أعطوه قطعة من صليب الصلبوت، ومفاتيح برج داود، ومفاتيح كنيسة القيامة، وعرض الملك هذه الأشياء كلها بتبجيل عظيم.

وجرى تنصيب رتشارد، الرئيس الجديد لأساقفة كانتربري يوم ١٩أيار، وتم استقباله بموكب مهيب في دير القديس أوغستين، وأقام قداساً هناك، ترأسه روجر راعي الدير، وقد ارتدى قلنسوة الأسقفية في موكب يوم ٢٦أيار.

وعندما كان هربرت، وهو رجل انكليزي من مدلسكس، مسافراً خلال جزيرة صقلية، جرى تعيينه رئيساً لأساقفة كوزنزا Cosenza بموافقة من وليم ملك صقلية، ثم كان هناك زلزال عظيم، وقد خسف

١٩أيار، وتـم استقباله بموكـب مهيب في دير القديـس أوغستين، وأقام قداساً هناك، ترأسه روجر راعي الدير، وقد ارتدى قلنسوة الأسقفية في موكب يوم ٢٦أيار.

وعندمـا كان هربـرت، وهو رجل انكليزي مـن مدلسكس، مسـافراً خلال جزيرة صقلية، جرى تعيينه رئيساً لأساقفة كوزنزا Cosenza بموافقة من وليم ملك صقلية، ثـم كان هناك زلزال عظيم، وقد خسف برئيـس الأساقفة، ورجـال كنيسته وأهل بيتـه وحاشيته وجـزء كبير من المدينـة، وجرى تهديـم عدد كبير مـن القلاع وتعـرض كثير من النـاس للقتل، واختفت مدينة وغرقت في البحر الأدرياتيكي بكاملها أثناء الليل عنـدما كـان جميع النـاس نيـام، وكان هنـاك زلزال في انكلترا أيضـاً، في الشمال، وتهدمت بعض الأبنية في بعض الأماكن.

وكان هناك خسوف للشمس في بعد ظهر يوم ١أيار.

وزار ملـك فـرنسـا ملـك انكلترا الـذي كان مـريضـاً في بيـوفـويـر Beauvoir يوم ٩تشرين الثاني ومكث لمدة ثلاثة أيام.

سنة ست وثمانين ومائة وألف

في ٢٧كـانون الثـاني تـوج رئيـس أساقفـة فينـا فـردريك امبراطـوراً للامبراطورية الـرومانية المقدسة، وكان ذلـك في ميلان، وفي اليوم نفسه توج بطريرك أكويلا aquileia هنري ملكاً للألمان، وقد دعي منذ ذلك اليوم بلقب قيصر، وتولى أسقف ألماني تتويج كونستانس عمة وليم صاحب صقلية، وجرى هذا في دير القديس أمبروغيو Ambrogio.

واجتمع الملكـان الفرنسي والانكليـزي، وكونت فـلاندرز، وكـونتسة

شامبين، ومرغـريت أرملة الملك هنري الشاب، في غيسـور يوم ١٠أيار، ونوقش الخلاف بين ملك انكلترا، ومرغريت حول بائنتها —دوطتها— وحول حصة الزواج، وجرى التوصل إلى تسوية مصالحة.

وكان هناك خسوف للقمر يوم ١٦نيسان بعد غياب الشمس مباشرة، وكسوف للشمس يوم ٢١نيسان، بعد الفجر مباشرة.

واستولى الملـك هنري على قلاع أكوتين التـي كانت على درجة عـالية من الحصـانة بفضـل الطبيعة وبراعـة الانسان، وأعطـاهم للشحـن التي أرادها، ومع أن رتشارد كـونت بواتو كان مغضباً جـداً لم يشتك لوالده، وهكذا مـع تمتع انجو، وتـورين، ومين، وبريتاني، ونـورماندي، بـالأمن والهدوء، عـاد الملـك إلى انكلترا، ونــزل سعيـداً في ثـاوثـأمبتــون يـوم ٢٧نيسان، وعبرت الملكة مع الملك على المركب نفسه.

وبعـد نــزول الملـك إلى اليـابسـة، زار أسقــف ونشستر في مـارول Marwell وأمضى الليـل في ونشستر، وكان رئيس أسـاقفة كـانتربري قادمـاً لرؤيـة الملك، وعندمـا سمع الملـك بذلك بـادر مسرعاً للقـاء به، وأظهر لـه كلّ احترام يستحقه، وفي هذا المقـام تجاوز تواضعه ومـااعتاد عليـه أجداده، وجـرى استقبال رئيـس الأسـاقفة في مـوكب مهيـب في ونشستر يوم ١أيار.

وتوفي غيوفري دوق بريتـاني، ابن ملك انكلترا يوم ١٨آب، وكان في الثامنـة والعشرين من عمـره، ودفن في شرفـة جوقة المرتلين في نـوتردام باريس، وخلف ابنتين من زوجته كونستانـس ابنة كونت كونان صاحب بريتاني.

وعادت مـرغريـت أخت الملك فيليـب، ملك فـرنسا وأرملـة هنري الملك الشـاب، إلى باريـس مع قطار كبير، وكـان ذلك يـوم ٢٤آب، ثم تزوجت بعد هذا من بيلا ملك هنغاريا، ودلماشيا، وكرواتيا، وراما.

وبناء على أوامر مـن الملك اجتمـع رتشـارد عميد لنكـولن ومعظـم رجالـه في آينشـام يـوم ٢٤أيـار، وبعد اجتماع طـويـل حـول مشـاكـل كنيستهم، جـرى انتخاب هيوج —وهـو بيرغندي مـن غرونوبـل، كان رئيسـاً لرهبـانية كـارثوشيـان Carthusian في انكلترا— أسقفاً للنكولن، وكـان ذلك بحضور عدة أسـاقفة، وتم ارسال عـدة رسل إلى بيرغندي لإخبار رئيـس رهبانية دير لى غرانـد تشارترو Chartreus الذي أعطى موافقته، وهكذا رسم هيوج، الذي تمتع بشعبية واسعة، أسقفاً للنكولن يوم ٢١أيلول في بيعة القديسة كاترين في وستمنستر.

بحـث آدم أوف آينشـام في مسألـة انتخـاب أسقـف لنكولـن، وتتبـع بوصف حي سيامته وتعميده.

كان هذا الكرسي المقدس شاغراً منذ قرابة الثمانية عشرة سنة، وأدرك الملك مـلامته تجاه أوضاعـه المهملة، وأن شعـوره المحزن يرجـع بشكل واضـح لعـدم اهتمامـه بـه، ولهذا قـرر بـذل مجهـوده لتـدارك واصـلاح الفـوضى التـي نجمـت عن طـول الاهمال، وذلك مـن خـلال العنايـة باختيار راع نشيط.

وبما أن رجال الدين كانوا منقسمين بشكل لا أمل بتداركه، فقد قيل:

إن كلّ واحد منهـم رغب بانتخابـه هو ولاأحد سواه، وحثهـم عدد كبير من الناس ونصحـوهم بمحاولة الحصول على هيـوج راعي وايتهام ليكون أسقفاً لهم، ذلـك أنه كان رجلاً متميزاً بمحاسنـه، وقد أثنى كثير من القوم على قـداسته وحكمته، ورفعوا جاذبيتـه وتقواه إلى السموات، واتفق الجميـع على أنه كان هو الشخـص الوحيد الذي حـوى الفضائل كلها مع أصالـة المولد، وكان هناك اتفاق عام أنـه لايمكن ايجاد أسقف مناسب أكثر منه.

أما وقـد وصف هذا مـن قبل جيرالـد رئيس شمامسة القـديس داود،

وذلك بين بعض الحوادث الأخرى الهامة المرتبطة بالقديس، يبدو من المفيد نقل كلماته واقتباسها، فهاكم روايته:

«وفي العودة إلى أسقف لنكولن، أعتقد أن عليّ عدم حذف حادثة لاشك أنه أريد بها أن تكون شارة وبشارة حول معاني قدومه، ففي اليوم —أو قريباً منه— الذي توج فيه هيوج أسقفاً للنكولن، كان هناك قرب عزبته على مقربة من ستو Stow التي تقع على مسافة تقارب الثمانية أميال من لنكولن، بقعة جميلة محاطة بالأشجار والبحيرات، وصلت إليها فجأة بجعة لم تر هناك من قبل، وقد تمكنت خلال أيام من قتال وقتل البجعات الأخريات هناك، وذلك بفضل وزنها وحجمها، واستبقت ذكراً واحداً،أبقته للصحبة وليس بقصد الانجاب ، وكانت هذه البجعة أكبر من بقية البجعات مثلما تكون البجعة عادة أكبر من البطة، ولكنها شابهت في كلّ شيء آخر في لونها وبياضها بجعة عادية، باستثناء أنها لم تمتلك العرف الأسود والمنتفخ، الذي يوجد عادة فوق المنقار، وبدلاً من ذلك كان ذلك الجزء من المنقار عريضاً وبراقاً، ولونه أصفر، وكذلك كان رأسها والجزء الأعلى من رقبتها.

وما ان وصل الأسقف إلى قصره للمرة الأولى، حتى تحول هذا الطائر الملكي في مظهره غير الاعتيادي وحجمه، بشكل مفاجىء إلى طائر مدجن تماماً، فقد ترك نفسه يُمسك بدون صعوبة، وقد حمل إلى الأسقف لينظر إليه، وقد سمح له على الفور باطعامه، وبقي معه بمثابة حيوان أليف، وبدا بعد وقت قصير أنه فقد توحشه، ولم ينأى عن ملاحظته، لابل بدا أنه لايعبأ بالأصوات الصادرة عن الحشود في كلّ مكان، ولايهتم بسواد المشاهدين الذين يأتون ويذهبون بشكل متواصل، واعتاد هذا الطائر عندما كان الأسقف يتولى اطعامه أن يدس رقبته

الطـويلـة في الفتحة الـواسعـة لكـم قميصـه، وهكذا ارتـاح رأسـه على الطيات الـداخلية، وكـان يمكث هكـذا لبعض الـوقت يتنفـس بلطف، وكأنه يتكلم بغرام وسعادة مع صاحبه، ويطلب شيئاً ما منه.

وزيادة على هذا ذكـر الموظفون ومساعدوهـم الذين كانـوا مسؤولين عن العـزبة، أن الطائر كـان يظهر نشاطـاً عظيماً ليس معتاداً قبيـل عودة الأسقف من سفر كان بالعادة يغيـب فيه ثلاثة أيام أو أربعة، فكان يطير على وجـه النهر، ويضرب الماء بجنـاحيـه، ويصدر أثنـاء ذلـك أصواتـاً عالية، وكـان يقوم من وقت إلى آخر بمغـادرة الماء، ويسرع إلى الدخول إما إلى القاعة أو إلى البـوابة، وكأنه ذاهب لمقابلة صاحبـه لدى وصوله، ومـن المتصـور أنه كـان مثله مثـل طيـور السماء حساس جـداً بسبـب طبائعهـم الاحترازية، وكـذلك هم يتـوقعون وقـوع تغييرات في عناصر الهواء أو حـدوث حوادث قبـل وقوعهـا، ويبدو ذلـك من تصرفـاتهم، ولعـل هـذا الطـائر كـان يعـرف قرب وصـول مـولاه بـالغـريـزة مـن استعدادات ونشاط خدمه، ومثير للانتباه، أنـه كان على كلّ حال صديقاً وأليفاً مـع واحد فقط هو الأسقـف، وفي الحقيقة، أبقى كـلّ انسان، كما رأيت بنفسي، بعيداً عن مـولاه، عندما كان معه، بالتصـويت عليهم، أو بتهديـدهم بجنـاحيه ومنقاره، كما كـان ينعق بصّوت مـرتفع كما كـانت عادته مع البجعـات، وبدا كلّ ذلك وكأنه قرر أن يوضـح تماماً أنه يعود له فقط، وأنه كان رمزاً مكرساً فقط للقديس وحده.

وعندما زار الأسقـف ذلك المكان في عيد الفصـح الأخير الذي حل قبل رحيلـه من الأرض، لم يكتـف الطائر بعدم القـدوم لمقابلتـه كما هي العادة، بل إنه رفـض أن يغادر البقعة التي كان يسبح فيهـا، حتى يجلب إليه، وكان مـدهشاً لكل انسان، أنـه مكث فوق الماء ينظر بحـزن وكأنه مريـض، وكانـت حركاتـه واهنة، وأخيراً أمـر الأسقف أن يجلـب إليه، أرضي أم لم يرض، ولمدة ثلاثـة أيام حاول عدد كبير من النـاس بصعوبة

فعل ذلك، لكن جاءت جهودهـم بلاثمار، وأمسك في النهاية بين بعض النباتات النـامية الكثيفة في منطقة نـائية من البحيرة هناك حيـث كان قد التجـأ خوفـاً من الامسـاك به، وعنـدما أحضر إلى الأسقـف كان مـدلى الرأس، وتنبعـث منه رائحة التعـاسة، وصـورته صورة الحزن، وكـانت واقعة غريبة أدهشت كلّ من رآها.

وكانت زيارة الأسقف قصيرة جداً، وبعـد ستة أشهر سار على طريق جميع الأجساد، ولم يـر ثانية من قبـل صديقه الطائر، وعنـد ذلك لاحظ الذين تفكـروا حول المسألة أن الأجـواء الحزينة كان معناهـا أنه سيودع حزينـاً قريبـاً مولاه لآخـر مرة، ولقـد عاش بعـده، على كلّ حـال، لمدة طويلة».

وعلى الرغم من أن هدفي العظيم تجنيب قرائي التعب بالدوران معهم طويلاً، أعتقد أن عليّ أن أبين أنه كان أقـل اعتدالاً في قضية الطعام بعد وصـوله إلى مـركـز الأسقفية، ممـا اعتـاد عليه مـن قبـل، فهو لم يلمـس اللحـوم سواء في مـرض أو في صحة، لكـن كثيراً مـاأكل السمـك، ولم يتمنع عـن الخمرة كليـاً، بل شربها بـاعتدال لحاجـات الجسد الضعيـف وذلك حسبما نصح الرسول، وكذلك رغبة منه في أن يضرب مثلاً في أن كلّ شيء لكـل الناس، وابتغى أيضاً أدبـاً وتيسيراً أن يجعل الذين كـانوا يأكلـون معه مـرتاحين ولايشعرون بـالحرج، فقد كـان يجلس إلى المائدة مسروراً وفيه حيويـة، ولكن بالوقت نفسـه كان حزيناً متحـرزاً، متذكراً على الدوام، لابل ناقلاً للذين حثوه على أن يكون مسروراً، النص الذي جـاء في سفـر إستير وفيـه: «جعلنـا جمال القـديسيين مسروريـن»، وإذا ماحدث أحياناً في الحفلات الكبرى سـواء في بيته أو عندما يكون ضيفاً في مكان آخـر، وتكون هناك موسيقـى أو تمثيل، كان يُظهر أعظـم تمنع، فنادراً مارفع عينيه من على الأرض، وأظهـرت كلّ كلمة أو حركة بدت منه للذين كانوا حضوراً المدى الذي انسحب فيه وانعزل به نهائياً بشكل

كامل، وكأن مشاعره الخارجية هي فقط التي جذبت بهذه المتع الحلوة.

وبسبب براءته النقية، التي جعلته مخزناً عظيماً للاخلاص والبساطة، امتلك القديس عواطف غير عادية نحو الأطفال، بسبب سذاجتهم الكاملة، وبهذا شابه كاتب الكمال الذي قال لمريديه:

«دعوا الأطفال الصغار يأتون إليّ ولاتمنعوهم فبهم ومعهم مملكة السموات»، وكان حيثما وجدهم، لاطفهم بمحبة وبحنان ملائكي، لابل حتى عندما كانوا لايستطيعون الكلام، ويصدرون أصواتاً مؤثرة، واعتاد على أن يرسم علامة الصليب على جباههم وعلى أفواههم وعيونهم، ويباركهم مرات ومرات، ويصلي لسعادتهم وتقدمهم، وكانوا هم بدورهم يغدون أصدقاء له بسرعة مدهشة، حتى الذين بالعادة كانوا يخافون من كلّ انسان تقريباً، كانوا يقبلون عليه بجاهزية أكثر من إقبالهم على آبائهم.

ولقد رأيت طفلاً كان عمره حوالي الستة أشهر، عندما رسم على جبينه علامة الصليب بالزيت المقدس، عبرّ عن سرور عظيم بتحريك أطرافه، حيث ذكرنا هذا بسرور التعميد، والقفز داخل جرن المعمودية، واسترخى الفم الصغير والوجه في حالة ابتسامة مستمرة، وبدا أمراً لايكاد يصدق أنه في السن الذي عادة يصرخ فيه الأطفال ويبكون أمكن لهذا الطفل أن يضحك بهذه الطريقة، ثم انحنى ومدّ نحو الخارج ذراعيه الصغيرين وكأنه يحاول الطيران، وحرك رأسه إلى الأمام والخلف، وكأنه أراد أن يظهر أن سروره كان أعظم مما يستطيع تحمله، ثم أخذ يده بيديه الصغيرتين، وبذل جهد طاقته ليرفعها نحو وجهه، ثم تابع لعقها عوضاً عن تقبيلها، وقد فعل ذلك لوقت طويل، وكان الحضور مندهشين برؤية المنظر غير الاعتيادي للأسقف والرضيع وهما مسرورين برفقة بعضهما، وأعطى الأسقف الطفل تفاحة وعدة أشياء أخرى يحبها الأطفال بالعادة، لكنه رفض ابداء السرور بها، وبدا أنه

مستغرق ومنـدهش بالأسقـف، ودفع بشدة يدي الممـرضة التي كـانت تمسكه، وحـدق بشدة نحـو الأسقف وصفـق بيديـه وهو يبتسـم طوال الوقت.

وعندما أبعـد أخيراً، عبرت الجماعة عن دهشتها تجاه هـذا المشهد غير الاعتيادي، وأعلنت أنها لم تشهد قط مخلوقاً صغيراً بهذا الحجم يعبرّ عن مثل هذا السرور العظيم.

وعندما كان هيوج في دير فيكامب Fecamp . الواسع الشهرة حصـل بالعـض على قطعتين صغيرتين من عظـم ذراع مريـم المجدليـة، الأعظم قداسة بين محبي المسيح، ولم ير أحـد هذا العظم قط وهو معرى مما لفّ به، سواء في ذلك راعي الدير أو الرهبان الذين كانوا حضوراً في تلك المنـاسبة، لأنـه كان محاطاً بـإحكام بثلاث قطـع أقمشة، اثنتـان من الحرير وواحدة من الكتان العادي.

وهم لم يتجـرأوا حتى على الموافقـة على توسـلات الأسقف لـرؤيته، ومهما يكن الحال، أخـذ الأسقف سكيناً مـن واحد مـن الموثقين، وقطع بها بسرعة الخيط وكشـف اللفائف، وبعدما تفحص العظـم بكل تبجيل وقبله بكل تقديس حاول بلا نجـاح كسره بأصابعه، وعندها عضه أولاً بقواطعه وأخيراً بأضراسه، وبهذه الطـريقة اقتطع قطعتين صغيرتين منه، وناولهما على الفـور إلى الموثق قائلاً له: «اعتـن بهاتين القطعتين من أجلي عناية خاصة».

وعندما رأى راعـي الدير والرهبـان ماحدث، أصيبوا أولاً بـالرعب، ثم استبد بهم غضب شديد، وصرخوا قائلين:

«ماهـذا الاثم العظيم، لقـد اعتقدنـا أن الأسقف طلب أن يـرى هذا الأثر المقدس والمبجـل لأسباب تعبدية، فغـرس أسنانه به وقضمـه كأنه كلـب»! وسكّـن غضبهـم بكلمات ملطفـة، وجزء مـن كـلامـه جـديـر

بالتسجيل، من ذلك قوله:

«إذا كنت قمت منذ وقت وجيز مضى بحمل الجسد الأعظم قداسة، جسد مولى جميع القديسين، بأصابعي، وذلك على الرغم من عدم جدارتي، وعندما تركته لمسته بشفتاي وأسناني، فلماذا يتوجب عليّ ألا أغامر في أن أعامل بالطريقة نفسها عظام القديسين من أجل حمايتي، فبهذه الذكرى منهم تضاعف احترامي لهم وتبجيلي، وحصلت بدون تدنيس عليهم عندما توفرت الفرصة لي»؟.

سنة سبع وثمانين ومائة وألف

في سنة ١١٨٧، كما أوضح ديسيتو كان الملكان الانكليزي والفرنسي يستعدان مرة جديدة للحرب.

وفيما مملكته تتمتع بمنح السلام، عبر الملك هنري القنال من دوفر يوم ١٧ شباط، ومضى من خلال فلاندرز، ومكث في قلعة اسمها هيسدن Hesdin ودخل بعد ثلاثة أيام إلى نورماندي إلى درينكورت Drincourt.

وولدت كونستانس كونتسة بريتاني، التي كانت حاملاً وقت موت زوجها غيوفري ابن ملك انكلترا، ولداً ذكراً سماه البريتانيون آرثر.

وبينما كان ملكا فرنسا وانكلترا يحشدان الجيوش في بورغز Bourges ويعبئان قواتهما ويسلحانها من أجل الحرب، عقدا هدنة في تشاتورو Chateauroux يوم ٢٣حزيران لمدة سنتين، وقد دفع كلّ منهما إلى الآخر تعويضات عن الأضرار، وذلك بدلاً من اخضاع

المسائل لحكم رب الحرب المشكوك به.

وولدت مرغريت ملكة فرنسا للملك فيليب ولداً ذكراً؟ أطلقت عليه اسم لويس.

وكتب فرسان الداوية الرسالة التالية إلى المسيحيين:

«يالـلأسف، مـامن رسائل أو صـوت نائح يمكنـه أن يصف، أو أن يعدد المصـائب التي أنزلها علينـا غضب الرب، نتيجة لإثـارته بذنـوبنا، فلقـد حشد الأتـراك جيشاً كبيراً مـن شعبهم وغـزوا المملكة المسيحيـة، وحشدنـا نحن قواتنـا، وزحفنا في يومـي ٣و٤تموز وقاتلناهـم، وتحركنا باتجاه طبريـة التي استـولوا عليها بـالقوة، وذلك بـاستثناء القلعـة فقط، ولقد ساقونا ناكثين نحو شعب جبلي مرعب جداً، وهزمنا هزيمة شنعاء حتـى أن صليب الصلبـوت تـم الاستيلاء عليـه، وقتـل ملك القـدس، وكذلـك مقدمنا، ومعهما جميـع جيشنا تقريبـاً واخواننا، ونحـن على هذا نعتقد أن مائتين وثلاثين رجلاً قطعت رقابهم في ذلك اليوم، وذلك دون أن نذكر الستين الذيـن قتلوا في الأول من أيار، وكان كونـت طرابلس، واللورد أرناط صاحب صيدا، واللورد بالين (أوف ابلين) ونحن أنفسنا قد نجونـا من ذلك المعترك المأساوي، بكـل صعوبة، ووصلنا مـن هناك ونحن ممرغون بالدم المسيحي.

وقـد ذهبوا ومعهـم جيشهـم كله إلى عكـا، ثـم استـولوا على مجمـل المنطقة تقريباً، مبقين القدس وعسقلان وصـور في أيدينا، وقد قتل جميع سكان هذه الأمـاكن في المعركة، ومالم تصلنـا المساعدات الربـانية وعون الناس الشرفاء بكل سرعة، لن نكون قادرين على الصمود في وجوههم، وصور محاصرة حصاراً شديداً في هذه اللحظـة، وهم يقاتلونها باستمرار ليلاً ونهاراً، وهم في أعداد عظيمة إلى حـد أن جميع المنطقة من صور إلى القدس نزولاً إلى غزة، تبدو وكأنها عش نمل».

وحمل رتشارد كونت بواتو، وابـن هنري الثاني، والأول بين بارونات فرنسا، الصليب وتناوله من يد رئيس أساقفة تور، وذلك دون أن يسأل أباه، أو ينتظر حتى يسمع رغباته.

سنة ثمان وثمانين ومائة وألف

التقى في ٢٢كـانون الثاني ملكـا الفرنسيين والانكليز للتـداول، وبعد نقاش طويل، كان الملـك الانكليزي الأول في تناول الصليب من رئيسي أسـاقفة صـور وروان، وبعد ذلـك تنـاول الملك الفـرنسي الصليب مـن رئيسي أساقفة صـور ورايمس، ثم أخذه فيليب أوف فـلاندرز، والتحق به أيضاً عـدد كبير، واتفقوا فيما بينهم على أن يرتدي الفرنسيـون صلباناً حمراء، والانكليـز صلبانـاً بيضـاء، والـذين هـم مـن فـلاندرز صلبـانـاً خضراء، وبعدما حمل الملـك الانكليزي الصليب أرسل محاسـب بلاطه، ورتشـارد بـاري Barre رئيـس شمامسة ليـزو Lisieux إلى امبراطوري روما والقسطنطينية.

وفي هذه الآونة قتل غيوفري أوف لوزغنان Lusignan صديقاً لرتشارد كونت بواتو في كمين نصبـه له، وحمل الكونت رتشارد السلاح لانـزال العقوبـة بمقترفي هـذه الجريمة، وقـام وهو يتـذكـر أنه قـد حمل الصليـب، بالسماح لمن أراد مـن رجـال غيـوفري حمل الصليـب، بفعـل ذلك، وقتل عدداً كبيراً وجعلهم طعمـة للسيف، واستولى على عدد كبير مـن القـلاع، وثبـت غيوفـري لاعتماده على القـوة والمال، الـذي —كما قيل— جاءه من الملك الانكليزي، وقـاوم الكونت وتقدم بعض الشيء، ولهذا السبب ابتعد رتشارد كونت أوف بواتـو عن أبيه، ودخل الكونت رتشارد إلى بـلاد غسكوني، وهاجـم كونت طـولوز، وتمكن خـلال مدة

وجيزة من الاستيلاء على سبع عشرة قلعة في منطقة طولوز، لكن بعدما تلقى الدعم من البرابانكونيين، وغضب ملك فرنسا غضباً شديداً لإقدام رتشارد كونت بواتو على الهجوم على مملكته، وفاجأ قلعة تشاتورو Chateauroux في بيري يوم ١٦حزيران وأرغم سكانها على تقديم ولاء التبعية له، وبدا هذا كله غير لائق تماماً بالملك، لاسيما بعدما حمل الصليب، لذلك عبر ملك انكلترا إلى انكلترا، بعدما أودع جميع أراضيه في حفظ ملك فرنسا، الذي تلقى الوصاية بإيمان طيب.

ثم كسب ملك فرنسا إلى جانبه بالوعد والوعيد بعض حفظة القلاع الذين كانوا خاضعين للملك الانكليزي، وعندما سمع الملك هنري بهذا عبر إلى فرنسا في حوالي ٢٥تموز، وحشد جيشاً كبيراً من الانكليز، ومن التخوم، ومن الويلزيين والبريتانيين، غير أنه أبقاهم متوقفين لأيام كثيرة يعيشون في الخيام في نورماندي حتى أصبحوا متشوقين للهجوم على فرنسا.

والتقى أخيراً الملكان، وعقدا مؤتمراً في يوم ١٦آب بين غيسور وتراي، استمر ثلاثة أيام، وعندما انفصل الملكان من الجانبين من دون اتفاق، أمر ملك فرنسا بقطع شجرة قرب غيسور لكن جذرها كان داخل المملكة الفرنسية، وغادر الملك الانكليزي غيسور في اليوم التالي، وجاز خلال فيرنون Vernon وغزا فرنسا، وعاث بالبلاد فساداً حتى مانتي Mantes.

و في يوم ١٨تشرين الثاني عقد اجتماع فيما بين الملكين الانكليزي والفرنسي في بونزمولين Bonsmoulins كان رتشارد كونت بواتو قد أعده، وعندما وصلا إلى المؤتمر للتباحث اقترح الملك الفرنسي أن يرد إلى الملك الانكليزي كلّ شيء استحوذ عليه منذ حمله الصليب، وأن يبقى بعد هذا كلّ شيء على ماكان عليه قبل حمل الصليب، ورد عليه ملك الانكليز، بناء على نصيحة رجال الدين وكذلك البارونات أن من

الأفضل الدخول في سلام ثابت بدلاً من تطويل خصام الطلبات.

وعندما سمع رتشارد بن هنري وكونت بواتو، هذا، تكلم ضده،لأنه بدا لـه من غير المناسـب اعادة كـويرسي Quercy على أساس هذا الشرط، وأيضـاً اعادة جميـع المقـاطعـة وأشياء أخـرى كثيرة في مملكتـه، تساوي ألـف مارك أو أكثر كـلّ سنة، مـن أجل ايجار تشاتـورو، وقلعة ايسودون Issoudun وغراسي، وطلب كونت بـواتو شيئاً آخر، فقد سأل والده أن يعطيه أخت الملك الفـرنسي لتكون زوجة له، وطالـب أن يقـوم الملك هنـري بتأكيـد تملكـه لأراضيه على أسـاس ولي عهد الملـك ووريثـه، وقد طـالب بهذا كلـه مـن خلال الملـك الفرنسي، ورد الملـك الانكليزي أنـه لن يفعل هذا، بسبـب أنه سيبدو مسلوب الحريـة مرغماً، وقام بعد هذا كونت بواتو، على مشهد من الجميع بتقديم الولاء للملك الفرنسي عن كـلّ مايمتلكه والده مما يعود إلى المملكة الفرنسيـة، وذلك باستثناء أراضي أبيـه مادام حياً، والاحتفاظ بـالاخلاص الذي يديـن به لأبيه، وهكذا انتهى المؤتمر، وجرى تمديد الهدنة حتى ١٣كانون الثاني.

سنة تسع وثمانين ومائة وألف

رسالة أخبار من الشرق:

«هُزم جيش صـلاح الدين عند أنطـاكية، وشرع أمير أنطاكية يـركب يوميـاً ويسير بعيداً حتـى حلب، واستـولى أدميرال مرغـريت على يـافا، وقتل جميـع الأتراك الـذين كـانوا هنـاك، وقتل خمسـة آلاف منهم وأسر ثمانية أمـراء، واستولى أيضاً على جبيـل وقتل كـلّ واحد هناك، وهـاجم صاحب مُلا Mulla وهو واحد مـن مقدمي صلاح الـدين، صلاح الديـن، وهذا مافعلـه أيضاً صاحـب ماردين، وقـاتل الخليفة، صـاحب

بغداد، الذي هو رئيس جميع الأتراك، صلاح الدين بقدر ماكان باستطاعته، وإنكم لتعلموا أن سلطان قونية قد زوج ابنته إلى ابن صلاح الدين، وزوج صلاح الدين ابنته إلى ابن السلطان، ومعروف بشكل واسع كيف أن قطز(★) Kuteyez ابن صلاح الدين قتل زوجته، ابنة السلطان، ذلك أنه من المؤكد وبلا أدنى شك، كما يقول الجميع، تحققت نبوءة دانيال القسطنطيني التي قالت:

إنه مع اقتراب حلول يوم الفصح، سيسترد الفرنسيون أرض الميعاد، وسيربطون خيولهم في حدائق نخيل بغداد، وسينصبون خيامهم خلف الشجرة الجافة، وسيفصلون البيقية عن القمح، وأنتم تعلمون بشكل مؤكد أنه قد توفر ممر في البوسفور.

وبات معروفاً بشكل واسع أن السلطان يكره امبراطور القسطنطينية، لأنه لم يدفع له الأربعمائة دينار ذهبي التي توجب عليه دفعها كلّ سنة منذ أن أصبح امبراطوراً، كما أنه لم يدفع له الثلاثمائة دينار الأخرى، وانتبهوا أيها الأخوة لماقاله لنا الامبراطور في إحدى المرات، حتى لاتنخدع العين، وفيما عدا ذلك، يمكنني أن أخبركم أن كثيراً من الترك وقعوا بالأسر عند صور، إلى حد أن اثنين من الترك يمكن بيعهما بقطعة نقدية bezant واحدة، ويقال وضع صلاح الدين في سجنه رسولاً من يوستاس باتريكوس وبالين، الذي اتخذ لنفسه زوجة، زوجة ملك

★ —كذا، ولم يكن بين أولاد صلاح الدين من حمل هذا الاسم، ومن الممكن قراءة هذا الاسم «قطب» وبالفعل كان لصلاح الدين ولد اسمه موسى، ولقبه قطب الدين، ولد بمصر سنة ٥٧٣، أي كان عمره وقت هذه الحادثة حوالي اثنتي عشرة سنة. شفاء القلوب للحنبلي —ط. بغداد ١٩٧٨ص١٩٦.

القدس، عندمـا سلمه كونت طـرابلس أرض الميعاد، وأنتم تعـرفون أن الامبراطور قد أبدى احتراماً نحو رسل صلاح الدين في قصره أعظم مما أبداه نحـو أي واحد آخر كـان هناك من ذوي المنـاصب، وبعدمـا سلم صلاح الديـن جميع كنائس الأرض المقدسة.إلى رسـل الامبراطور، وبناء عليـه من الممكـن أن تـدار وفقاً لعـادات الاغـريـق، وعليكم ألا تثقـوا باغـريقي حتـى لو عـاهدكـم بيده، وإنكـم لتعلمون أن صـلاح الديـن أرسل، بنـاء على موافقـة الامبراطور وثنـه [كذا] إلى القسطنطينيـة ليعبد بشكل علنـي هناك، لكن بنعمة مـن الرب تم الاستيلاء عليـه في البحر من قبل الجنـويين، وقد أخذ مع السفينة إلى صـور، وهناك الآن أنباء أن جيش صلاح الدين قد توقف عند أنطاكية.

ولقد قيـل بأن النبـوءة التي أخبر بها اغـريقي مسـن من أسترالكـس Astralix اللورد وولتر مقدم الداوية، والتـي أغضبت الاغريق سوف تتحقـق الآن، وفيهـا أن الـلاتين سـوف يحكمـون مـدينـة القسطنطينيـة وسيكونون سـادتها، لأنه قد كتب على البـوابة الذهبية التـي لم تفتح منذ مائتي سنـة انقضت، إنه: «عندمـا يأتي الملك صاحـب الشعر الأحمر من الغرب، أنـا سوف أفتح مـن قبل ذاتي»، وجرى تسميـم آسان Asan ذلك الـرجل الطيب، في ثيابـه الامبراطورية، ووعد الامبراطـور صلاح الديـن بتقديـم مائة شينـي، وأعطاه صـلاح الديـن وعداً بجميـع أرض الميعـاد، إذا ماتـولى الامبراطور منـع وصول الملـك الفرنسي، وأخبركـم بصدق أنـه إذا مالمس أي انسان صليـب القسطنطينية سـوف يعتقل على الفور ويلقـى به في السجـن، وإليكم على كـلّ حال نبـوءة فلكي تـركي قالت:

إنـه في ثـلاث سنوات، سـوف يمـوت ثلـث الأتراك بحـد السيـف، وسوف يفـر الثلث الثـاني إلى ماوراء الشجرة الجافـة، أما الثلـث المتبقي فسـوف يعمد، ولهذا نحـن نعـرف أن صلاح الـديـن في الحقيقة لم يعـد

بإمكانه ايجاد أي تركي يرغب في عمارة أرض الميعاد، أو يأخذوا أسرهم إلى هناك خوفاً من وصول الفرنسيين، وفي اليوم الذي غادر فيه حامل هذه الرسالة القسطنطينية، جاء بعض الرسل يقولون إن جيش صلاح الدين قد جرى تدميره عند أنطاكية، وأن أخاه وابنه قد وقعا بالأسر، وفي اليوم الذي غادرت أنا فيه أمر الامبراطور بمحق جميع اللاتين في امبراطوريته، وإنكم لتعلمون أنه بنعمة من الرب يوجد في مملكة قونية خمسة آلاف من الأرمن الجيدين مع خمسة وعشرين أميراً جاهزين للذهاب مع الفرنسيين للدفاع عن المسيحية، ولتحرير الأرض التي ولد فيها مولانا يسوع المسيح، ومات».

وعقدت بعد عيد الفصح المقبل مباحثات بين ملكي فرنسا وانكلترا ورتشارد كونت بواتو، مرتين في لى فيرت برنارد La Ferte Bernard لكن في النهاية، انسحب الطرفان بعد محادثات مطولة بمثابة أعداء.

تمّ وصف الأيام المأساوية الأخيرة من حكم هنري الثاني، ثم موت الملك، بشكل جيد في كتاب «أعمال الملك هنري الثاني».

غادر فيليب ملك فرنسا واستولى على لى فيرت برنارد، وفي يوم الاثنين التالي، عندما بدا أن ملك انكلترا ورجاله قد غدوا على مسافة آمنة من النقطة القصوى لزحف الملك الفرنسي، أعد الملك الفرنسي جيشه وعبأ صفوفه للمعركة بهدف الهجوم على مدينة لامانس، وفعل هذا بعدما رأى مافعله ستيفن صاحب تور والمشرف على أنجو بإلقائه النار في الربض، لكن النار زاد التهابها وبات حجمها هائلاً، فقفزت عبر الأسوار وجعلت المدينة نفسها طعمة للهب، ووقع عدد كبير من رجال جبش الملك الانكليزي بالأسر، أما البقية فقد عجزوا عن الهرب،

وكانـوا يرغبون بالتراجـع إلى المدينة، وتمكن الفـرنسيون من شق طـريق معهـم، ولـدى رؤيـة ملـك انكلترا مـايحدث خـاف كثيراً على جماعتـه، فحنث بوعـوده، وهرب من المدينة مـع سبعين فارساً، ذلك أنـه كان قد وعـد سكـان المدينة أنـه لـن يتخلى عنهـم في وقـت المحنة، ومـرد هـذا بالدرجة الأولى إلى أن والده مدفون هناك، وفي الدرجة الثانية إلى أنه هو نفسه قـد ولد هنـاك، كما أنه أحـب تلك المدينـة أكثر مـن حبه لغيرهـا، وطـارده الملـك الفـرنسي لمسـافـة ثـلاثـة أميـال، ولـولا أن نهر سـارث Sarthe الذي توجب على الفرنسيين عبوره، لم يكن يجري بارتفاع عظيم، لتـولوا مطـاردة الفارين الآخـرين بسرعـة كانـت ستمكنهم، كما تأكد بشكل عام، من أسرهم جميعاً.

وعلى كلّ حال جاء الملك الانكليـزي ومعه حاشية صغيرة إلى شينون Chinon ثم انسحب إلى داخل القلعة التي كـانت هناك، لكن بقية آل بيت الملـك تراجعـت إلى حصن قلعـة لامانـس، وعلى الفور حـاصرها ملك فرنسا وهاجمهـا بآلات حربه ورماياته، وبعد حصـار دام ثلاثة أيام استسلمت القلعة أخيراً مع ثلاثين فارساً وستين رجلاً مسلحاً.

وقـدم في يوم الأحـد التـالي فيليب كـونت فـلانـدرز، ووليم رئيـس أساقفة ريمس وهيوج دوق بيرغندي إلى ملك انكلترا، الذي كان آنذاك في سامور Saumur لقد قدموا بمباردة شخصيـة منهم بدون رضا الملك، للسعـي لإقامة تسويـة بينهما، لكن ملك فـرنسا كان قد أنـذرهـم قبل انطـلاقهم في رحلتهـم، أنه سيقوم رغما عنـه، بالإعـداد لهجوم على المدينة من قلعة سان مارتن، التي كان قد عاد إليها عبر نهر اللوار.

وتمّ يوم الاثنين التالي في الثالث مـن تموز، وعلى حوالي الساعة الثالثة الاستيلاء عنوة على مدينـة تور، وكان الهجوم عليها قد أقلـع به من على ضفـاف نهر اللـوار، وذلـك نتيجـة لانخفـاض مستـوى ميـاه النهـر، —انخفض حجم الماء إلى أدنى المستويات— فأسندت من هناك السلالم

على الأسوار، وكـان في داخل المدينـة ثمانين فارسـاً ومائة رجـل مسلح، فأخذوا جميعهم أسرى، وبات ملـك انكلترا الآن في وضع حرج، لذلك أقام سلاماً مع ملك فرنسا، وفق الصيغة التالية:

«يضع هنري ملك انكلترا نفسـه في جميع الأشياء والامور تحت رأي وارادة فيليب ملك فـرنسا، إلى حد أن كلّ مـاأعده ملك فرنسـا وأمر به سينفذه ملك انكلترا كلياً وبدون اعتراض.

أولاً: قدم ملك انكلترا مجدداً الولاء للملك فـرنسا، بسبب أنه، كما ذكر أعلاه، قد سلـم جميع ممالكه إلى ملك فـرنسا، الذي كافأه في بـداية هذه الهدنة.

ثانيـاً: قرر ملك فـرنسا أن أختـه أليس، التي يحتفـظ بها ملك انكلترا تحت وصايته ستسلم وتـوضع تحت وصاية واحد من خمسـة [بارونات] سوف يختارهم رتشارد صاحب بواتـو، زيادة على هذا تعهد ملك فرنسا أن تمنح أختـه الأمان بيمين رجـال هذه البلاد، لتكـون زوجة للكـونت رتشارد إثـر عودته مـن القدس، ولسـوف يحصل الكونـت رتشارد على تبعيـة رجال أراضي أبيـه في هـذا الجانب مـن القنـال، وفي الذي يليـه، وكذلك مـامن واحد من البـارونات أو الفرسان الـذي سحبوا ولاءهم من ملك انكلترا في الحرب الحاليـة، والتحقوا بجانب الكـونت رتشارد، سـوف يعود في المستقبـل إلى ملك انكلترا، فيما عـدا الشهر الأخير قبـل انطلاقه نحو القدس.

والوقت المحدد لهذه الرحلة سيكون منتصف الصوم، ولسوف يلتقي الملكان المذكوران مع رتشارد كونت بواتو في ذلك التاريخ في فيزلي.

وكـذلك سـوف يحلل جميـع سكـان الممتلكات الملكيـة العائدة لملـك انكلترا في جميـع أراضي الملـك الفـرنسي بمـوجب عـاداتهم القـانـونيـة ولسوف لن يقاضون في أية مسألة مالم تكن جناية اقترفوها.

وقد دفن في فـونتيفرولت Fontevrault في دير الراهبـــات اللائي يعبدن الرب هناك.

ومدد في اليوم الذي تلا وفاتـه، عندما حمل إلى الدفن، في وضع ارتدى فيه مـلابسه ببهاء ملكي، وقد وضـع التاج الذهبي على رأسه، وفي يـديه قفازين، وخاتم ذهبي على اصبعـه، ممسكاً الصولجان بيده، مرتـدياً حذاء مزركشـاً بالـذهب، وهناك مهمازين على قدميـه، متمنطقاً بسيفـه، ووجهه غير مغطى، وعندمـا روي هذا لابنه الكـونت رتشارد جـاء مهرولاً بأقصى سرعة ليستقبل الموكب، ولـدى وصولـه أخذ الدم يتـدفق من أنف الملك المتوفى، وكأن روحـه تحركت سخطاً، وتبع الكـونت المذكور مـوكب جسد والده وهو يبكي وينتحب، حتى وصل إلى فونتيفرولت، حيث دفن.

القسم الرابع

رتشارد الأول

١١٨٩-١١٩٩

شارك رتشارد قلب الأسد والده في بعض قدراته الادارية، لكن ماتميز به هو القتال، فلقد شن الحرب بشدة ووحشية وحماسة طوال معظم مدة حكمه، حيث حوّل ممالكه من خلال نشاطاته إلى حالة القرب من الافلاس، وحمله هوسه إلى الأراضي المقدسة في ١١٩١-١١٩٢، في حملة صليبية كانت من بعض الجوانب ناجحة، غير أنها انتهت بشكل مأساوي، ووقع بالأسر وهو في طريق عودته إلى انكلترا، وبقي معتقلاً ينتظر الفدية، في سجن ألماني في ١١٩٣-١١٩٤، وما أن عاد إلى موطنه، حتى رجع رتشارد إلى ساحة المعركة، وفي هذه المرة ضد زميله في الحملة الصليبية فيليب الثاني ملك فرنسا، وواجه رتشارد منيته المبكرة سنة ١١٩٩، أثناء مناوشة صغيرة مع حليف لفيليب كونت أكوتين.

ونبعت عداوة الملك الفرنسي نحو رتشارد من سبب رفض قلب الأسد الزواج من أخته أليس، وذلك على الرغم من خطبته لها منذ سن الطفولة، هذا من جانب، ومن جانب آخر لزواج رتشارد من بيرنغاريا النافارية، هذا ولم ينجب هذا الزواج لرتشارد ولياً للعهد، وأعطى هذا إلى أخيه جون مساحة واسعة لخطط تآمرية.

ونجد من جديد في الجزء الرابع أن كتاب «صورة التاريخ» لرالف

ديسيتو، هو المصدر الرئيسي لهذه المرحلة التي وصف بها حوادث حكم رتشارد.

بعدما رتب رتشارد كونت بواتو المسائل على أحسن مايرام لضمان السلام والهدوء في أكوتين، وانجو، وتورين، ومين، وصل إلى نورماندي، وجاء وصوله بعد ثلاثة أسابيع من وفاة والده، في ٦ تموز ١١٨٩، والتقى بكل من رئيسي أساقفة كانتربري وروان في سيز Seez وسأل العفو، وتلقى الغفران لاقترافه جريمة حمل السلاح ضد والده، بعد حمله شارة الصليب للقيام بحملة صليبية، ومن هناك ذهب إلى روان حيث تسلم علم وسيف دوقية نورماندي من يدي رئيس أساقفة روان، وحدث ذلك أمام المذبح المرتفع في كنيسة العذراء المقدسة، وكان على مشهد من حشد من النبلاء.

ثم ذهب إلى انكلترا، واستقبل هناك استقبالاً عظيماً في ونشستر يوم ١٥آب، وأسند إلى الملكة إليانور التي كانت تحت حراسة مشددة، سلطة العمل كنائبة لابنها، وفي الحقيقة أصدر التعليمات إلى أمراء المملكة، على شكل مرسوم عام، بأن كلمة الملكة ينبغي أن تكون قانوناً في جميع المسائل.

وبما أن رتشارد كان قد قاوم والده، وبذل كما يبدو الكثير من الجهد لإثارة القوى الفرنسية التي كانت معادية للنورمان، لهذا كسب عدم رضا الناس الطيبين والعاقلين، وقد أراد الآن —على كلّ حال— أن يغسل جميع تجاوزاته الماضية، باظهار التشريف لأمه، وكان يأمل أن طاعته لأمه سوف تسهم في تلطيف أعماله العدوانية ضد أبيه.

وأظهرت هذه الحوادث صدق النبوءة التي حيرت الجميع بغموضها حيث قالت: «سوف يفرح النسر صاحب الرباط المقطوع بفرخه الثالث»،

فلقـد دعـوا الملكـة النسر، لأنها مدت جنـاحيهـا —كما حـدث— فـوق مملكتين هما: فـرنسـا وانكلترا، فقد انفصلـت عـن الـرباط الفـرنسي مـن خـلال الطـلاق، بينما فصلها الانكليـزي وأبعـدهـا عـن فراش الـزوجيـة بحبسها بـالسجن (لقـد سجنت سـت عشرة سنة تمامـاً)، وهكذا كـانت بالنسبة للبلدين «النسر صاحب الـرباط المقطوع»، ومن الممكن فهم الجزء الثاني مـن النبوءة قـولها: «سوفَ يفرح بفـرخه الثـالث» كما يلي: لقـد كان أول أولاد إليانـور هو ابنهـا وليم، الـذي توفي وهـو مايـزال طفلاً، وارتقـى ابنها الثاني إلى مرتبـة ملك، غير أنه حمل السلاح ضد والده، وسـدد ديونه إلى الطبيعة، وكان رتشارد هو ولدها الثـالث، وهو على هذا الفرخ الثالث، وهو أيضاً الذي سيتولى رفع اسم أمه إلى أعالي المجد.

وعندما علمت الملكـة إليانور أن خيول الملك هنري الثـاني محفوظة في اصطبـلات الـديـرة، وزعتهـم ومنحتهم على شكـل أعمال كـرم تقـويـة، واحتفظت بخـدمات الرجـال الذين عهد إليهـم بأمر العنـاية بالغـابات، وهددتهم بانزال عقوبات قاسية بهم.

وبناء على دعوة من رئيـس أساقفة كانتربري اجتمع الأسـاقفة الآخرون في لندن يـوم ٣-أيلول من أجـل تتويج الملـك الجديد، وجاء أيضـاً رعاة الـديـرة ورؤساؤهـا، وحضرت الملكـة إليـانـور بناء على طلـب الإيـرلات والبـارونات، وكبـار المسـؤولين، هذا ومـن غير الممكـن تعداد أسماء جميع الأساقفـة الذيـن حضروا، لكن رؤسـاء أساقفـة كانتربـري وتريـف ودبلن كانوا هناك.

قدم كتـاب «أعمال الملك رتشـارد» تفاصيـل حية ومشرقـة وصف بها تتويج رتشارد.

هنا بداية احتفال تتويج ملك انكلترا:

جاء أولاً الأساقفة ورعـاة الديرة وعدد كبير من رجال الـدين، كلهم قد

ارتدى ثياباً أرجوانيـة، تتقدمهم الصلبان، والشمـوع والمباخر حتـى باب القاعة الـداخلية، وهناك استقبلوا رتشـارد المتقدم الذكر، وهـو الذي كان سيتوج، وقادوه إلى داخل كنيسة وستمنستر على هـذه الصورة حتى المذبح في موكب وقور تتخلله التراتيل.

وسار في المقدمـة رجال الدين، في الملابس البيضـاء، وهم يحملون الماء المقـدس، والصليب والشمـوع والمبـاخر، ثـم تـلاهم رعـاة الـديرة، ومـن بعـدهم الأسـاقفـة، وسـار على أي حال وسـط هـؤلاء النـاس أربعة مـن البارونات يحملون الشمعدان بالشموع.

وجـاء بعدهـم جـون مارشـال وهو يحمـل في يـديه مهمازيـن واسعين وثقيلين أخرجـا من خزانـة الملك، ومضى بعـده غودفري دي لـوسي وهو يحمل الصدرية الملكية.

وجاء من بعدهم اثنان من الإيرلات هما: وليم مارشال، إيرل بامبروك، ووليـم إيرل سـالسبري، وكـان وليم مـارشـال يحمـل الصولجان الملكـي، الذي كـان على رأسه شكـل صليب ذهبـي، وكان وليـم إيرل سـالسبري يحمل العصا الملكية التي كان على رأسها حمامة.

وجاء من بعدهـم ثلاثة من الإيرلات هم: داود أخـو ملك اسكوتلندا، وإيرل هنتغدون، وروبـرت إيرل ليستر، وبينهما جون كونـت مورتين وإيرل غلوستر، وهـو أخو رتشارد، وكانـوا يحملون ثلاثـة سيوف مع أقربـة ذهبية رائعة أخرجت من خزانة الملك.

وجاء بعدهم ستة إيرلات وبارونـات يحملون لوحاً واحداً وضعت عليه الأردية الملكية والثياب. وقدم من بعدهم وليـم دي ماندفيل كونت أوميل وإيرل ايسكس، وهو يحمل تاجاً ذهبيـاً بين يديه، وجاء بعده رتشارد دوق نورمانـدي وكونت بواتو، وسـار عن يمينه هيوج أسقـف درم، وعن يساره رينالد أسقف باث Bath وحمل من فوقهم غطاء ذهبي، وسار إثرهـم

ـمهور الإيـرلات والبارونات والفـرسان مع الآخريـن بأكملهم، مـن رجال ـديـن وغير رجال ديـن، وتـابعوا سيرهـم في داخـل الكنيسـة ومن خـلالها وصولاً حتى المذبح.

وبعـدما وصـل الـدوق رتشارد إلى المذبـح أدى ثـلاثة أيمان لمن تقـدم ذكره من رؤساء الأساقفة والأساقفـة، والإيرلات، والبارونات ورجال الدين وسواهـم من الشعـب، لقد أقسـم ووعد على الأنـاجيل الأعظـم قداسـة وعلى الآثـار المقـدسـة لعـدد كبير من القـديسين أنـه سيحمـل في نفسـه ـسلام، والتشريف والاحترام نحـو الرب والكنيسة المقدسة ورجـال الدين ـها جميع أيام حيـاته، ثم أقسم بعد هذا أنه سيطبق العـدالة الطيبة نحو ـشعب الموكـل إليه حكمه، ثـم أقسم أنـه إذا كان في مملكته أيـة قوانين ـسدة أو عادات سوف يدمرها، ويعلي شأن ماهو جيد مكانها.

ثم نـزعوا عنه ثيابـه التي كان يـرتديها باستثناء قميصـه، وسراويله، ولم يكن قميصه مخاطاً عند كتفيه.

ثم ألبسوه نعلين حيكا من الذهب.

ثم وضع رئيـس الأساقفة الصولجان في يده اليمنـى والعصا الملكية في ـده اليسرى.

ثم صـب بلدوين رئيس أسـاقفة كانتربـري الزيت المقدس فـوقه على ثـلاثـة أجـزاء مـن جسده، هـي: على رأسـه، وعلى كتفيـه، وعلى ذراعـه الأيمن، وذلك مع الصلاة المحددة لهذا العمل، وهكذا عمّده ملكاً.

ثم وضع على رأسه غطاء مقدساً مـن الكتان وقلنسوة فوقه، ثم ألبسوه الثياب الملكية، أولاً المئزر ثم القميص.

ثم أسند إليه رئيـس الأساقفة السيف ليردع به الذيـن يقترفون إثماً ضد الكنيسة.

ثم ألبسه الإيرلان مهمازين ذهبيين من خزانة الملك.

ثم لبس الرداء، وبعدها اقتيد إلى المذبح، وهنا حذره رئيس الأساقفة ومنعه بوساطة سلطات الرب، أنه كرجل لايجوز له استخدام مكانته لنفسه، مالم يكن قد دار في خلده عدم الاحتفاظ بأيمانه ووعوده التي اتخذها قبل قليل، وقد أجاب أنه بعون الرب، سيراعي كلّ شيء قاله من قبل ويعلي شأنه باخلاص وإيمان.

ثم أخذ التاج من على المذبح، وأعطاه إلى رئيس الأساقفة، ووضعه رئيس الأساقفة على رأس الملك.

واقتيد إثر هذا الملك إلى عرشه، وعلى يمينه هيوج أسقف درم، وعلى يساره رينالد أسقف باث وهما يقودانه، وكانت الشموع والسيوف الثلاثة المذكورة من قبل تسير أمامه.

ثم بدأ القداس الرباني، وعندما وصل إلى التقدمة، قاده الأسقفان المتقدم ذكرهما نحو مذبح التقدمة ثم أعاداه إلى العرش.

وبعد انتهاء القداس، وبعدما جرى تنفيذ كلّ شيء طبقاً للطقوس، قاد الأسقفان المتقدم ذكرهما، الملك المتوج عائدين أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره، وهو يحمل الصولجان في يده اليمنى والعصا الملكية في اليسرى، وساروا بشكل منتظم من الكنيسة إلى منزله في موكب، ثم عاد الموكب إلى جوقة المرتلين.

ثم وضع الملك جانباً تاجه، وثيابه الملكية، وارتدى تاجاً ألطف وثياباً أخف، وبهذه الصورة جاء الرجل المتوج إلى الوليمة، وجلس رؤساء الأساقفة والأساقفة ورعاة الديرة وبقية رجال الدين معه إلى مائدته الخاصة، وجلس الإيرلات والبارونات والفرسان إلى موائد أخرى واحتفلوا بشكل رائع.

وبعد الفراغ من الـوليمة، وصل قادة اليهود، معانديـن لمرسوم كان قد صدر عـن الملك، ففي اليوم المتقـدم كان الملك قـد منع بوساطـة إعلان عـام قـدوم أي يهودي أو يهوديـة لحضـور تتـويجه، وألقـى رجـال البـلاط القبض على اليهود، ونزعـوا عنهم ملابسهم وتولوا ضربهم، وبعـدما أنزلوا أقسى الضربـات بهم رموهم خارج البـلاط الملكي، فقتل بعضهـم، وترك بعضهم الآخـر يذهبـون وهم نصف مـوتى، وكان أحـد هؤلاء اليهـود قد جرح جـراحة شـديدة مما تعرض لـه من ضرب وجلـد، وجعلته جـراحه يائساً مـن حياته، ولرعبه وخـوفه من الموت تقبل التعميـد على يدي وليم رئيس كنيسـة القديسـة ماري في يـورك، وأعطي اسماً مسيحيـاً هو وليـم، وبهذه الطريقة تجنب خطر الموت وأيدي معذبيه.

وعلى كلّ حال سمع شعـب مدينة لندن بأن رجال البـلاط قد تصرفوا بقسوة ضـد اليهود، فانعطفـوا بدورهم ضـد يهود المدينة فسلبوهـم وقتلوا كثيراً منهم مـن كلا الجنسين، وألقـوا النيران في بيوتهم وحـولوهـا إلى رماد وجمر يحترق، ومع هذا نجـا عدد قليل من اليهود من هـذه المذبحة، حيث اختبأوا خلف أسوار قلعة لندن، أو تخفوا في بيوت أصدقائهم.

وسمع الملك في اليوم التـالي بأخبار الحادثة، فأمر بـاعتقال بعض هؤلاء المجرمين، وأحضرهـم إلى أمامه، ثم صـدر بحقهم حكم المحكمـة، الذي قضى بشنق ثـلاثة منهم على المشنقة: واحد منهم لأنـه استولى على أشياء من واحـد من المسيحيين، والاثنين الآخرين بسبـب أنهما أشعلا النيران في المدينة، التي تسببت في إحراق عدد من بيوت المسيحيين، ثم بعث الملك وراء ذلك الـرجل الذي جرى تحويلـه من اليهودية إلى المسيحيـة، وجلب معه الـذين حضروا وشاهدوا تعميـده، وسأله الملك فيما إذا كـان الآن قد أصبح مسيحياً، وأجابه الرجل بـأنه لم يصبح مسيحياً، ولكن بما أنه رغب في تجنب الموت سمح للمسيحيين أن يفعلـوا به مارغبوه، ثـم سأل الملك رئيـس أسـاقفـة كـانتربـري والعـدد الكبير الآخـر مـن رؤسـاء الأسـاقفـة

والأساقفة الذين كانوا حضوراً، ماالذي سيفعل معه، ورد عليه رئيس الأساقفة بشكل غير واضح وأدنى مما توجب عليه أن يظهر قائلاً: «إذا كان هو نفسه لايرغب أن يكون من رجال الرب، دعه فليكن رجلاً من رجال الشيطان»، وهكذا عاد الرجل الذي جعل مسيحياً إلى شريعة اليهود(٢١).

وتلقى الملك في اليوم التالي ولاء تبعية رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة والإيرلات والبارونات من جميع أرجاء بلاده.

وأوضح ديسيتو الترتيبات التي نفذها رتشارد في مملكته الانكليزية.

ورغب رتشارد ملك انكلترا في أن يبدأ حكمه بتقديم منحة إلى الرب، تعطى إلى رهبان السسترشيان كلّ سنة، وقدرها مائة مارك تؤخذ من مختلف ممتلكاته وتوزع على دخولهم، وكان أول عمل قام به كملك هو ارساله رسالة تحمل خاتمه لإيصال قراره هذا.

وبناء على تعليمات الملك ورئيس الأساقفة، جرى عقد مجلس في بايبول Pipewell يوم ١٥ أيلول، للنظر في مسألة التعيينات للكراسي المقدسة الشاغرة، وهكذا جرى تعيين رتشارد أسقف أوف إيلاي Ely خازن الملك، أسقفاً للندن، وصار وليم لونغ شامب مستشار الملك، أسقفاً لإيلاي.

وكان عميد وكهنة لندن قد عبروا القنال، بناء على تعليمات من هنري الثاني، وذلك بهدف مشاركتهم في انتخاب الأساقفة، وتسلموا لدى عودتهم إلى انكلترا أربعين ماركاً من الخزانة لتغطية نفقاتهم.

وكمحاولة يائسة أخيرة للصمود في وجه توغل جيش صلاح الدين، ألقى غي لوزغنان، ملك القدس، الحصار على عكا، التي استولى عليها

المسلمون وكانت بحوزتهم منذ ١١٨٧، ونقل ديسيتو رسالة الأخبار هذه التي أرسلت إلى البابا والتي أوضحت كيف نجحت أخيراً حركة الملك الجريئة هذه:

«شرع ملك القدس، وفرسان الداوية وفرسان الاسبتارية، ورئيس أساقفة بيزا، وعدد كبير من رجال بيزا في حصار عكا في يوم ٢٨آب، وذلك على الرغم من عدم رضا كونراد مركيز مونتفرات ورئيس أساقفة رافينا وعدد كبير آخر من المسيحيين الذين عارضوا بآرائهم هذه الخطة، ولدى وصولهم إلى هناك حاصروا المدينة بقوة جبارة إلى حد أن أياً من المسلمين لم يعد بإمكانه الدخول إلى المدينة أو الخروج منها، وفي اليوم الثالث وصل صلاح الدين على رأس جيش عظيم، وهاجم غيوفري لوزغنان أخي الملك ومعه فرسان الاسبتارية، وأرغمهم على الانسحاب مع صفوف قتالهم، وهكذا فتح الطريق للذين رغبوا في دخول البلدة، أو مغادرتها، وأصيب المسيحيون منا برعب شديد، ولذلك تراجعوا نحو الخلف على الفور، وانسحبوا إلى إحدى الروابي المرتفعة التي وجدت هناك، غير أنهم لم يستطيعوا النجاة من صلاح الدين، الذي حاصرهم ومعه مائة ألف فارس، وعسكر قرب سفح ذلك الجبل، ولدى رؤية ملك القدس نفسه أنه بات محاصراً، بعث برسل إلى صور إلى المركيز ورئيس الأساقفة والفرسان الآخرين الذين كانوا مضادين لخطته، ورجاهم عدم توجيه اللوم إليه، لقلة خبرته، كما كان، بل طلب منهم القدوم لتقديم العون إليه في وضعه المحرج، وانزعج مركيز مونتفرات انزعاجاً كبيراً لرؤيته المسيحيين في مآزقهم الصعبة، فاجتاز بحراً من صور وقدم إلى مساعدتهم مع رئيس الأساقفة وألف من الفرسان وعشرين ألفاً من الجنود الرجالة، وفي يوم ٢٤أيلول، امتلأ صلاح الدين بالخوف أمام التطورات التي تلت وصولهم وتراجع قدر ميل واحد بصعوده الجبل.

وفي يوم ٤ تشرين أول اشتبكنا بمعركة مع المسلمين، فقد قاد الملك فرسان الاسبتارية مع الفرسان الفرنسيين في صف قتال واحد، وقاد المركيز الصف القتالي الثاني مع رئيس أساقفة روان، ونحن أيضاً كنا معهم، وقاد اللاندغريف Landgrave الصف الثالث مع البيزيين والألمان، وكان في الصف الرابع أخو الملك، ومكث جيمس أوف أفسن Avesnes في المعسكر، وكنا جميعاً أربعة آلاف فارس ومائة ألف من الجنود الرجالة، هذا وامتلك عدونا صلاح الدين مائة ألف فارس، ومع هذا لقد كنا مسلحين بشارة الصليب المقدس، وعندما اشتبكنا بالقتال في الساعة الثالثة من النهار، آثر الرب جانبنا، فهربوا أمام سيوفنا وطاردناهم نحن حتى خيمهم نفسها، وتعرض الصف السابع من صفوف المسلمين إلى خسائر كبيرة على أيدي مهاجمينا النشطاء، ولقد قتلنا بلدوين [كذا] ابن صلاح الدين مع أخيه[ابن] تقي الدين الذي أصيب بجراحة قاتلة ومن المؤكد موته الآن أيضاً، ولقد تدبرنا قتل خمسمائة من فرسان صلاح الدين، وكان هذا أكثر بكثير مما تأملناه، وفيما نحن مشتبكين مع صلاح الدين في القتال، غادر خمسة آلاف فارس المدينة وقاموا بهجوم مفاجىء علينا، وعندما رأى صلاح الدين أحلافه تقاتلنا، استخدم طاقاته وقواه ضدنا، ومع هذا ظللنا قادرين على الوقوف ضد صلاح الدين من أحد الجوانب وقاومناه مقاومة شجاعة من الجانب الآخر، وذلك قبل أن نتراجع إلى معسكرنا، ومهما كان الحال لقد قتل في ذلك اليوم مقدم فرسان الداوية مع عدد كبير جداً من رجالنا».

[وبعث ملك فرنسا إلى ملك انكلترا بالرسالة التالية]:

«من فيليب ملك فرنسا بنعمة الرب، تحيات وحب مخلص إلى أخيه الملك، والرجل المخلص، رتشارد ملك انكلترا.

ستعلم بسرور أن جهودنا في سبيل تقديم العون إلى مدينة القدس تتقدم تقدماً جيداً، ونطلب من الرب بصلوات متتابعة أن يظهر مثوبته

لأعمالنا الإيمانية في أرض القدس، ولقد فهمنا من كلماتك، ومن المعلومات التي جلبها للتو رسلك في أنك ترغب وتنوي السفر إلى القدس، وبعثنا إليكم بوساطة هؤلاء الرسل بموافقتنا على رغباتك وعلى خططك نحو هذه القضية، ولسوف نؤكد هذا من خلال رسائلنا بشكل رسمي واضح، ولسوف يهتم رسلنا بقضية سلامتك في هذه المسألة وسيسلمون إليك رسائل موافقتنا الرسمية.

وجرى تنفيذ هذه الأعمال في شهر تشرين الأول من سنة ألف ومائة وتسع وثمانين من سني ربنا»(٢٢).

وجاء جون أوف آناغني Anagni كاردينال القديس مرقص إلى انكلترا كنائب للكرسي المقدس، وقد رسا في دوفر في ٢٠ تشرين الثاني، وأصدرت الملكة إليانور في اليوم التالي تعليمات بوجوب عدم سفره أية مسافة أخرى بعد وصوله إلى انكلترا من دون معرفة الملك، وهكذا أمضى ثلاثة عشر يوماً مملة في دوفر على حساب رئيس الأساقفة.

وجاء الملك وليم ملك اسكوتلندا إلى كانتربري، يرافقه في رحلته رئيس أساقفة يورك وأسقف لنكولن، وقدم الولاء إلى الملك، ولاقى رعاية منه، ودفع له عشرة آلاف مارك لتحرير جميع ممتلكاته الاقطاعية، وثمن ولاء رجاله الذين ربطوا أنفسهم بملكنا وأعادوا هذا الولاء الآن إلى الملك وليم.

وقدم الكونت جون كونت مورتين وأخو الملك التماساً هاماً بحضور الملك، ونائب البابا والأساقفة، وتشكى أنه بعدما تقدم بطلب استئناف إلى البابا، قام الأسقف بوضع الحرمان على جميع أراضيه لأنه تزوج من ابنة وليم ايرل غلوستر، وعندما سمع النائب البابوي جون أوف آناغني هذا، استجاب للاستئناف وحرر أراضيه من الحرمان.

وكان رتشارد ملك انكلترا سيتفوق على جميع أسلافه بحكم امتلاكه

لثروة هـائلة، لـو أن المبالـغ الموعودةدفعـت خلال الأشهـر الأربعة الأولى للحكم الجديد، وتأكدت بضمانات مساوية لدخله حتى في السنة التالية.

وبعدما نـاقش عدداً من المسـائل المتعلقة بأوضاع المملكـة مع بعض المسـؤولين في دوفر(٢٣)، عبر القنـال في ١٤ كـانـون الأول، ونزل في اليـوم نفسه على مقربة من غريفلايتز Gravelines.

وفي هذه الآونة، تـوفي وليم ملك صقلية، وصهـر ملك انكلترا، دون أن يخلف وريثاً مباشراً، وخلفه تانكرد قريبه القريب.

عندما جرى الاقلاع بالحملـة الصليبية، جرى فرض ضريبة عشور على جميـع البضـائع المنقـولـة في أرجـاء انكلترا كلهـا، وذلـك بهدف ارسـال المسـاعدات إلى القـدس، وجـرى تحصيل الضريبـة بعنـف بلغ حـداً أن رجال الـدين والعلمانيين أصيبوا بـالرعـب أن المساعدة تستخـدم كمجرد حجاب للسلب.

[وصدر عن الملكين الإعلان التالي]:

«يبعث فيليب ملك فرنسا بنعمـة الرب، ورتشارد ملك انكلترا بالنعمة نفسها، ودوق نـورماندي وأكـوتين وكونت انجو، بتحيـاتهما الرقيقة بـاسم الرب إلى جميع من سيقرأ هذه الرسالة.

ليكن معلـوماً بينكم أننـا وضعنا بكل تأكيـد خطة، صغناهـا بناء على نصيحة رجال الكنيسة والنبلاء في بلادنـا، في أننا سوف نسافر إلى القدس معاً، متخـذين الـرب دليلاً لنا، وقـد وعد كـلّ واحد منـا أن يخدم الآخر باخـلاص جيد وحب، ولسـوف أنظر أنا فيليـب ملك فرنسـا إلى رتشارد ملك انكلترا على أنـه صديقـي ورجل مخلـص، وأنا رتشـارد ملك انكلترا سوف أنظر إلى فيليب ملـك فرنسا، على أنه صديقي ومـولاي، وبناء عليه قررنا أنه يجب على كـلّ الموجودين في بلادنا والذيـن حملوا شارة الصليب المقدس، إما ان يتقدموا بالسفر قبلنـا بأسبوع قبل حلول عيد الفصح، أو

أن يسيروا وسـط جماعتنا، مـالم يحصلوا على إذننـا بالبقـاء، وكلّ مـن أراد البقاء وراءنـا من دون علمنا وإذننا، سـوف نحرمه، وسوف يفـرض رجال الدين لدينا الحرمان على أراضيه، إن خطتنـا، ورغبتنا ومانوصي به، هو أن يقوم جميع النبـلاء في بلادنا —إذا ماامتلكـوا الوسائل— بدعـم بعضهم بعضاً بثرواتهم، وعلى كـلّ حال إن ممتلكات الذيـن سيرتحلون إلى القدس سواء معنـا أو قبل اقلاعنا بحملتنـا، سوف تبقى سليمـة دونما أذى كما لو أنها ممتلكـاتنا، وإذا مـا آذى أحد مـن النـاس منافـع هؤلاء الأشخـاص سوف يقوم قضاتنا مع مأموري التنفيـذ باتخاذ مايلزم من إجراءات ضده، وذلك في حـدود مايسمـح به القانـون، وتماشياً مـع عادات بـلادنا، وإذا ماحاول أي انسـان إثارة حرب ضد بـلادنا أو أي جزء منها أثنـاء غيابنا، وخرق العـدالة، سينـال الحرمان، وإذا لم يقم خـلال أربعين يومـاً بتدارك مااقترفـه من أضرار، نعلن أنـه وورثته سـوف يحرمون من ميراثهـم بشكل أبدي.

جرى إعداد هذه الترتيبات يوم ٣٠كانون الأول في نونانكورت».

وعلى كلّ حـال لم يكن مـن الممكن تأكيـد هذه المعـاهدة بين الملكين على الفور، لهذا قالوا:

بما أن اليوم الذي كتبت فيه كان يوم سبـت، لذلك أجلت حتى العيد المقبل للقـديس يـوحنا المعمـدان، يوم الأحـد ٢٤حزيـران، عندمـا شرعا بالحملة الصليبية، وفي ذلك اليوم نفسه توفيـت مرغريت ملكة فرنسا أثناء الولادة في باريـس، ودفنت في كنيسة نوتردام العظيمة، وكـانت أول ملكة من ملكات فرنسا تدفن هناك.

سنة تسعين ومائة وألف

وقرر عدد كبير ممن كانوا يستعدون للالتحاق بالحملة الصليبية إلى القدس في جميع أرجاء انكلترا أن عليهم أولاً النهوض ضد اليهود قبل محاربة المسلمين، وهكذا حدث في نورولك يوم ٦ شباط قتل جميع اليهود الذين وجدوا في بيوتهم، وفي ٧آذار قتل عدد كبير منهم في ستامفورد في أحد الأسواق، وقيل تمّ في يورك يوم ١٦آذار قتل حوالي الخمسين، وتولى كثير منهم جراحة بعضهم بعضاً، ذلك أنهم فضلوا لقاء الموت على أيدي أناس من شعبهم على الموت على أيدي غير المختونين، وقيل في ١٨نيسان، يوم أحد السعف، جرى قتل خمسين منهم في بري سانت إدموند، ولقد ذبح اليهود من قبل الصليبيين أينما وجدوا، مالم يتدبر انقاذهم بعض المواطنين —البرجاسية Burgesses — وعلى كل حال، ينبغي ألا يخامر الشك أو الاعتقاد أحد أن أي رجل عاقل قد فرح بالعمل الجريء والمخيف بقتل اليهود، لأنه كتب في مزامير داود ماسمعناه يردد أمامنا مراراً: «لاتقتلوهم».

وفي هذه الآونة، عندما حوصرت عكا للمرة الأولى، نذر رجل انكليزي اسمه وليم، وكان شماس رالف أوف ديسيتو عميد كنيسة القديس بولص، وهو ذاهب إلى القدس: أنه إذا ماوصل سالماً إلى ميناء عكا، سوف يتولى تأسيس بيعة هناك بقدر ماتسمح له موارده، وأن يكرسها على اسم الشهيد المقدس توماس بكت، ولسوف يتخذ هناك مقبرة تشريفاً له، وقد تحقق له ماأراد، وجاء عدد كبير من الناس من جميع الجهات إلى تلك البيعة، وجرى باتفاق عام تسمية وليم رئيساً لها، وبما أنه كان فارساً مكرساً للمسيح فقد اعتنى عناية خاصة بالفقراء، وعمل جاهداً جداً لدفن أجساد الموتى، من الذين قتلوا بالسيف أو الذين ماتوا على فراشهم، وكان هناك مقبرة أخرى دعيت باسم المشفى الألماني، وثالثة

أقدم مـن البقية حملت اسمهـا من القديـس نيكولاس، وفيها جـرى دفن مائة ألف وأربعة وثلاثين ألفاً من الرجال في سنة واحدة.

وفي رحلتهـا إلى روما، آثـرت الملكـة إليانـور، أم الملـك رتشارد، عـدم ركوب البحر، خشية من مخاطـرة، وسافرت عبر جبل جنيفر Genevre وسهول ايطاليا.

وكتب «البابا كليمنت إلى وليم أسقف إيلاي: تحيات.

طبقاً للرغبات المعلنـة والطلب المفيد لولدنا العـزيز في الرب، رتشارد، الملك الـلامع للانكليـز، نسند إليك، بموجـب السلطات الرسـولية، أيها الأخ، مـركز القـاصـد الرسـولي في انكلترا وويلز، وفي كـلّ مـن مقاطعتـي كانتربـري ويورك، وفي مناطـق ايرلندا، حيـث جون كونـت أوف مورتين، أخو الملك، يمارس حكمه وسلطانه.

صدر في اللاتيران في ٧تموز، في السنة الثالثة لحبريتنا».

وكتب «رتشارد ملك الانكليز إلى جميع رجاله المخلصين. تحيات:

نحـن نقضي ونأمـر، إنـه بقـدر ماأنتـم مخلصـون لنـا وتحبون أنفسكـم وممتلكاتكم، عليكم إطـاعة مستشارنا العزيز والمخلص أسقف إيلاي في جميـع أعمالنا، وأن تعملـوا له مثلما تعملـون لنا أنفسنـا في جميع المسـائل الذي يصدر إليكـم تعلميات حولها. شهدت أنـا نفسي في بيوني Bay-onne ٦حزيران».

واتفق ملكا انكلترا وفرنسا على الالتقـاء في فيزلي في حوالي ٢٤حزيران، ليذهبـا إلى القدس، وانطلق ملك فـرنسا نحو جنوى وملـك انكلترا نحو مرسيليا.

وأقلع الملك رتشـارد من مرسيليا يوم ٩آب ١١٩٠، وبعـد مرورهم بين أمـواج البحر المالـح وصلـوا إلى ميناء رومـا، وجـرى استقبـالهم من قبـل

أسقف أوستيا مع رسل كثيرين من عند البابا، ورفض الملك دعوة البابا لزيارته، وذهب إلى الجنوب عبر كابوا Capua.

ووصل رتشارد الأول وفيليب الثاني صاحب فرنسا إلى صقلية في أيلول ١١٩٠، وقررا إمضاء الشتاء هناك، وسمع رتشارد في أثناء إقامته شيئاً حول نبوءة ورؤيا جوشيم أوف فيور Joochim of Fiore وطلب أن يسمع النبوءة بنفسه، ويصف صاحب كتاب «أعمال الملك رتشارد» الذي قاله جوشيم للملك كما يلي:

كان في تلك الآونة راعي دير سسترشياني في كالبريا Calabria اسمه جوشيم راعي دير كورازو corazzo امتلأ بروح التنبؤ، وكان يعظ الناس حول المستقبل، وأصغى الملك الانكليزي بانشراح إلى هذه النبوءات، وإلى حكمته وعقيدته، وكان جوشيم واسع المعرفة بالكتب المقدسة، وتولى تفسير رؤيا يوحنا اللاهوتي المبارك التي وردت في سفر الرؤيا، وكأنه كتب هذا السفر بيده، وكان الملك مسروراً ومعه كثير من الناس لدى سماعهم إياه وهو يفسر النص التالي:

«وظهرت آية عظيمة في السماء، امرأة متسربلة بالشمس والقمر تحت رجليها، وعلى رأسها اكليل من اثني عشر كوكباً. وهي حبلى تصرخ متمخضة ومتوجعة لتلد. وظهرت آية أخرى في السماء، هوذا تنين عظيم أحمر له سبعة رؤوس وعشرة قرون، وعلى رؤوسه سبعة تيجان، وذنبه يجر ثلث نجوم السماء فطرحها إلى الأرض، والتنين وقف أمام المرأة العتيدة أن تلد حتى يبتلع ولدها متى ولدت. فولدت ابناً ذكراً عتيداً أن يرعى جميع الأمم بعصا من حديد، واختطف ولدها إلى الله وإلى عرشه. والمرأة هربت إلى البرية حيث لها موضع معدّ من الله لكي يعولوها هناك ألفاً ومئتين وستين يوماً» [الرؤيا: ١٢/ ١-٦].

وجرى تفسير الرؤيا من قبل جوشيم راعي دير كورازو حسب الطريقة التالية:

«المرأة المتسربلة بالشمس والقمر تحت رجليها»: في هذا اشارة إلى الكنيسة المقدسة، وهي متسربلة بشمس العدالة، التي مولاها المسيح، وهي التي تحت رجليها العالم، وكلّ خرق ورغبات شهوانية، تقمع دوماً. «وعلى رأسها إكليل من اثني عشر كوكباً»: رأس الكنيسة هو المسيح، والإكليل هم المخلصون للكنيسة. «وهي حبلى تصرخ متمخضة ومتوجعة لتلد». في هذا اشارة إلى أن الكنيسة المقدسة دوماً مسرورة نحو ميلاد جديد، فمن خلال الصلب أنقذت النفوس بوساطة عمل الرب. «وظهرت آية أخرى في السماء، هوذا تنين عظيم أحمر له سبعة رؤوس وعشرة قرون»: في هذا اشارة إلى الشيطان، الذي يمكن أن يقال حقاً عنه أن لديه سبعة رؤوس، ورأس الشيطان كله إثم، ويعادل سبعة، وكأن نهاية محدودة يمكن وضعها على اللامحدود، لأن رأس الشيطان هو اللامحدود، ذلك أن المعادين للكنيسة والآثمين محدودين بالعدد.

وعدد جوشيم سبعة من الأعداء الرئيسيين للكنيسة، هم حسب عرضه: هيرود، ونيرون، وقسطنطينوس، ومحمد (صلى الله عليه وسلم)، وملسيموتوس، وصلاح الدين، والمسيح الدجال. وعن هؤلاء قال اللاهوتي المبارك في الأبوغرافيا: «إنهم سبعة ملوك، خمسة منهم ماتوا، وواحد مازال موجوداً، والآخر سيأتي»، وفسر جوشيم هذا وأوضح أن الملوك السبعة هم أصحاب الأسماء السبعة المسماة أعلاه، الذين خمسة منهم أموات وهم: هيرود، ونيرون، وقسطنطينوس، ومحمد (صلى الله عليه وسلم)، وملسيموتوس، والحي من السبعة هو صلاح الدين، الذي هو في هذه الآونة عدو كنيسة الرب، فهو الذي وضع مدينة القدس تحت نير العبودية، مع مكان دفن الرب، والأرض التي وقفت عليها قدما الرب، ولقد قال: إنه بالقريب العاجل سيفقد مملكة القدس، ولسوف يقتل،

وينمحق من خلال نزعاته الجشعة، وستكون هناك مذبحة هائلة لم ير مثلها منذ بداية الخليقة، ولسوف يتشتت السكان المسلمون، وستفرغ مدنهم منهم، وسيعود المسيحيون وقتها إلى رعاية الرب وسيسكنون في هذه المدن».

وتوجه الراعي نحو رتشارد فقال:

«لقد أباح الرب هذا كله، ومن خلالك سيحدث أنه سوف يمنحك النصر على أعدائك، وسيمجد اسمك في الأبدية، وأنت سوف تمجده، وفيك سوف يمجد إذا ما حفظت العمل الذي بدأ، وسيظهر قريباً الواحد الذي هو المسيح الدجال»، وقال الراعي: «إنه قد اكتشف أن المسيح الدجال قد ولد، وأن خمس عشرة سنة قد مضت على ولادته، لكن لم يكتمل بلوغه وقوته بعد».

وبعدما أبدى عدد كبير دهشتهم تجاه الأشياء التي سمعوها، قال الملك للراعي: «أين ولد المسيح الدجال، وأين سيحكم؟» وأجابه جوشيم أنه يعتقد «أن المسيح الدجال قد ولد في مدينة روما، وسيستحوذ على الكرسي الرسولي هناك».

وأجابه الملك قائلاً: «إذا كان المسيح الدجال قد ولد في روما وسيستحوذ على الكرسي الرسولي، أعتقد أنه لابد وأن يكون هو كلمنت الذي هو الآن البابا»، وقد قال هذا لأنه كان يكره البابا، وقال الملك أكثر من هذا، لقد زاد قائلاً: «لقد اعتقدت أن المسيح الدجال كان سيلد في بابل أو في أنطاكية من أصول من دان، وأنه سوف يحكم في هيكل الرب». وعندما قدم راعي دير كورازو الشرح المتقدم بشأن قدوم المسيح الدجال، بذل عدد كبير من الناس، بما فيهم جميع رجال الدين الذين أجادوا معرفة الكتب المقدسة، غاية جهدهم للبرهنة على أنه كان مخطئاً.

سنة إحدى وتسعين ومائة وألف

وفي تلك الآونة كان رتشارد وفيليب يتشاجران فيما بينهما ويورطان نفسيهما في السياسات المحلية.

في يوم الجمعة الأول من آذار سنة ١١٩١ ذهب رتشارد، الملك الانكليزي، إلى مدينة مسينا ليتحدث مع تانكرد ملك صقلية، وكان هذا بناء على نصيحة من فيليب ملك فرنسا، وفي اليوم الثالث التالي قدم الملك الانكليزي إلى مدينة كاتانيا Catania حيث الجسد المقدس لأغاثا Agatha المقدسة، التي هي عذراء وقديسة.

وعندما سمع تانكرد ملك صقلية أنباء قدوم رتشارد، خرج إلى استقباله وسار نحواً من خمسة أميال خارج المدينة لتلقيه، وعندما رآه عن بعد، وقبل أن يجتمعا بالفعل، ترجلا وركض كلّ واحد منهما نحو الآخر، وبادرا إلى التعانق بين بعضهما مع التحيات والقبلات، ثم امتطيا فرسيهما ودخلا إلى المدينة، ورحب بهما رجال الدين والشعب بالتراتيل والأغاني التي أنشدت في مديح الرب، وقد صليا أمام قبر أغاثا المباركة، ثم دخل الملك رتشارد إلى قصر الملك تانكرد ومكث معه ثلاثة أيام في وضع موائم.

وفي اليوم الرابع منح ملك صقلية ملك انكلترا عدداً كبيراً من الأواني المصنوعة من الذهب والفضة، وأهداه خيولاً وملابس ثمينة، لكن ملك انكلترا لم يرغب في قبول أي شيء، فيما عدا خاتم صغير، اختاره ليكون دليلاً على عواطفهما المتبادلة بود، وعلى كلّ حال أعطى الملك الانكليزي تانكرد سيف آرثر المشهور، الذي كان فيما تقدم ملك البريطانيين، والذي دعاه البريطانيون إكسكاليبور Excalibur وأعطاه تانكرد أيضاً أربع

سفن كبيرة وخمس عشرة شيني.

وعندما عاد رتشارد، شيعه تانكرد شخصيـاً لمسافة يومين خلال تورمينا Taormina ، ثـم عنـدمـا كـان مستعداً للمغـادرة قـال لـه الملـك تانكـرد: «أستطيع الآن أن أعتقـد وأبرهـن أن ما أخبرنيـه الملك الفـرنسي عنك في رسـائله، صدر بـالحري عن غيرة وليـس عن حب لي، ذلـك أنه أخبرني أنك لن تتعاون معي لابصـدق ولابسلام، وأن الاتفاق الذي عقد فيما بيننا سيخرق، وأنك لن تقدم إلى هذه المملكة إلا مع العنف ضدي».

ورد ملك انكلترا على هـذا بحزم، ولم يفصـح في كلماته عما أضمـره في قلبه قائلاً: «السوء لمقترفي الشرور، أنا لايمكننـي أن أصدق أن هذا يصدر عنه، لأنه مولاي ورفيقي المربوط بالقسم خلال هذا الحج».

ورد الملك تانكـرد على هذا قائلاً: «إنك لابد وستصدق أننـي ماقلت إلاّ صدقاً، لأنني سأريك الرسائل التي بعثها الملك الفرنسي إليّ».

وعندمـا استلم الملك الانكليـزي الرسائل من يـد الملك تانكـرد، جاء الملك الفرنسي إلى تورمينا ليتحدث مع الملك تانكرد.

هذا من جهة ومن جهة ثانيـة عاد الملك الانكليزي إلى مسينا، ومكث الملك الفـرنسي ليلة واحدة في تورمينـا، ثم عاد في اليوم التـالي إلى مسينا، وغضب الملك الانكليـزي غضباً عظيماً منه، وبات لايرغب في مصـاهرته أو إقامـة سلام معه، بـل استهدف الحصول على فـرصة ليبتعد مـن هناك مع رجاله، ثـم بحث الملك الفرنسي عندها بحثاً حثيثـاً ليعلم ماالقضية، وأخبر الملك الانكليزي الملك الفرنسي بالذي قـاله له ملك صقلية، وجاء ذلك مـن خلال وسـاطة فيليب كـونت فـلاندرز وآخريـن من أصـدقائه ومعـارفه، وأطلـع الملك الفـرنسي على الرسـائل التي تسلمهـا من الملـك تانكرد كبرهـان، وعندما سمع الملـك الفرنسي بهذا التزم الصمت، عـارفاً نفسـه أنه كـان مجرمـاً، ولم يعرف كيـف يجيب، لكـن بعـدما استرد وعيـه

وثاب إلى رشده أعلن قائلاً:

«إن هذه الكلمات زائفة وقد اخترعت حديثاً، ذلك أنني أعتقد، وأنا متأكد من ذلك، أنه يبحث عن مسوغ يمكنه من اتهامي، فمن الممكن من خلال هذا الزيف أن يرفض الزواج من أختي، التي أقسم على الزواج منها».

وعلى هذا رد الملك الانكليزي قائلاً: «إنني لاأمقت أختك، لكنني لن أتخذها زوجة لي لأن أبي قد عرفها، وله ولد منها»، ووقف الملك رتشارد متصلباً ضد الملك الفرنسي، وبعد كثير من الأخذ والرد، حلل الملك الانكليزي من خطوبته لأخته أليس، وتسلم كجزء من الاتفاقية عشرة آلاف مارك من ملك انكلترا لصالحها، وعند عودة الملك الفرنسي إلى فرنسا ستعيد إليه أخته غيسور كلها، وجميع الأشياء الأخرى التي قررها لها كحصة زواج.

وعندها أعطى الملك الفرنسي إلى الملك الانكليزي براءة وترخيصاً في أن يتزوج من رغب بالزواج منها، وقدم تنازلاً آخر في أن يكون دوق بريتاني تابعاً مع وريثه لبريتاني، للملك الانكليزي بشكل أبدي، وهكذا ينبغي أن يغدو ملك انكلترا مع ورثائه المسؤولين عن هذه الاقطاعية أمام الملك الفرنسي وورثته.

وغدا في ذلك اليوم كلّ من ملك انكلترا وملك فرنسا أصدقاء، وأكدا بإخلاص وأيمان اتفاقيتهما، ولقد أكداها أيضاً كتابة تحت ختميهما.

أما وقد تحلل رتشارد من يمينه نحو أليس بات الآن حراً ليتزوج من بيرنغاريا النافارية، وروى لنا ديسيتو أن إليانور الأكوتانية قد جلبتها إلى صقلية.

بعدما أمضت الملكة إليانور مع ابنها أربعة أيام في مسينا، عادت إلى انكلترا، وخلفت وراءها بيرنغاريا ابنة ملك نافار، التي كان رتشارد

سيتزوج منها (٢٤)، وفي يوم ١٠ نيسان أبحر الملك رتشارد مع جيشه على ظهر أسطول تألف من مائة وست وخمسين سفينة، وأربع وعشرين بارجة نقل، وتسع وثلاثين شيني، وأخذ معه أخته جوانا وكذلك بيرنغاريا، وأبحر ملك فرنسا من مسينا يوم ٢٩ آذار.

وبعد رحلة دامت حوالي العشرين يوماً وصل الملك رتشارد إلى جزيرة رودس، ومكث خمسة أيام في البلدة، ثم بعد رحلة خمسة أيام أخرى رسا في جزيرة قبرص في مكان يدعى ليماسول، وذهب كورساك [اسحق دوكاس كومينوس] سيد تلك البلاد، الذي دعا نفسه بـ«الامبراطور» على رأس قوة كبيرة ليحول بها دون نزول ملك انكلترا، وسبب الكثير من الأضرار إلى رجال الملك، فنهب الذين كانت سفنهم قد تحطمت، وألقى بهم في السجن ليموتوا من الجوع، وغضب الملك رتشارد وسخط لهذا، وبادر لينتقم لهذه الأضرار، وحارب الأعداء وربح منهم نصراً سريعاً، واستبقى الرجل المهزوم في الأغلال، وأسر ابنته الوحيدة، وأخضع جميع قبرص مع قلاعها كلها، وعقد كورساك صفقة مع الملك قضت ألا يبقيه الملك بالأصفاد الحديدية، وجرى تنفيذ ذلك، فاستبدل الأغلال الحديدية بأغلال من فضة ووضع في سجن في قلعة قرب طرابلس تدعى المرقب، وجرى الاحتفاظ بابنة كورساك في سجن لائق مع الملكتين في السرادق الملكي.

وكان في الوقت نفسه غي أوف لوزغنان ملك القدس وجيشه ينتظر خارج عكا وصول المساعدة، كما شرح لنا ديسيتو فيما يلي:

«إلى المولى المبجل والأب في المسيح رتشارد أسقف لندن، وإلى هيوبرت بالنعمة نفسها أسقف سالسبري، التحيات باستمرار والصداقة الخالصة.

يقاوم مدينة عكا بشدة هجماتنا، ولانستطيع الاستيلاء عليها لأنها

مزودة بشكل جيد بالرجال، ومدافع عنها بآلات الحرب، وصلاح الدين على الجانب الآخر منا قد طوقنا، ويأمل المسيحيون أن يكونوا قادرين على تحمل الأعباء والمصاعب والآلام الناتجة عن الحصار حتى وصول ملوكنا، أي أن يكونوا في حوالي عيد الفصح المقبل، لكن إذا تأخروا أكثر لن نكون قادرين على تحمل الاستمرار، ووقتها سوف يتلاشى أملنا في الدعم. هكذا تسير الأمور بالنسبة لحصار عكا».

ونزل الملك الفرنسي في عكا في عيد الفصح، يوم السبت ٢٠ نيسان ١١٩١، والذي حققه الجيش المسيحي وحصل عليه من الهجوم على المدينة لمدة سبعة أسابيع، هو ماسيتم عرضه الآن وهو ماعرفناه وتذكرناه.

أقلع الملك رتشارد من قبرص ومعه ثلاث عشرة سفينة كبيرة تدعى بوكاس buccas في كلّ واحدة منها ثلاثة أشرعة، ومائة سفينة نقل وخمسين شيني كلّ منها ذات ثلاثة صفوف من المجدفين، وفيما هو مبحر فوق البحر العميق الواسع لمح أشرعة سفينة كبيرة جهزها سيف الدين صاحب مصر وهو أخو صلاح الدين، وأنفق عليها كثيراً، فهي قد جاءت لمساعدة المسلمين المحاصرين في عكا، وكانت مشحونة بالأطعمة والأسلحة الصالحة لكل نوع من أنواع القتال، والنفوط (النار الإغريقية) وحاويات فيها مواد متفجرة، وقد قيل بلغ عدد البحارة في هذه السفينة ألفاً وخمسمائة.

وتمّ بسرعة تناول كلّ شيء كان ضرورياً لمعركة بحرية، وطوقت الشواني السفينة الكبيرة التي تضاءلت سرعتها، وبدأ هجوم حاد عليها، ثم قام واحد من المجدفين، مقلداً أحد الطيور الصغيرة الذي يسمى النشال (الغواص) وسبح تحت الأمواج حتى صار تحت السفينة، فخرقها بوساطة مثقب، ولعله في عمله هذا كان قد سمع كيف قام اليعازر في أيام المكابيين فزحف تحت الفيل الذي كانت تدور حوله أعمال القتال العنيفة، وقتله بطعنه في معدته، وقد سحق اليعازر وهو ينفذ عمليته في

سبيل اليهود، ولكن مجدفنا، والمسيح في قلبه، عاد سالماً إلى مركبه، وجلس مجدداً على مقعده، وبعد مضي وقت قصير، أخذت المياه المتسربة إلى السفينة ترتفع فوق ألواحها، وقطعت آمال النجاة بالنسبة للبحارة، الذين كانوا من قبل واثقين من دفاعاتهم، وأمر الملك رتشارد باغراق ألف وثلاثمائة منهم، واحتفظ بمائتين فقط من بينهم، وقد حدث هذا يوم ٦ تموز [اقرأ: حزيران].

وتابع الملك سيره، ومالبث أن وصل إلى الميناء الذي كان قاصداً له، وردد الشاطىء أصوات النفير ودعواته، وزعيق الأبواق، وأنين الشبور المرعب، وقد أثار هذا المسيحيين وحثهم على القتال، وصك بالرعب قلوب المسلمين المحاصرين، وأعلن عن وصول حاكم كبير، فقد دخل الملك رتشارد إلى ميناء عكا يوم ٨حزيران.

ونصب فيليب ملك فرنسا ورتشارد ملك انكلترا آلات حصارهم حول عكا، وسددا رماياتها نحو الأسوار، وعندما بدأت الرمايات تضعف الدفاعات، بدأ المسلمون يشعرون بالخوف ويفقدون الأمل بالقدرة على الاستمرار بالصمود، وبعدما تشاوروا مع المسلمين الآخرين أخذوا يسعون في سبيل السلام، ووافقوا على أن يقوم صلاح الدين بإعادة صليب الصلبوت في يوم حدد ميعاده، وأن يطلق ألفاً وخمسمائة من المسيحيين الأسرى لديه، وبناء عليه استسلمت المدينة إلى الملكين يوم ١٢ تموز بكل ماكان فيها من سلاح، وعتاد ومؤن تعود إلى المسلمين، الذين استسلموا حفاظاً على حيواتهم فقط.

لكن عندما جاء اليوم الموعود، ولم يحافظ صلاح الدين على قسمه من الصفقة، فقد حوالي الألفين وستمائة من المسلمين رؤوسهم انتقاماً لهذا، واستثني من القتل عدد صغير من الأعيان، وضعوا تحت رحمة الملك، وأثقلوا بالأغلال.

وما ان استسلمت المدينة حتى اقترح الملك الفرنسي العودة إلى بلاده، وذلك لانتهاء كلّ شيء الآن، وعندما سمع الملك رتشارد بهذا، عرض على الملك الفرنسي، بحكم كونه مولاه، النصف من كلّ شيء قد جلبه، سواء من ذهب وفضة، ومؤن، وأسلحة، وخيول وسفن، ووعده بتسليم ذلك كله إليه مقابل أية ضمانة يريدها، إنما مقابل أن يبقى، لكن فيليب كان مصراً تمام الاصرار على المغادرة، وعلى الرغم من معارضة رجاله، ومن غضب جميع الجيش المسيحي، صعد ظهر سفينة مع عدد ضئيل من مرافقيه للابحار نحو الوطن.

وبعدما غادر جرى ترميم الثلم الموجودة في سور عكا، وتم تحصين المدينة بالخنادق، ومن أجل أن يعلي شأن القضية المسيحية، وفي سبيل الوفاء بنذره، انطلق الملك رتشارد نحو يافا، وكان معه دوق بيرغندي وبرفقته الفرنسيين الذين كانوا تحت امرته، وكذلك الكونت هنري ورجاله، وعدد كبير آخر من الكونتات والبارونات ومالايحصى عدده من الناس العاديين، وكانت المسافة طويلة من عكا إلى يافا، وبعد جهود كبيرة، وخسائر عظيمة وصل الملك حتى قيسارية غير هياب، وعانى أيضاً صلاح الدين من الخسائر على الطريق نفسه، وتوقف الجيش هناك بعض الوقت حتى يسترد أنفاسه، ثم استأنف بشجاعة زحفه نحو يافا.

وعندما وصلت المقدمة إلى أرسوف، قام صلاح الدين بهجوم مفاجىء على الساقة، لكن برحمة ربانية هزم بوساطة هجوم معاكس قامت به أربع فرق مسيحية، وانهزم هو نفسه لمسافة مرحلة وهو يطارد من قبل الصليبيين الذين أنزلوا بأعيان المسلمين في يوم واحد مذبحة لم يعان صلاح الدين من مثلها في أربعين يوماً.

وفيما يلي رواية شاهد عيان عن معركة أرسوف، كتبها رتشارد كاهن الثالوث المقدس في أولدغيت Aldgate في لندن.

عند بزوغ أول ضـوء يوم ١٧ايلول سلح كـلّ واحد نفسه بعنايـة بكامل سلاحه، وكأن الترك سيتم التصدي لهم الآن.

لقد كـان بإمكـانك أن تـرى أكثر الـرفاق قـدرة، والأعلام مـن مختلف الأنواع، وكثيراً مـن الرنـوك، وكذلـك أكثر النـاس قسوة، وهـم متشوقين، مستنفرين ومستعدين تمام الاستعداد للحرب.

وكان الملـك رتشارد ودوق بيرغندي، مـع كوكبـة مختارة من الفـرسان، وهـم يطـوفـون هنـا وهناك، يـراقبـون كـلّ شيء مـن اليمين إلى اليسـار، ويلاحظون تعبئـة الأتراك وأوضاعهم حتى يستطيعـوا تغيير تعبئة جيشهم بما يجدونه مفيداً، ولاشك أن يقظتهم كانت ضرورية جداً.

والآن، في منتصـف الصباح انقـض علينـا حشـد هائل مـن الأتـراك، يقارب العشرة آلاف، بشكـل مفاجـىء وهجوم مبـاغت، وأطلقـوا نحونـا النشاب ورمونـا بالحراب، وكانوا يصرخون بـأصوات عالية مرعبـة قاسية، واندفـع إثر هؤلاء نحـو الأمام شعب متوحـش، ألوانهم سوداء جـداً، وقد حملوا اسمهـم وأخذوه بشكـل صحيح من اللـون، وبما أنهم كانـوا سوداً، فقـد عرفـوا بـاسم السـودان، وجـاء أيضاً المسلمـون الـذين يعيشـون في الصحراء، ويعرفون بشكـل عام باسم البداة، وكانـوا مرعبين سوداً قاتمين مثل السخـام، وكانـوا رجالـة لايمكن السيطـرة عليهم، سرعتهـم عظيمة وهم شعـب سلاحهم خفيـف يستخدمـون النشاب مع الجعـب والترسة، وكانوا رجالاً ذوي تصميم وشجاعة لايعرفون الانحراف ويخيفون جيشنا.

ومضى أمام الأمـراء نحو الأمام رجال ينفخون بالأبـواق والصور، وكان بعضهم يحملون النفـر، وآخرون الزمور والطبول والدفـوف والصنوج، وكان آخرون يحركون آلاتاً أخرى متنوعـة، وكان كلّ واحد منصرف إلى عمله في اصـدار جعجعـة عاليـة مـرعبـة متنـافرة النغمات، وكـان صراخهـم الحاد وزعقـاتهم الشديـدة قـد بلغت حـداً رددتـه الأرض حتـى بات مـن غير

الممكـن تمييز صفقـات الرعـد عـن صوت البرق، وكـان الهدف من هـذه الأصـوات اثارة الحميـة والشجاعـة، وكـان كلما ارتفعت الأصـوات، كلما تصلبت الروح من أجل القتال.

وهاجـم الأتراك البغضاء جيشنا، وكـانت ساحة المعترك قـرابة الميلين، وكنت لاترى في إطـارها سوى الترك المعتديـن، ثم قام رجالنـا الشجعان ذوي الاقدام، الذيـن حرمت عليهم سمعتهـم الفرار، والذين استهـدفت أرواحهم الجريئـة أن تتوج [بـالشهادة]، بالصمـود أثناء القتـال، وواجهوا العدو وقاتلوه باصرار عظيم وثبات، وناضلوا بشجاعة لاتعرف التقهقر.

وعنـدما رأى الملـك رتشـارد الجيش قـد وقف هـذه الـوقفة واشتبـك بالعـدو، غمز حصانـه، وبسرعة طار الى هناك، ولم يتـوقف عن الـركض، ولم يشد عنـان فرسه حتـى التحق بصفوف الاسبتـارية المقاتلـة ليقدم لها العون ومعـه أتباعـه، واندفـع من اليمين حتـى واجه أكثـر الفرق التركيـة ارعابـاً، وكانت عنـاصرها من الجنود الـرجالة، الـذين رغبوا بـالموت، وقد أدهشتهم حملته، فسقطوا على مقربـة منه من على اليمين والشمال، وهناك كان الملك رتشـارد وحده هائجاً منقضاً على الأتراك، يقـاتلهم ويصرعهم في كـلّ مكان، ولم يكـن هنـاك رجل واحـد كـان بإمكـانـه أن ينجو مـن ضربات سيفه، لأنه حيثما ذهب الملك عمل ممـراً طويلاً وعريضاً، بفضل استخدامـه لسيفه، وتقـدم الملك بدون مقـاومة، وسيفه يشـق له الطـريق وسط الشعب الشريـر، وكأنه يزيـل الأعشاب بمنجله، وخشية أن يـلاقي الأحياء مـالاقته حشود الأمـوات، أفسحوا أمامـه المجال، ولمسافـة نصف ميل تمددت أجساد القتلى الأتراك على وجوهها فوق التراب.

بهذه الدرجة مـن القسوة كان الغضب الذي ثار ضـد الأتراك في ذلك اليوم، وازدادت الضربات المميتة وتضاعفت إلى حد أن الأعداء تخلوا عن مقاومتهم وصراعهم، وأخلـوا الطريق أمام جيشنا الزاحـف، وهكذا تمكن أخيراً جرحـانا من الالتفـاف حول العلم، وتجمعـوا ثانية وانتظمـوا داخل

صفوف القتال، وزحفوا بين الصفوف إلى أرسوف، وهناك نصبوا خيامهم خارج البلدة.

وكان بإمكانك أن ترى في ذلك اليوم، تبعاً لتقارير الذين رأوا الأتراك الفارين، آثار فرارهم خلال الجبال بوساطة الأسلاب التي ألقوا بها، والجمال والخيول وهي ملقاة مبعثرة هناك وهي ميتة، ذلك أن آلافاً منها ومئات سقطت على طول الطريق، وهي محملة بالأثقال.

وعندما كان رتشارد في صقلية أرسل وولتر أوف كاوتنس Cou-tances رئيس أساقفة روان عائداً إلى انكلترا ليراقب الأحداث هناك، ولإعطاء رسالة إلى المستشار لونغ شامب، ولقد تتبع ديسيتو العداء المتزايد بين جون كونت مورتين ووليم لونغ شامب.

وعاد وولتر رئيس أساقفة روان من صقلية إلى انكلترا، ونزل في شورهأم Shoreham يوم ٢٧حزيران، وهو يحمل الرسالة التالية:

«من رتشارد ملك الانكليز إلى مستشاره وليم، وإلى غيوفري فتزبيتر، ووليم مارشال، وهيوج باردولف، ووليم برور، تحيات:

بحكم أننا نحمل حباً عظيماً إلى الأب المبجل وولتر رئيس أساقفة روان، ونثق به ثقة عظيمة، بعثنا به إليكم من أجل سلامة مملكتنا والدفاع عنها، وقد حررناه من حجه بموافقة البابا، لأننا نعرفه حكيماً، ومستقيماً وقادراً، ومخلصاً جداً لأنفسنا، وبناء عليه نأمركم، ونؤكد أمرنا لكم بأن تعملوا وفقاً لآرائه في جميع المسائل المتعلقة بنا، وأن تتبادلوا أنتم وهو الآراء حول جميع المسائل مادام موجوداً في انكلترا ونحن غياب في حجنا، ونأمركم أن تفعلوا مانخبره أن يخبركم إياه حول رئاسة أساقفة كانتربري. شهدت بنفسي. مسينا، ٢٣شباط١١٩١».

وكتب «رتشارد ملك الانكليز إلى وليم مارشال، وغيوفري فتزبيتر، وهيوج باردولف ووليم برور:

إذا لم يعمل مستشارنـا باخلاص وفقاً لآرائكم أنفسكـم وآراء الآخرين الـذيـن عهدنـا إليهـم بشـؤون العنايـة بمملكتنـا، نـأمـركم بتنفيـذ كـلّ مايرضيكم في جميع شؤون مملكتنا، وقلاعنا وممتلكاتنا، بدون نقاش».

وكتـب «وليم لـونغ شـامب، أسقـف إيلاي بنعمـة الرب، إلى عمـدة سسكس:

نأمركم إذا ماوصل أي رئيـس أساقفة منتخب ليورك، أو وصل إلى أي ميناء من موانيء مقاطعتكم، أو وصـل أي واحد من مبعوثيه، أن تحتفظوا به حتـى تتسلموا أمـراً منا، ومثـل هذا نأمـركم بـالتحفظ على أي رسـالة جاءت من البابا أو من أي شخص مهم».

وافق غيـوفري، وهـو ابن غير شرعـي لهنري الثـاني، ورئيس أسـاقفة يورك المنتخب، على البقاء خارج انكلترا لمدة ثـلاث سنوات، أثناء غياب رتشارد الأول في حملته الصليبية، غير أنه خرق هذا الوعد.

بينما كان رئيـس أساقفة يورك مسـافراً إلى انكلترا، نزل في مينـاء يحمل اسم دوفـر، يوم ١٤ أيلـول. وعند نـزوله هنـاك، قامـت أخت وليـم لونـغ شامـب، أسقف إيـلاي، التي كـانت تحرس القلعـة هناك، بنـاء على أمر أخيها —حسبما قيـل واعتقد— بعمل شرير وهـو حصار رئيس الأسـاقفة وكهنته بوساطـة حشد من الرجال من المسلحين، لمدة ستـة أيام في رئاسة دير القـديس مارتين، وقـد ضيقوا عليه إلى حـد توجب عليـه الاستجداء لإعطائه الطعام بينما كـان هناك، وعندما تطـورت المضايقة والخيانـة نحو الأسوأ، جـاء فارسان من فـرسان أسقف إيلاي، وهما: أوبـري أوف مارني Auberey of Marney والاسكنـدر بيونتـل Puintel وهما مسلحـان، واقتحما الكنيسة السـالفة الـذكر بسيـوف مشهورة في أيـديهما، واندفعا نحو رئيس الأساقفـة، وأمراه بحزم أن يغادر المملكة دونما تأخير أو

تردد، وأن يـذهب إلى فلانـدرز مع رجالـه، وعندمـا رفض جروه بقـدميه، وبرجليه وبذراعيـه من المذبح على طول الطريق الطينيـة وخلال الأماكن القذرة، وهو لابس لقلنسـوته وحامل لصليبه، ولقد قـرع رأسه بعنف فوق الرصيـف، ومعه كهنته ورجـال دين تقاطروا وتجمعـوا لرؤيته، وجـاءوا من أجـزاء كثيرة، وفي يوم ١٨ايلـول اقتيـد إلى القلعـة، وألقي بـالسجـن لمدة ثمانية أيام.

وعندمـا سمع بهذا رتشـارد أسقف لنـدن، عمل وسيطـاً بين الفرقـاء، وبادر مسرعاً بقدر ما أوتي من قوة إلى المستشـار وليم لونغ شامب، وحصل منه بعد كثير من المنـاقشات على أمر باطلاق سراح رئيس الأسـاقفة فقط، والاحتفاظ بجميـع كهنته رهينـة، وغادر رئيـس أساقفـة يورك السجـن في ٢٦ايلول، فبادر مسرعـاً يسير عبر الطريق الطيني وخلال الأمـاكن القذرة، حيث كـان قد جـرّ، وهو لابـس لثيابـه الكهنوتيـه، وواضع قلنسـوته على رأسه وبيـده الصليب، حتى وصـل إلى دير القديـس مارتن، وهنـاك قدم الشكر للرب وإلى القـديس مارتن، وقـد استقبل بترحاب عظيم مـن قبل النـاس الذيـن تقـاطروا مـن جميـع الاتجاهات، وعنـدمـا وصل إلى لنـدن استقبل رئيس الأسـاقفة بموكب مهيب عنـد كاتدرائية القديـس بولص، وكـان ذلك يـوم ٢تشرين أول، وأظهـر رتشـارد أسقف لنـدن نحوه جميـع أنواع اللطف الذي كان بإمكانه أن يبديه مع الرعاية والانفاق عليه وعلى أتباعه.

هـزت معاملـة وليم لـونغ شـامـب لغيوفـري رئيس أسـاقفة يـورك، الكنيسة الانكليزية، وبهذا هيأت مسرحاً خصباً لتـآمر الكونت جون ضد المستشار، حيث كتب إليه يقول:

«من جون كونت مورتين إلى رتشارد أسقف لندن. تحيات.

بها أنـك تحب مجد الـرب ومجد الكنيسـة، ومجد الملـك ومجد المملكـة ومجدي، كـن موجـوداً على الجسر عبر لنـدن يـوم ٥ تشرين أول، بين ردنـغ ووندسـور، لأنني —بإرادة الـرب— سوف ألقـاك هناك، لنتباحـث حول بعض القضايا الهامة والجادة التي تتعلق بالملك وبالمملكة».

في الحقيقة أعطـى تحديد يوم الأحد مـوعداً للمناقشة إلى عـدد كبير من النـاس الشعـور أن شيئـاً تعيسـاً سيصدر عنـه، وذلـك لاعتقـاد كثير مـن الناس، أن اليمين الذي يؤدى يوم السبت نادراً مايكون فعالاً.

وهكذا أعطى المستشـار الذي كانت قلعة وندسـور تحت حكمه، عذراً بعدم القـدوم هو: أن كثافة الغـابة، وضيق الممرات، والأعـداد الكبيرة من الفرسان والرجالة والخيالة الـذين اجتمعوا للكونت جون —أخو الملك— من جميع المنـاطق، والذين هم جاهـزون للقتال، وكذلك الخطط التـآمرية لهنري دي فير Vere الذي أسهم هو نفسه بحرمـانه من ميراثه، وأيضاً المسافة المعتبرة التـي تفصل الجسر المذكور عن القلعة، ولهذا جـرى تأجيل الاجتماع حتى يوم الاثنين.

وفي منتصـف يوم الأحـد، صعد رئيسـا أساقفـة روان ويورك المنبر مـع عدد من الأساقفة كانوا قـد التقوا في ردنغ حتى يكونوا حضوراً في المؤتمر، وما ان أشعلت الشموع حتـى قاموا بتأثيم جميع الذيـن أشاروا بالرأي، أو سـاعدوا، أو أمـروا بـأن يجر رئيس أسـاقفة يـورك مـن الكنيسة ويتعـرض للاذلال ويلقـى به في السجن، وقـرروا حرمـانهم، وذكروا بالاسـم: أوبري أوف مارني والاسكندر بيونتل. وفي يـوم الاثنين، اقترح الكونت جون، بغية إزالة جميـع الشبهات الخيانيـة، أن يذهب إلى مكـان آمن قرب ونـدسور، وذلك استجـابة لما طلبـه المستشار، مقترحـاً بالمقـابل كـلّ نوع مـن أنواع الضمانات من خلال أسقف لندن، وفي اليوم نفسه، وبما أنه قرر البقاء في ستين Staines نهض رجال حـاشية جـون في الصباح، وانـــدفعوا يدورون حول المنطقة، متوقعين هجوماً في كلّ شيء وحركة.

وعندما سمـع المستشار بهذا، فرّ من أمـام وجه الكونت، الـذي اعتقد أنه يتبع أثـره بحنق عظيم، وتصرف تصرف انسان مرعوب، فـابتعد بنفسه ونأى بها —ولاأريـد أن أقول هرب— حتـى وصل إلى قلعة لنـدن، ومعه سلاحه وأثقالـه وحاشيته وأهل بيته، ووضع خيولـه في الطابق الأرضي من القلعـة، وفي قاعـة الطعـام القديمـة، وأعدّ نفسـه للحصـار، الذي كـان وشيكاً، حسبما اعتقد.

وبعـدما سمـع الكونـت بالـذي فعلـه المستشار، جـاء أيضاً وأقـام في لندن، ومعه رتشارد فتزرينر، وروجر دي بلين Planes رئيس هية قضاء جميـع أراضي الكونت جون، وكـان مصاباً بجـراحة بالغة مـن قبل واحد اسمـه رالف بـوتشامـب Beauchamp كان المستشـــار قد جعله فارسـاً، وقد توفي يوم ٧تشرين الأول، وفي اليوم التـالي، وحتى يبدد العداوة بينـه شخصياً وبين المستشـار، اجتمع الكـونت جـون مع رؤسـاء الأساقفة، والأسـاقفة والإيرلات في دير القـديس بولص في لنـدن، وقرعت النواقيس التي استخدمت بالعادة لجمع الناس معاً، وبعدما عقد الجميع نقاشاً طويلاً معاً، أقسم الكونت جون يمين الولاء للملك رتشارد.

وعقـد يوم الخميـس ١٠ تشرين أول مـؤتمر في الجزء الشرقـي من قلعـة لندن، وكان الحضور:

رتشـارد كـونـت مـورتين، والمستشـار ورؤسـار الأسـاقفـة، والأسـاقفـة والإيـرلات والبارونـات، وتقرر بـالاجماع وجـوب إعادة جميـع القلاع التـي منحها المستشار برغبة منه إلى أقـربائه وأسند حكمها إليهم، وعلى الأخص قلعـة لندن، ووعـد المستشار بـأيمان مقدسـة أنه سيفعـل ذلك، وستبقـى القلاع الثلاثة التي تسلمها مـن يد الملك رتشارد، وهي: دوفر، وكمبردج، وهيرفورد في ويلز في يد المستشار وتحت حكمه، مـا ان يتم تسليم الرهائن التي أعطاهـا الشحن، الذين عينهـم المستشار هناك، ويتم تقـديم هنري وأوسبرت أخـوي المستشـار وماثيـو الحاجـب كـرهـائن حتى يتـم تسليـم

القلاع، وكان المستشار أقسم أنه لن يغادر المملكة حتى تكون القلاع قد أعيدت، وفي يوم السبت ١٢ تشرين أول ذهب المستشار إلى دوفر، يقوده غلبرت أسقف روشستر، وهنري أوف كورنهل Cornhill عمدة كنت.

وفي يوم الخميس التالي وضع المستشار وليم لونغ شامب عليه ثياب امرأة، لكن بما أنه لم يكن قادراً على تغيير طريقة مشيه، أخفق في عدم اظهار ذاته أنه رجل وليس امرأة، ولهذا عرفه البحارة الذين تأملوا في وجهه، واعتقل وحمل بعيداً، وتخلص بصعوبة من وضعه كامرأة، وبقي في السجن، حتى جرى اتخاذ قرار عام من قبل هيئة قضاء المملكة المقيمة في لندن، وأعطي بموجب ذلك حريته بالذهاب إلى حيث أراد، وتلقى على كلّ حال انذاراً وأوامر بأن ينفذ ماكان أقسم أن يفعله في الاجتماع الذي عقد قرب قلعة لندن، وأقلع المستشار يوم ٢٩ تشرين أول نحو نورماندي، ونزل في ميناء لي تربورت Le Treport.

واعتاد طفل من أطفال حاشية أسقف لندن التمتع باللعب بالطيور، وكان يدرب صقره، لكنه وجد أن تدريب بطة صغيرة (حذف) أسهل، وكان عندما ينقر على آلة موسيقية يدعوها البازيارية باسم الدف، تندفع البطة نحوه وهي تصدر أصواتاً عالية بجناحيها، وما أن تعلّم صقره هذا وفهمه حتى طار وغطس وأمسك بواحدة من سمك الكراكي، كانت تسبح تحت سطح ماء النهر، وحملها حوالي الأربعين قدماً فوق الأرض الجافة، وأرسل الأسقف كلّ من سمكة الكراكي والصقر إلى الكونت جون في ٢٢ تشرين أول، كتذكار لواقعة غير اعتيادية.

وجرى في اليوم نفسه نقاش حول انتخاب رئيس أساقفة لكانتربري، حسبما أمر الملك رتشارد، ولكن القضية أجلت بعد نقاش طويل.

ورجع ملك فرنسا من القدس، واستقبل في باريس استقبالاً مهيباً يوم

٢٧كانون الأول، ولكن هل ستعدّ بعثته بعثة مجيدة، أو انتهت بسرعة بسبب المرض، أو بعثة شائنة مخزية بالنسبة للذين كانوا في المعسكرات؟ الذين يعرفون هم الذين سيقولون.

سنة اثنتين وتسعين ومائة وألف

اتخذ هنري كونت شامبين، ابن أخت الملك رتشارد زوجة له، ابنة الملك عموري ملك القدس [كانت وريثة الملك عموري]، وهي التي كان المركيز قد تزوجها بطريقة أو أخرى، وهكذا كسب هنري السيطرة على جميع البلاد، مثله مثلما فعل أي ملك من ملوك القدس، وكذلك بقدر ما سيسترد المسيحيون مما فقدوه.

وكانت هناك قافلة اسلامية قادمة من القاهرة إلى القدس، حاملة جميع أنواع المؤن والعتاد والسلاح، وقد اعترض المسيحيون سبيلها ونهبوها، وكان ماأخذه الفرنسيون منها قد احتفظوا به، أما الذي أخذه الداوية والاسبتارية مع الآخرين فقد جرى توزيعه وفقاً لحكم ملك انكلترا وقراره.

وفي ١٤أيار جاء ملك انكلترا إلى الداروم، التي كان الملك عموري قد حصنها لإيذاء المسلمين وإلحاق الضرر بهم، والتي كان صلاح الدين قد استولى عليها مراراً، وحاصرها الملك رتشارد، واستولى عليها بعد أربعة أيام، وأخذ من الأسرى مايزيد على خمسة آلاف.

وفي ٣١تموز استولى المسلمون على يافا، وطار في اليوم التالي رتشارد إلى حمل السلاح، ومضى إلى مساعدة المسيحيين، ومعه ثلاثة مراكب وعشرة فرسان فقط، ورسا أمام يافا، فهزم المسلمين واستولى على البلدة، واسترد

العدو شجاعته عندما سمع أنه قدم مع عدد قليل من الرجال، وحمل عليه محاولاً أسره حياً، وقد قاوم برجولة وقتل عدداً كبيراً منهم.

وفي يوم ٩آب عقدت هدنة سمح بموجبها للمسيحيين بدخول القدس غير مسلحين، لكن رئيس أساقفة صور قرر حرمان كلّ واحد سيذهب إلى القدس للوفاء بنذر صليبيته بصلاة موجهة من قبل المسلمين، وتقرر أن تدوم الهدنة اعتباراً من عيد الفصح المقبل: ثلاث سنوات، وثلاثة أشهر، وثلاثة أسابيع وثلاث ساعات، ومامن انسان شكك بالحكمة القائلة: «من الصعب قطع حبل جُدل ثلاث مرات»، ولكي لايدع المسلمون مجالاً للشك .في عزمهم على الحفاظ على كلمتهم، بعثوا بسهم، ليكون شارة على السلام، أي لن يكون هناك خوف من تطاير النشاب أثناء النهار.

وفي يوم ٢٩أيلول صعدت الملكتان ظهر سفينة، وأعني هنا: بيرنغاريا ملكة انكلترا، وجوانا ملكة صقلية، وغادرتا من عكا، وفعل الملك رتشارد الشيء نفسه يوم ٩تشرين أول، ونزل في حوالي ١١تشرين ثاني في مكان اسمه كورفو، وهو واقع ضمن أراضي امبراطور القسطنطينية، ثم غادر السفينة الكبيرة التي كان يستقلها، ومضى ومعه شينيين، ونزل في سلافونيا، وبعدما مضى خلال البندقية، وأكويليا، دخل إلى بلاد دوق النمسا.

وقد ألقي القبض عليه في مدينة فينا يوم ٢٠كانون الأول، ومع أن الدوق لم يضع فعلاً قدمي الملك في الأغلال، غير أن خشونة معاملة حرسه له جعلت اقامته أسوأ مما لو كان في الأغلال، فرجال هذه البلاد موسومين بالهمجية والقسوة، مرعبين في حديثهم، قذرين في عاداتهم، تغطيهم الأوساخ، وعلى هذا كان هو بالحري مقيماً بين حيوانات وليس بين بشر.

سنة ثلاث وتسعين ومائة وألف

في يوم ٢٨ شباط توفي صلاح الدين.

وفي يوم ٢٣ آذار سلـم دوق النمسا ملك انكلترا إلى الامبراطـور [هنري السادس] (٢٥) وذلـك بعدمـا اتفقا على مبلـغ من المال، وبعـدما أرغـم الامبراطور الملك رتشارد على دفـع فدية عظيمة، باستخدامـه للتهديدات، سجنه في قلعـة اسمها تـريفل Trifels قائمـة على حدود ألمانيـا واللوريـن، وهي قـائمة على قمة جبـل أعلى من الجبال التـي من حـوله، وبنيت لتكون سجنـاً فقط للأعداء المشهـورين بالخطورة وبسـوء السمعة بين أعداء الامبراطورية الرومانية.

ولم يحدث هذا بـالصدفـة، بل دبـرته الحكمـة الربـانية وقضـت به أن يكون انتقامـاً، حتى يعود رتشارد إلى جادة الصواب ويتـوب، ويقلع عن تجاوزاته التي اقترفهـا ضد أبيه الأرضي هنري الثاني ملـك انكلترا، عندما كان يحتضر في لامـانس، بحصاره لهذه البلدة بمسـاعدة من ملك فـرنسا، وصحيح أن رتشـارد لم يضرب والده نفسـه بالفعـل، إنه مـع هذا أرغمـه على التراجع بوساطة حملات متتالية ووحشية زائدة.

وعندما سمـع جون كونت مـورتين بأن أخاه كان في السجـن، تدغدغ بآمـال عظيمة في أن يكون ملكـاً، فربح إلى جـانبة عدداً كبيراً مـن الناس من جميـع أرجاء المملكـة، وقدم وعوداً كثيرة، وبسرعـة متن قـلاعه، وعبر البحر، وعقـد اتفاقاً مـع ملك فرنسـا قضى بحـرمان ابن أخيـه آرثر دوق بريتاني وإبعاده عن الآمال التي يرعاها البريتانيون حوله.

وعنـدما كـان الملـك رتشارد في السجـن كـان قلقاً كثيراً ومهتماً بشـأن شغور كرسي كانتربري، فكتب الشروط التالية:

«من رتشارد، ملك الانكليز، بنعمة الرب إلى عزيزه المخلص رتشارد أسقف لندن، وإلى عميد كنيسة كانتربري وإلى جميع الأساقفة المساعدين، تحيات:

نريد أن نبحث معكم، بقدر مانستطيع، وحسب امكاناتنا، مسألة التعيين لكنيسة كانتربري التي هي الرأس والأم لكم جميعاً، تعيين رجل مناسب، ومقبول منا ومنكم ومن جميع المملكة، رجل سوف يسعى وراء سلام الكنيسة المقدسة وأمنها وسلام مملكتنا وأمنها».

وبعدما قرىء هذا الكتاب بشكل علني، اجتمع كثير من الأساقفة بناء على دعوة أسقف لندن، وعلل بعضهم غيابهم واعتذروا بوساطة رسالة أو من خلال الرسل، واستجاب للدعوة أيضاً عدد من رؤوس البيوتات الدينية، وجرى الانتخاب يوم ٢٩حزيران.

وبذلت الملكة إليانور، أم الملك مع وولتر أوف كاوتانس، رئيس أساقفة روان، ورئيس هيئة العدالة في انكلترا وبارونات آخرين، غاية الجهد للحفاظ على سلام المملكة، وسعوا لجمع القلوب المتخاصمة فيما بينها بشكل دائم، وقرر رئيس هيئة العدالة، وجوب عودة غيوفري رئيس كانتربري والرهبان الذين جاءوا معه إلى لندن، حيث حصل توماس الشهيد الرائع على تاجه بدمه، لتمجيد اسمه خلال العالم أجمع، وفي يوم ٢٩أيار، تقدم الرهبان على الأساقفة وانتخبوا هيوبرت وولتر [أسقف سالسبري] وقبل ذلك عميد يورك، ولقد أوحت إليهم روح ما وأوضحت أنه سوف ينتخب من قبل الأساقفة، وترأس الاجتماع رجال من ذوي المراتب المتوسطة وعملوا بمثابة هيئة قضائية في بيت الكهنة في كانتربري، وأعطوا موافقتهم على الانتخاب.

وحسبما كان مرتباً، جرى في يوم الأحد، الذي هو يوم مقدس، انتخاب هيوبرت أسقف سالسبري رئيساً لأساقفة كانتربري، وتم ذلك

الانتخاب من قبل الأساقفة، وأعلنت النتيجة إلى الناس، من قبل أسقف لندن، وجرى الإعلان في وستمنستر، وهو المقر الملكي المشهور، والمكان الممجد دوماً من أجل انتخاب رؤساء الأساقفة، وأعطى وولتر رئيس أساقفة روان ورئيس هيئة العدالة في انكلترا الموافقة الملكية والتأكيد.

وكان هناك لقاء عام لجميع أعيان ألمانيا عقد في وورمز، يوم ٥ تموز، حيث جرى البحث بشأن فدية ملك انكلترا، وكان هناك الثمن الذي دفعه الامبراطور هنري إلى ليوبولد دوق النمسا، فقد أعلن أنه دفع له خمسين ألف مارك فضي، ولكن الامبراطور الذي كان مرابياً عظيم الشهرة، استطاع أن يضاعف ماله في يوم واحد، فاستخلص مائة ألف مارك من الملك (٢٦)، وبات المبلغ الحقيقي الذي سيدفع فدية للملك هو مائة ألف جنيه (باوند) من نقود كولون، وتقرر دفعه على أقساط في أوقات محددة، وتم تقديم خمسين رهينة مقابل الدفع.

أما بالنسبة لجمع المال، فسنعرض الآن ونوضح صورة الحب والاخلاص التي أظهرها رجال الملك المخلصين، بداية مع الكنيسة: جاءت الكنائس الكبرى مع خزائن مليئة منذ زمن بعيد، وقدمت الأبرشيات كؤوس قرابينها الفضية، وتقرر وجوب أن يدفع رؤساء الأساقفة والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الكنائس، والإيرلات والبارونات، ربع دخلهم السنوي، وأن يدفع الرهبان السسترشيان والبريمونستراتينشيان Premonstratensian جميع نتاجهم من الصوف

وأن يدفع رجال الدين الذين يعيشون على العشور، العشر من دخلهم.

ودهش الألمان لرؤيتهم تدفق الناس بشكل كبير ومستمر من الأساقفة، ورعاة الديرة، والإيرلات والبارونات والناس الأقل شأناً من مختلف المناطق وأبعدها، على طلب رؤية الملك، وكان كلّ واحد في بلاده

متشوقاً لعودته، وبما أن عدداً كبيراً من الناس أعادوا معهم أنواعاً من التعليمات [التي نسبت إلى الملك] كتب الملك الرسالة التالية:

«من رتشارد ملك انكلترا إلى وولتر رئيس أساقفة روان:

مهما بلغ عدد المرات التي نرسل بها رسائل إليكم في انكلترا مع أوامر صادرة إليكم، عليك أن تعتمد فقط الرسائل التي تتعلق بسمعتنا وتقدمنا، أما الرسائل التي لاتتعلق بسمعتنا أو منفعتنا، فلا يجوز اعتمادها».

وجرى استدعاء هيوج أسقف تشستر—حسبما قال— من قبل الملك، وأعدّ نفسه إعداداً جيداً مع هدايا عظيمة، وقد تعرض لكمين حتى قبل أن يتعرض لمخاطر ألمانيا، فبينما كان يرتاح في إحدى الليالي قرب كانتربري، ألقي القبض عليه وسرق، وكان ماثيو دي كلير، شحنة قلعة دوفر، قد أعطى حمايته إلى اللصوص، ومع أنه حرم بالاسم من قبل رئيس الأساقفة والأساقفة تحت شموع مضاءة، من غير المعروف فيما إذا كان قدم ترضية صحيحة لما اقترفه.

وتزوج فيليب ملك فرنسا أخت ملك الدانمارك، غير أنهما تطلقا بشكل غير متوقع، وجرى الحديث عن هذا أكثر مما جرى حول ماحدث في العرس يوم ١٥آب في آمين Amiens وفضلت الملكة المطلقة أن تعيش في سواسون على العودة إلى بلادها الدانماركية.

وعاد الرسل الذين أرسلهم رئيس الأساقفة إلى البابا لإحضار الطيلسان البابوي، وعاد معهم واحد يدعى «الأسقفي» يحمل الطيلسان نفسه، وعقد اجتماع عام للأساقفة في كانتربري يوم ٥تشرين الثاني، حضره أيضاً بعض رعاة الديرة، وذلك من أجل استقبال رئيس الأساقفة وتتويجه.

وعندما بات كلّ شيء محتاج إليه لهذا الاستقبال جاهزاً، جرى تتويجه

بشكل مهيب ومنح قبلة السلام، وقد جلس على يمينه أسقف لندن وعلى يساره أسقف ونشستر، ثم ذهبوا في موكب لاستقبال «الأسقفي» وهو يحمل الطيلسان، وتوجه رئيس الأساقفة إلى المذبح المرتفع، وهناك قيد بقسم الثالوث القديم، مع اضافة قليل من الكلمات الجديدة، التي نعتقد أنه من غير الضروري ذكرها هنا.

ثم وجه وولتر رئيس أساقفة روان شؤون المملكة لمدة سنتين وثلاثة أرباع السنة، وذلك بمثابة رئيس لهيئة القضاء في انكلترا، وهو لم يماش جماعة النبلاء في تلك الأثناء، ونأى بيديه عن أخذ الأعطيات، ناظراً إلى الفرقاء بعين واحدة ومعيار واحد، وذهب هذا الرجل بناء على طلب من الملك رتشارد إلى ألمانيا، وسافرت معه إليانور أم الملك، وقد احتفلا بعيد الغطاس على الطريق.

سنة أربع وتسعين ومائة وألف

وكتب «وولتر رئيس أساقفة روان إلى رالف أوف ديسيتو عمدة لندن:

إنني أعلم أننا منذ أن أتينا إلى مولانا العزيز والمشهور جداً، ملك الانكليز، لم نكتب إلى أحد في انكلترا، حتى الثالث من شباط حيث سمعنا بمسائل جديرة بأن نخبركم عنها، ومتوجب علينا أن نكتب لكم عنها، لأنه في ذلك اليوم نظر الرب الرحيم إلى شعبه في مينز، بتدبيره اطلاق سراح المولى الملك، ففي ذلك اليوم نفسه في الساعة التاسعة منه، كنا نحن أنفسنا حاضرين نيابة عن المولى الملك، وذهب أسقفا مينز وكولون بين السيد الامبراطور والسيد الملك، ودوق النمسا يلتمسون اطلاق سراح الملك، وبعد بذل جهود كبيرة ومصاعب مع كثير من المتاعب، حصل الأسقفان على اطلاق سراحه.

واتصلت الملكة ونحن أنفسنا وأساقفة باث، وإيلاي، وسينت، وعدد كبير آخر من النبلاء بالملك شخصياً، وأخبرناه باختصار بالأخبار السعيدة، وهكذا أعلن السيد الامبراطور له، أنه صحيح قد أبقاه بالاعتقال لديه لمدة طويلة، سيطلق سراحه الآن ويمنحه الحرية، وبناء عليه يمكنه من الآن فصاعداً أن يستأنف سلطاته، فقد حصل على حريته، وحلت المسألة وفقاً لرغبته».

وتزوج في هذه الآونة هنري ابن أخت رتشارد ملك انكلترا، والابن الأول ولادة لهنري دوق سكسوني، الابنة الوحيدة والوريثة لكونراد كونت أوف بالاتنيت Palatinate.

وجرت نقاشات كثيرة بين الامبراطور والملك، ليس من أجل إعداد مال الفدية الذي سيدفع فقط، بل لتخفيض مرتبة الملك [بجعله تابعاً للامبراطور] وقد امتزج بهذه المفاوضات شيء كان إجرامياً تماماً، وكان بكل تأكيد عملاً مناقضاً للشرائع، وضد القوانين، وضد السوابق الحسنة، ومع ذلك صحيح أن الملك وأتباعه حلفوا الأيمان بأنهم سيرعون ذلك، وقدموا رسائل تأكيد واعتراف كانت معترف بها ومقبولة في كلّ مكان في العالم، لقد كان الفرقاء محللين من أيمانهم لأنها استخرجت منهم بشكل غير قانوني، وكذلك الرسائل ينبغي ألا تتملك أية سلطة في المستقبل، ولا أن تحصل على أية قوة في مجرى الأيام.

وجرى تقديم وولتر رئيس أساقفة روان، ووليم لونغ شامب، مستشار الملك، وعدد آخر من الأعيان، كرهائن، حتى يأتي وقت تحريرهم عندما يتم دفع عشرة آلاف مارك، وهو مبلغ طلب من الملك دفعه على الفور، وقد أقسموا على مراعاة هذه الأحكام، وألا يغادروا ألمانيا بدون معرفة الامبراطور.

وقدم الملك الانكليزي إلى كولون بناء على طلب ملح ومستعجل من

رئيس الأساقفة أدولف، وقد استقبل بحفاوة بالغة في قصره، حيث الأبهة عظيمة والاحتفالات رائعة، وقد بقي هناك لمدة ثلاثة أيام، وفي اليوم الثالث باشر رئيس الأساقفة الأمور بنفسه، ونشط من أجل حضور الملك قداساً يعقد في كنيسة القديس بطرس، وطرح رئيس الأساقفة جانباً ثيابه الفخمة، واحتل مكان قائد جوقة المرتلين، ووقف وسط الجوقة مع الآخرين من أفراد الجوقة، وبدأ القداس المقدس، وتلا: «أعرف الآن بصدق أن الرب بعث بملاكه وأنقذني من أيدي هيرود».

وسافر الملك رتشارد، وركب الطريق دونما توقف حتى نزل في انكلترا في سندويش يوم الأحد ٢٠آذار، وفي يوم ٢٣آذار جرى عقد اجتماع هائل لرجال الدين وللشعب، وجرى استقباله في موكب مرّ خلال المدينة المزينة حتى دخل إلى كنيسة القديس بولص، ومن هناك ركب الطريق إلى نوتنغهام، ووصل إليها بالحال، وبعد ثلاثة أيام تسلم استسلاماً جميع المدافعين عنها الذين طلبوا رحمته.

واحتفل الملك بعيد الفصح في نوتنغهام، وتسلم بعد ثمانية أيام تاج المملكة من هيوبرت ولتر، رئيس أساقفة كانتربري، وجرى ذلك في ونشستر، وكان بين الحضور أيضاً وليم ملك اسكوتلندا.

وفي يوم ١٢أيار ركب الملك رتشارد سفينة من بورتماوث، ووصل إلى نورماندي إلى بركس [الصحيح ليزكس] وقابل أخاه جون، الذي سجد على قدميه يطلب الرحمة منه، وقد حصل عليها، وزحف نحو فيرنويل Verneuil فسمع أن الملك الفرنسي كان يحاصر القلعة، وأنه لم يكن هناك توقف منذ ثمانية أيام سواء عن رمي النيران بوساطة المنجنيقات، أو بقذف الحجارة الكبيرة، أو باستخدام آلات الحصار، أو بحفر الأنفاق تحت المدافعين، أو بالحاق الجراحات بأجساد المدافعين، ثم حلّ موعد وصول ذلك اليوم العظيم في التقويم، اليوم الذي كرّس للجلالة العلوية، إنه اليوم الأعظم في جميع أنحاء العالم، ذلك هو يوم عيد

الشعانين، الذي يحتفل فيه المسيحيون في كلّ مكان من أمكنة الكرة الأرضية.

ثم سمع الفرنسيون كيف أن ملك الانكليز كان يحضر تحت جنح الظلام للقتال، وقد سمعوا أنه سيهاجم في اليوم التالي، فارتعبوا لدى سماع هذا التقرير، وآثر الرجال المرعوبين الفرار على القتال، وآثروا أيضاً العار الأبدي، على الخسارة، فتراجعوا وانسحبوا من أمام القلعة.

وعاد وولتر رئيس أساقفة روان من ألمانيا بعدما تم دفع العشرة آلاف مارك، واستقبل يوم ١٩ أيار في كنيسة القديس بولص في لندن، حيث تولى تقديم عظة وقداس للناس، وبعدما أكمل طقوس القداس جرى الاحتفاء به بعناية في بيت أسقف لندن، وتوجه في يوم ٣٠ أيار بحراً نحو نورماندي.

وكان الملك الفرنسي يتراجع مسرعاً من فيرنويل، ولكي لا يظهر وكأنه لم يفعل شيئاً أقدم على حصار بلدة صغيرة قرب روان تدعى فونتين Fontaine بسبب كثرة الينابيع المتفجرة فيها، وكان في داخلها أربعة فرسان وعشرين رجلاً مسلحاً بمثابة حرس لها، ولقد عزم الملك الفرنسي على شيء ليس أقلّ من تحويل حاكم عظيم مع جيشه كلّه إلى مثل هذا المكان الصغير.

وبعدما وزع نوبات الهجمات الشديدة، هاجم الملك نفسه الباب في اليوم الرابع، فتغلب على الحامية الصغيرة، ودمر كلّ شيء، غير أنه احترم رجال روان نفسها، خشية أن تنبعث في نفوسهم الحمية كما فعل أهل فونتين، وهكذا رجع إلى أراضيه محرزاً على الأقل نصراً صغيراً.

وفي تلك الآونة كان الجيش الأنجيفي يحاصر قلعة وليم غووي Gouet التي بنيت على مقربة من لى فيرت برنارد التي تدعى أيضاً مونتميرال Montmirail وقد استولى هذا الجيش عليها وهدمها

بالكامل.

وبعدما تراجع الملك الفرنسي من فيرنويل، جاء الملك الانكليزي إلى تور، حيث دفن مارتن المقدس، واستلم ألفي مارك هدية طوعية من برجاسية المدينة الذين جمعوها بدون أي إكراه، ثم تقدم رتشارد إلى بيوليو Beaulieu التي قامت على حدود تورين، وحاصرها وتمكن خلال أيام من الاستيلاء على قلعة لوشي، وكان الملك الفرنسي قد تسلم لوشي من وكلاء ملك الانكليز، وجعلها تحت سلطانه، وكان وقتها الملك الانكليزي بالأغلال، وقد تسلمها بمثابة ضمانة حتى لايتم خرق الاتفاقية المعقودة بين الملكين، ووقتها شحنها الملك الفرنسي بخمسة عشر فارساً وثمانين رجلاً مسلحاً مع مايكفي من مؤن وعتاد للدفاع عن المكان.

وفي تلك الآونة جاء ابن ملك نافار بمثابة حليف لملك الانكليز، وكان قد حشد جيشاً كبيراً يضم فيما يضم مائة وخمسين من حملة القسي العقارة، وقد نهب بلاد غيوفري أوف رانكون Rancon لورد أوف تيليبورغ Taillebourg وبلاد كونت أنغوليم Angouleme.

وأغار الملك الفرنسي على حدود تورين، ونصب خيامه قرب فاندوم Vandome لكنه عندما شهد قدوم ملك الانكليز، أزال معسكره في الصباح الباكر، وعاد مسرعاً إلى فرتفال Freteval وتبعه رتشارد وسار خلفه واستولى على قطار أثقاله، والكونتات والبارونات والنبلاء والفرسان الذين كانوا يدافعون عنه ويقاتلون، واستولى على جميع معداتهم، وعلى الذهب والفضة المحفوظة في الصناديق وفي أماكن أخرى، وكذلك على الخيام، وعلى القسي العقارة، وعلى عدد لايحصى من الأشياء الأخرى، التي كانت أثمانها غير محددة، فلقد استولى رتشارد على هذا كله وحمله بعيداً دون المعاناة من أية جراحة لنفسه.

ومضى مـن عيد أحـد العنصرة، عندما طلـب ملك الفـرنسيين الفرار، حيث نجا مـن فيرنويل خلال الليل. سبعـة وثلاثون يومـاً إلى اليوم الذي كان مقيماً فيه قرب فـاندوم ، وقد فوجيء بالصبـاح ورعب من الجراحات القاسيـة التي لحقـت برجالـه، لذلك ألقـى بنفسه في شـاتودون Cha-teaudun واتخذ داخلها موقف الدفاع.

واستروح الملك الانكليـزي رائحة النصر، فعبر إلى بـواتو، واستـولى بعد عـدة أيام على تيلبـورغ Taillebourg وجميـع أراضي غيوفـــري أوف رانكون مـع جميع أراضي كـونت أوف أنغـوليم، وعلى هـذا لم يبق فيها بين مفـرق شارل [ممـر رونسيفـو في جبـال البرانس المفترض أنـه كـان مسرح معركة نشيد رولاند] وقلعة فيرنويل، ولا عاص متمرد ضده.

وكتب «البابا كليستين إلى أسقف فيرونا:

نحن نـرغب، وبموجـب الارادة الرسولية نـأمر، ونقضي بأن نتـولى أخذ يمين من دوق النمسـا، بالمواثيـق التي تـراها ضروريـة، في أن يطيع دونها خـداع أوامرنـا التـي أرسلت إليـه بـوسـاطتك نفسـك، أو بـالرسـائل أو بالـرسل، وبعـدما تتسلم هـذا اليمين، أصدر إليه أمـراً بموجـب فضائل أحكام اليمين في أن يطلـق سراح جميع رهـائن ملك الانكليـز، وأن يلغي جميع الشروط التـي استخرجهـا من الملك، وأن يعيـد إليه كـلّ شيء أخذ منه وكذلك ماأخذ من رجاله، ويتـوجب عليه إعادة ماأخذه خطأً بمثابة فدية للملك تماماً دون نقص، وعليه ألا يحاول من الآن فصاعداً مثل هذا العمل. وينبغي عليك ايجاد صيغة مناسبة للتعويض عن جميع الجراحات والأذى الذي اقترفه.

وبعدمـا يكون قد جرى إتمام هـذه الأشياء وتنفيذها، عليـك أن تمنحه التحليل، وأن تخفف الحرمان المفروض على أراضيه، وعليك أيضاً أن تأمر الـدوق المذكـور ورجـالـه، بعـدمـا تسلمـت أيمانهم ومنحتهـم التحليـل

والغفران، أن يقوموا في أقصر وقت يمكنهم، بالذهاب إلى منطقة القدس والبقاء هناك في خدمة المسيح قدر الوقت الذي أمضاه الملك السالف الذكر في الأسر، وإذا لم يلتزموا بهذه الأشياء ويأخذوا بها، أعد اصدار قرار الحرمان نفسه عليه وعلى رجاله، بدون حق الاستئناف.

صدر في روما، في كنيسة القديس بطرس؛ ٦ حزيران ١١٩٤».

وجمع ملك الانكليز بموجب أمر عام جميع النبلاء الخاضعين له، في لامانس، حيث أثنى بصوت مرتفع على اخلاص الانكليز له في محنته.

وعقدت هدنة بين ملكي فرنسا وانكلترا، لكن مرور التجار خلال خطوط القتال منع. وفرض ملك انكلترا في هذه الآونة بعض الاجراءات لتحسين الأوضاع المالية الملكية، وأعلن أنه يتوجب على جميع الفرسان من كافة أنحاء انكلترا القدوم والاجتماع معاً بغية اختبار قوتهم في المبارزات، معتقداً أنه ربما إذا ما أعلن الحرب على المسلمين أو على جيرانه، أو فرضاً حاول أحد الأجانب غزو المملكة، فوقتها سيجدهم أكثر نشاطاً، وأحسن تدريباً، وجاهزية للقتال.

وجرى أخيراً تحديد يوم، وتعيين مكان، فدعا إلى المبارزات المكرسين على تمارين الفرسان وتدريباتهم، وحضر رجال من الانكليز مدربين بشكل جيد على الحركات العسكرية، وبارعين بالسيف وقادرين على الضرب والطعن، ولكن بما أنهم حملوا رماحاً خفيفة جعلهم هذا غير مستعدين لمعركة حقيقة بقدر ماكان الأمر معركة افتراضية ونوع من أنواع الاحتفالات الكمالية، وظهروا بشكل أفضل بامتلاكهم وحملهم للمشاعل، وكان هناك شباب جدد على حرفة الفروسية، راغبين بالمدح أكثر من الثروة، لهذا لم يضغطوا قط على الذين هزموهم بقوة السلاح: بسجنهم أو بارغامهم على دفع فدية غير معقولة، بوساطة أنواع خاصة من التعذيب، لكن وقد أسروهم بموجب حق الحرب، اكتفوا منهم بوعد قائم على الثقة

الجيدة، وهكذا تركوا أسراهم يذهبون، ليعودوا عندما يطلبون.

ووصل أربعة رسل من عند الملك فيليب إلى رتشارد ملك الانكليز، يحملون كلمات سلام، ويطلبون البحث في شؤون المملكتين، وذلك خشية أن يقوم عدد كبير من رعاياهم بهجر كثير من أماكن سكناهم بسبب انهاكهم وافقارهم وحرمانهم من الذهب والفضة، هذا إذا لم يتم تدميرهم بالسيوف المحاربة وبسفك الدماء، وكرروا مراراً القول إن الخلاف بين المملكتين يمكن أن تحسم نتائجه وينال الاستقرار والحل بوساطة المبارزة بين خمسة رجال شجعان، وينبغي إعلان حكم المتبارين إلى الشعب في كلا المملكتين الذي يتوقع النتيجة وينتظر إعلان أي الملوك سيؤثر الملك السرمدي جانبه.

ولاقت الخطة والشروط على الفور رضا ملك الانكليز، واختار الملك الفرنسي خمسة من رجاله، واختار ملك الانكليز خمسة من رجاله أيضاً، وبعدما جرى إعدادهم بكل دقة وتسليحهم والباسهم السوابغ والدروع باتوا متساوين ومتقاربين للمباراة.

وحبست في هذه الأيام نفسها سمكة تدعى بشكل عام «سمكة سمينة» [أي حوت] على النيز Naze وكان ذلك بسبب هبوب الرياح وتيار البحر، والنيز مزرعة تابعة لكهنة القديس بولص في لندن، وعندما أثير خلاف حول هل السمكة ينبغي أن تؤول إلى الملك أو إلى الكهنة جرى فحص امتيازات كنيسة لندن من قبل رئيس هيئة قضاء المملكة، وجاء القرار يقضي بوجوب صيرورة السمكة ليس إلى الملك، بل إلى عميد مقر الكهنة.

وأعاد رتشارد ملك انكلترا إلى عميد وكهنة تور وإلى بقية رجال الدين من رهبان وآخرين جميع ممتلكاتهم التي استولى عليها، وكرماً أعطى هذه الأشياء إلى السيد نائب الحبر الأعظم، وأخذت هذه الأشياء واستردت في

ألنكون Alencon يوم ١١تشرين الثاني.

وكتب «وولتر رئيس أساقفة روان إلى رالف أوف ديسيتو عميد لندن، تحيات:

حقق السيد نائب الحبر الأعظم ونحن أنفسنا استرداد جميع الممتلكات الدينية التي صادرها ملك الانكليز من أرض السيد ملك الفرنسيين، ونحن نعمل على الجانب الفرنسي ونسعى لدى ملك فرنسا أن نسترد لأنفسنا ولرجال الكنيسة الآخرين الأشياء التي أخذت من أرض الملك الانكليزي. صدر في سنس».

أخذ الامبراطور هنري الطريق إلى بلرم، وهناك استقبل بموكب مهيب في الكاتدرائية، وتوج ملكاً على صقلية في ٢٢تشرين الثاني.

وكان في ٢٦كانون الأول ليوبولد دوق النمسا في غراز Graz يستعرض قواه ومهارته بالفروسية مع جنده، وكان مسلحاً وفق عادات بلاده، وقد سقط من على حصانه واندقت قدمه، وأوصلته جراحه حتى الموت، واتخذت، بناء على نصيحة الأطباء، اجراءات مستعجلة، وجرى بتر قدمه، وهكذا حدث أن الرجل الذي ربط قدمي الملك رتشارد عندما كان على طريقه عائداً من القدس، يعاني من آلام حمل الصليب على جسده، وينوي العودة إلى الأراضي المقدسة، والذي حرمه من الإذن بالذهاب إلى حيث أراد، قد حرم من قدمه عقوبة على جريمته التي اقترفها، وكان ذلك مثل قرار حكم بطرس أوف رافينا، الذي قال بين أشياء وهو يكتب عن الولد المبذر: «من أجل الرفاه، والنهم والجشع، ليكن الجوع نصيبه، وبذلك ستضرب العقوبة المكان الذي اقترف فيه الذنب».

وكتب «هنري بنعمة الرب الامبراطور، والأغسطس الدائم، وملك صقلية إلى صديقه العزيز وولتر رئيس أساقفة روان، تحيات وحب.

نحن نعلـم أنك تطير فـرحاً بسعـادتنا ونجـاحنا، وبنـاء عليه نـدعك تعرف اننـا تملكنا بنعمـة الرب جميع مملكـة صقلية وأبـوليا بسـلام، وكان هناك بعض الأعيـان من المملكة معارضين لنـا كثيراً في البداية، ثم تـابوا إلى حظيرة نعمتنـا، غير أنهم مالبثـوا أن تآمـروا بعد ذلـك مؤامـرة خيانيـة رهيبة ضـد شخصنا، وبما أنـه مامـن شيء مغطى إلا وسيكشـف، فبنعمة الرب كشفـت المؤامرة وأخفقت وأحبطت وبنـاء عليه أمرنـا بهم جميعاً أن يؤخـذوا ويثقلوا بـالأغلال، وزادت النعمـة الربـانية والـرحمة من سرورنـا حيث ولدت رفيقتنا كونستانس، الامبراطـورة اللامعة للرومان والأوغسطا، يوم ٢٦كـانون الأول، لنـا ولداً، شاركـونا في سرورنا، أعطـونا أخبـاراً عن أنفسكم وعن أحوال بلادكم. صدر في سان ماركو في ٢٠كانون الثاني».

سنة خمس وتسعين ومائة وألف

بموافقـة من جميـع الكرادلـة، صار هيوبـرت رئيس أسـاقفة كـانتربري [ورئيس هيئـة العدالـة] النائب البـابوي، وقـد تمتع بسلطـات كاملـة، لم يسمع بنظير لها منذ قرون.

وكتب «وليم أسقف إيلاي إلى رالف عميد لندن:

نبعث إليكم رفقاً الـرسالة التي أرسلها شيخ الجبل إلى الـدوق ليوبولد صاحب النمسا، حول وفاة مركيز [مونتفرات] وقد حوت الكلمات التالية:

رسـالة قيـل إنها جـاءت من قـائد الطـائفة الاسـلاميـة التي لاتعـرف الرحمة، والتـي تدعـى الحشيشية، وفيهـا ادعاء أنهم هـم الذيـن يتحملون مسؤولية قتل كونراد أوف مـونتفرات وليس رتشارد الأول، وهدفها في تبرئة الملك الانكليزي من الحادث زيف واضح».

«إلى ليوبولد دوق النمسا، يبعث شيخ الجبل بتحياته.

بما أن عدداً كبيراً مـن الملوك والأمـراء فيما وراء البحار يلـومون السيـد رتشارد، ملك انكلترا، من أجل وفاة المركيـز، إنني أقسم بالله الذي يحكم إلى الأبـد، وبـالشريعة التـي نـؤمـن بها، أنـه لاذنب لـه في ذلـك الموت، والسبب الذي أدى إلى موت المركيز هو هذا:

كـان واحد مـن اخـوتنا عـائد إلى منـاطقنا مـن سـاتاليـا Satalia (أضاليـا)، لكن الـريح دفعته إلى صـور، حيث أمر المركيـز بأخـذه وقتله، وسلب منـه كثيراً من المال، وبعثنا إلى المركيـز برسلنا نخبره أن يعيـد مال أخينا إلينا، وأن يتفق معنا حول التعويض عن موته، لكنه لم يرغب بشيء من هـذا أبداً، زيادة على ذلـك لقد أبـدى ازدراءً نحو رسلنا، لابـل حتى اتهمنا بـوفاة اللورد رينالـد (أرناط) صاحـب صيدا، علماً بأننا نعـرف من رفاق لنا أنه هو نفسـه قتل رينالد وسلبه، ثم بعثنا إليه بـرسول آخر اسمه ادريس، وقد أراد اغـراقه، لكن رفاقنا سـاعدوا الرسول للنجـاة من صور، وعندها بـادر ادريس مسرعاً إلينا وأخبرنـا بالذي حدث، وأردنـا من تلك الساعـة أن نقتل المركيـز وبناء عليـه بعثنا بـاثنين من اخـواننا إلى صـور، فقتلوه بشكـل مكشوف، وأمام شعـب المدينة كله تقـريباً، لقد كـان هذا السبـب في قتل المركيـز، ويمكننـا أن نخبركم بصـدق بـأن رتشارد ملـك انكلترا ليس مـذنباً في مـوت المركيز، وأي انسـان يحاول أن يؤذيـه بسبب هذه القضيـة، يقترف بذلـك عملاً ظـالماً، وبدون مسـوغ، واعلم بشكـل مؤكد أننا لم نقتل أي انسان في هـذا العالم مقابل أجر أو مال أو أي شيء، مالم يكن قد سبب لنا أولاً ضرراً. وكتبت هـذه الرسالة في قلعتنا مصياف، في منتصف شهر أيلـول أمام اخوتنا، وقد ختمـت بختمنا في سنة ١٥٠٤ للاسكندر».

«لقد بعثنا بنسخة من هذه الرسالة إليك، أنت الذي ندرك تماماً مدى حبه، حتى يمكنك أن تثبتها في تاريخك».

سنة ست وتسعين ومائة وألف

حدث في هذه الآونة فيضان عظيم مفاجىء جرف كلّ شيء كان قائماً قرب السين سواء من الأخشاب أو الحجارة، وكان فيليب ملك فرنسا وموريس أسقف باريس مقيمان آنذاك في باريس، وكانا خائفين بشكل كبير.

ولعل فيليب تفكر ببيت [المزامير٦٩/ ١٦] قوله: «لايغمرني سيل المياه ولايبتلعني العمق ولا تطبق الهاوية عليّ فاها» فقرر الالتجاء إلى رابية، فغادر قصره، وأخذ ابنه لويس وجميع أسرته لإمضاء الليل في دير القديسة جينيف، وردد الأسقف قوله: «المياه قد دخلت إلى نفسي» [المزامير:٦٩/ ٢]، ومع ذلك أخذ نفسه وشعبه للإقامة في دير القديس فكتور.

وغالباً مارأيت في هذه الأيام الحد الذي بلغه انتشار الشرور والخلاف في مدينة لندن، حول توزيع حمل الأعطيات التي توجب تقديمها للخزانة، تبعاً لقدرة كلّ واحد على الدفع، الأمر الذي يمكن أن يقال حوله أنه نظم بشكل غير عادل، وكان قائد هذا الخلاف رجل يدعى وليم فتزأوسبرت Fitzosbert الذي غالباً مادعا إلى الاجتماعات، وجعل الناس يقسمون أيماناً مضادة لجلالة الملك ومكانته، فقد عذب أخاه مع اثنين كانت مواقفهما سليمة، بقسوة حتى الموت، وكان آخر أفاعيله الشريرة إثارة اضطراب في كنيسة القديس بولص، وعندما وجد أنه أثار السلطات إلى حدّ الغضب، اعتصم في برج إحدى الكنائس العائدة إلى رئيس أساقفة كانتربري [سينت ماري لى بو Bow] وحوّل المكان المقدس إلى قلعة، ثم عندما رأى عدداً كبيراً من الرجال المسلحين قادمين، وفي سبيل النجاة من الاقتراب من الموت، ألقى النار

في الكنيسة، وبذلك أحرق قسماً من معبد الرب.

وقد حُمل من الكنيسة إلى قلعة لندن ليقابل حتفه، ذلك أن عقوبة واحد يمكن أن تلقي الرعب في قلوب كثير من الناس، وقد حكم عليه من قبل النبلاء في أن يجرد من ثيابه، وأن تربط يداه خلف ظهره وكذلك تربط قدماه بحبل طويل، وأن يجرّ بوساطة حصان خلال وسط المدينة إلى المشنقة القائمة قرب تيبورن Tyburn وعلق هناك بسلسلة معدنية حتى لايموت سريعاً، وجرى تعليق تسعة من أصحابه في الجريمة معه، وذلك لكي ينال الذين تلوثوا بالجريمة نفسها عذاب العقوبة نفسها، ومن أجل ضمان سلام المملكة والحفاظ عليه صدر قرار عن رئيس الهيئة القضائية بوجوب إيداع أولاد أو أقرباء عدد كبير من ذوي المراتب الوسطى في مختلف السجون حول البلاد وذلك بعد أخذهم بمثابة رهائن، هذا وقدم الفقراء ترضية موائمة وفقاً لحكم جيرانهم.

وكتب «وولتر رئيس أساقفة روان إلى رالف عميد لندن:

أنت تعرف أية أنواع من المحن والمصاعب توجب على كنيسة روان أن تعاني منها منذ زمن طويل إلى الآن، ونأمل في أن نقنع الملك في أن يكون أكثر لطفاً نحونا ونحو كنيستنا، ذلك أنه آثر نصائح الآخرين السيئة، فاستولى على ميراث الكنيسة، وأعني بهذا لاس أندلاس Les Andelays وتجاهل حظرنا فبدأ ببناء قلعة، مسبباً أذى للرأس وضرراً يمكن مع الأيام أن ينقل الأضرار إلى الأطراف، وإنا نحن أنفسنا مع آخرين محقين في انذار الملك مرتين ثم ثلاث مرات ليقلع عما بدأ بفعله، وليقوم بترضية موائمة لنا، ويرضينا بالتعويض عن مختلف أنواع الأذى التي ألحقها هو ورجاله بنا، باحراقهم عزبنا وأشياء كثيرة هائلة، وأن يعيد إلينا بيعتنا في بليث Blyth مع دخلها الذي وضعه في يديه منذ سنة أو أكثر، ولقد قدم معاذير مختلفة، كلها لاقيمة لها وغير منطقية، واستمر فيما بدأ به ولم يصغ لتحذيراتنا، وإذا ما أراد أن تبقى لنا

حيواتنـا، يمكنه أن يفعل، خشيـة أن تكون أنـدلاس هي المفرج الـوحيد والمتنفس لأنفسنا ولحاجات الفقراء.

والـذي يجعـل هـذه الأفـاعيل غير مغفـورة أو مسـوغـة أنـه لم يحتفـظ بجزيـرتنا تحت احتـلاله فحسـب على الرغـم من تحذيـراتنا، بـل أخذ في زيادة تحصين أراضينا بالخنادق والدفاعـات، وعندما رأينا هذا الغزو يزداد بسرعة سوءاً، ذهبنـا متذللين مرة ثانيـة إلى مولانا الملك، وخشيـة أن يظن أننا نعمـل مخادعة أخـذنا معنـا بعضاً مـن أعيان كنيستنـا ورجونـا الملك وتوسلنا إليه لكـي يظهر رحمة نحونا وأن يعيد جزيـرتنا التي اغتصبها، وأن يعوض علينـا الأضرار التي سببها لنا ولكنيستنـا، وأضفنا انه إذا لم يـرضنا خلال ثـلاثة أيام لـن نكون قادريـن أكثر على اغماض أعيننا عـن عناده، ولـن نترك المسألـة تمر دون عقـاب، ثـم لإضافـة التعـاسـة فوق الشقـاء، ولتعـريض كنيستنـا لمشاكـل الحرب الأهلية، قـام وليم أسقـف ليزوكـس مدفوعـاً بالتكبر وبخبائث من الجحيـم، فأثار اعتراضاً ضـد أمه الكنيسة، ولهذا السبـب استحق الحرمـان، وكـان ذلك بنـاء على نصيحـة عدد مـن أتباعه الأساقفة، لتجاوزاته الكثيرة، ولطغيانه وعصيانه.

وبما أننا لم نعد قادريـن بأي طريق، سواء بالرجـاء أو بالانذار، أن نعيد الملك إلى عقلـه، فلقد انقضى الـوقت المحـدد دونما ظهور بوادر تـرضية، نجـد أنفسنـا مدفـوعين بـالضرورة ألا نـدع أعمال الأذى الكثيرة والكبيرة هـذه تمر بدون عقـوبـة، مالم يسرع الملـك إلى اصـلاح خطـاياه. ولسـوف نذهـب إلى روما يوم ٧تشريـن الثاني، حيث نـأمل بعون الـرب ونعمته أن نجلل أسقف ليزوكس بالعار والفوضـى أمام البابا، ذلك أن سلوكه الآثم لم يترك لنا خيـاراً سوى ايجاد عقوبـة موائمة لـه، إننا نطلب منكـم برحمة الرب رحمة أخوية نحونا، وأن تدعو الرب من أجلنا».

-٦٤٠-

سنة سبع وتسعين ومائة وألف

حُمل رئيس أساقفة كانتربري مريضاً جداً، ولم يكن قادراً على الاحتفال بقداس يوم عيد الميلاد، لكن لحسن الحظ تعافى وأمضى مدة الميلاد في كانتربري، ودخل دير الرهبان للتباحث مع الرئيس ومع الرهبان، وقد قيل بأنه ترك جميع حاشيته، حتى حامل صليبه بالخارج، ومشى أمامه واحد من الرهبان واسمه جون أوف دوفر، حاملاً صليبه، والذي حدث في الداخل خلال الأيام الثلاثة التالية غير معروف لكثير من الناس، والذي أفشي هو فقط مايلي:

دخل رئيس الأساقفة بسلام، وظهر رئيس هيئة عدالة الملك بسلام، ولم يعثر خلال الاجتماع على شيء يستحق الإدانة دينياً أو مدنياً.

وأحرق الملك رتشارد مع جيش كبير كان بصحبته قلعة القديس فاليري، ونهب المنطقة المحيطة بها، وجرى شنق قباطنة خمسة سفن كانوا يجلبون المؤن إلى الأعداء، والذي عثر عليه في السفن وزعه الملك على رجاله يوم ١٥ نيسان.

وهطل مطر غزير في انكلترا لمدة ثلاثة أيام، وقد أخاف ذلك عدداً كبيراً من الناس.

[وصدر الإعلان التالي]:

«دعْ كلّ من يقرأ هذه الرسالة يعرف، أن هذه هي اتفاقية ومعاهدة بين رتشارد ملك انكلترا، وبين بلدوين كونت أوف فلاندرز وهينو قريبه: لن يعقد ملك انكلترا هدنة أو سلاماً مع ملك فرنسا دون رغبة الكونت وموافقته، وكذلك لن يعقد الكونت هدنة أو سلاماً مع ملك فرنسا دون رغبة ملك انكلترا وموافقته، وإذا حدث وعقد كلّ من الملك والكونت

سلاماً مع ملـك فرنسا، وشـن بعد ذلك ملـك فرنسـا الحرب على واحد منهما، عندها سـوف يكون ملك انكلترا والكونت مربـوطين بتبادل العون والمساعدة، بقدر مايستطيعانه وكما كانـا يفعلان وقت عقد هذه المعاهدة، ولايجري تطبيق هـذه المعاهدة أوقـات الحرب فقط لكـن بشكل دائم بين الطـرفين، وورثتهما الذيـن سوف يتملكـون البـلاد من بعـدهم في السلـم والحرب وإذا لم يحافـظ ملك انكلترا على الاتفـاقية، سـوف يقـدم الذيـن أقسموا —نيـابة عنه ولصـالحه أنه سـوف يفعل— أنفسهم إلى الكـونت المذكور، ويضعـوها تحت تصرفه خلال شهـر واحد من معرفتهـم بالخرق، وذلـك دون انتظار منهـم لـدعوة الكـونت لهم، ومثـل هـذا، إذا ماخـرق الكونت الاتفاقيـة، على الذين أقسموا نيابة عنـه ولصالحه تسليم أنفسهم إلى ملـك انكلترا خلال الشهـر دون انتظـار الدعـوة. وأقسـم عن الملـك ولصالحه جون أوف مورتين أخـو الملك، وأقسم كونت فلانـدرز عن نفسه ولصـالحها بحفـظ المعاهـدة. وكـان هناك شهـود كثر على كـلا الجانبين، ستكون هناك حاجة لوقت طويل لتعدادهم. أبرمت في لاس أندلاس».

وأمر هيوبرت رئيس أساقفة كانتربـري من قبل الملك بعبور البحر، وقد غـادر لامبـث، ثـم عاد إلى هنـاك في ٨تشريـن الأول، أي بعـد عشريـن أسبوعاً وستة أيام.

وحينما كان في نـورمانـدي أنجز عدداً كبيراً مـن الأعمال النافعـة، فقد سمع بأن أسقـف بوفياس Beauvias الذي شغل وظيفــة مزدوجة، هي وظيفة الأسقف والكـونت، قد وجد وهو يحمل سـلاح فارس، تبعاً لما اعتاد أن يتفاخر به أجداده، وقد ألقـي القبض عليه، وحفظ بالأغلال من قبـل رتشـارد الأول، وتمكن رئيـس الأسـاقفـة مـن اقناع الملـك في ابقـاء الأسقـف في حجـز أكثـر سهـولـة، وصـالـح كنيسـة روان، التـي كـانـت الخدمات الدينية فيها معلقة، وأضـاف بعض الفقرات إلى معاهدة السلام بين ملـك انكلترا وبلدويـن كـونت فـلانـدرز وخلفـائهما، وبذل جهـوداً

كبيرة، ونجح في العمل على اعادة السلام بين رتشارد ورئيس أساقفة روان، بإيجاد بديل دائم، تعويضاً لكنيسة روان عن لاس أندلاس.

كانت ماتزال حاجة رتشارد للمال ملحة، لهذا دعا هيوبرت البارونات الانكليز إلى اجتماع ليطلب منهم المزيد من الاسهام المعتبر، وكان هيوج أسقف لنكولن بين الذين قاوموا الملك، وذلك حسبما يروي لنا صاحب سيرة حياته:

سنة ثمان وتسعين ومائة وألف

قبل قرابة سنة وأربعة أشهر من وفاته، أصبح رتشارد ملك انكلترا حنقاً عظيم الغضب من هيوج أسقف لنكولن، وكان الملك فيما وراء البحر، منشغلاً في صراع مرير مع فيليب ملك الفرنسيين، وتمت الدعوة إلى اجتماع عام لجميع بارونات انكلترا في اكسفورد، وذلك بناء على طلب من هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، ومدح رئيس الأساقفة منافع الملك، وشرح أوضاعه الصعبة، وبين أنه اعتماداً على موارد قليلة وقوى صغيرة كان يصارع ضد ملك قوي(٢٧) جداً، ملك كان يثير كل جوارحه ليحرمه من ملكه وليدمره، وسألهم أخيراً أن يقرروا ككتلة واحدة الوسائل التي يمكنهم بها على أحسن وجه مساعدة مولاهم في وضعه الصعب جداً والحرج، وطرح وقتها اقتراح من قبل الذين هم مثله، ويعتقدون بوجوب اطاعة كل رغبة للملك بدون تردد، أنه يتوجب على بارونات انكلترا بما فيهم الأساقفة امداد الملك بثلاثمائة فارس حتى يقاتلوا معه طوال السنة فيما وراء البحر ضد أعدائه، وذلك على حسابهم.

وعندما طلب من أسقف لنكولن بشكل علني اعطاء الموافقة على هذا الاقتراح، بقي صامتاً يفكر حتى بادر أولاً رئيس أساقفة كانتربري ثم

رتشارد أسقف لندن، الذي شغل منصب العميد بين الأساقفة، فأعلنا عن استعدادهما لتكريس نفسيهما ورجالهما وممتلكاتهما لحاجة الملك، وهنا قدم اجابته حول السؤال الذي طرح عليه فقال:

«إنني أعرف تمام المعرفة أن كنيسة لنكولن مكرّسة لخدمة الملك في الحرب، لكن في هذه البلاد فقط، وإنها لحقيقة ملزمة أن مامن خدمة متوجبة وراء حدود انكلترا، ولهذا إنني أؤثر العودة إلى موطني الأصلي واستئناف طريقة حياتي العادية، على أن أبقى هنا أسقفاً، مسبباً إلقاء حمل على الكنيسة التي تحت سلطتي، بلاسابقة، ومن ثم التخلي عن حقوقها القديمة».

وتلقى رئيس الأساقفة هذه الاجابة بامتعاض، وسأل بشفتين ترتجفان من الغضب، وبصوت خافت، هربرت أسقف سالسبري عن رأيه حول تأمين العون إلى الملك، فرد على هذا السؤال باختصار وقال مايلي: «يبدو بالنسبة لي، أنه بدون الحاق ضرر عظيم بكنيستي، أنا لايمكنني أن أقول أو أفعل شيئاً آخر غير الذي اقترحه أسقف لنكولن الآن أن يفعل»، وفقد الآن رئيس الأساقفة السيطرة على نفسه تماماً، وانفجر في وجه أسقف لنكولن، ثم فض الاجتماع، وقام باخبار الملك بأن أسقف لنكولن هو المسؤول عن رفض اقتراحه، وعندما استقبل الملك اثنين أو ثلاثة رسل من عند رئيس الأساقفة، أمر وهو في حالة هياج من شدة الغضب بمصادرة جميع ممتلكات الأسقف، وأرسلت التعليمات نفسها إلى أسقف سالسبري الذي أيّد أسقف لنكولن ثم ماالذي أعقب هذا؟ عانى أسقف سالسبري من المصادرة مباشرة، وتمكن من شراء رضى الملك واسترداد ممتلكاته بدفع مبلغ كبير من المال، وتحقق هذا من خلال ذهابه إلى الملك وتحمله لكثير من الاهانات، وللمزيد من الاساءات، وبدفع ثمن باهظ وبعد مصاعب جمة، ولم يتجرأ، على أية حال، أحد على الاستيلاء على أراضي وممتلكات أسقف لنكولن، خشية اثارة غضبه،

وخوفاً من حرمانه الـذي ساوى الحكم بالموت، ولهذا لم يتخذ اجراء ضده من عيـد القديس نيقـولا إلى بداية ايلـول، لأن عامل المصـادرة الملكي لم يتجرأ على مصادرة ممتلكـات الأسقف على الرغم من أوامر الملـك المتوالية والقاسية.

وأخيراً، وتحت إلحاح طلبات الموظفين الماليين، الـذين تعرضـوا لضغط شـديد مـن الأوامر الملكيـة القاضيـة بمصـادرة ممتلكاتـه، ذهب أسقـف لنكـولن عبر البحـر إلى الملـك، واتصل بـا لملك نفسـه، بـدون الاستعانـة بخـدمــات أي وسيـط، ووجـده في البيعـة في قلعتــه الجديـدة في لاس أندلاس، يستمـع إلى قداس رفيـع بمناسبة عيـد الطبيب الكبير القـديس أوغسطين، يـوم ٢٨آب، وحياه مبـاشرة، وكان الملـك جـالساً على عـرش ملكي عند المدخـل، والأسقفان: فيليب أوف درم ويوستـاس أوف إيلاي يقفان عند قـدميه، وعندما حياه أسقـف لنكولن، لم يرد الملـك عليه، بل قطب في وجهه، وبعـد وقت قليل أشاح بـوجهه عنه، وقال الأسقـف له: «مـولاي الملك، قبلنـي»، لكـن رتشارد أدار رأسـه أكثـر ونظر نحـو الاتجاه الآخر، وهنـا أمسك الأسقف بشـدة بإزار الملـك الذي لفه حـول صدره، وهزه بعنـف قائلاً ثـانية: «أنت مـدان لي بقبلة، لأنني جئـت من مسـافة بعيدة لرؤيتك» فـأجابه الملك: «إنك لاتستحق ولاقبلـة مني» فهزه بعنف أكبر من قبـل، وهذه المرة بوساطـة ردائه الذي أمسكه بقوة، وقـال بجرأة: «إنني أمتلـك كلّ الحق بـواحدة» ثـم أضاف «قبلنـي»، واستسلم الآخـر أمام شجاعته واصراره، وبعد قليل قبله مع ابتسامة.

وتبـادل أسقف لنكـولـن مع الملـك عبـارات الاحتجاج بعـدة كلمات قاسية، لغضبه الأخير الذي هو غير مسـوغ، وقدم تعليلات كثيرة أظهر فيها أنه لم يخفـق قط في أداء واجبـه نحوالملـك، ولم يستطع الملـك معارضتـه، ولهذا وضع جميع اللوم على رئيـس أساقفة كانتربري، الذي غـالباً ماأساء الشرح لـه في رسـائله، واستفـاد الأسقـف مـن هـذا التوضيـح واستغلـه

بسهولة لإقناع الملك أن كلّ ماقيل غير صحيح تماماً، وقال: «إنه باستثناء مجد الرب، ونجاة نفسي ونفسك، لم أعارض قط حتى الآن أي شيء هو لصالحك».

وهكذا انطفأ غضب الملك وسخطه، وقدم أعطيات ملكية إلى الأسقف، وأرسله للاقامة بمثابة ضيفه في شاتو— غيلارد Chateau-Gaillard التي بناها حديثاً على إحدى الجزر [لاس أندلاس] التي لم تكن بعيدة كثيراً، وطلب الملك من الأسقف أن يعود في اليوم التالي ليراه، حتى يتمكن بعد مقابلة أخرى من العودة إلى وطنه وهو واثق من صداقته، وسمع هيوج أسقف لنكولن هذا شاكراً، ووعد بالعودة في اليوم المقبل.

وشعر هيوج، وهو الأب الروحي للملك، بمسؤوليته عن سعادة نفس رتشارد، وبناء عليه، أخذ بيده، وجعله يقوم من على كرسيه، وسحبه جانباً إلى مكان قرب المذبح، وسأل هيوج رتشارد الجلوس، ثم جلس هو نفسه، وشرع بعد ذلك يتكلم معه على انفراد، وقال له: «إنك فرد من أبرشيتنا يامولاي الملك، وبسبب وضعنا الكهنوتي سوف نجيب في يوم الحساب الرهيب، عن نفسك، التي أنقذها رب العالمين بدمه الخاص، ولهذا أسألك أن تخبرني عن أحوال ضميرك، فبذلك يمكنني أن أقدم لك مساعدة فعّالة ونصيحة حسبما ستوجهني روح القدس، فقد مرّ مالا يقل عن سنة منذ أن تكلمت معك حول ذلك في مناسبة أخرى.

وفي الحقيقة، إنه فيما يتعلق بك، وهنا أتكلم بأسف، هناك روايات أنك غير مخلص لفراش الزوجية، وأنك لاتبقي امتيازات الكنيسة دون انتهاك، لاسيما فيما يتعلق بتعيين الأساقفة أو انتخابهم، لابل لقد قيل إنك اعتدت على رفع أناس إلى حكم النفوس صدوراً عن عواطف الصداقة، أو أنهم دفعوا لذلك، وهذا ذنب شائن جداً، وإذا صح هذا فالرب لن يمنحك السلام».

وأصغى الملك باهتمام إلى عظته ونصيحته، وأنكر في بعض الحالات أنه كان مجرماً، وسأل مساعدته بصلواته في مسائل أخرى.

وبعدما تلقى الملك مباركته تركه يذهب، وانطلق هيوج شاكراً نحو مكان الاقامة الذي اختاره له الملك وأعده.

وتباحث الملك في الوقت نفسه مع أعوانه حول الأسقف، وعلق على قداسته بشيء كبير من الاعجاب وقال: «في الحقيقة، لو كان بقية الأساقفة مثله، مامن ملك أو حاكم سيتجرأ على رفع رأسه ضدهم».

ونتابع مع رواية ديسيتو عن حكم رتشارد في سنة ١١٩٨، التي شهدت حدثاً حاسماً في أهميته بالنسبة للسياسة الأوروبية، وتمثل ذلك بانتخاب البابا انوسنت الثالث.

وبعدما تخلص البابا كلستين من أعباء هذه الحياة، جرى انتخاب الكاردينال الشماس لوثاريو Lothario بابا يوم ٩ كانون الثاني، وقد اتخذ لنفسه اسم انوسنت الثالث، وفي يوم ٢١ شباط رسم أسقفاً وتوج على عرش القديس بطرس.

وهطل في يوم ٨ أيار مطر دموي على الرجال الذين كانوا يتولون بناء قلعة في لاس أندلاس في منطقة روان.

واستسلمت آخن التي كان يحاصرها أوتو ابن أخت رتشارد ملك الانكليز إليه، وتزوج في اليوم التالي من الابنة الوحيدة والوريثة لدوق برابانت، وكان عمرها سبع سنوات، وفي ١٢ تموز جرى تتويجه من قبل أدولف رئيس أساقفة كولون، واعتلى عرش القياصرة.

تجمعت على تخوم ويلز، قرب مايعرف باسم قلعة ماتيلدا، قوات الدفاع الرئيسية بنوايا عدوانية وكانت هذه القوات مسلحة من أجل القتال، وكانت المجموعة الأولى من الويلزيين مؤلفة من الجنود الرجالة،

والذين كانوا في المجموعة الثانية عبارة عن فرسان ورجالة، أما المجموعة الثالثة فتكونت من الفرسان فقط، أما جيش الملك فقد تألفت المجموعة الأولى فيه من الجنود الرجالة، ووقف الفرسان في المجموعة الثانية، بينما تجمعت قوة الجيش كله في المجموعة الثالثة، ومع أول اشتباك أدار الويلزيون ظهورهم، وأخذت الأسلاب منهم، ووقع عدد كبير منهم بالأسر، وقتل عدد أكبر، فقد وصل عدد المقتولين إلى ثلاثة آلاف مقاتل، وهكذا تحققت النبوءة القائلة: «سوف تسبب الجراء العاوية مذبحة عظيمة بين صفوف كلّ من يعترضها».

وفي يوم ١٠ أيلول توفي رتشارد أسقف لندن صاحب الذكرى الحبيبة، وذلك بعدما شغل كرسيه لمدة ثماني سنوات، وثمانية أشهر، وعشرة أيام.

ووصل بلدوين كونت فلاندرز إلى أمام بلدة سينت أومر ومعه جيشه يوم ٦ أيلول، وألقى عليها الحصار لمدة ثلاثة أسابيع.

وفيما الكونت ملقياً للحصار، وصل رسول من عند ملك فرنسا، يحمل رسالة تقول: إنه إذا ماتمكن شحنة البلدة ومعه سكانها من الصمود والدفاع عن بلدتهم ضد الكونت حتى ٣٠ أيلول، إنه سوف يأتي إلى مساعدتهم مع جيش كبير في ذلك اليوم، وإذا لم يقدم، بإمكان الشحنة وأهل البلدة أن يفعلوا أحسن مايستطيعون، وبذلك استسلمت البلدة إلى الكونت.

ودخل رتشارد ملك الانكليز مناطق الملك الفرنسي مع جيش كبير يوم ٢٧ أيلول، واستولى على قلاع: كورسل Courcelles وبوريز Bur-riz وسيرفونتين Sirefontaine وجاء في اليوم التالي ملك فرنسا من مانتس Mantes مع أربعمائة فارس وسيرجندية مع عتادهم ومؤنهم لمساعدة قلعة كورسل، التي لم يعتقد أنها سقطت، ولهذا ما ان رآه ملك الانكليز قادماً حتى أقنعه بادارة ظهره والفرار، وزجّه في أوضاع

محرجة عند بوابة غيسور، حيث تحطم الجسر تحته، مع غرق عشرين من الفرسان، وأسقط ملك انكلترا بالوقت نفسه برمحه ماثيو أوف مونتمورنسي Montmorency وألان أوف روشي Rusci وفولك غلرفيل Gi-lervalle وأخذهم أسرى مع مائة فارس وعدد كبير جداً من السيرجندية، وتم الاستيلاء على مائتي حصان حربي، بينهم مائة وأربعين كانوا مدرعين.

سنة تسع وتسعين ومائة وألف

عدّ البابا إنوسنت الثالث البابا الرابع والثمانين بعد المائة في ثبت البابوات شروعاً من بطرس الرسول، الذي قال له يسوع المسيح: «أنت بطرس —الصفا— وعلى هذه الصخرة سوف أبني كنيستي».

تسلم وليم المولود في نورماندي، والكاهن في كنيسة لندن، هبة السيامة في وستمنستر في بيعة القديسة كاترين، وجاء ذلك بناء على طلب من رالف ديسيتو عمدة لندن، وكان الذي قدم إليه الهبة هو هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، بحضور ثلاثة عشر أسقفاً، في يوم ٢٣أيار.

في ٢٦نيسان جرح ملك انكلترا بسهم أطلقه بيتر باسليوس Ba-sillius قرب قلعة شالو Chalus في الليموزين في دوقية أكوتين، وتوفي بعد ذلك في القلعة يوم الثلاثاء، وجاءت وفاته جديرة وموائمة لرجل أوقف نفسه على أعمال الحرب، وقد حكم تسع سنين وستة أشهر، وتسعة عشر يوماً.

وقد دفن في فونتفرولت Fontevraultعند قدمي أبيه، هنري

الثاني.

قدم آدم آينشام وصفاً دقيقاً لرحلة هيوج لنكولن السريعة والمرعبة لحضور جنازة رتشارد الأول في فونتفرولت.

جاءت راعية دير فونتفرولت المبجلة إلى أسقف لنكولن وأخبرته على انفراد بأن الملك قد أصيب بنشابة أطلقت عليه من قوس عقار، وأمضى عدة أيام في آلام مبرحة، وأن حالته خطيرة، ومن غير المعروف هل سيظل حياً أم سيموت، وبقدر ما أذكر، أصيب الملك بجرحه القاتل في اليوم نفسه الذي تعرض فيه الأسقف للمضايقات بوساطة الأذى الذي صدر عن مستشاريه الأشرار، ولدهشتنا أنه خلال الوقت الذي مضى فيما بين وصول الرسول وجراحة الملك مامن واحد تحادث معه حول كيفية معالجة هذه القضية، فقد جلس بهدوء ينتظر «الخلاص من الرب».

وفي الوقت نفسه سأل عميد أنغر مع الكهنة الأسقف أن يرأس القداس يوم أحد السعف، بسبب أن أسقفهم لم يعد من المجمع الكهنوتي في روما، حيث جرت سيامته حديثاً، وقد وافق، وعندما كان يوم السبت في طريقه إلى المدينة، رآه أحد الكهنة واسمه غلبرت دي لاسي Gilbert de Lacy وأخبره أن الملك قد مات ولاشك حول ذلك، وأخبره أنه سيدفن في اليوم التالي عند قدمي أبيه في فونتفرولت.

وعند سماع الأسقف هذه الأخبار تنهد وأجهش بالبكاء بصوت حزين مرتفع، وأخبر على الفور مرافقيه أنه سيذهب إلى المكان المتقدم الذكر لحضور الجنازة، وحاول الجميع أن يمنعوه من فعل ذلك، زد على هذا أنه عندما قدم إلى المدينة، سمعت اشاعات من جميع الجهات أن المسافرين قد هوجموا في كلّ مكان وسلبوا، وسمع أيضاً أن بعضاً من رجاله، الذين كانوا جالبين له مالاً من انكلترا قد وقعوا في أيدي قطاع الطريق، وأن

هؤلاء أخذوا منهم أربعين ماركاً فضياً.

وحثه رفاقه وخدمه ألا يعرض نفسه وصحبه إلى هذه المخاطر، وأن يبقى في المدينة حتى ينجح الخليفة الشرعي لرتشارد في اخماد عنف هؤلاء الرجال الأشرار، وأصرّ بعضهم على القول بأن شرورهم كانت كبيرة إلى حد أنه لم يبق لديهم احترام لأسقف أكثر من انسان عادي، وقالوا:

«ماالذي ستفعلونه، وإلى أي طريق ستتحولون، إذا —لاسمح الرب— كنتم في بقعة منعزلة وتعرضتم للسلب من خيولكم ومن ثيابكم»؟.

وكان وهو الرجل المستقيم، شجاعاً وثابتاً مثل الأسد، وأصبح الآن في الحقيقة أقل خوفاً في وجه الخطر، فرد على هذا كما يلي:

«من الواضح كثيراً أن هناك أشياء لاتحصى تخيف المسافر وتثير أعصابه في هذه الرحلة، وعلى كلّ حال إن الذي يبدو لي ماينبغي أن يخشى منه هو أن أقوم أنا بالتصرف كرجل جبان، فأتمنع عن شهود مولاي السالف وملكي في هذه المناسبة، وأن أخفق في تقديم الاحترام للميت مع الولاء، مثلما قدمتُ له دوماً وأنا حي، وافترض أنه آذاني، لأنه لم يكن متنبهاً تماماً ومتيقظاً لمستشاريه الأشرار، ولإطراءاتهم؟ ولكي نكون متأكدين، لقد فعل ذلك، لكن عندما كنت معه عاملني دوماً باحترام فائق، ولبى لي طلباتي كلما اتصلت به شخصياً حول أية مسألة تتعلق بي شخصياً، وإذا كان قد عاملني بشكل سيء بأية طريقة من الطرق عندما كنت غائباً، فهذا ينبغي عزوه إلى شرور خصومي وليس لنوايا شريرة صادرة عنه، ولهذا سأبذل جهد مستطاعي لأرد له أعماله الحسنة وفضائله نحوي، هذا ولن يكون الخطأ خطأي إذا لم أقدم خدماتي أثناء الجنازة، وإذا ماواجهت لصوصاً على طريقي، وإذا ماأخذوا خيولي وثيابي، ستوصلني قدماي إلى هناك بشكل أسرع، وذلك إذا ما تحررت

من أثقـال ثيـابي، وإذا مـاربطـوا قدمـاي، وسلبـوني من أيـة قـدرة على الحركـة، وقتها فقـط يكون غيـابي الجسـدي مسوغـاً، لأن مـرد ذلك لبس لخطأي بل للمعيقات التي فرضها عليّ أناس آخرون».

وبعدمـا قال هـذا ترك معظم رفاقـه، وجلّ أثقالـه في المدينة، وانطلق، آخذاً معـه واحداً من أقل كهنته أهميـة، وراهباً وعدداً ضئيلاً من خـدمه، ولقد سمع بأن الملكة بيرنغاريا كانت مقيمة في قلعة بوفورت Beau-fort وقد تخلى عن الطـريق العام وسـافر خلال منطقـة غابيـة كثيفة إلى تلك البلـدة، وذلك بهدف مـواسـاتها لموت زوجهـا، ونفـذت كلماتـه إلى نفس الأرملة الحزينـة، ذات القلب المحطم، وسكّن حزنها بطريقـة رائعة، وتحدث إليها بشكل جميل جـداً عن الحاجة إلى الجلد في مواجهـة النوازل وإلى الحكمـة في أوقات السعـادة، وبعـدما أقـام قـداساً، وأعطى الملكـة والذين معهـا تبريكاته المهيبـة بشكل عاطفي فيـه حب وولاء، غادر على الفور، ووصـل في ذلك اليوم إلى بلـدة تدعى سـومور Saumur حيث جاء سكـان البلدة بشكل انفعالي لمقـابلته، وتجاوب مع الـرجاءات الحارة التي قدمها له غلبرت دي لاسي الذي ذكرته من قبل، والذي كان يشرف على المدرسة هناك، وأقام معه، حيث عـومل بكرم فائض، ووصل في فجر اليوم التالي، الذي كان أحد السعف إلى ديـر فونتفرولت، والتقى عند باب الكنيسة مع حملة تابوت الملك، وبعدما دفن بشكل فخم جداً، مع الأبهة الملكيـة، ذهب الأسقف أخيراً إلى المقـر الذي عين لـه، ولمدة ثـلاثة أيـام كاملـة اعتاد أن يـذهب إلى الديـر، حيث كـان يردد القـداسات والمزامير ويصلي للعفـو عنـه، وللمبـاركـة بنـور سرمـدي يصـاحب نفسيّ الملكين اللذين دفنا هناك، ونفوس جميع المؤمنين الذين ماتوا في المسيح.

القسم الخامس

جون

١١٩٩-١٢١٦

شكل حكم الملك جون نقطة علامة، وحداً فاصلاً في التاريخ الانكليزي، فقد تمّ فقدان جميع الممتلكات البلانتغنتية الواسعة في فرنسا باستثناء غسكوني، لقد فقدوا لصالح فيليب الثاني ملك فرنسا، الذي قطع أواصر بيت أنجو مع موطنه الأصلي، يضاف إلى هذا نجم عن النفقات المدمرة والمتصاعدة للحرب الفرنسية، وسوء تصرف جون مراراً مع رعيته، تصاعداً في مقاومة البارونات، التي أرغمت جون في سنة ١٢١٥ على إعطاء تنازلات —مؤقتة— كثيرة صدرت في مرسوم أو ميثاق اصلاحات [ماغناكارتا]، وتوفي جون بشكل مفاجيء سنة ١٢١٦، تاركاً ولده الرضيع هنري الثالث وريثاً له. وبدأ رالف أوف ديسيتو حكاية حكم جون في كتابه «صورة التاريخ» الذي توقف مع أحداث سنة ١٢٠١، وتناول الرواية من بعده لمدة أربع سنوات رالف راعي دير كوغشال **Coggeshall** وهو كاتب رهباني مولع بالأحداث الاعجازية، وبعده تولى جيرفاس **Gervase** وهو راهب من كانتربري، وصف الأحداث من ١٢٠٥ إلى ١٢١٠ في كتابه «أعمال الملوك»، ولقد كان جيرفاس ولداً مخلصاً لدير كاتدرائيته، وتظهر كتابته فن التأريخ الديري في أحسن أحواله، وأخيراً هناك بالنسبة للسنوات

الست المتبقية من حكم جون المؤرخ المجهـول من بارنول Barnwell الذي قـدم لنا رواية متوازنـة إلى حد ما ومصقولـة، ومع ذلك هي رواية حيّة حول هذه السنوات الحاسمة من تاريخ انكلترا.

جرى تتويج جـون صاحب إيرلاندا، والـوريث الشرعي لأخيه رتشارد الأول، دوقاً لنـورماندي في روان، وتـولى التتويج وولتر رئيس أسـاقفة روان يوم ٢٥نيسان ١١٩٩، وعندمـا وصل إلى انكلترا عُمّد بشكل مهيب ملكاً في وستمنستر من قبل هيـوبـرت رئيس أسـاقفـة كانتربـري، في يـوم عيـد الصعود، ٢٧أيار.

وزار جون ملك انكلترا، بعـد تتويجه مبـاشرة، ضريح القديس تـوماس (في كانتربـري)، وزار بعد ذلك ضريح القديس ادمونـد في بري Berry وأمضى أحد الشعانين في نورثأمبتون، وقام بعد ذلك في ١٩حزيران بعبور القنال مع حشـد من الفرسان، والجنـود الرجالـة والسفن، وتم العبور من شورهام.

وجرى طـلاق الملك من ابنة إيرل غلـوستر في نورمانـدي، وتولى ذلك أساقفـة ليزوكس وبيـوكس Bayeux وأفرانش Avranches مع أسـاقفة آخـرين كـانوا حضـوراً، وكان الملك جـون قـد تزوج منهـا بإذن البـابـا، وتسلم مقـاطعـات غلـوستر، وسمـرست، وديفـون، وكـورنـول، وتشريفات ومنح أخرى في أرجاء انكلترا.

ومهما يكن الحال، لقد استولى عليه الأمل بزواج يرقى به أكثر، فأصغى إلى النصـائح السيئـة ورفض زوجتـه، فكسب بـذلك الغضب العظيم للبابا، أعني بذلك البابـا انوسنت الثالث، وذلك مع غضب جميع أعضاء مجلس الكـرادلة في رومـا، فلقد غضبـوا لأنه تصرف بسرعـة ضد الشرائع والقوانين، وتحلل مما ربطوه به بوساطة سلطاتهم.

وقدم آرثـر ابن غيوفـري صاحب بـريتاني، وابن أخي الملـك جون، إلى عمه الملك، وأطاعه في جميع رغباتـه، ثم تركه جون يذهب دون اتخاذه أي إجـراء احتياطي، ولهذا ذهب آرثـر عندهـا إلى ملك فـرنسا، الـذي تطلع شرهاً إلى ثروته، فضمه إليه ليتربى مع ابنه في باريس.

كان جون وآرثر صاحب بريتاني في سنة ١١٩٩ متنافسين بشأن إدعاء ملكية أراضي أسرة بلانتغنست، وامتلك آرثر مساندة قويـة في أنجو، لكن لـوردات بواتـو وقفـوا إلى جـانب إليانـور بقبـول جون، وبـذلك قلبـوا الموازين ضـد آرثر، وعنـدمـا حصل آرثـر على حماية فيليب الثـاني، ملك فرنسا، بقي هكذا ممثلاً لتهديد رئيسي لسيطرة جون على أراضيه.

سنة مائتين وألف

وحـدث خسوف للقمـر يـوم ٣كانـون الثـاني، في منتصف الليل، ودام ثلاث ساعات، وقد حول على الفور لون الدم، وقذف بأشعة تشبه النار.

وأبرم في هذه السنـة سلام بين فيليب الثاني، ملك فـرنسا، وبين جون، ملك انكلترا. وتزوج لـويس ابن ملك فرنسا من ابنة ملك اسبـانيا، التي هي ابنة أخت ملك انكلترا، وبسبب هذا الـزواج أعطاه جون كلّ أراضي بري Berry وأوفرين Auvergne وقلاعـاً وكثيراً من التشريفات في نورماندي وغسكوني وأماكن أخرى كثيرة.

انتهى الآن تـاريخ رالف ديسيتـو، ونكمل الـرواية بـالحكـايـة الملونـة لرالف راعي ديـر كوغشال Coggeshal ومثله مثل ديسيتـو حدثنا عن السـلام الذي عقـد فيما بين جون وبين فيليب الثـاني ملك فرنسـا في سنة ١٢٠٠، وقدم لنا المزيد من التفاصيل، فقد تنازل كما قال: جون عن

أراضي وقلاع، ومنح فيليب ثلاثين ألف مارك (٢٠,٠٠٠ جنيه) وقدم له أيضاً الولاء عن الأراضي الفرنسية، ومن أجل أن يجمع هذا المبلغ فرض ضرائب ثقيلة على انكلترا، بما يعادل ثلاثة شلنات على كلّ مساحة من الأرض يفلحها محراث واحد.(فدان) .

وقدم الملك جون إلى مقاطعة يورك، وطلب المال من بعض رعاة الديرة السسترشيين، الذين قابلهم هناك، ومن رعاة ديرة آخرين تابعين لرهبانيات أخرى، فقد استهدف إلحاق الظلم بهذه الرهبانيات بفرض الضرائب، لأن الديرة كانت حتى حينه معفية من ضرائب من هذا القبيل، ورد رعاة الديرة ببساطة بالرفض، وفعلوا ذلك قبل الاتصال بالديرة التابعة لهم وبرعاتها، ذلك أنهم كانوا يخشون أنهم إذا ماوافقوا على المكوس الملكية، قد يفرض بعد ذلك خدمات أخرى على التنظيم الرهباني، وتعللوا حين رفضوا بأنهم لم يدفعوا أي مبلغ من المال دون موافقة عامة من جميع الرهبان.

وانزعج الملك كثيراً من ردهم، وأمر وهو مغضب وحانق العمال (الموجودين منهم بكلمات الفم والغائبين بالرسائل) بوجوب إلحاق الأذى برجال هذه الرهبنة بأية وسيلة يستطيعون استخدامها، وأن عليهم تعذيبهم، وعدم اظهار العدالة نحوهم في المضار التي تلحقهم، وفي المحاكم، وعدم مساعدتهم في خلافاتهم، بل عليهم إحالة كلّ شيء إلى الملك.

وانزعج رجال الفضيلة هؤلاء تجاه هذا القرار القاسي انزعاجاً كبيراً وخافوا، ولذلك أحالوا قضية مافرضه الملك إلى هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، ورجوه أن يقابل الملك ويبحث معه قضية هذا الأمر العنيف، وليحاول التخفيف من عدوانيته بأية طريقة ممكنة سواء بالصلوات أو بالهدايا، وانتقد هيوبرت الملك بشكل علني بسبب عنفه الكبير، وأعلن أنه مضطهد للكنيسة المقدسة، لأنه عزم على فرض مثل هذه الظلامات

والمضار العظيمة على أبناء الكنيسة الذين هم أكثر الناس قدراً بين أبناء الكنيسة والذين تمتدحهم الكنيسة كلها وتحترمهم بسبب مسلكهم القويم في الحياة، ولمراعاتهم المخلصة والدقيقة للأمور الدينية.

فإلى تلك الساعة وضع الملوك والأمراء هؤلاء الناس دوماً في مكان محترم لائق، وأعطوهم أراضي مع كثير من المقتنيات، وحموهم جميعاً بدرع الوقاية والدفاع.

وأظهر الملك جون القبول بما طرحه رئيس الأساقفة، لكن لبعض الوقت فقط، ولزيادة الازعاج استدعى رعاة الديرة بوساطة رسائل جديدة، ولم يخلص عقله من العدوانية التي حملها نحوهم. وعندما كان الملك على وشك عبور البحر، وعده رئيس الأساقفة، حتى يرضيه، بمبلغ ألف مارك لصالح المنظمة الرهبانية، على شرط أن يؤكد الأعطيات والحريات التي منحت للرهبان من قبل الملك رتشارد، ورفض الملك هذا العرض رفضاً مطلقاً، لأنه كان صغيراً، ثم عبر البحر، وهو يتلفظ بالتهديدات وبالشتائم ضد تلاميذ المسيح، واشتكى إلى رعاة أديرة ماوراء البحر حول ردّ رعاة الأديرة الذين يعيشون في انكلترا.

ودفع الملك جون إلى ملك فرنسا الثلاثين ألف مارك كجزء من ثمن السلام معه، وبعدما هدأ جميع الأعداء وأخضعهم عاد إلى انكلترا في أيام عيد القديس مايكل في ٢٩أيلول، وقدم مع زوجته ايزابلا(٢٨) ابنة دوق أنغوليم، التي تزوجها عندما كان فيما وراء البحر بموافقة الملك فيليب، ووضع جانباً زوجته الأولى للسنوات الخالية، وتخلى عنها على أساس القرابة المحرمة للزواج، وفي اليوم التالي جرى تتويج جون في وستمنستر ومعه زوجته، التي كانت في حوالي الثانية عشرة من عمرها، ومع ذلك توجها ملكة.

وفي الصباح الباكر، وقبل الذهاب إلى الكنيسة، أمر الملك هيوج دي

نيفل، المسؤول الرئيسي عن الغابات، مع بقية رجال السلطة الأقوياء، أن يأخذوا بعين الاعتبار أمر الرهبان السسترشيانيين بوجوب نقل خيولهم، وخنازيرهم وقطعانهم من الغابات الملكية خلال أسبوع واحد، وبنهاية هذا الموعد كلّ مايوجد في داخل الغابات سوف يؤخذ ويباع لصالح الملك.

وبناء عليه، عندما أعلن أمر الملك القاسي إلى الرهبان في كلّ مكان، جهز كلّ دير أفضل مالديه لإيواء قطعانه، وتحمل الرهبان بصبر الأذى العظيم الذي لحق بهم من الملك، وصلّوا في ضيقهم إلى ربهم المدافع عنهم، ليغير روح الملك نحو اللطف بهم، وليحرر رعيته من محنهم وحزنهم، أما الذي سمعهم ولم يتخل عن الذين وضعوا أملهم به، فحررهم بسرعة من آلامهم، فلدى اكتشاف رئيس الأساقفة لأمر الملك، أمر بناء على تشاوره مع رعاة الديرة، بعقد اجتماع في لنكولن، استعداداً لوصول الملك في ١٩ تشرين الثاني، حتى يتمكن ذلك الجمع من اللقاء به، وبسهولة يستطيع تهدئة فورة غضب الملك، وتحويله نحو الرحمة والتصالح، ووافق رعاة الديرة عن طواعية على هذا المسعى، والتقوا في المكان المذكور في اليوم المحدد، واثقين أكثر بعون الرب، ومعتمدين عليه أكثر من اعتمادهم على قدراتهم، واجتمعوا في اليوم التالي، وهو يوم عيد القديس ادموند، واستقبلوا باحترام وتحيات رئيس الأساقفة عندما قدم إلى المدينة، فترجلوا وركعوا على ركبهم أمامه، وبتواضع التمسوا من رئيس الأساقفة أن يعالج بلطف وعاطفة نحوهم، مسألة هذا الخلاف، وأن يتدبر بعنايته تلطيف سخط الملك عليهم، وأثير رئيس الأساقفة —على كلّ حال— بتذلل مثل هذا العدد الكبير من الرجال المشهورين، وترجل من على حصانه، ومثلهم تذلل في نفسه، وبكى، ثم وعد في أن يكون عونهم وناصحهم في جميع القضايا، وبعدما أصغى إلى مطلبهم وعدهم بتحقيق السلام ومنفعة الرهبنة بقدر مايمكنه، وأن يحاول تهدئة

الملك بكافة السبل.

ثم غادر رعاة الديرة المدينة دون رؤية الملك، وبحثوا قضية الخلاف فيما بينهم، ورأى بعضهم أنه يتوجب عليهم أن يدفعوا له كامل ماطلبه، ورأى آخرون وجوب رفض مطلبه، وكان هذا الرأي هو الذي انتصر بالنهاية.

التقى الملك جون في يوم الأربعاء الأول الذي جاء بعد عيد القديس ادموند، بوليم ملك اسكوتلندا الذي جاء مع رولاند أمير غالووي Galloway وعدد آخر من اللوردات، فهو قد جاء إلى لنكولن لتقديم الولاء إلى الملك، الذي توقف عنه حتى الآن، ولهذا تأجلت مسألة رعاة الديرة، وفي اليوم التالي أراد رئيس الأساقفة أن يتدخل مع الملك ويبحث معه قضية رعاة الديرة، لكنه سمعه وهو يتحدث وكأن الغضب مسيطر عليه، ويتحرك بموجبه حيث قال مخاطباً رئيس الأساقفة: «أرجوك يارئيس الأساقفة لاتجعلني أغضب في هذا اليوم لأنني اقترحت أن أستدمي هذا اليوم»، ولهذا كان رئيس الأساقفة حريصاً على نصح رعاة الديرة أن يتجنبوا التحرك أمام ناظري الملك، وفي الأحد التالي انتهى الملك من سماع قداس مع رئيس الأساقفة، وعندما كان على وشك مغادرة الكنيسة، سأل رئيس الأساقفة الملك أن يتعامل برحمة مع مشكلة رعاة الديرة، الذين كانوا واقفين بحضرته.

وبعد قليل من التريث، مضى الملك نحوهم، وخاطبهم بصوت مرتفع قائلاً: «وأين مولانا وأبونا رئيس الأساقفة»؟ وبادر رئيس الأساقفة نحوه مسرعاً، وبدأ على الفور نقاش سري معه ومع الأساقفة، بينما ظل رعاة الديرة واقفين في القاعة، وبعد طول انتظار جرى استدعاء رعاة الديرة للمثول أمام الملك، الذي أمر رئيس الأساقفة باخبارهم بخطته

وبرغبتـه، وبدأ رئيس الأسـاقفة حديثـه على الوجـه التالي: «نخبركم أولاً، أيها الآبـاء، أن الملك قد أزال من ذهنـه جميع الحقد وكلّ الغضب الـذي بدا واضحاً نحـوكم»، ولدى سماع رعاة الديـرة هذه الكلمات سجدوا على الأرض، وقـدموا الشكـر للملك، ثم تـابع رئيس الأسـاقفة يقـول: «ومثل هذا يسألكم الملك بتـواضع أن تغفروا له كلّ أذى تحملتموه نتيجـة لعدم الاتفاق هذا».

ثم شرع رئيس الأساقفة يتحدث مجدداً قائلاً:

«يسأل الملك الرهبنـة السسترشيانيـة وأنتم أن تتدخلـوا لصالحه، حتى يتم قبوله في اخوانيتكم، وفي جماعة الرهبانية، وأن يصلي رهبان كلّ دير في تلاوتهم لصـالحه، زد على هذا قرر الملك، بناء على نصيحتكم بنـاء دير في انكلترا، حتى يُتـذكر بشكل خـاص مادام حيـاً، وليدفن فيـه ويشرف بعد مـوته، إذا وفقـه الـرب إلى ذلك، ويعـدّ من الآن فصـاعداً أن يكـون ولي رهبانيتكم والمدافع عنهـا، وأن يحمي كلّ مايلـوذ بكم من أشياء، وعنـدما سمع رعـاة الـديرة هـذه الكلمات امتـلأوا بسرور عظيم، وقـدموا الشكـر للـرب القادر الـذي حول هكـذا روح الملك لتكـون لطيفة مع الـرهبانيـة ومحترمة لها.

وعنـدما تم الاتفـاق على هـذه الأشيـاء بالطـريق المعتـاد، وأعطي كلّ واحد قبلة السلام من قبل الملك، اقترح رعـاة الديرة وجوب ارسال الملك رسائل إلى كلّ واحد من عماله، خشية أنهم بتنفيـذهم الأمر يوقعون المزيد من الضرر، ووافق الملك عـن طـواعيـة على هـذا الاقتراح، وكلف رئيس الأساقفـة بمهمة ارسال الـرسائل باسم الملك إلى العمال في كلّ مقـاطعة، وكانت نسخة الرسالة حسبما يلي:

«من جون ملك انكلترا بنعمـة الرب، ولورد ايـرلندا، ودوق نورمـاندي وأكوتين، وكونت أنجو إلى عاملي اسكس وهارتفورد، تحيات.

اعلموا اننا استقبلنا رعـاة ديرة رهبانية سسترشيان برعـاية كاملة وجميع مقتنياتهم وبضائعهم بأيدينا، محفوظـة ومحمية، وبناء عليه آمركما بكلّ دقة أن تتوليـا حماية هـؤلاء الرجـال والحفاظ عليهم والدفـاع عنهم وعن جميع مقتنياتهم، وكأنها تماماً مقتنياتنا الملكية الخاصة، وألا تسببا لهم أي أذى أو ضرر، وألا تسمحـا أبداً بمعـانـاتهم من أي أذى داخل منطقتي ادارتكما، وإذا حدث وكـان قد لحق أياً منهم أذى أو اقترف بحقه جـريمة من قبل أي انسـان بسبب أوامـرنـا التي قضت بـالتصرف بسـوء نحـوهم، عليكما التعـويض والاصـلاح بـدون تأخير. شهـدت بنفسي. لنكـولن ٢٦تشرين الثاني».

وقبل هـــذا التـاريخ سمع في الأول من تشريـن الثـاني صـــوت رعـد مـرعب، منـذراً بـوقـوع شيء عظيم، فقــد عـاد من رومـا هيـوج أسقف لنكولـن، الذي كان في يـوم الأيام رئيـس دير في وتهام Witham وهو دير رهبـانية كـارثوشيـان Carthusian في انكلترا، وبعد عـــــودته أصيب بمرض عضـال في لندن، ونتيجـة لهذا المرض، وبعدمـا شغل هذا المنصب لمدة خمس عشرة سنة وخمسـة عشريوماً، انتقل من هـذا النور، إلى —كما نعتقد— النور الذي لاينتهي، وكـان ذلك في الأول من شهر كانون الأول، ونقل جسـده الذي بـلا حياة من لنـدن إلى لنكولن، وكـان مصير منصبه آنـذاك بمشيئة الرب مـوضوع مشـاورات في لنكولن فيما بين ملك انكلترا، وبين وليم ملك اسكوتلنـدا، وكان قـد حضر معهما ثلاثـة رؤساء أساقفة وتقريباً كافة نبلاء المملكتين.

وعندمـا أعلن أن جسد الأسقـف بات على مقربـة من المدينة، انـدفع النـاس على شكل حشـود للمشاركـة في مـوكب جنـازة راعيهم الكنسي، وحضر الملكـان نفسيهما، ورؤساء الأسـاقفـة وجميع رجـال الدين والنبـلاء بكل تبجيل، وتخلى جـون عن الأبهة الملكيـة، وسـار مع رؤساء الأسـاقفـة برؤوس مطأطأة، وبتـواضع وضعوا التـابوت على أكتـافهم، وحملوا الحمل

المقدس لبعض الوقت متجاهلين الطين في الطرقات من أجل جنازة مثل هذا الرجل.

وأخيراً حمل جسد هيوج إلى كنيسته الأسقفية، من قبل رؤساء الأساقفة، والأساقفة ورجال الدين في البلدة، وهم ينشدون التراتيل والمزامير، وتليت فصول من الكتاب المقدس في القداس الليلي من قبل الأساقفة ورؤساء الأساقفة، واعتقد الذين أتيحت لهم الفرصة بلمس تابوته أو بتقبيل قدميه، أو بلمس بعض ثيابه، انهم محظوظين، وقدمت تقدمات كثيرة وأعطيات له، وهو مسجى لابساً شاراته وملابسه الكهنوتية، ووجهه غير مغطى، تبعاً للعادة، ورأسه مزين بقلنسوته الدينية.

وكان الأسقف هيوج قد شرع ببناء كنيسة جديدة في تلك البلدة تكرّس على اسم الرب الأب، وأراد أن تبنى هذه الكنيسة بمخطط رشيق، فتتفوق بجمال بنائها على جميع كنائس انكلترا الأخرى، وأمر بوجوب اكمال عمارتها سواء أكان حياً أم ميتاً، وفي الحقيقة كان قد أسس في أسقفيته نقابة دفعت ألف مارك كلّ سنة من أجل هذا العمل.

وانتشرت أقاويل أنه من خلال فضائل هيوج، وبنعمة من الرب، نال بعض المرضى من الناس الشفاء، ولاعجب أن يظهر الرب الكرامات للناس على الأرض ليمجد محبوبه هيوج، الذي آمن بقداسته عدد كبير من الناس، الذين عرفوا أنه مارس حياة كانت كلها فضائل وبلا خطيئة، ولكونه كان الأكثر شهرة وسمواً بين الأساقفة بالنسبة للقيام بواجباته الدينية، نال هيوج أعظم احترام بين رجال الدين، بسبب أنه حتى بعدما صار أسقفاً، حاول دوماً أن يعيش حياة متواضعة لابل حياة رهبانية، وذلك بقدر ماسمحت له وظيفته ومسؤولياتها، وقد كره وباء السيمونية كثيراً، إلى حد أنه لم يمنح قط منصباً لاهوتياً لأي انسان بسبب توصية من الملك أو من أي انسان صاحب سلطان، مالم تكن هناك براهين بأنه كان جديراً. وهناك أشياء كثيرة يمكن أن تكون نافعة

لتكتب عن طريقة حياته المحمودة، غير أننا ندع ذلك إلى الذين هم أكثر فصاحة منا، ويمتلكون المزيد من المعرفة عن أفعاله.

وانقطع كاتبنا هنا عن متابعة روايته ليقدم إلينا عدة حكايات عن الكرامات العجائبية جاء القصد منها التوجيه والتسلية للقارىء، وكانت هذه الوقائع قد حدثت قبل بعض السنين المتقدمة.

حدث في أيام هنري الثاني، عندما كان الفارس بارثلميو أوف غلانفيل Glanville يتولى حفظ القلعة في أكسفورد، أن بعض الصيادين كانوا يصطادون في البحر هناك، فأمسكوا بشباكهم مخلوقاً متوحشاً، وقد حمل إلى شحنة القلعة ليراه ويتفحصه، وكان عارياً تماماً، وشابهت جميع أطرافه أطراف الانسان، وكانت له لحية طويلة مدببة، وكان صدره مليئاً بالشعر وخشناً.

واحتفظ الفارس المذكور أعلاه بهذا المخلوق في السجن لمدة طويلة، ليلاً ونهاراً خشية أن يعود إلى البحر، ولقد أكل بشهية كلّ شيء جلب إليه، سواء السمك المطبوخ أو غير المطبوخ، لكنه كان يعصر بشدة السمك النيء حتى يطرد ماءه كلياً، وذلك قبل أكله، وهو لم يرغب بالكلام، أو بالحري لم يستطع، حتى عندما كان يعلق من قدميه ويعذب عذاباً شديداً، وعندما كان يؤخذ إلى الكنيسة، لم يظهر أي علامة على الاحترام أو الإيمان، لابركوعه ولابطأطأة رأسه، وقد شهد —على كلّ حال— القداس مراراً، وكان يسرع إلى فراشه عند غياب الشمس، ويبقى مستلقياً حتى شروق الشمس.

وحدث أيضاً أنهم أخذوا هذا الرجل إلى البحر، ووضعوه في البحر، بعدما جعلوا أمامه شباكاً قوية جداً مؤلفة من ثلاثة صفوف، وقصد هذا المخلوق أعماق البحر وعبر خلال هذه الشباك جميعها، وظهر مرة تلو أخرى ونظر مطولاً إلى الذين كانوا يراقبونه على الشاطىء، وغالباً

ماغطس ثم ظهر بعد وقت قصير، وكأنه يسخر من الذين كانوا يراقبونه ويخبرهم أنه تجنب شباكهم، وبعدما لعب هكذا لوقت طويل في البحر، وانفقد الأمل كلياً بعودته، سبح خلال أمواج البحر، وعاد ثانية إليهم عن طواعية وبإرادة منه ومكث معهم لمدة شهرين آخرين.

واحتفظ به بعد ذلك بإهمال وعومل بازدراء، لذلك هرب سراً إلى البحر، ولم يعثر عليه ثانية، وليس من السهل القول فيما إذا كان مخلوقاً بشرياً كتب عليه الفناء، أو نوعاً من أنواع الأسماك ظهر على شكل مخلوق بشري، أو نوع من أنواع الأرواح الشريرة مختبئة في جسد انسان غريق، وذلك حسبما قرأنا عن واحد من هذا القبيل في أيام القديس أون Ouen وليس بالممكن التأكيد أو النفي خاصة بسبب أننا سمعنا عن كثير من هذه الأشياء العجائبية، وعن وقوع حوادث مثل هذه.

ووقعت أعجوبة أخرى في سفولك Suffolk عند وولبت Wool-pit فقد عثر على طفل وأخته من قبل السكان قرب فم حفرة كانت هناك، وقد بديا في مظهرهما مثل بقية المخلوقات البشرية في شكل أطرافهما، لكن اختلفا عن البشر العاديين في لون شعرهما، لأن الطبقة الخارجية من شعرهما كانت ممزوجة بالأخضر.

ومامن أحد كان بإمكانه أن يفهم كلامهما، وعندما أخذا إلى بيت أحد الفرسان في وكس Wix واسمة السير رتشارد دى كلين Clane للنظر إليهما والتعجب، بكيا بدون توقف، ووضع أمامهما الخبز وأنواع أخرى من الطعام، لكنهما لم يرغبا بأكل شيء، وقدم لهما الطعام مع أنهما عذبا بالتجويع الكبير، لكنهما لم يأكلا شيئاً، وكان هذا بسبب اعتقادهما أن هذا النوع من الطعام لايؤكل، فهذا مااعترفت به الفتاة، عندما أحضر إليهما بعد وقت طويل، بعض السنابل الطازجة وهي على سوقها، وأدخلت عليهما في البيت، وقد أوميا برغبة شديدة أنه ينبغي اعطائهما هذه السنابل، وعندما وضعت الحبوب أمامهما، فتحا السوق وليس

سنابل القمح، ظانين أنه يمكن لهما العثور على الحبوب في السوق، وعندما لم يجدا الحبوب في السوق، شرعا بالبكاء ثانية، فأروهما الحبوب المقطوفة، فأكلاها بسعادة كبيرة، ولم يلمسا طعاماً آخر لوقت طويل.

وكان الطفل دوماً حزيناً وكأنه يعاني من وهن عظيم، وتوفي خلال وقت قصير، لكن الفتاة تمتعت تماماً بمزيد من ازدياد الصحة، ونمت لتعتاد على أنواع الطعام الأخرى، وفقدت ذلك اللون الأخضر، وكسبت ببطيء لون بشرة حمراء في جميع أنحاء جسدها، فبعدما ولدت مجدداً من خلال التعميد بقيت لسنوات عديدة في خدمة ذلك الفارس (حسبما اعتدنا أن نسمع منه ومن أهل بيته) وكانت حيوية ومفعمة بالنشاط.

وغالباً ماسئلت عن شعب بلادها، فكانت تؤكد أن جميع السكان لهم بشرة خضراء، وأنهم لم يروا الشمس قط، بل تمتعوا بنوع من الضوء، مثل الضوء الذي يبقى بعد غياب الشمس، وعندما سئلت كيف حدث أن وصلت إلى هذه البلاد مع أخيها، أجابت أن ذلك كان عندما كانا يتبعان شاة، ففتشا داخل أحد الكهوف، وبعدما دخلا إلى الكهف سمعا الأصوات المبهجة للنواقيس، وسيطر عليهما الصوت الجميل فمشيا وظلا يسيران بلا هداية داخل الكهف لمدة طويلة، حتى وصلا إلى المخرج، وعندما خرجا صعقا وصارا بلا عقل بسبب ضوء الشمس والمناخ الذي كانا غير معتادين عليه والهواء، وبقيا مستلقيين لوقت طويل عند فم الكهف، وخافا من أسئلة الذين وصلوا ورغبا بالفرار، غير أنهما لم يجدا المدخل إلى الممر، وألقي القبض عليهما.

وفي أيام الملك رتشارد، على شاطيء اسكس، وفي قرية اسمها ايدولف نس Edolfes Nesse عثر على سنين يعودان إلى مخلوق عملاق، وكانا من عظم الحجم بمكان أن مائتين من أسنان الانسان يمكن أن تقطع منهما، ولقد رأينا هذين السنين في كوغشال، واتفقنا أنهما فعلاً من العجائب، ووجد هناك أيضاً ضلع مخلوق عملاق، وعثر في

مقاطعة يورك على رأس مخلوق عملاق، يمكن للجمجمة أن تستوعب بوشل من القمح (٣٢,٥ليتر)، وأيضاً عثر عليه على شاطىء البحر.

وكان في ويلز رجلاً هائل الطول، بلغ نحواً من تسعين انشاً في الطول، وكانت أصابعه طويلة جداً وغليظة، غير أنه كان قد حرم من القوة بشكل مابوساطة المراهقة، وظهرت في السنة نفسها في تلك المقاطعة آثار أقدام بطول غير اعتيادي، على السهل المعشوشب، وحيثما كانت الآثار، ظهر العشب وكأنه أحرق بالنار.

استأنف كوغشال روايته التاريخية وأعادنا بشكل مفاجىء إلى حوادث سنة١٢٠١.

سنة إحدى ومائتين وألف

ثار واحد من نبلاء أكوتين اسمه هيوج، ويعرف بلقب البني، ضد الملك جون، وأراد أن يغزو أجزاء كثيرة من المقاطعة مع حلفائه، وكان سبب هذا أن الملك قد تزوج من ابنة كونت أنغوليم، التي كانت مخطوبة له من قبل وفي حفظه، ولهذا السبب عبر الملك البحر، وأخضع الثوار.

وثارت في يوم ميلاد القديس يوحنا عاصفة قاسية، فيها رعد وبرق، وبرد ومطر غزير وعنيف، وقد سببت دماراً كبيراً للرجال، وللحيوانات وللحقول، وأحرقت البيوت، واقتلعت الأشجار في أماكن كثيرة، وبعد مضي خمسة عشر يوماً ثارت عاصفة أخرى، لكنها لم تشبه الأولى، لذلك لم يمكن تقطيع المروج، لأن ماقطع حملته بعيداً مياه الفيضان المتدفقة، وماتت حشود هائلة من الأسماك، من تلوث المياه التي سببها العشب المتعفن، وفي الحقيقة كان هناك فيضانات كثيرة وعارمة، استمرت لعدة

أيام وغطت مناطق كثيرة، فدمرت الجسور وأتلفت المحاصيل، وغرق كلّ شيء، ولهذا خاف بعض الناس أن الرب نوى من وراء هذا الهطول فيضاناً آخر عظيماً.

وجاء راعي دير فلي Flay إلى انكلترا لينشر كلمة الرب في مناطق متعددة، وحث الناس على مراعاة يوم الأحد، والاحتفال بوقار بأعياد القديسين بين أشياء أخرى كثيرة، ومنعهم من الذهاب إلى أي سوق مهما كان نوعه في يوم الأحد، ولهذا حدث منذ ذلك الحين أن الناس في جميع مقاطعة كانتربري وأماكن أخرى عديدة في انكلترا لايذهبون إلى الأسواق في يوم الأحد، وذهبوا لحضور القداسات الدينية، وانتشرت الأحاديث عن عدد كبير من الكرامات العظيمة، وكانت هناك أقاويل في كثير من مناطق انكلترا عن عقوبات ربانية أنزلت على الذين رفضوا بعد التبشير، ترك أعمال خدماتهم في الأيام المقدسة والسبوت بعد نداء الساعة التاسعة بعد الشروق.

وحدث في أيام بطرس الراعي الرابع لدير كوغشال، أن الأخ روبرت وهو أخ علماني تابع لذلك الدير، وكان مسؤولاً عن حفظ بيت الضيافة، دخل في أحد الأيام إلى قاعة الضيافة قبل تقديم وجبة الغداء حسبما جرت عادته، فوجد بعض الأشخاص، يدل مظهرهم الخارجي ولباسهم على أنهم كانوا محترمين، وكانوا جالسين في القاعة، وقد ارتدوا أردية تشبه مايرتديه فرسان الداوية، ووضع كلّ واحد منهم قبعة على رأسه، وكان هناك منهم قرابة تسعة رجال، أو أكثر، لأن الأخ لم يدقق تماماً ليعرف تعداد من اجتمع هناك، ونظراً لأنه اعتقد أنهم من الداوية، حياهم بلطف، وقال له أحدهم وقد بدا أنه مسؤول عن الآخرين: «أين يمكننا تناول الطعام»؟ فأجابه: «سوف تأكلون بالحجرة مع راعي الدير» فأجابه هذا على الفور: «ليس من عادتنا الأكل في حجرة خاصة بل في القاعة مع الضيوف» وخرج بعد هذا الأخ إلى خارج القاعة، وذهب إلى راعي

الدير، وأعلمه بوصول الضيوف، فأمره الراعي بتحضير كلّ شيء ضروري وإعداد المائدة، ووعد بأنه سيأكل معهم في الحجرة، وبناء عليه عندما جاء الراعي إلى المائدة أمر الأخ بجلب الضيوف.

وذهب الأخ إلى القاعة، لكن الضيوف الذين تركهم فيها قبل وقت قصير، لم يجدهم، فذهب يفتش عنهم في الغرف الداخلية وفي مختلف الأماكن، فلم يعثر على أحد منهم مطلقاً، وركض إلى هنا وهناك في فناء الدير آملاً في لقاء الرجال، وقال له رجل هناك بأنه شاهدهم يذهبون نحو الكنيسة ومقبرة الاخوان، فبادر مسرعاً بارسال رسول إلى هناك، لكن الرسول لم يعثر على أحد منهم، وسئل حفظة الأبواب عن الضيوف فقالوا إنهم لم يشاهدوا مثل هؤلاء الرجال يدخلون من الأبواب أو يخرجون منها في ذلك اليوم، وفي الحقيقة: من كان أولئك الرجال، وكيف جاءوا، وإلى أين ذهبوا؟ يبقى هذا سراً غامضاً حتى اليوم.

ونحن لانشك في حكاية الأخ الذي رآهم وتحدث معهم، لأننا نعرف حياته وضميره، فلقد أخبرنا مراراً بهذه الحكاية، حتى في أثناء مرضه الكبير الذي أخذه من هذا النور، وقد تحدث عنهم ببساطة، لأنه كان راوياً للحكايات بسيطاً، يستخدم كلمات قليلة، ولايظهر أي تفاخر في كلماته أو أفعاله.

سنة اثنتين ومائتين وألف

أبرم في سنة اثنتين ومائتين وألف سلام بين فيليب ملك فرنسا وبين جون ملك انكلترا، لكن الملك قام على الفور بحملة قتالية حادة على كونت لى مارشي، الذي اسمه هيوج ويعرف بلقب البني، وعلى أخيه كونت ابن Eu اللذان ثارا ضده، بسبب زواجه من ايزابلا أوف

أنغوليم.

وأمـر الملك فيليب جـون مـراراً أن يتمنع عن اثـارة رجـالـه، وأن يقيم معهم تسويات سلمية، ولكن لعدم مـراعاة جون لأوامر فيليب، ومطالبه، جرى استدعـاء ملك انكلترا هذا من قبل نبلاء مملكة فرنسـا بحكم كونه كونتـاً لأكوتين وأنجـو، وطلبوا منه الحضـور إلى بلاط محكمـة مولاه، ملك فرنسـا، في باريس، وكـان عليه الخضـوع لحكمهم والاجابـة على أخطائه، والاستجابة للتعامل مع القانون، حسبما يقرر رفاقه في المراتب الاقطاعية.

وعلى كلّ حال، رد ملك انكلترا أنـه دوق نورمانـدي، وليس مرغماً بأي حـال من الأحوال على الحضـور إلى البلاط للمحـاكمـة في باريس، وهـو يـرغب فقط بـالتشاور مع الملك حـول مـوضـوعات الحدود بين المملكـة والـدوقية، فهـذا متفق عليـه بين الدوق والملك منـذ زمن قـديم، ومؤكـد بوثـائق أصلية، وناقش الملك على كـلّ حال هذا الموضـوع وبين أنه ليس من العدل مطلقاً أنه بسبب أن الرجل هـو كونت أكوتين ودوق نورماندي ينبغي ألا يفقد حقه في أكوتين.

واستمرت هـذه المناقشة طويـلاً، وظهرت مشاكل جديـدة من يوم إلى آخر، ومع الأيـام تراكمت المشاعـر العدوانية على الطـرفين، وأضيف إليها تهديدات عنيفة.

وبعد وقت طويل اجتمع البـلاط وحكم بوجوب انتزاع جميع الأراضي التي تملكها ملك انكلترا مع أجداده من الملك الفـرنسي، لأنهم لم يقدموا لها منذ زمن طـويل أية خـدمات تقـريباً، ورفضوا اطـاعة مـولاهم، وبناء عليـه قبل الملك فيليب مسروراً بـالحكم الـذي صـدر عن بـلاطـه ووافق عليه، وجمع جيشاً وهاجم على الفور قلعة بوتفانت Boutavant التي بنيت من قبل الملك رتشارد في نـورماندي واجتثهـا من على وجه الأرض، ثم استـولى على جميع أراضي هيوج دي غـورني Gournay وعلى جميع

القـلاع المجـاورة، ثم استـولى على كـونتيـه وقلعـة أوميل Aumale وكونتيـه إيو Eu وجميع الأراضي حتى اركوي Arques ولم يواجه أية مقاومة.

وعنـدما بلغ آرثـر، ابن أخي الملك جـون، السـادسة عشرة من عمـره، رسم فـارسـاً من قبل الملـك فيليب وخطّبـه ابنتـه الصغـرى، وبنـاء على نصيحة مـؤذية واقتراح من قبل بعضهـم، أعلن العصيـان على عمه، واتبع النصـائح الشريـرة المتعجلـة، فـانطلق مـع هيـوج البني وغيـوفـري أوف لـوزغنان ومـائتين وخمسين جنـديـاً لحصار قلعـة ميربـو Mirebeau حيث كانت جـدته، الملكـة إليانور مقيمـة مع رجالها، وخشيـة من الملكة أن تقع بـالأسر، أمـرت ابنهـا جون أن يجلب إليهـا العـون بأقصى سرعـة ممكنة.

وانطلق الملك على الفور إلى هنـاك مع جزء من جيشه، وكان الثـوار قد دخلـوا إلى البلـدة وأغلقـوا بـالتراب جميع أبوابها بـاستثنـاء بـاب واحـد، وانتظروا وصول الملك وهم قد أحكموا الـدفاع عن أنفسهم، وكانوا أيضاً مطمئنين وواثقين بحشـدهم من الفرسـان المدربين والسيرجنـدية، وبعـد قتال شديد ذخل الملك إلى المدينـة، واستطاع على الفور، بإرادة من الرب أن يأسر جميع أعـدائه الـذين تجمعـوا هنـاك، فقـد أسر ابـن أخيـه آرثـر، والكـونت هيـوج وغيـوفــري أوف لـوزغنـان، ومـائتين وخمسين من خيرة الفرسان، وبذلك حرر أمه ورجالها من المحاصرين.

وكان الملك فيليب يحاصر قلعـة آركوي منذ زمـن طويل، وعندمـا كان على وشك الاستيـلاء على القلعـة، وصلتـه أخبـار أسر آرثـر والآخـرين، فأبعدته عن الحصار، وعاد إلى فـرنسا، مغضباً كثيراً لسوء الحظ الذي حلّ برجاله.

واستولى بعـد هذا الملك جون على بلـدة تور بالقـوة، وعلى قلعة فيليب

هنـاك عنوة، وألقى فيهـا النـار فأحرق كلّ تلك المدينـة الجميلـة تقريبـاً، وكسب بسبب عملـه هذا كـراهية سكان تـور ونبلاء تلك المنطقـة، ولكي يأسر خصومه أحرق أيضاً مدينة لامانس.

وسجن الـذين أسرهم في ميربـو، وبعث بهم إلى أماكـن مختلفة، وبعـد هزيمته فيما بعد، وبناء على طلبـات الرجاء من بعض النبلاء والتماساتهم، أطلق سراح الكونت هيـوج البني وغيوفري لوزغنـان مع آخرين أسرهم في ميربو، لكن ذلك كان بعدما سلموه قلاعهم ورهائن، وأقسموا اليمين ألا يثوروا ضـده، وعلى كلّ حال هم لم يحفظـوا يمينهم لوقت طـويل، وبدأوا يقـاتلـون الملك بحـدة أعظم من ذي قبل، والتحقت بهم جماعـات كثيرة من أعدائه.

وتقـدم وليم دي روشي، وكـان عضـواً قـويـاً بين مجمـوعـة النبـلاء الأنجيفيين، ومعه نبـلاء آخريـن من بريتـاني، تقدموا بـالرجـاء إلى الملك ليسلمهم آرثـر الـذي كـان محتفظـاً به بـالسجن تحت حـراسـة مشـددة، وعندما رفض جـون، تآمروا جميعاً، وأعلنوا معاً الثـورة ضده، وجمعوا جيشاً كبيراً من المنـاطق المفترض أنها تحت سلطـة الملك، وعـاثـوا فسـاداً في البلاد، وسلبوا وأحرقوا، وهاجموا عدداً كبيراً من القلاع.

وعنـدما حـدث هـذا تخلى عن الملك عدد كبير من الـرجـال الأقويـاء والتحقوا بـرفاقهم النبـلاء، وكان من بينهـم: روبرت كونـت أوف ألنكون Alencon وفيزكونت أوف بيمـونت، ووليم أوف فوجري Fougeres وبريتانيين آخرين، واستولوا على قلعة أنغر مع البلدة كلها، وبوقت قصير استولوا على عدد آخر كبير من الأماكن الحصينة.

ولاحظ المستشـارون لدى الملك أن البريتـانيين كانوا يسببـون كثيراً من التخـريب، ويثيرون الفتن في كلّ مكان لصـالح مـولاهم آرثر، ورأوا أنـه من غير الممكن تحقيق سلام ثابت مادام آرثـر حياً، فاقترحوا على الملك أن

يأمر بسمل آرثر وخصيه، وبذلك يتحول إلى عاجز عن الحكم، وبموجب ذلك سوف تتوقف المعارضة، وتقلع عن برنامجها بالتدمير وتخضع للملك.

وازداد غضب الملك جون نتيجة الهجمات غير المتوقفة لأعدائه، وشعر بالأذى من تهديداتهم وأفاعيلهم المضرة، وفيما كان في حالة من الغضب الشديد والحنق العظيم، أمر ثلاثة من خدمه أن يذهبوا إلى فالي، وينفذوا الفعل الكريه، ومقت اثنان من خدمه تنفيذ مثل هذا العمل الشرير ضد شاب نبيل مثل آرثر، فهربا، أما الثالث الذي لبس ثلاثة خواتم حول قدمه، فقد توجه إلى القلعة التي وضع فيها الشاب الملكي تحت حراسة شديدة تولاها الحاجب الملكي هيوبرت دي بيرغ، وعندما أعطى أمر الملك إلى هيوبرت ثار حزن عظيم وأسف كبير بين الذين كانوا يتولون حراسته، وانفعلوا بشدة ورحمة نحو الشاب النبيل.

ولاحظ آرثر الحكم الذي أصدره عمه ضده، وخشية منه على سلامته، انفجر باكياً، وشرع يتشكى ويندب نفسه بشكل محزن جداً، وظهر الرجل الذي أرسله الملك لتنفيذ هذا العمل وجعل نفسه معروفاً من قبل الشاب الذي كان يبكي نفسه ويندبها، وتوقف آرثر فجأة عن الأنين، ونهض ومدّ بعنف يديه وأمسك بهما الرجل لينتقم منه، وشرع يدعو الفرسان الذين كانوا هناك بصوت منتحب وقال:

«أيها السادة الأعزاء، دعوني من أجل محبة الرب قليلاً لأنتقم من هذا الشرير، لأنه آخر من سأراه في هذا العالم».

وفي سبيل تهدئة هذه الضجة نهض الفرسان مسرعين وأمسكوا بيديه، وقاموا بناء على أمر من هيوبرت، بإخراج الشاب الذي جاء من الحجرة، وبهذا الطرد وبكلمات تهدئة قيلت لآرثر من الذين وقفوا من حوله، ارتاح آرثر قليلاً، لكن بقلب حزين.

ونظر هيوبرت حاجب الملك إلى أمانة الملك وسمعته، وكان يتوقع منه

العفـو، لـذلك احتفظ بـالفتى دونما أذى، واعتقـد أن الملك سينـدم على الفـور لإصداره هـذا الأمـر، وسيكره بعـد هـذا إلى الأبد كلّ من بـادر إلى اطاعة مثل هذا التصرف الشرير، فقد اعتقـد هيوبرت أن الأمر جاء نتيجة غضب مفاجىء ولم ينجم عن تقديرات هادئة.

ورغبة مـن هيوبرت في تسكين غضب الملـك جون، وفي الوقـت نفسه ايقـاف وحشية البريتـانيين أعلن في أرجـاء القلعـة وفي المنطقة كلهـا بأن الحكم قد نفـذ، وأن آرثر توفي لشدة حـزنه ومن الآلام الحادة التي نجمت عن جـراحـه، وانتشرت الأخبـار ودارت كلّ منـاطق المملكتين خـلال أسبـوعين، ثـم بـدأت النـواقيس تضرب، وكـان ذلك من أجـل روحـه، ووزعت ملابسـه على بيوت المجذومين، كما وأعلن أن جسد آرثـر قد حمل إلى الديـر السسترشياني المسمى سينت أندري —ان— غـوفرن Andre -en- Gouffern في نورماندي، ودفن هناك.

ولدى سماع هـذه الأخبار لم يخضع البريتـانيون، بل ازدادوا غضبـاً أكثر فأكثـر، وكانوا أكثـر تدميراً من ذي قبل حيثما أمكنهم، وأقسمـوا أنهم من الآن فصـاعداً لن يتـوقفوا عن حـرب الملك الانكليزي الـذي اقترف مثل هذه الفعلـة الشنيعة بحق سيـدهم، الذي هـو بالـوقت نفسه ابـن أخيه، واستدعى هذا ضرورة الإعلان أن آرثر الـذي قيل في كلّ مكان أنه مات، هو مايزال حياً، وهكذا هدأ غضب البريتانيين قليلاً.

وعندمـا أُخبر جون بما حـدث، لم يغضب لبعض الوقـت، لأن أوامره لم تنفذ، حتى أن بعض الفـرسان قـالوا له بأنـه لن يكون بإمكـانه من الآن فصاعداً تأمين قوات تتـولى حراسة قلاعه، فيما لو أنـه نفذ حكمه في آرثر، لأنه إذا صـدف ووقع أي فارس في أيدي ملك فرنسـا، فإنه سيتلقى على الفور المعاملة نفسها بلا رحمة.

كان هنـاك في هذه السنة زلـزال كبير في منطقة القدس، لم يعـرف مثله

منذ آلام ربنا، وتعـرضت مدينة صور الجميلـة للهزات الأرضية، وقتل جلّ سكـانها، وتهدمت هي كلهـا تقـريبـاً، كما تهدم ثلث عكـا مع قـلاعهـا وأبـراجهـا، ولحق الـدمـار بعـدد من القــلاع الأخـرى لـدى المسيحيين والمسلمين سـواء، وأثـرت الـزلازل على عـدد من الأمـاكن في انكلترا، وكانت هنـاك صواعق مـرعبه، وبـروق، وبرد متقطع وريـاح قويـة خلال شهر آب.

سنة ثلاث ومائتين وألف

كان في نيسـان من سنة ثلاث ومائتين وألف فيضـان غير متوقع سبب كثيراً من الأضرار في انكلترا كلهـا، وحدث هـذا بشكل اعجازي، لأن مـا تقدم على هذا الغمر هطول قليل من المطر.

وأخــذ آرثــر من فــالي إلى روان، وسجن داخل القلعــة، تحت حفظ روبـرت دي فوكسبـونت Vieuxpont وعلى الفـور أمــــر فيليب ملك فـرنسـا مع البريتـانيين الملـك جـون، ملك انكلترا، أن يطلق سراح آرثـر ويسلمـه إليهم، وأعدوا لـه عدداً كبيراً من الـرهائن، وأضـافوا تهديـدات قاسية إلى هذه الأوامر.

وعندما رفض جـون، هاجم فيليب مجدداً قلاع نورمـاندي، وبين أشياء كثيرة استـولى على جــزيـرة لاس أنــدلاس مع قلعتهـا، وعلى فــودريل Vaudreuil حيث كـان قد تمركـز عدد كبير من النبـلاء لحفظها، أذكـر منهم خاصة:

روبرت فتـز وولتر مع فرسانـه، وسير دي كونسي Saer de Quincy مع رجـالـه، واستـولى أيضـاً على كميـة كبيرة من العتـاد الحربي، ولم يقم

هـؤلاء الـرجـال أدنى اعتبـار إلى شجـاعتهم المعتـادة ولا إلى مسلكهم العسكـري، ولأنهم لم يتوقعـوا تلقي أية مسـاعـدة، لم يقومـوا بأية محاولـة للـدفـاع، وكأنهم بـلا قـوة، فقـامـوا بتسليم أنفسهم مع قلعتهم إلى ملك فـرنسا، وقـد جـرى فـداؤهم مقابل مبلغ كبير مـن المال، هو خمسـة آلاف مـارك استرليني، ولقد تعـرضوا لسخـريـة ولإهانـة الشعب في المملكتين، بسبب هذا، ولطخوا بذلك شرفهم.

استولى بعـد هذا الملك فيليب على شاتـو غيلارد Chateau Gail-lard التي بدت لاترام، وكـانت قد بُنيت من قبل الملك رتشارد الأول، ملك انكلترا مقابل نفقات عـالية قرب لاس اندلاس على نهر السين، على الـرغم من معارضـة رئيس أساقفـة روان، لأن تلك الأرض كانت عـائدة لـه، وكان القـائد العسكري لتشستر في القلعـة مع عدد كبير من مشـاهير الفرسان والسيرجنـدية، وقد حافظ على القلعة بكل فاعليـة لوقت طويل، وصمد في وجه قـوة كلّ جيش الملك الفرنسي، لكن عندمـا باتت الحامية بحاجة ملحـة لمؤن الأطعمة لم يعد بإمكان عناصرها الاستمـرار في مقاومة الأعـداء، وفي الحقيقـة لم يكن الملك جـون راغبـاً في ارســال قـوات إلى المحـاصرين لأنه كـان يخشى دوماً من خيـانة رجـاله، وعبر في الشتـاء في شهر كانون الأول إلى انكلترا حيث ترك النورمان في قلق عظيم وخوف.

ثم تـولى بالواقـع إيقاع الظلم والتشـديد على انكلترا، بمطـالبه الكثيرة للمال، حيث أمل في حشـد جيش كبير يتمكن بـواسطتـه من محق قـوات الملك فيليب.

سنة أربع ومائتين وألف

توفيت الملكة إليـانور في هذه السنة، وكان ابنة كونـت بواتو، وكان أول

أزواجها الملك لويس السابع ملك فرنسا، ثم تزوجت هنري الثاني ملك انكلترا.

أفقدَ موت إليانور جون مؤيداً صاحب نفوذ رهيب، وناصحاً كبيراً.

عقد الملك جون في منتصف الصيام مجلساً للتداول، وقرر أن يرسل سفراء إلى ملك فرنسا هم: رئيس أساقفة كانتربري، وأسقف نورورك، وأسقف إيلاي، والإيرل وليم مارشال وإيرل لستر، وكان عليهم معرفة نوايا الملك الفرنسي، وليبحثوا معه في عقد معاهدة سلام معه، وأعلن الملك الفرنسي عن استعداده لعقد معاهدة سلام إذا توفر شرط واحد هو: إذا أطلق سراح آرثر وسلم إليه حياً. فقد أمل فيليب أنه إذ مااكتشف أن آرثر كان ميتاً، وقتها يمكنه أن يزوج أخته وبذلك يحصل على ممتلكاتها في القارة، وعليه لم يكن الملك فيليب راغباً في اقامة السلام، لأنه كان واثقاً أنه سيتمكن حالاً من تملك جميع أراضي الملك الانكليزي.

وفي هذه المرحلة لم يكن لجون أولاد، وكان إذا ماتوفي فسوف ترث أخت آرثر أراضيه.

ولهذا اقترح الملك فيليب دوماً شيئاً محرجاً، أو غير ممكن، وكان هذا دأبه خلال المناقشات، فقد أراد إلحاق العار والذل بالملك جون، وأن يلغم عزته الملكية وينسفها، وأظهر دوماً غضبه بشأن وفاة آرثر، الذي سمع بأنه أغرق في نهر السين، ولهذا أقسم أنه لن يتوقف عن إثارة الحرب ضد جون حتى يحرمه من مملكته كلها.

وحشد فيليب في أيام عيد الفصح جيشاً، وحاصر قلعة فالي، التي مالبث أن استولى عليها بدون مقاومة، ثم وصل إلى كين Caen؛ وبسلام تسلمها من قبل السكان هناك، واستولى بعد هذا على كامل

المنطقـة حتى بـارفلـور Barfleur وتشير بـــورغ Cherbourg ودومفرونت Domfront واشترى سكان روان وفيرنـول Verneuil والذين يتولون حراسة قلعـة آركوي Arquesهدنة أربعين يـوماً من ملك فـرنسـا، حتى يكـون بـإمكـانهم ارسـال رسل إلى الملك الانكليـزي لمعرفة قراره، لأنه إذا كـان مولاهم غير قادر على مساعدتهم، أو غير راغب بـذلك، وقتهـا يمكنهم الاستسلام إلى سلطـان الملك فيليب بـدون صراع عنيف.

وبعثوا على الفـور برسلهم إلى انكلترا، ببعثة فيهـا مافيها من التعـاسة، وطلبوا من الـرسل أن يبينوا الحالة التعيسـة في نورماندي، وأن يطلبـوا منه القيـام بـانقاذهم، ومهما يكن الحال، لم يعطهـم الملك جون العـون لأنـه خـاف من خيـانـة بعض رجـالـه، وعـاد الـوفـد حـزينـاً وقلقـاً، وهكـذا استسلمت مدينة روان التي لم تقهر بعـد، واستسلم سكان فيرنول وآركوي معاً إلى الملك فيليب.

وهكـذا خضعت في وقت قصير لسلطـان الملـك فيليب: نـورمـانـدي العنيدة، وأنجو، وبريتاني، ومين، ومقاطعة تـور، وحدث هذا كله وفاقاً مع نبوءة ميرلين Merlin التي قالت في هذه السنة: «سوف يفترق السيف عن الصـولجان»، أي ستنفصل نورمانـدي عن مملكة انكلترا، فقـد مكث ملوك انكلترا دوقـات لنورمـاندي لمدة مـائة سنة وتسع وثـلاثين سنة، من أيام الـدوق وليم الذي استـولى على انكلترا، حتى الملك جون الـذي فقد هذه الدوقية مع الكثير من أراضي ماوراء البحار.

وكـان طوال هـذا الوقت هنـاك صراع عظيم فيما بين البواتـويين وبين الأكـوتينيين، فقـد كان الأول مخلصين للملـك جون تحت قيـادة روبـرت ثـورنهام Tjornhamفي حين كـان مع الآخـرين وليم دي روشي والكـونت هيـوج الـذي غـزا أراضي الملك جـون، وكـان الملك فيليب بمساعـدتهم قادراً على الاستيـلاء على كلّ بواتـو تقريبـاً، باستثنـاء روشل

Rochelle التي صمدت بشجاعة ضد كلّ انسان لمدة سنة، ومثلها كانت قلعة شينون Chinon مع هيوبـرت دي بيرغ فيها، فهي لم تستسلم إلى أعدائها طوال ذلك الوقت، وقاوم جيرارد دي آثي -Ath ee شحنة قلعة لوشي، بشجاعة ووقف ضد الثوار.

وساند الغسكونيون الملك الانكليزي، وأعطى الملك جون إلى موريف Moreve وكان واحداً من الغسكونيين، مبلغاً قدره تسعة وعشرين ألف مارك ليحشد جيشاً قوامه ثلاثين ألفاً، يتوجب قدومه لدى طلبه من قبل الملك جون، عندما سوف يعبر البحر، وكان رئيس أساقفة بوردو، وهو راهب موراڤي، موجوداً في انكلترا للبحث في هذا العمل، وليعمل بمثابة رهينة مقابل المال.

وبنى الملك جون ديراً في نيوفورست حمل اسم بيولو Beaulieu وجلب إليه ثلاثين راهباً من رهبانية سيتو Citeaux.

جرى خلع ألكسيوس الامبراطور الضعيف للقسطنطينية من قبل قريبه مرزوفلوس، الذي أعلن عن نفسه امبراطوراً، وقام بقتال الجيش الغربي في عدد من المناسبات، وفي ردة فعل ضده وانتقاماً منه نهب الصليبيون القسطنطينية.

قامت القسطنطينية على مثلث من الأرض، طول الضلع فيه ستة أميال، وقالوا بلغ محيط المدينة ثمانية عشر ميلاً، وهذا معناه أن المسافة من زاوية إلى زاوية كانت ستة أميال، وكان ارتفاع الأسوار خمسين قدماً، وكانت هناك أبراج على طول الأسوار بين البرج والبرج الآخر عشرين قدماً، وكان أشهر القصور الامبراطورية في المدينة اسمه بلاشرين، ثم قصر قسطنطين وقصر بوهيموند، واحتوت المدينة على كنيسة لانظير لها اسمها آيا صوفيا، بناها جستنيان، وقيل دوماً بأن معيار بنائها مع

تـزييناتها رائعة إلى درجـة لايمكن تصـديقهـا، ومنح الأباطـرة الكنيسـة إيرادات كثيرة، ووضعـوا فيها تسعمائة وخمسين كـاهناً، ومن المؤكـد القول على عهدة الذين عـرفوا المدينة، أنه كان فيها من السكـان أكثر مما عاش بين مدينة يورك ونهر التيمز.

وعندما تم الاستيـلاء على المدينة، وهرب الامبراطور مـرزوفلوس، جرى اتفاق عام على اختيـار بلدوين كونت فلاندرز امبراطـوراً، فقام على الفور بكرم منـه فوزع ثلث مـاكان من مال في الخزانـة الامبراطوريـة، الذي بلغ مليوناً وثمانمائة مـارك فضي، وزعه بين الأمراء اللاتين والجيـش، وبدا هذا المبلغ الضخم من المال مثلـه مثل أي شيء تعلق بثروات الاغـريق، ومثل أبنية المدينة وآيا صوفيا، أمـراً لايصدق، لأن الذين عادوا من تلك المدينة قالوا بأن الـدخل اليومي للامبراطور هـو ثلاثين ألف بيربري Perpres والبيربـري هـو بنس ذهبي يسـاوي ثـلاث شلنـات من الفضـة، كما منح أيضاً بكـرم الأمراء وآخرين كانـوا معه مناصب رفيعـة وتشريفات، وكثيراً من الأعطيات الثمينـة، وبعث إلى الملك فيليب الذي كـان من قبل مولاه قطعة مـن العقيق، وكانت من أثمن المجـوهرات، يمكنهـا اضاءة القصر كلـه بأشعـة براقـة حمراء، وثـوبين ملكيين نسجا بـالـذهب بشكل رائع، وأحجار كريمة.

هناك في القسطنطينيـة عمود، بني في العصـور القديمـة من قبل واحد من رجال الكنيسة، حيث استخدم فنوناً ميكانيكية، فقد قيل بأن قاعدته بحركـة دائمة، وفي أعـلاه تماثيل ثلاثة أبـاطرة، ينظـر أحدهم نحـو آسيا، وآخر نحـو أوروبا، وثـالـث نحو أفـريقيا، وهنـاك اطار فـوق التماثيل كتب عليه بـالاغريقيـة بأنه بعـد أن يحكم ثلاثـة من الأباطـرة اسم كلّ منهم ألكسيـوس بـلاد الاغريق، ستصل مملكـة الاغـريق إلى نهايتهـا، وستنتقل الامبراطوريـة إلى أيدي شعب غريب، ووقف على رأس الاطـار تمثال رابع جـاء فوق الجميع، وهـو أكثر عظمـة، وأعظم سمواً من التماثيل الأخـرى،

وقد نظر نحو العالم الغربي ومدّ يديه نحو الغرب.

سنة خمس ومائتين وألف

كان الشتاء في سنة خمس ومائتين وألف شتاء قاسياً، وتجمد النهر، لذلك بات بإمكانك عبور نهر التيمز على الأقدام، وكانت الأرض قاسية لم يمكن فلاحتها من عيد الختان في الأول من كانون الثاني حتى عيد البشارة في ٢٥آذار، وفي الحقيقة لحق التلف بالموسم الشتوي كله تقريباً بسبب شدة البرد، وبادر الناس بسرعة إلى اقتلاع الخضار النامية، وحدثت مجاعة كبيرة في جميع أرجاء انكلترا، ولهذا بلغ ثمن بوشل bushel القمح الواحد [٨-غالون] ماركاً واحداً، وهو ماكان يكلف في أيام الملك هنري الثاني ١٢بنساً، وبات ثمن المقياس الواحد من حبوب الفاصولياء والبازلاء نصف مارك، وبلغت تكلفة البوشل الواحد من الشوفان ٤٠بنساً، وهو ماكنا اعتدنا على شرائه بأربعة بنسات، وصارت النقود رديئة إلى درجة كبيرة وفاسدة بسبب قصقصتها وتقطيعها [إلى أنصاف وأرباع] حتى بات من الضروري تجديدها هذه السنة.

ووقع الآن بالأسر روبرت ثورنهام الذي صمد بشدة أمام الثوار البواتويين، والذي تولى أسره هو جيش الملك الفرنسي، وحدث الشيء نفسه لجيرارد دي آثي، فقد سقط مع قلعة لوشي التي دافع عنها بشجاعة كبيرة لمدة طويلة.

وقرر الملك جون، الذي كان قلقاً جداً، مع أنه أخفى حزنه وأسفه، أن يعبر البحر مع جيش كبير بغية استرداد الأراضي المفقودة، وكان قد ربح إلى جانبه نبلاء بواتو وغسكوني من خلال وعود سرية، وتلقى التحريضات بشكل مستمر من بعض نبلاء نورماندي، الذي تشكوا

بحرقة من طغيان الملك الفرنسي.

وبناء عليه عقد الملك جون بعد عيد الفصح مجلساً استشارياً في نورثأمبتون، ثم عبر البحر من بروشستر مع جيش كبير وجيد، والتحق به هناك حشد من السفن جاءت من عدد كبير من المراسي، وبعدما جرى توزيع السفن التي وصلت. على كلّ واحد من النبلاء، خصصت سفن للأطعمة، والعتاد، وحملت أخرى بمختلف أنواع الأسلحة، وعندما حلّ اليوم الذي باتت فيه السفن جاهزة للاقلاع، إذا برئيس أساقفة كانتربري والإيرل وليم مارشال قد عادا من بلاد ماوراء البحار، وذهبا إلى الملك لاقناعه بأي ثمن ممكن ليتخلى عن الحملة.

ووضعوا أمامه مخاطر كثيرة يمكن أن تنجم عن عبوره: سيكون من الخطر جداً انزال القوات بين الأعداء من دون تأمين قاعدة، وسيكون بإمكان الملك الفرنسي قيادة جيش أكبر ضده، وبذلك يمكنه غزو البلاد كلها، وسيكون من الخطر الاعتماد على البواتويين المرائين والمتقلبين، الذين اعتادوا دوماً على التخطيط لعمل تآمري ضد أمرائهم، وسيكون بإمكان كونت بولون Boulogne مع شركائه غزو انكلترا إذا ماسمع أنها فارغة من قادتها ومن جيشها الشهير، وسيكون هناك خوف عظيم من أنه سيخسر الذي بين يديه من الأراضي وهو يحاول استرداد مافقده، خاصة وأنه لم يترك خلفه وريث واضح للمملكة، يمكنه أن يتسلم حكومة المملكة إذا ماحدث شيء سيء له في بلاد ماوراء البحار. ومع أن الملك سمع هذه الحجج وغيرها لم يكن من الممكن اقناعه بالتخلي عن خططه بالذهاب إلى ماوراء البحار، وأمسكه رئيس الأساقفة والإيرل وليم من ركبتيه وتعلقا به خشية أن يتخلص منهما، وأصرا على أنه إذا لم يصغ لما طرحاه ويأخذ به سيمنعانه بالقوة، خشية أن تقع المملكة في لجّة من الفوضى بسبب مغادرته.

وجاءت الضغوط إلى الملك من جميع الجهات، فمن جانب كان هناك

العـار فيما لـو تخلى عن خطتـه، وكانت هنـاك من جـانب آخـر الطلبـات الملحة له بالبقاء، وسأل رئيس الأسـاقفة وهو يبكي وينوح عن رأي يكون عملياً أكثر لصـالح المملكة وللحفاظ على سمعته الملكيـة، وكيف يمكنه تأمين المسـاعـدة للـذين كـانوا ينتظـرونـه فيما وراء البحـار، وعقـد رئيس الأساقفـة مجلساً استشـارياً قرر وجـوب إرسال بعض النبـلاء الانكليز مع قوة معتبرة من الفرسان الأشداء، لتكون طليعة لقدوم الملك.

وبعدوقت طـويل اقتنع الملك مكرهـاً بالبقـاء وأخبر لورداتـه وفرسـانه بالعـودة إلى ديارهـم، وطلب أن يحاسبوا على المبـالغ التي دفعت في سبيل العبور، وعـاد هؤلاء الرجـال، الذين تحملوا الكثير من المصـاعب، وأنفقوا نفقات عـالية في هذه المنـاسبة، إلى ديارهم وهم سـاخطون كثيراً، ومعهم أحمال الأطعمـة التـي جمعـوهـا، ولعنـوا رئيس الأسـاقفـة والمستشـارين الآخـرين الذين أعطـوا الملك مثل هـذه النصيحـة السيئة، حسبما بـدت لكثيرين، وكان هـذا صحيحاً بشكل خاص بـالنسبة للبحـارة الذين قيل بلغ تعـدادهـم أربعـة عشر ألفاً، فقـد جلبـوا سفنهم من أمـاكن نـائيـة، وانتظروا عبثاً لبعض الوقت، مـع متاعب كبيرة، ونفقات عظيمـة، وذلك في سبيل العبـور، فلقد قيـل إنه لم يجتمع قط مثل هـذا العـدد الكبير من السفن للابحـار من ميناء انكليـزي للجواز، ولم يحشـد أبداً جيش أكبر في انكلترا فيه فرسـان أشداء متشوقين للجواز مع الملك، فقـد وصلت أخبار قـدومهم إلى بـلاد مـاوراء البحـار، فأوقعت الـرعب في قلـوب الفـرسـان الفـرنسيين في نـورمـانـدي، حتى أن بعضهـم تخلى عن القـلاع والبلـدات القريبة من البحر، وطلبوا السلامة في الفرار.

وعلى كلّ حال تـوجه الملك من سـاحل البحر إلى ونكستر وهـو حزين جداً، فقد استولى عليه الأسى وشعر بثقـل في قلبه حمله في اليوم الذي تلا عودته من الشاطـىء، على الابحار إلى جزيرة وايت Wight وظلّ هائماً على وجـه البحر يمضي إلى هنـا وإلى هنـاك لمدة يومين، وفي تلك الأثنـاء

كان رفاقه يحاولون ثنيه عن عبور البحر من دون الجيش الذي فرقه.

أما الذين مكثوا على البر فقد اعتقدوا مرجحين بأن الملك قد عبر، وأن أخباره انتشرت في جميع أرجاء المملكة، وعبر وقتها إيرل سالسبري، وهو أخو الملك، ومعه كثير من الفرسان، ووصل إلى روشيل Rochelle وكان قد عبر قبله بقليل غيوفري، الذي كان ابناً للملك جون من خلال خليلة، ووصل مع عدد كبير من الفرسان.

أما ماكان جرى جمعه من مبالغ مالية ضخمة، وحجم المؤن التي احتيج إليها في إعداد السفن، والأغذية التي جمعت والمخازن ليس من السهل تعداده.

وكان خلال ليلة عيد القديس يوحنا المعمدان في ٢٤حزيران، رعد مخيف وبرق قدم من السماء عبر انكلترا، وضرب مخلوق عملاق مرعب (تنين) بالبرق في كنت، قرب ميدستون Maidstone مع صوت تدمير كبير، وقد تبين أن له رأس أتان، وأمعاء انسان، أما أطرافه العملاقة الأخرى فلم تكن تشبه أطراف أي مخلوق آخر من أنواع الحيوانات، ونادراً ماتجرأ أحد على الاقتراب من جسده الأسود، الذي احترق بالبرق، وذلك بسبب الرائحة التي لاتحتمل التي صدرت عنه.

وفي ٢٩تموز كان هناك رعد وصواعق مرعبة مماثلة، وأصوات صدرت عن تلاقي البروق من خلال اصطدام الغيوم فوق جميع أرجاء انكلترا، وكانت مرعبة إلى حد أن كثيرين اعتقدوا أن يوم القيامة قد جاء، وغدا أناس كثر وحيوانات بلا عقل تقريباً بسبب الخوف، وملأ الرعب والنذر المملكة بأسرها، وهلك رجال ونساء في كثير من المناطق بسبب اصابتهم بالصواعق، وأصيبت حيوانات أيضاً، وضربت بيوت وأحرقت، وأتلفت محاصيل بالبرد النازل الذي كانت في بعض الأماكن حباته كبيرة بقدر بيض الأوز، واجتثت أشجار من جذورها وحملت بعيداً، وبرم بعضها

مثلما يبرم الحبل، وانشطر بعضها إلى قسمين.

وفي اليوم التالي شوهدت آثار أقدام عملاق مرعب في عدد من الأماكن، وكان من النوع الذي لم يرَ من قبل أبداً، وقال الناس إنها آثار أقدام شياطين أرغمت على الفرار إلى هنا وهناك بقوة الصواعق الصادرة عن الملائكة الجيدين، كما قال أرميا في الوصايا، فقد صبّ الملائكة الطيبون غضبهم على القدماء بالشهب والقذائف، وبذلك حموا السماء بوساطة الصواعق والبرق المتصادم، وبرزاز من النشاب دمروا العدو، وأرغموه على الالتجاء إلى ظلمات باطن الأرض، لأن الملائكة امتلكوا قوى نارية على رؤوس أصابعهم، بإمكانهم بوساطتها احراق الحجر وتفتيته إلى قطع صغيرة، واقتلاع الأشجار وجرها، ومهما بلغت قوة تفجر غضب الانسان، إن آلافاً من الناس يمكن أن تموت بضربة واحدة من ملاك واحد، وهذا مايمكن للفلاسفة أن يناقشوا حوله أكثر من سواهم.

وغادر هيوبرت المبجل، رئيس أساقفة كانتربري، كانتربري مع جماعته، وقصد بوكسلي لإرساء السلام فيما بين رهبان روشستر وأسقفهم، وعانى أثناء سفره من مرض مزدوج تمثل بالحمى والقرحة، لذلك قصد عزبته في تاينهام، وهناك، بعد مضي أربعة أيام، أنهى حياته يوم ١٣ تموز، فقد قصم المرض ظهره عند الفقرة الثالثة من عموده الفقري، وهو ماكان يخجل في أن يريه للذين كانوا معه في حجرته لأن أعضاءه الداخلية كانت ستظهر.

والدرس المستفاد من قرحته الخطيرة، والذي يمكن تعلمه هو أن المريض إذا ماشعر بآلام في الصدر أو بدأ بالتعرق، فهذا معناه أنه في خطر الموت، ومن الممكن معالجة هذا الداء بوساطة مزج قدر متساوي من صفار البيض والملح، ووضعه على موضع الداء، وتجديده باستمرار، وينبغي أن يأكل المريض الخبز والماء حتى يبرأ جسده، وانتبه عندما تخرج الدم، خشية أن ينتشر المرض بين العروق، ولو أن رئيس الأساقفة لاحظ

الداء مبكراً وبسرعة، لكان بإمكانـه استخدامه هذا العلاج، الذي لايخفق حسبما أخبرني الأطباء.

وصف كـوغشال بعـد هذا مـوت رئيس الأساقفـة بالتفـاصيل، لكن تاريخه انحـرف عندها ليروي سلسلـة من المواد الحولية، وتناول الـرواية جيرفاس، الذي كان راهباً في كانتربري، والذي حياته الـدرامية وروايته الحيوية مشوبة بتكريسه نفسه لكاتدرائيته الرهبانية.

في ١٢تموز مات رئيس الأساقفـة هيوبرت، وبعد ثلاثـة أيام بادر الملك جـون مسرعـاً إلى كـانتربـري، وتحدث بلطف زائد مع الـرهبـان حـول استخلاف رئيسهم وأعطـاهم بعض الأمل، أن باستطاعتهم اختيـار واحد من كنيستهم، وعنـدما سمع أن رئيس الأسـاقفـة الشهير والنبيل قد تـرك لهم بيعـة محمولـة في وصيتـه تسـاوي ثلاثمائة مـارك [٢٠٠-جنيـه] سأل بهدوء رؤيتها، وعندما رآها حملها إلى ونشستر، وأعطى إلى أسقف ونشستر مـاكان أخـذه من كنيسة المسيح، وبعـد هـذا سأل رئيس رهبان ورهبـان كانتربـري ألا يقوموا بـالانتخاب قبل عيد القـديس أندرو، في ٣٠تشرين الثاني، وقد وافقوا على طلبه.

وبعث الملك بالوقت نفسـه سراً برسل إلى روما، وعندمـا سمع الرهبان بهذا بعثوا بعـدد من أفرادهم مع نائب راعيهم إلى روما أيضـاً، خشية أن يطلب الـرسل الملكيـون أي شيء يضر بمكانـة وحقـوق كانتربـري، وعلى الفـور كتب الرسل الملكيـون إلى الملك يقـولون بأن رهبـان كـانتربري قـد انتخبوا نـائب راعيهم وبعثوه إلى رومـا، وانزعـج الملك لدى سماعـه هذا وذهب إلى كـانتربـري بعد عيـد القـديس أندرو، وسـأل الرهبـان عما إذا كـانـوا قد انتخبـوا نـائب راعيهم أو أي واحـد آخـر، فأصروا على أنهم لم يقومـوا بأي انتخاب، وليبرهنوا عما قـالوه وفعلـوه، قاموا بنـاء على نصيحة

ومـوافقة جميع الكهنـة والرهبـان فانتخبـوا أسقف نوروك، ووسط الغنـاء، اقتادوه إلى داخل الكنيسـة، ووضعوه على كرسي رئيس الأساقفـة، وأخذوا قبلة السلام.

وبما أن الملك وافق على انتخـابهم، بعث الـرهبـان بـرسـل إلى رومـا للحصول على الطيلسـان، لكن الرهبـان الذين كانـوا قد ذهبـوا إلى روما، عـارضوا الانتخـاب، وذلك على الرغم من تحريم الـدير لهم الاقـدام على ذلك تحت طـائلـة عقـوبـة الحرمـان، ولقـد ادعـوا بأن أسقف نـوروك لم ينتخب من قبل الرهبـان، بل فرض من قبل الملك باستخـدام القوة، وأن الانتخاب بلا قيمة.

سنة ست ومائتين وألف

وبعـد وقت طـويل، قـام الـرهبـان الـذين نـالـوا التفـويض من ديـر كانتربري، بأن يقـوموا بانتخاب اعتماداً على السلطـة البابوية، قـاموا بعد تقـديـرات وافية، وبمـوافقـة من البـابـا، فانتخبـوا السيـد المبجل ستيفن لانغتون Langton كـاردينالاً، واحترامـاً من البـابا للملك بعث إليـه بـرسـائل طلب فيها مـوافقـة الملك، وكـان الذي فعلـه الملك، الاصغـاء لنصائح شريـرة، فرفض اعطاء الموافقة، وعلى كلّ حـال سأل فيما إذا كان جميع الـرهبـان قد وافقـوا على انتخـاب ستيفن لانغتـون، ورد الديـر أنهم سوف لن يتخلوا عنـه، وبناء عليه أقسم الملك الغاضـب أن مامن واحد منهـم سوف يبقى في كنيسة كانتربري، ولاحتى في انكلترا.

- ٦٨٧ -

سنة سبع ومائتين وألف

[رسم ستيفن لانغتون رئيساً لأساقفة كانتربري في روما يوم ١٧- حزيران]، وبناء عليه تم طرد جميع الرهبان من كانتربري يوم ١٥ تموز، وجرى استقبالهم بتشريف في بلاد ماوراء البحار من قبل دير القديس بيرتن، وتباهى الملك بنصره الرائع، وعبثاً كتب رسائل إلى الراعي هناك أن يحاول طرد الرهبان.

ولد في هذه السنة هنري، أول مولود للملك جون من خلال الملكة ايزابيلا ابنة كونت أنغوليم، وكان هذا حدثاً حيوياً في أهميته، فالآن امتلك جون وريثاً ذكراً.

غادر انكلترا أسقف لندن، وأسقف إيلاي وأسقف هيرفورد، وأسقف تشستر ورئيس أساقفة يورك، الذي كان أخاً للملك، ومعهم عدد كبير آخر، وأغنياء وكذلك فقراء، لأنه لم يعد في مقدورهم تحمل طغيان الملك، ولم يبق ولا واحد في البلاد يستطيع أن يخالف ارادته، وكان أساقفة درم، ولنكولن وتشستر قد ماتوا، وفقط بقي أسقف ونكستر يتمتع بحظوة الملك، وكان أسقف نوروك في ايرلندا، وتحمل أسقفا روكستر وسالسبري كثيراً من الأذى، ثم غادرا إلى اسكوتلندا.

سنة ثمان ومائتين وألف

كان الملك نفسه هو السلطة الوحيدة في البلاد، وهو لم يخش لا الرب ولا الانسان، وكان البابا مزعوجاً نتيجة للمضايقات التي تعرضت لها

الكنيسة في كانتربري، وبعث برسائل أمر فيها الملك باستقبال رئيس أساقفة كنيسة كانتربري ورهبانها، وأن يعيد إليهم مقتنياتهم المصادرة، وراسل الملك روما، ووعدها بأنه سوف يقوم بالتعويض عن كلّ شيء، في سبيل الرب، والكنيسة المقدسة، والبابا، وعندما سمع البابا بأن الملك قد تاب فرح فرحاً عارماً، وبعث إليه برسائل غفران، وعندما عاد الرسل إلى انكلترا، بعث رئيس الأساقفة بأسقفين وراهبين، ليتسلموا مقتنيات كنيسة كانتربري، وعندما سمع الملك ماجلبه الرسل من روما، غضب كثيراً، وأقسم أنه لم يرسلهم لهذا الغرض، وجرى استدعاء المستشار الملكي الذي كتب الوعود الأصيلة وعليها خاتم الملك، ومع ذلك أنكر الملك أنه وافق عليها.

وبناء عليه انسحب الملك من المباحثات، وكذلك فعل الأساقفة وكلّ واحد آخر، وفي ٢٤آذار، جرى بناء على قرارات بابوية، تعليق الخدمات الدينية في جميع أنحاء انكلترا، وعمّ الأسف الكبير والقلق خلال البلاد، ولم يحتفل لابالجمعة الحزينة ولا بأحد الفصح، لكن عمّ صمت لم يسمع بمثله، فرض على جميع رجال الدين والرهبان من قبل رجل علماني، ولم يعد من الممكن دفن الموتى من العاديين أو من رجال الدين في المقابر المكرسة، بل فقط في الأماكن الدنسة والملوثة.

وأمر الملك أيضاً بطرد العدد القليل من الرهبان الذين بقوا في كانتربري، وكان هؤلاء من العميان والمعوقين، وأن يُعدّ الرهبان بمثابة أعداء عامين، وهرب بعضهم من انكلترا، وسجن بعضهم، وجرى الحفاظ على بعضهم بالمال، وعانى آخرون من مصاعب جمّة، فقد قطعت أشجارهم، وجرى تغريم رجالهم وفرضت عليهم ضرائب ثقيلة، وعانت انكلترا كلها من هذه الأثقال، وأرغم الشعب على أن يدفع أولاً ربع أمواله، ثم الثلث، وبعد ذلك النصف، حتى أجور الكرادلة وكلّ ماكان لهم في انكلترا قد انتزع، وانتزع بنس بطرس الذي كانت الكنيسة

الرومـانية تحصل عليه من أيـام كنوت Cnut فقد آل هذا كله إلى الملك، وفرض بشكل خـاص مكوس كبيرة في هذه المنـاسبة على الموانىء الخمسة التي كـانت تدافع عن السـواحل ضد الغزوات العـدوانية، ولهذا الغـرض شنق بعض سكـانها، وقتل بعضهم الآخـر صبراً، وسجن الكثير، وغلهم بـالحديد، وبعـد وقت طـويل أطلق سراحهم مقـابل عهد الـولاء والمال، ولهذا غادر الفقـراء والأغنياء انكلترا، وشكلـوا أعداداً لاتحصى من الرجـال والنساء، وكان سفـرهم حجاً غير مشكور لتجنب الهمجيـة الهائلة للملك وليس عمـلاً دينياً أو للتقـوى، وسجن جـون حتى زوجته الملكـة، ووضعها تحت الحراسة المشددة في قلعة كورف Corfe.

سنة تسع ومائتين وألف

لـدى سماع البابـا بهذه النوازل ومـاشابهها ومعه جماعـة آباء الكنيسـة الانكليـزيـة، بعث إلى ملك انكلترا بـرسـائل إعذار وانـذار، حـذره فيهـا بضرورة الابتعـاد عن أعمالـه الشريـرة والاقـلاع عنهـا، وأن يعيـد كنيسـة كـانتربـري إلى وضعهـا الأصيل، وإلا مـن المؤكـد أنـه سـوف يعـاني من الحرمـان الكنسي، الـذي سيتلفظ بـه البـابـا شخصياً بشكل علني، ولن يقتصر الحرمـــان العلنـي للملك على انكلترا، ولكن سيشمل المنـــاطق الأخرى أيضـاً، واهتم جون —على كلّ حـال— بالانـذار البابـوي قليلاً، وتجاهل التحذير.

وأرسل الملك رسـائل إلى الملك وليـم ملك اسكـوتلنـدا، وكـان رجـلاً متميـزاً بتقواه، وأمـره إما أن يسلـم إليه ثـلاث قلاع على الحدود، أو ابنـه بمثابـة رهينة، وعنـدما لم يرغب الملك السكـوتلندي في تلبيـة أوامره، أراد ملك انكلترا أن يستـولي بالقـوة العظيمة على مـالم يستطع الحصول عليـه

بالرجاء، وأن يعيد القلاع الثلاثة إلى مملكته.

وعندما أخذ ملك انكلترا الطريق نحو اسكوتلندا مع قوة كبيرة، بدأ جنده يتململون قائلين: «إلى أين نحن ذاهبون؟، ماذا نحن صانعون؟ إننا مثل الكفار، خوارج على شريعة الرب وعلى المسيحية، لماذا يتوجب علينا محاربة ملك اسكوتلندا المقدس؟ لأنه مؤكد أن الرب سوف يقاتل لصالحه وضدنا، وسيصنع المعجزات من أجله».

ولدى وصول هذا وغيره من حكايات جند الملك إليه، وخشية منه أن يحدث ويتخلى الجيش كله عنه ويتركه أثناء القتال لوحده، أمر غيوفري فتزبيتر، ورئيس الهيئة القضائية وإيرلات آخرين أن يبحثوا مسألة التصالح مع الكنيسة في كانتربري وفي انكلترا، وأن يستدعوا بسلام رئيس أساقفة كانتربري وأساقفة آخرين ورهبان إلى انكلترا، لأن البابا كان قد أمر هؤلاء الأساقفة بتلفظ قرار الحرمان على الملك.

وبناء عليه أرسل غيوفري فتزبيتر رسائل مستعجلة إلى أسقف لندن، وسأله القدوم مع أساقفته إلى انكلترا بالسرعة الممكنة، بقدر مايحب شرف الرب والكنيسة وسلام الملك والمملكة، لأن الملك قد أعطى السلطة الكاملة إلى الأساقفة لإقامة سلام مع كنيسة الرب.

وبينما كان الأساقفة يستعدون للعودة إلى انكلترا، والملك في طريقه إلى اسكوتلندا مع الجيش، أخذ ملك اسكوتلندا يشعر بالخشية على سلامة مملكته، وفضل كثيراً أن يمتلك السلام على اللجوء إلى السيف، وأن يزود شعبه بالحكمة بدلاً من الحديد، ولهذا بعث بابنتيه مع رسل أمناء إلى ملك انكلترا، وذلك من أجل أن تتزوج احداهن ابن الملك والأخرى واحداً من النبلاء الانكليز، كما أرسل ابنه، لكن ليس رهينة، بل ليقدم الولاء اللائق والتبعية إلى الملك بشأن القلاع المذكورة مع الأراضي التي بحوزته، وهكذا تم استرداد سلام مملكة اسكوتلندا، وعاد الجميع إلى

ديارهم.

ووصل الآن الأساقفة إلى دوفر يملكون كامل الصلاحية لإبرام سلام، ووافقوا بعد كثير من المباحثات على شكل من أشكال السلام الذي تمت كتابته والتوقيع عليه، وهكذا جرى تعليق قرار الحرمان المفروض على الملك وتأجيله لمدة خمسة أسابيع.

فاحتشد بناء على أمر من الملك جميع الرجال الأغنياء والفقراء والوسط في انكلترا ممن تجاوز سن الخامسة عشرة، احتشدوا في مالبرو، ليقسموا هناك يمين التبعية للملك ولابنه هنري البالغ من العمر ثلاث سنوات، على أنه وريثه. وعندما رأى الملك وسمع صيغة معاهدة السلام التي أبرمت بموافقة كثير من الناس، بعث برسل مع رسائل طالباً من رئيس أساقفة كانتربري الاجتماع به في دوفر للتباحث.

وبناء عليه، عبر رئيس الأساقفة البحر، وانتظر الملك حتى يصل إلى دوفر، وعندما سمع الملك بهذا جاء إلى قلعة تشلهام Chilham التي لم تكن بعيدة عن دوفر، وقد جاء مسرعاً جداً ومسلحاً تماماً.

وانتظر رئيس الأساقفة هناك، بينما انتظره رئيس الأساقفة في دوفر، وتأثر الملك ببعض الألسنة ذات التغرير الشريرة، فغير موقفه حول الاقتراح، وغادر فجأة، وقام رئيس الأساقفة بناء على نصيحة النبلاء، فعبر البحر، وعاد إلى فرنسا، وجرى حرمان ملك انكلترا من قبل عدد كبير من رجال الكنيسة، وذلك بناء على أوامر من البابا، وجرى حرمانه في فرنسا أيضاً.

وولد في هذه السنة رتشارد، وهو الابن الثاني للملك جون.

- ٦٩٢ -

سنة عشر ومائتين وألف

استخرج الملك في خطة جديدة، مبالغ لم يسمع بها، من اليهود الانكليز، ذلك أنه أمر بشنق بعضهم، وبسمل عيون بعضهم الآخر.

تمتع اليهود لوقت طويل بحماية ملكية صعبة مقابل جعل قسم من أرباحهم متوفراً لخزينة الدولة، ودفعت محاولات جون الهمجية لاستخراج مبالغ كبيرة منهم، إلى مغادرتهم انكلترا كلياً.

ولم يوفر جون رجال الدين في بحثه عن المال، وعندما اجتمع رعاة ديرة الرهبانية السسترشيانية مع بعضهم سألهم أن يساعدوه ليس بصلواتهم بل بأموالهم، وعندما رفض طلبه بتواضع كامل، غادر الاجتماع مغضباً، وقاد الجيش والأسطول اللذين اعتقد الناس أنه أعدهما للذهاب إلى بواتو، لقد قادهما إلى ايرلندا، وبسرعة أخضعها بالقوة والخديعة، ومع أن الكثيرين عارضوه، لم يكن بإمكانهم مقاومته، وفرض هناك القوانين الانكليزية والعادات، وأمرهم بمراعاتهم والأخذ بهم، ثم عاد إلى انكلترا.

وأمل كثيرون أنه بسبب هذا النصر، سيعمل الملك على تدارك أفعاله السيئة التي اقترفها بحق كنيسة الرب، وأنه سيحاول اصلاح أخطائه، لكن غضباً جديداً صدر عنه خاصة نحو السسترشيان، الذين لم يستطع أن يستخرج منهم أي مال لابالقوة ولابالرجاء، ولهذا شردهم بين مختلف كنائس انكلترا، وبذلك أرغموا على التسول من أجل الحصول على الطعام، ولم يسمح حتى لرعاتهم بعبور البحر للالتحاق بمجامعهم، ولم يعط الإذن بالعبور حتى إلى راعي دير بوليو Beaulieu الذي كان قد أعطاه موقعاً جميلاً في «النيوفورست» ليبني عليه ديراً.

وأرسل جون رسـائل مع رسل إلى رئيس أساقفة كـانتربري، طالبـاً منه القـدوم إلى انكلترا، حتى يمكنهما التباحث معـاً حول السـلام في دوفـر، وعندمـا بات كلّ شيء جـاهزاً للعبـور، تلقى رئيس الأساقفـة رسائل من بعض النبلاء الانكليز الذين كـانوا مخلصين له،أخبروه فيها بألا ينخدع في قدومـه إلى انكلترا، وأن يتجنب كمائن أعدّت لـه، وهكذا عاد إلى فـرنسا، ذلك أن ملك انكلترا كان مليئاً بـالاجرام إلى حدّ أنه نادراً ماكـان صادقاً أو وفياً مع أي شيء كتبه أو قاله، فهو لم يحفظ لاوعوده ولاعهوده.

أرسل الملك جيشاً كبيراً إلى ويلـز تحت قيادة أخيـه وليم وإيرل تشستر، وقـد عـاث الجيش فســاداً في محيط تلك البـلاد، وقتل عــدداً كبيراً من مختلف النـاس، وقال كثير بأن نبـوءة ميرلين قد تحققت في قـوله: «سـوف يهدم السـادس أسوار ايـرلندا» و«سـوف تخضع بدايتـه لطبيعته المتقلبـة»، وكان الملـوك هـم: وليم الأول، ووليم الثاني، وهنري الأول، وهنـري الثاني، وبعد ذلك رتشـارد، وكان السـادس هو جون الـذي استولى على ايـرلندا، لكن كلّ بقية الأشياء كانت عبثية وبلا منفعة.

انتهى تـاريخ جيرفاس بحـوادث سنـة ١٢١٠، وهي السنة التي تـوفي فيهـا، ويزودنـا المؤرخ الواسع المعـرفة، لكن المجهـول، والمعروف بـاسم صاحب حوليـات بارنول Barnwell بروايات ثمينـــة حول السنين الدرامية الأخيرة لحكم جون.

سنة إحدى عشرة ومائتين وألف

قاد ملك انكلترا جيشاً إلى ويلز ضد انـ«ليويليين » Lewellyna لكنـه عـاد مسرعاً، لأنـه الـويلـزيين، خـافوا مـن زحفه، فـانسحبـوا مع أمتعتهم إلى الجبـال، ولهذا عـانى الجيش الانكليـزي من المجاعـة، لكنـه

بعدما جمع كميات كبيرة من المؤن، كـان الملك على الفور قادراً على القيام بحملـة أخرى ضـد ويلز، وفي هـذه المرة مع قوة كبيرة، ووفـرة من المؤن، وبذلـك فرض على الـويلزيين تقديـم رهائن له، وبعـدما نجـح في تدبير أموره كما رغب، عاد مكللاً با لمجد.

ولم يكن الآن ولا واحد في ايـرلندا واسكوتلندا،أو ويلـز إلا وانحنى أمام إشـارته ، وهي حـالة ـــ كما هو معلـوم ـــ ما من واحـد من أجداده قـد حققها ، وبدا الآن ناجحاً تمامـاً ، ويمتلك مستقبلاً واعداً جداً لخلفائه ، فيما عدا إنه أخفق بشكل مروع في أراضيـه الأجنبية ، وكان خاضعاً لحكم الحرمان الكنسي .

وبعثت روما باثنين من الرسل البابـويين لمصالحة الكنيسة الانكليزية ، لكنهما غادرا قبل أن يحققا أي سلام ، ولم يجلبا أية منفعة إلى التعساء .

وحـدث أن عـدداً كبيراً من الغـزلان تجمعـت مع بعضهـا في الغـابـة الانكليـزيــة المعـروفــة بـاسم كــانـوك cannock ، وبعـد كثير من الاضطرابـات المعويـة المزعجة، وكثير من الأنين رمـوا بأنفسهم إلى البحر عند مصـب سيفرن severn ، ووجدوا بين الغـزلان خشفاً لـه رأسين وثمانية أقدام.

وكـان هنـاك خســوف تـام للقمـر يـوم ١٨ ـــ تشرين أول. وتـوفي سمسون أسقف بري سينت أدموند، وروجر شحنه تشستر.

سنة اثنتي عشرة ومائتين وألف

انتهت قـوة المغـاربـة التي تنامت بقـوة وفخـار كبير في الأنـدلس، لأن جيشهم قد سحق على أيـدي الأمراء المسيحيين، بعدما تـراجع في فوضى

وخوف، وعدل عن حملته الجريئة.

اجتمع الأطفـال في جميع مـدن فـرنسا مع بعضهـم ، وكان هـذا أمـراً مدهشاً لكل من رآهم ، وكـانوا حيثما ذهبوا ، يجتمع الأطفال ، وكأنهم لا يستطيعون البقـاء منفردين ، بل يتـوجب عليهم التجمع على شكل كتل، وصحيح أن واحداً منهم لوحظ أنه كان في الخامسة عشرة من عمره، وهو من أهل باريس، لم يكن سواه ممن احتشد قـد تجاوز الثانية عشرة، وعندما سئل الأطفـال عما هم عـازمـون على فعلـه، أجـابـوا أنهم ذاهبـون لحمل صليب المسيح.

انتهت حـركة الأطفـال الغريبـة والعفويـة بشكل مأساوي، فقـد أسر الجيش من قبل تجار الرقيق وبيعوا إلى المصريين .

شوهد رزاز من الدم في كين caen في نورماندي يو م السبت ١٠ـ تموز، وشوهـد في اليوم نفســه في فالي ثـلاثة صلبـان معاً في السماء وكأنهم يتبارزون.

وسمح في انكلترا كلهـا للمـؤمنين الـذيـن اقتربـوا من نهايتهم بتنـاول قـربان الموت المقـدس لجسد مـولانا، وكـان هذا قـد طولب بـه من قبل الكهنـة في الديـرة، الـذين سمح لهم بـالاحتفال بـالقـداس المقدس مـرة واحدة في الاسبوع.

ووقعت في مدينة لندن نار غير اعتيادية ومرعبة على الضفة اليمنى لنهر التيمز، قرب كنيسـة كهنة سيدتنا في سـاوثورك Southwark وعندما عبر حشد كبير النهر، إما لإطفاء النـار، أو للمشاهدة، فجأة وقعت النار في الجزء الشمالي، بسبب أن الـريح الجنـوبية كـانت هـابة، وهكـذا حـدثت الاعـاقة بـاللهب المتصاعـد للـذين كانـوا يعبرون الجسر عائدين، ثم إنـه عندمـا تأثر الطـرف الآخر من الجسر بـالنار، بـاتوا محجـوزين، وكأنهم بين

نارين، وتعرضوا للضغط من كلّ طرف على حدة، حتى باتوا لايتوقعون سوى الموت.

ثم جاءت بعض السفن إلى عونهم، لكن أعداداً كبيرة اندفعت إليها بحماقة مما سبب غرقها وهلاك كلّ انسان، وعدّ هذا فاجعة كبيرة من قبل الشعب، ولقد قيل بأن ثلاثة آلاف قد ماتوا إما في النار أو في غرق السفن، وبدا أن سوء الحظ الذي كان من المتوقع نزوله بانكلترا، قد جلب دماراً أعظم على العاصمة.

وفي الوقت نفسه حدث شيء آخر جعل الناس العقلاء مندهشين، ففجأة وبدون سبب محدد، انطلق بعض الناس وكأنهم هجروا عقولهم، وجالوا من بلدة إلى بلدة في جميع أنحاء انكلترا، ينفخون بالأبواق التي يدعوها الانكليز النفر Hue وعندمـــا قيل إن هذا يمكن فقط أن يحدث لدى اللحاق بالمجرمين، وبما أنهم كانوا لايلحقون بأي انسان، توقعوا أنه سيكون هناك اضطراب أعظم في المستقبل القريب.

وكانت السماء في الخريف، حتى ٨أيلول، يوم عيد ميلاد مولاتنا، صافية، والطقس مشرقاً، ثم حدث فجأة هطول مطر مفاجىء ومتزايد بدون توقف، وقد أحدث أضراراً كبيرة لحقت بالانكليز، لأن ريح الشتاء كانت قوية إلى درجة أن حجارة الأبراج سقطت إلى الأرض.

وعندما وصل وليم ملك الاسكوتلنديين إلى سن لم يعد قادراً فيها على تهدئة الأجزاء النائية من مملكته، التي اضطربت بقلاقل وحرب أهلية، هرب هو والملكة وابنهما الوحيد إلى الملك الانكليزي ليطلبوا مساعدته، وقدم الولاء إلى جون، الذي رسمه فارساً، ثم ذهب مع جيش توغل إلى أقصى أطراف المملكة، وأسر كوثرد Cuthred الذي عرف باسم ماكوليم، وكان قائد العصاة، وشنقه، وكان ماكوليم من أفراد أسرة ملوك السكوتلنديين القدماء، وكان مثله مثل أباه الذي قاتل لأمد طويل ضد

الملـوك الحاليين، أحيانـاً بشكل سري، وأحيـاناً بشكل علني، لكن دومـاً بشكل عدواني، بـالاعتماد على مساعدة السكوتلنـديين والايرلنديين، ولأن معظم الملـوك السكـوتلنديين الحاليين كـانـوا متأثريـن كثيراً بالفـرنسيين، وهكذا حـدث أن الفرنسيين فقط عوملـوا بصداقة واحترام، بعدمـا جرى اخضاع اللغة والثقافة السكوتلندية.

وتشجع الأمـراء الويلـزيين من قبل البـابا، الـذي حللهم من كلّ من الاتفاقية التي عقـدوها في السنة الفائتـة مع الملك الانكليزي، ومن الولاء والأيمان التي قطعـوهـا على أنفسهم، وشرعـوا يقاتلـون الملك الانكليـزي مقـابل التســاهل في تطبيق الحرمـان الكنسي عليهم في بـــلادهم كلهـا، وانفجر الملك جون بغضب عنيف، فشنق الرهـائن، وحشد جيشاً للزحف ضدهم من جميع أجـزاء المملكة، ثم إنه عنـدما حشد جيشـاً عظيماً لم ير مثله قط من قبل في أيامنا، قضى الرب بهزيمة قواته.

ثم اضطـرب قلب الملك جـون، لأنـه كما قيل بـات بلا سلطـة، فقـد سمعت أقاويل واشـاعات تفيد أن البارونـات الذين اجتمعوا معاً كـانوا يتآمرون ضده، وانتشرت في كثير من المنـاطق حكايات تحدثت عن رسائل حللت البارونات من طاعة جون والـولاء له، وقيل بوجوب انتخاب ملك آخـر بدلاً عنـه، وأن جـون ينبغي طرده مـن المملكة، وإذا مـاقبض الملك عليهم فلسوف يعانون من الموت أو من السجن مدى الحياة.

وبعـدمـا أعلن الملك عن عـودته، بـدأ يتصرف بشكل سيء، وكـان لايذهـب إلى مكان إلاّ وهو مسلـح أو وهو مرافـق بقوة كبيرة من الـرجال المسلحين، وإثـر إلقـائه القبض على بعض من بـدا أنه قـريب جـداً من الثوار، استـولى بسرعة على قـلاع الإيرلات والبارونـات، لذلك كـان هناك عدم استقرار لبعض الوقت.

ثم إن بعض نبـلاء البـلاد باتـوا يخشـون إمـا من غضب الملك أو من

وسواس الضمير، لـذلك غادروا انكلترا بشكل سري، فقد جرى استقبال يوستاس دي فسكي Vesci في اسكوتلندا، وذهـب روبرت فتز وولتر إلى فـرنسـا، وإثر ذلـك تمت مصادرة مقتنيـاتهم وأمـلاكهم، كما أن قلعـة روبـرت في لنـدن، المسماة قلعـة ريمـونـد أزيلت من الـوجـود مع قـلاع وحصـون أخرى، ثم بـدأ الملك يقيم تقديـراً أعظم لشعبه، وظلت البـلاد صامتة.

حتى في وسط الأجـواء العدوانيـة، حرك جـون عملاً عظيماً ولـه ذكرى طيبة، فعندمـا شرع المشرفون على الغابات في إيـذاء الناس في أجزاء كثيرة من انكلترا، بزيـادة الضرائب المفروضة، ورأى الملك التعـاسة التي لحقت بالناس، وبّخهم تماماً، وأرغم الموظفين المسـؤولين عن الغابات أن يقسموا أنهم لن يستخـرجـوا من الضرائب إلا المبالغ التـي اعتادوا على جمعهـا في أيام أبيه.

وكبح الذين فـرضوا ضرائب جـديدة، والذين ضـايقوا النـاس بفرض أتاوات جديدة بحجة حراسة الموانىء، وتعـرضوا للرحالة والتجار، وألغى الأتـاوات الجديـدة، حتى يقـال بأنـه رحيم ومهتم بـالحفـاظ على شروط السـلام، واستعداداً منـه لإقامـة سلام مـع البابـا، انتزع من جميع رجـال الكنيسة التأكيـد بكل ماأخذه منهم، في كل منـاسبة من المناسبـات، منذ بداية حكمه، فبهـذه الوسيلة كانوا سيلطفون مطـالبهم كثيراً بشأن ماأخذ منهم، ولقد أكدوا المنح التي أعطوه إياهـا بصكوك مختومة، ومن ثم جرى ارسال الرسل إلى الحبر الأعظم، بكل طريقة كان من الممكن اتباعها.

ولقـد روي من قبل بعض النـاس، أنـه رأى رؤيا، أنـذر فيهـا بضرورة اصـلاح مسالكـه، وإلا فإنه كملك سيشعـر بـالانتقام الـرباني قبل نهايـة السنة.

وكـان هنـاك رجل يـدعى بيتر أوف ووكفيلـد Wakefield بسيطاً

ومتقشفاً يعيش على الخبز والماء، وكان قد ادعى للناس أن بإمكانه الاخبار عن المستقبل، وقد بشر بأن حكم جون لن يستمر أبعد من عيد الصعود المقبل، لأنه كشف له بأن الملك جون سوف يحكم لمدة أربع عشرة سنة، وأن هذه الأشياء التي بدأت خلال تلك الأربع عشرة سنة ستصل إلى نهاية سعيدة، وعندما سئل بيتر فيما إذا كان الملك سيموت أم سيطرد أو سيتنازل عن العرش، قيل بأنه رد عليهم بأنه لايعرف، والذي يعرفه فقط هو شيء واحد، هو أنه لن يحكم أية مدة أطول، لاهو ولاأي انسان من أتباعه لصالحه، مالم يقضي الرب بذلك، وهو لم يخف هذا عن الملك.

ونظر إليه في البداية على أنه أحمق، وسخر منه سجانوه على أنه مجنون، لأنه عندما كان يتجول في الساحات ينشر أفكاره، ألقي القبض عليه من قبل مؤيدي الملك، واحتفظ به في الاعتقال، وبدا أنه واثق من نفسه ومقدرها تقديراً عالياً، وبات يعتقد أن اسمه، الذي كان حتى وقت قصير غير معروف ومزدرى، أصبح الآن مشهوراً بإلقاء القبض عليه، وتكلم عن كلّ شيء، وأضيف كلّ يوم كلمات مزيفة من الناس العاديين إلى نبوءاته المزيفة، وعزي إليه كلّ يوم أقوالاً جديدة وأكاذيب قيل بأن بيتر هذا قد قالها في قلبه.

وكان هناك خسوف للقمر يوم عيد القديس مارتن، في ١١ تشرين الثاني، أثناء الهزيع الأول من الليل، وتوفي جون كومن Cumin أول رئيس أساقفة لدبلن، ونتيجة لهذا أصبحت المدينة من ممتلكات المملكة الانكليزية، ومات أيضاً موغر Mauger أسقف ووركستر، وغيوفري أخو الملك، الذي كان رئيس أساقفة يورك في المنفى.

- ٧٠٠ -

سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف

اشتكى الأساقفة الانكليز الذين كانوا في المنفى في فرنسا، إلى البابا، باسم الكنيسة الانكليزية، وتجاوباً من البابا مع شكواهم قرر الموافقة على وضع حد للشرور، فكتب إلى فيليب ملك فرنسا، وإلى أمراء تلك المناطق، أنه مالم يستسلم ملك انكلترا، عليهم القيام بتحرير انكلترا من حكمه بوساطة جيش قوي، ولم يعد هناك أدنى حاجة لرجاءات مطولة وإعذار وانذار، لأن الملك فيليب والأمراء كانوا ميالين لهذا النهج من العمل منذ زمن طويل، وذلك بسبب كراهيتهم لجون، وبسبب حبهم للمال وللذهب، لأن المتداول وقتذاك هو أن البلاد تلك زاخرة بالثروات.

وشجعوا بعضهم بعضاً، وأعدوا أنفسهم بكل شيء ضروري، ببناء بعض السفن وجمع أخرى من الشواطىء التي من حولهم، وقرروا أن الأسطول ينبغي أن يقلع معاً من ميناء واحد، وانتظر الملك الفرنسي شخصياً تجمع السفن في مكان ليس بعيداً عن البحر، وعندما جرى تقدير لحجم جيشه تبين أنه ضمّ مالايقل عن خمسة عشر ألف رجل، وتواردت السفن كلّ يوم على الموانىء والفرسان على القلاع.

وسمع ملك انكلترا بهذا، فحشد أسطولاً كبيراً من جميع موانىء انكلترا، وعين لسفنه رجالاً أشداء بارعين باستخدام السلاح، يمكنهم مع قوة كبيرة مقاومة هجوم العدو،وبذل جهوداً كبيرة لمقاومته، وإلحاق الضرر به وتعطيل خططه، وأقدم حتى على عرض تحرير الأقنان من أجل أن يتولوا الدفاع عن المملكة وحماية شخص الملك، وقد جاءوا لهذه الغاية مسلحين، واجتمع هناك حشد لم ير مثله في أيامنا، وقد وزعهم بين الموانىء، حيث الخوف من المخاطر وحيث السفن، واحتفظ بالجيش كله معه قرب دوفر، أما بقية الأسطول فانتشر قرب الشاطىء ليس بعيداً،

وأعدت الشواني مثل ذلك للحرب.

لكن قلب الشعب كان متذبذباً من السهل تحويله إلى هذا الجانب ثم نحو ذلك الجانب، وفي الوقت نفسه تبخرت شجاعة الرجال وتلاشت من الخوف ومن توقع وصول الأعداء الذين اعتقدوا أنهم سيصلون مع تيار المدّ المقبل، وأرعبت كلمات بيتر الكثيرين، لكن في يوم عيد الصعود، الذي قال بأنه سيكون يوماً حاسماً بالنسبة للملك بدأ العديد يراودهم الشك.

وفيما هم هكذا معلقين بسبب التوقعات، فجأة وصل جماعة من رسل الملك كان قد أرسلهم إلى روما في سنة خلت، جاءوا إليه مسرعين كثيراً، وأعلنوا أن قاصداً رسولياً بابوياً قد بعث معهم، وكان اسمه باندولف Pandulph وقد تطوع شخصياً للقيام بتنفيذ الأشياء التي أمر بها، وعهد إليه بها.

وكان الجانب الأعظم أهمية في أوامره: ينبغي أن يقسم قبل ١-حزيران أربعة من أكثر الرجال أهمية في المملكة، لصالح الملك ونيابة عنه بحضوره وبأمره، أنه إذا مابعث البابا رسالة اتفاق موقعة إلى الملك، يعد الملك بالشيء نفسه في رسائله المعتمدة، ويختم الاتفاقية مع رئيس الأساقفة والأساقفة. وإلا فإن وقت أقصى العقوبات وأشدها لم يأت بعد.

ما الحاجة إلى كثير من الكلمات؟ لقد ألهم الملك من قبل الذي بيده قلوب الملوك، وسعى لكسب السلام والحصول عليه، وكان الذين أقسموا على الاتفاقية المشار إليها والمكتوبة من قبل البابا هم:

رينو كونت أوف بولون، ووليم إيرل وارن Warenne ووليم إيرل فيرير Ferrers ووليم إيرل سالسبري، وهو أخو الملك، وعندما كمل هذا وعد الملك الشيء نفسه في رسائله وفقاً للشكل الذي أقسم عليه هؤلاء الأربعة لصالحه.

وبمبادرة من الملك أضاف مايلي: ينبغي خضوع مملكته كلها، أي انكلترا وايرلندا للرب، وللحواريين المقدسين بطرس وبولص، وبرغبة منه وعن طواعية ومن أجل أن يتمم الاتفاقية، يجب أن يدفع هو وورثته ألف مارك سنوياً إلى البابوات كرمز على خضوعهم، أي سبعمائة مارك عن انكلترا وثلاثمائة عن ايرلندا، وذلك دون أن يؤخذ بالحسبان دفع بنس بطرس، وأقسم بالوقت نفسه يمين ولاء وتبعية للبابا انوسنت الثالث ولخلفائه من بعده، وتم الإعلان عن هذا كله أمام الناس على شكل رسائل معتمدة، نشرت على صورة مواثيق.

ثم أكدت الحوليات أن خضوع جون للبابا كان خطوة حكيمة، فذلك جعل من الصعب محاربته خوفاً من ردات الفعل الانتقامية للبابا.

وأخذت الأمور تتحسن الآن بالنسبة لجون، فتحالف مع كونت فلاندرز ضد فيليب الثاني ملك فرنسا، وهزمت سفنه الأسطول الفرنسي في معركة بحرية، غير أنه بقي معوقاً في بولون خشية منه أن تصبح نبوءة ووكفيلد عن موته حقيقية.

ثم جاء يوم عيد الصعود، في ٢٣-أيار، الذي علقت عليه آمال كثيرة، وبأمر من الملك نصبت خيمته في المعسكر في بولون، وتركت مفتوحة تماماً، وجرى قداس عام لإمضاء نهار العيد على شكل وقور مع الملك، وكان نهاراً جميلاً، بالنسبة لبهجة الملك وسروره نفسه، مع الأساقفة والبارونات الذين اجتمعوا هناك، ومضى النهار بصحة تامة وسعادة، واعتقد الآن الذين وضعوا ثقتهم في بيتر أنه أحمق، وأنهم خدعوا بعقل ساذج، فقد توقع نهاية الملك يوم ٢٣-أيار، في حين أنه حسبما كشف له برؤياه، ينبغي أن تنتهي الأربع عشرة سنة لحكم الملك يوم ٢٧-أيار، وباتوا الآن أقل ميلاً لتصديقه.

وعندما حلّ يوم ٢٧-أيار، وهو اليوم الذي توج فيه الملك قبل أربع عشرة سنة، مرّ النهار بسلام، وبات الوقت متأخراً بالنسبة للذين صدقوا النبوءة حتى يتراجعوا عن اعتقادهم وتصديقهم الساذج، ولم يكن هؤلاء الناس من بين أوساط الناس العاديين، لكن كانوا من بين النبلاء وحكماء العالم وعقلائه.

واقترح على الملك في الوقت عينه، أن بيتر قد سبب انتشار الفوضى في البلاد، وعمم الرعب والقلق بين الناس، وأن هذا قد شجع أعداء الملك، لأن كلماته قد حملت إلى أقصى أجزاء فرنسا، وعدّت بمثابة تحريض على غزو انكلترا، وأغضب هذا كله الملك، لذلك أمر بوجوب شنق بيتر، وزاد على هذا بأن ابنه الذي كان مسجوناً معه ينبغي أيضاً أن يشنق، خشية إما انه كان شريكاً في نبوءات أبيه، أو انه هو الذي صنعها.

ثم عندما رأى الملك أن مملكته تعيش بسلام، وأن مامن شيء يخشى من جانب الفرنسيين، سعى إلى نقل كلّ تجهيزاته الحربية إلى بواتو، لكن كثيراً من النبلاء أصغوا بدون رغبة لاقتراحه، وكانوا غاضبين تجاه القيام بحملة طويلة الأمد، ليس من السهل عليهم تحملها لأن خزائن أموالهم كانت منهكة.

وهكذا أعيقت نوايا الملك، وبما أنه عدّ البارونات هم المحرضين على ذلك والمسببين، كان لابد وأن ينتقم فيها بعد، لولا أنه منع بتدخل الأساقفة ورئيس الأساقفة.

وعاد من القارة في شهر حزيران: ستيفن رئيس أساقفة كانتربري، والأساقفة: وليم أوف لندن، ويوستاس أوف إيلاي، وجايل أوف هيرفورد، وجون أوف باث، وكانت عودتهم من منفاهم مع جميع رجال الدين والعلمانيين الذين كانوا بالمنفى معهم، وأعيدت جميع مقتنياتهم إلى كلّ واحد منهم كاملة، مع صداقة الملك، وبعد وقت قصير جرى تحليل

الملك من الحرمان بشكل علني وطقوسي مهيب من قبل رئيس أساقفة كانتربري تبعاً لعادات الكنيسة، وبعدما تلقى قبلة السلام من رئيس الأساقفة نفسه ومن بقية الأساقفة، اقتيد إلى داخل الكنيسة ليشارك بالقداس، ونفذ هذا وسط بهجة عظيمة من كلّ الناس.

وفي هذه الآونة ألهم الرب البابا انوسنت الثالث ليوجه حملة صليبية لمساعدة بلاد القدس ولتقدم الكنيسة الرومانية، ولأن بعضاً من متقدميه قدم في وقت مضى العون إلى الأراضي المقدسة، بدا غير لائق، أنه وهو الذي لم يكن أدنى قوة ولاحماساً في عمله، أن يظهر أقلّ فاعلية فيما تولاه، ولاحظ على كلّ حال أن الهرطقة في تلك الأيام كانت رافعة رأسها، وأن عدداً كبيراً من الأمراء كانوا محرومين كنسياً، وكثيراً من البلدان كانت أيضاً تحت عقوبة الحرمان الكنسي أيضاً، لذلك كان من الصعب عليه حشد حملة صليبية، وبما أن كثيراً من الأشياء الغريبة قد نمت في كرم الرب، توجب ضرورة بترها، لانقاذ الانجيل، ولهذا دعا البابا إلى مجمع عام ليتولى صياغة هذه المهمة، وبعث بكثير من الرجال ذوي الفعالية من عنده، ليبشروا بالكلمة المتعلقة بتحرير الأراضي المقدسة، وجميع أجزاء العالم الروماني، ولاكتشاف ماهي الأخطاء المتوجب تصحيحها.

غدت فرقة كارثر Carthar الهرطقية قوية جداً في لانغدوك Languedoc ودعا البابا انوسنت الثالث لحملة صليبية، استهدف أن تتوجه بشكل خاص ضد ريموند كونت طولوز، الذي اعتقد أنه مؤيد للهرطقة، وكان أعظم الشخصيات مكانة في القوات الصليبية هما: كلّ من سيمون دي مونتفورت والأمير لويس، ابن فيليب الثاني ملك فرنسا، واستمر الصراع العنيف والهمجي بشكل متقطع حتى سنة ١٢٢٩، وسبب دماراً مريعاً في لانغدوك، وجعل المنطقة تحت اشراف التاج الفرنسي.

ثم حدث أن جاء إلى انكلترا المبعوث البابوي نيكولاس أسقف توسكولوم Tusculum وكانت هناك عدة أسباب لبعثته هي: على الملك أن ينفذ بحضوره الوعد الذي قطعه للكنيسة الرومانية المقدسة، وتمّ تنفيذ ذلك. ثم في حوالي ٢٩-أيلول، أبرم الملك اتفاق تبعية مع نيكولاس بحكم كونه الممثل للبابا، وأعطاه أيضاً صكاً مختوماً بالذهب، وألف مارك، وهو المبلغ المقرر دفعه سنوياً، وجاء دفعه بمثابة دليل على طاعته، ثم استقبله الملك وأصغى إليه بشكل مفتوح.

وعندما صنع هذا كان جون قد بدأ بإزالة العادات الشريرة من مملكته، وذلك بناء على نصيحة من الأساقفة وتحريض، فقد منع تحصيل المال بالعنف، وألغى المكوس المؤذية التي فرضها عماله وموظفوه، وكان هذا بسبب أن العمال والموظفين الأدنى، كانوا عندما يجمعون الضريبة السنوية، التي يحق لهم وحدهم جمعها، كانوا يستخرجون المزيد من المال من فقراء المقاطعات، وقد عزل الذين مارسوا الشره، وعيّن آخرين، ممن كانوا على استعداد للأخذ بنصائح الرجال العقلاء، وممن كانوا سيعملون لصالح أبناء بلدهم من الريفيين بسلام وهدوء وليس بالغش بالمال، وزاد على هذا أنه أقام مساءلة دقيقة حول هذه المسألة، حتى يعرف كم من المال المستخرج من قبل وزرائه قد تسلمه هو بالفعل، لكن هذا لم يكمل قط لأن الرعب والاضطراب تدخلا، عندما جرى استدعاء جميع الرجال إلى حمل السلاح بسبب التعرض للغزو الفرنسي.

وخلع النائب البابوي راعي دير وستمنستر، وراعي دير ايفشام.

وكانت هناك اجتماعات متعددة بين الملك والأساقفة بشأن عقد مجمع للكنيسة، لكن عندما لم يكن هذا من الممكن عقده، استمر الحرمان إلى السنة التالية. وجرى استدعاء ملك أراغون من قبل بعض رجاله لتقديم العون لهم ضد سيمون دي مونتفورت، قاهر الهراطقة، فقد قتل بالمعركة من قبل الصليبيين مع كثير من رجاله، وعدد كبير من

الهراطقة غير المشهـورين. ومات غيـوفري فتـزبيتر، رئيس هيئة العـدالة في انكلترا.

سنة أربع عشرة ومائتين وألف

عبر ملك الانكليـز إلى بواتو مـع جيشه في بـداية شباط، ومكـث هناك حتى أيلـول، واسترد جـزءاً واسعـاً من الأراضي التي اغتصبهـا فيليب، ملك فـرنسا، في وقت مبكـر، وتصالح مع عـدد كبير من أعيان الـرجال، وقاد هؤلاء معه في الجيش.

وطلب فيراند، كونت فلاندرز، بعدما طُـرد من مقاطعته بوساطة الملك فيليب، ملك فرنسـا، العون من أوتو الـرابع، امبراطور الألمان، ومن الملك جون، وأبـرم معاهدة معهما، ونظـراً لوثوقه بعـونهما عاد إلى فلانـدرز، وهو ينوي استرداد كلّ شيء من أيـدي الملك الفرنسي، بـوساطة قـوات هذين الرجلين الـلامعين، وكذلك خاصـة مساعدة وليم، ايـرل أوف سالسبري، الذي هـو أخو الملك، ورينو كـونت بولون، فقد جـاء هذان الرجـلان معاً لمساعدة فيراند مع جيش كبير.

وعندما بعث الملك الفرنسي ابنه لـويس ضد فلاندرز، التي احتشدت فيهـا أعـداد كبيرة من البشر مع بعضهـا، ثم إنـه بعـدمـا طـوقت حـدود فـلانـدرز، ونظمت العسـاكـر وعبئت، وقعت المعـركـة عنـد جسر بـوفين Bouvines بين مـورتين وتورنـاي، يوم الأحـد في ٢٧-حـزيران، وبعـد مقتل أعـداد كبيرة في الصراع، أمسك الملك الفـرنسي برايـة النصر، ووقع بالأسر المحـاربين المتميزيـن التالين: بلـوتو Pluto وفيراند كـــونت فـلاندرز، ووليـم أوف سالسبري، ورينـو أوف بـولون، وكيـل أوتو، ومـائة وخمسين من الفرسان الآخرين ذوي المكانة الرفيعة.

وبعد هـذا حشد الملك فيليب جيشـاً ضد ملك انكلترا، لكن بعـدما تدخل القـاصد الـرسولي، عقـدت هدنـة بينهما لمدة خمس سنوات، وذلك لصـالح الذين اقترحـوا القيام بـالرحلـة إلى القدس، وعنـدها عـاد الملك فيليب إلى فرنسا، ورجع الملك جون إلى انكلترا.

وعامل في الوقت نفسه أسقف توسكولوم Tusculum الذي عمل كقـاصد رسـولي بين الشعب الانكليـزي، الملك بمنتهى اللطف، وعـالج شـؤون الكنيسة بأخـلاق رضية، ومن أجل تأخير إقـامة سـلام بين الملك والأسـاقفـة، تـوصل إلى اتفـاقيـة مع وزراء الملك فيما يتعلق بـالكـراسي الكنسيـة الشاغـرة والديـرة، وتلقى سفراء البـابويـة الذين انتخبـوا لهذه الكراسي رسـائل تتعلق بالـدين المدان به الملك للكنـائس كتعويض على نفيهم، أي أن عليـه أن يدفع تعـويضات قليلـة كلّ وقت في أثناء السنـة المقبلة، وإذا ماتعهد الملك القيـام بهذا العمل، عندها ينبغي رفع الحرمان عن انكلترا، وكان هذا مـاجرى تنفيذه، ورفع الحرمان بوسـاطة مجمع عقد في لندن، وذلك بعدما قدم الملك تـرضيات حول هذه المسألة في ٢-تموز، وكان ذلك بعـد ست سنوات، وثـلاثة أشهر، وستـة عشر يومـاً من تاريخ فرض الحرمان.

وإثر عـودة الملك من بواتـو مباشرة، جـرى استدعـاء نيكولاس أسقف تـوسكولـوم من مهمتـه كقـاصد رسـولي، من قبل البـابـا، حيث قيل بأن المهمة ينبغي أن تطبـق في انكلترا بنشاط أقل، ثم عندمـا لاحظ الملك أن الذي اعتمد عليه قد سحب، لذلك كـان أكثر سلمية وتصالحاً في تعامله مع الأساقفة، وبعدمـا أرضاهم مباشرة فيما يتعلق بجميع الأذى والأضرار، أعطـاهم بمثابـة تعـويضـات كثيراً من التكريمات والتشريفـات والمزارع، وأزعن في هذه الآونة لتسليم أسقفية روكستر إلى رئيس أسـاقفة كانتربري، ورعويـة دير ثـورني إلى أسقف إيلاي، أي أن تقـول أرضهم، مادام الملك يملك الحق في فعل ذلك.

وأمسكت أسماك ذات مظهر غير طبيعي في انكلترا، وبدت وكأن على رؤوسها خوذ وتحمل ترسة، وبدت إلى حد بعيد وكأنها جيش من الفرسان، مع أنهم كانوا أكثر عدداً بكثير.

ومات غلبرت أسقف روكستر، وكذلك جون أسقف نوروك، وهو عائد من روما حيث كان يتباحث من أجل الملك، ومات أيضاً وليم ملك السكوتلنديين.

وفي حوالي ٨-أيلول، يوم عيد ميلاد العذراء مريم المباركة، ثار البحر وتدفقت مياهه بفيضان غزا الشاطىء وسبب كثيراً من الأضرار في انكلترا.

وقام نزاع بين الملك جون وبين بعض نبلائه فيما يتعلق بتعويض البدلية العسكرية التي طلبها منهم، والتي رفضوا دفعها، كما ورفضوا اتباعه إلى بواتو، ورفض بعض البارونات الشماليين —وهم النبلاء الذين أعاقوا في سنة منصرمة عبور الملك إلى بواتو— قائلين إنه لايتوجب عليهم اتباع الملك إلى خارج البلاد في مقابل الأراضي التي في حوزتهم منه في داخل انكلترا، كما لاينبغي عليهم مساعدته في البدلية العسكرية، ومن جانب آخر طلب الملك المساعدة التي أعطيت إلى التاج في أيام أبيه وأخيه، والتي كان من الممكن استمرار دفعها لولا تدخل القاصد الرسولي، وأحضر البارونات ميثاقاً بمنحهم بعض الحريات من قبل هنري الأول، وطالبوا بتأكيدها لهم من قبل الملك.

سنة خمس عشرة ومائتين وألف

اجتمع في لندن البارونات الذين طالبوا بميثاق الحريات مع شركائهم، وقيل كان من ضمنهم بعض الأساقفة، وقابلوا الملك.

وعنـدما طلـب الملك إزالة العـدوانيـة في النزاع الجديـد لم يصغ إليـه بأدب ولطف، لسبب بين أسبـاب أخـرى: مـرّ زمن طـويل حيث امتلك نوايـا مختلفة في قلبه، وبعـدما تدخـل بعض الأفراد، حدد مـوعد للملك ليعطي جواباً نهائيـاً، وكان ذلك ٢٦نيسان، وأكد الملك للنبلاء كتـابة انه إذا لم يعط جوابـه في ذلك اليوم، عنـدها يمكنهم مغـادرته واحـداً واحداً والعـودة إلى أراضيهم، وعنـدمـا نشر هـذا الميثـاق، وافق كلّ انسـان على مـااقترح فيــه، وكـان الجميع على قلب واحــد وإرادة واحـدة: أي أنهم مكرسون للدفاع عن بيت السيد، ويقفون مع حرية الكنيسة والمملكة.

وقـرر الملك من جـانبه، انـه طـالما هذا قـد صنع، على كلّ النـاس في انكلترا كلها أن يقسموا له انهم سيقفون معـه ضد جميع الناس وضد هذا الميثاق، وذلك بالاضافة لليمين المعتاد، وعنـدما لم يصغ إليه عن طواعية، وبدأت التعليـلات والاعتذارات تعمل، وتوقف عما بدأ بـه، ولكي لايدع وقتاً لتحريك ثـورة بين الشعب، أرسل حينها رسلاً إلى البابـا يشكون إليه أن الشعب استعد للقيام ضده، وذلك على الـرغم من أيمانهم بالتبعية له، وعرف من خلال بعض رفاق الرسل أن هـذا كان قد تقرر قبل أيام كثيرة، ومن جانبهم تشكى البارونات ضد مكوسه غير العادلة، وضد طغيانه.

ومات في تلـك الآونة يوستـاس أسقف إيـلاي، وكان رجلاً صـاحب سلطان عظيم، وعلى نصيحته اعتمد —كما قيـل— شطر أساسي من هذه المباحثات.

وحمل الملك الصليب في لنــــدن من وليم أسقف لنــــدن، ومع الملك وبعده فعل الشيء نفسه العديد من أتباعه، وبعضهم فعل ذلك بناء على تحريضه، ولقـد أعطاهـم صليباً أبيض، حسبما جـرت العادة في أيـام أبيه وأخيـه، لأن هناك عـادة قـديمـة بأن الانكليز كـانـوا يتميـزون بالصلبـان البيضاء، وتميـز الفرنسيـون بالحمـراء، وفسر بعض البارونـات عمله بشكل مفاجىء، وقـالوا إنه لم يفعل هـذا بدافع التقـوى ولالحبه للمسيح، ولكن

من أجل أن يحرمهم من اتخاذ قرار، وسمعوا بأنه استدعى أجانب لمساعدته، فاجتمعوا مع بعضهم ولم ينتظروا حتى يوم ٢٦نيسان، الذي جرى تحديده.

وعندما ردّ الملك بقسوة على البارونات، بوساطة رسله، عزموا على عدم التعامل معه بالسبل السلمية مرة ثانية، وعاد كلّ منهم مسرعاً إلى أراضيه من أجل تحصين قلاعه ولطلب العون، وبدأوا يعدون الخيول والسلاح.

وبناء عليه اجتمعوا مع قوة عظيمة في أسبوع الفصح، وذلك توافقاً مع الاتفاقية التي عقدوها، وجاء معظمهم من المناطق الشمالية، ولهذا عرفوا باسم الشماليين، ثم زحفوا إلى نورثأمبتون، دون القيام بأي عمل عدواني، وذلك باستثناء الظهور بالاستعداد للحرب، وانضم إليهم هناك غايل Giles أسقف هيرفورد، وغيوفري دي ماندفيل، وروبرت فتز وولتر، مع آخرين كثر من الذين كان لديهم بشكل رئيسي شيء ماضد الملك.

وحاول بالوقت نفسه الملك أن يستردهم إلى صفه من خلال كثير من الرسل، وكان هناك نقاش كثير فيما بينهم، وشغل رئيس الأساقفة والأساقفة وبارونات آخرين دور الوساطة، وكان الملك نفسه مقيماً قرب اكسفورد.

وفي نهاية هذا المؤتمر، الذي انعقد ليس بعيداً عن بريكلي Brack-ley أرسل البارونات رسائل تحدي للملك، ثم غادروا ومعهم رجالهم عائدين إلى نورثأمبتون، وفيما أعلامهم ماضية أمامهم أعدوا أنفسهم للقتال، وبعدما أغلقوا الأبواب ومركزوا الحراس عند الأسوار بدأوا بالهجوم على الحصن الذي كان في المدينة، لكنهم أعيقوا لأنه لم يكن لديهم آلات ومعدات حصار، ولهذا أرسلوا إلى مؤيديهم في كلّ من

القرب والبعد بوجوب حضورهم وجلب قواتهم معهم.

وجلبوا إلى صفوفهم عدداً كبيراً، خاصة من الشباب، أي من أبناء وأحفاد البارونات الذين رغبوا في صنع اسم لهم في الحرب، وانقسمت البيوتات على بعضها عدوانياً، فقد وقف الآباء والشيوخ إلى جانب الملك، في حين وقف الأبناء والشبان مع خصومه، ونعرف حتى بعضهم ممن عبر إلى الجانب الآخر حباً لأبنائهم، وكانت هناك الجماعة التي لم تنضم إلى الثوار في البداية، لكنها فعلت ذلك فيما بعد، إما لأنها كانت صديقة للسعد، أو لأنها كانت ممن يحب الأشياء الجديدة، ولقد قيل بأن كلّ من الاسكندر ملك الاسكوتلنديين وللويلن Llewellyn أمير شمالي ويلز، كانا على عهد معهم.

ودعا في هذه الأيام رئيس أساقفة كانتربري إلى مجمع ديني اقليمي يعقد في اكسفورد، وبعدما وصل بعض الأساقفة تأثرت المداولات الجادة باضطرابات المملكة، لذلك غادروا.

وعندما اجتمع الذين تقاطروا في قوة شديدة، اتهموا الملك بأشياء كثيرة، وبعدما اتهموه أدانوه، وقالوا بأنهم لايجوز أن يبقوه ملكاً، وجمعت أصواتهم قوة، وقامت مؤامرة قوية ضده، وجرى تعيين قادة للجيش، أطلق عليهم اسم قادة (مارشالات) جيش الرب، وبعد مضي وقت قصير زحف حوالي الخمسمائة فارس نحو لندن، وكان النهار الأحد، والناس في الكنائس، وفي تلك الأثناء، تقدم بعضهم أمام البقية مع بعض الشركاء من المدينة، وزحفوا خلسة نحو الأسوار، وتسلقوها، ثم فتحوا الباب الأول فالباب الثاني، وسمحوا لرجالهم بالدخول، وقد قيل بأن رجال الملك كانوا وقتذاك مع الجزء الأكبر من سكان المدينة جاهلين بما كان يحدث.

وهل هناك المزيد لقوله؟

وأسروا الـذيـن قـاومـوهم، وانضـم إليهم البقيـة، فغـدت المدينـة في أيديهم، وأقاموا دوريات الحراسة فوق الأسوار.

واحتشـد في هـذا الـوقت عـدد من النـاس، تقـودهم الـروح نفسهـا، واجتمعـوا مع بعضهم في دوفن، وقـاموا أولاً بـاحتـلال المنطقة الخارجيـة للمدينة ثم اختبأوا إثر هذا في الغابـة، لكن عندما علموا أن بعض الناس قـد استولـوا على عـاصمة المملكـة، خـرجوا مـن الغابـة وانـدفعوا بقـوة لاتقـاوم، فـاستولـوا على بيـوت الملك، وبعـدمـا نهبـوها وأفسـدوهـا مع حدائقه، انفرجت أساريـر الكثير من القلوب، فقتلوا في كلّ مكان واقترفوا أعمال نهب وسلب، وانفجر الاضطراب في نورثأمبتون، وتم قتل عدد كبير من رجال الملك الـذين كانوا متمـركزين هناك على أيدي سكـان البلدة، وبعد عدة أيام أكلت النيران الشطر الأكبر من البلدة.

ثم جمع الملك المسـاعـدات حتى يكـون قـادراً على الحفـاظ على ذاتـه بسـلام، وحصن حصونـه وقـلاعه، وشحنهـا بـالرجـال والمؤن، ثـم أرسل بعض الـرسل سراً إلى الأجـزاء الأجنبية لطلب العـون من الأمـم الأخـرى، وأرسل رسلاً آخرين إلى البابا، يشكو بحـرقة هؤلاء الذين قاتلوا ضده، ولم يثق البارونات برجـال الملك الذين كانوا في لندن، والذين كـانـوا مايزالون يفكـرون بـالأمـر، ولم يتخذوا قـرارهم، لهذا بـدأ البـارونـات بإنشـاء آلات الحصار والشروع بحصـار الحصن الذي يعرف بقلعة (بـرج) لندن، وسمع بهذا الذين كـانوا مايزالون في الأجـزاء الشمالية من البلاد، فشرعـوا بالقوة والإطراء يعملـون في سبيل الاستيلاء على المواقع هنـاك، وبعدمـا حشدوا جيشـاً قويـاً، احتلـوا لنكولن في أسبـوع أحـد الشعانين، واستعـدوا حتى لحصار القلعة، التي ظلت صامدة.

وبعـدمـا رأى الملك أنهم قـد حشدوا قـواهم، بـدأ من خـلال بعض الناس، وخـاصة من خلال رئيـس الأساقفة، الـذي احترمه كثيراً، يسألهم إقامة سـلام، ووعدهم بصدق، أنه ليس هنـاك من شيء سوف لن يفعله

لصالحهم، مقابل الحصول على السلام، واتفقوا على مكان يمكن للفرقاء الاجتماع به بشكل موائم، وبعد كثير من المداولات اتفقوا على عقد سلام مع الملك، وقد أعطاهم كلّ ما أرادوه وأكد هذا في ميثاقه.

كان هذا ميثاق مرسوم اصلاحات، وقد قصد منه، على الرغم من الايماءات العابرة إلى الطبقات الدنيا، حماية البارونات ضد الطغيان الجشع للملك جون.

واستقبل الذين جاءوا هناك بقبلة سلام، وجددوا يمين التبعية، وأكلوا وشربوا معاً، وحُدد يوم لاتمام السلام، عندما يتوصلون نهائياً ويحققون ماعقدوا عزمهم عليه، وأعاد الملك بشكل مرضٍ العدل إلى كلّ مكان، ورفع الحصارات التي كان قد بدأها، وسلم وتخلى عن البيوت والقلاع التي استحوذ عليها بيديه، أو التي كان أخوه رتشارد قد أخذها وهي قلاع:

ماونتسورل Mountsorrel وروكنغهام Rockingham وكولشستر Colchester وعدد كبير آخر، وجرى على الفور الإعلان عن سلام عام، وتوقف الذين كانوا في لندن، والذين كانوا في لنكولن عن الأعمال العدوانية.

وسويت المسائل واستقرت الأمور، لكن يا للأسف انبعثت مشكلة جديدة أسوأ من الأولى، وسببها العدو الذي يكره السلام ويصنع الاضطرابات، ففي أثناء المحادثات ذهب بعض البارونات من وراء الهمبر Humber وتخلوا عن التسوية، وجددوا الأعمال العدوانية، بحجة أنهم لم يكونوا حضوراً، وخلقوا فوضى، وبدا أنهم يستهدفون الآن ايجاد الفرصة لإزالة الصداقة التي دشنت، لأن الملك نفسه لم يثق بهم وهم رفضوا الاقتراب منه .

وجرى استقبال بعض الثوار الآخرين من قبل اللندنيين، وبدأوا بترميم

الدفـاعات الفئوية، وحصن آخـرون القلاع التي كان الملك للتـو قد تخلى عنهـا، أو التي كانـت بحوزتهم وكأنها ملك وراثي لهم منـذ زمن طـويل، وكان هناك آخرون قاموا حتى ببناء حصون جديدة.

وجرى بالوقت نفسه تـداول نسخ من الميثاق في البلدات والقرى، وكلّ من رآه وافق عليه، وكان الملك هو الذي أمر بذلك.

ثم أرسل الملك رسلـه إلى المقاطعـات لينبه العمال بـالعمل على حفظ السـلام، لأن عملهم هو حفظ السـلام في المقـاطعات، ومـراعاة الشـؤون الملكيـة، لكن عنـدمـا وصل الرسـل إلى الأجزاء التي كـان فيهـا النبـلاء المذكورين أقـوياء، بعضهم ألقي القبـض عليه، وطرد بعضهم الآخـر من دون أذى.

وعندما سمع الملـك بهذا توجس أن اليمين الذي توجبت مـراعاته لها قصد بـه جانبه، لأن الميثاق قـال ينبغي ارغام الملك على مراعـاة شروطه، وبسرعة بعث برسل آخرين إلى البلـدان الأجنبية، وأرسل مستشاره رتشارد مارش إلى البابا، الذي عقد اجتماعاً دائماً للكرادلة للعناية بمصالحه.

وعـرض جون قضيتـه لأن مجمع اللاتيران كـان وشيك الانعقاد، ولأنـه عرف أن بعض النبلاء كانوا يتآمـرون من أجل خلعه، وحاول بوعود كبيرة أن يـربح إلى جـانبه الملـك الفرنسي، لكنـه أحبط، لأن الآخـرين الـذين أعطاهم الملك الفـرنسي وعوداً سرية ومساعـدات كانوا قد سبقـوه، ولأنه كانت هنـاك عداوة بينـه وبين الملك الانكليزي منذ وقـت طويل مضى، باستثناء الأوقات التي كانت تتمتع بالهدوء بسبب الهدن.

ومن جــديـد كــان هنـاك الكثير مـن النهب وأعمال السلب، ومكث الملك في أماكن حصينـة، بينما تجول البارونـات بكل حرية ذهـاباً وإيـاباً عبر المنطقة، لكن حتى الآن لم يقتربـوا من الشعب، ولم يتعرضـوا له لأنهم رأوا أن وقت الحصـاد قـد اقترب، وركـزوا على نهب جميع المزارع الملكيـة

بقدر الإمكان، وكذلك البيوت التي كانت بالشمال، وأفرغوا الغابات ببيع الأحراش وقتل أعداد هائلة من الحيوانات البرية.

وعندما رأى رئيس الأساقفة وجميع الأساقفة أن البلاد آيلة للدمار، ذكّروا الآن الملك، وفي آن آخر البارونات ،لإقامة السلام، ولدى رؤيتهم أن كلّ من الثوار والملك قد أعدوا أنفسهم للسلام، وباتوا جاهزين لذلك، تقرر أن يجتمع الملك ومعه رجاله في اكسفورد، والبارونات ورجالهم في بريكلي، وتحدد موعد ذلك يوم ١٥-آب، وهو عيد رفع مريم العذراء المباركة إلى السماء، وهناك يسير الوسطاء فيما بينهم، وعندما يكملون عملهم سيكون بإمكانهم إماتة خلافاتهم، ودفن عداواتهم.

واجتمع في اليوم المحدد جميع الأساقفة والبارونات قرب اكسفورد، واصطفوا على شكل صفوف معركة، وأرسل الملك معاذير بوساطة رجاله قال فيها إنه عندما جاء إليهم، جاء لا لرفض أي شيء، لكن بعد السلام الأول لحق به إيذاء عظيم، وأضرار بالغة، ينبغي تصحيحها، وهاهم جاءوا في هذا اليوم، عندما كان من المؤمل القدرة على بناء سلام، مسلحين، ومعهم حشد هائل، لذلك بات غير أمين أو ينصح بالسماح بالوصول إلى الملك.

ثم جرى إعلان قرار الوصاية البابوية، وقد أمرت رئيس الأساقفة وأساقفته أنه يتوجب عليهم حرمان المتمردين على ملك انكلترا وعلى أعدائه، وكذلك عليهم القدوم لحضور مجمع اللاتيران، تحت طائلة الحرمان المؤقت، وجرى تفويض أسقف ونشستر، وراعي دير ردنغ، وباندولف نائب رئيس الشمامسة في الكنيسة الرومانية، الذي كان صديق البابا، بتولي أمر تنفيذ قرار الوصاية هذا، وكان هذا هو راندولف نفسه، الذي تولى قبل عامين مصالحة الملك مع الكنيسة الرومانية، وكان أيضاً قد بذل جهوداً عظيمة على صعيد الجانبين حتى يجدد دفع بنس بطرس، ولكي يعيد الملك إلى الكنيسة الرومانية، وبهذا وجد مكاناً بين

الانكليز وجرى انتخابه أسقفاً لنوروك.

ونظراً لانتشـار أقاويل بـوجوب تخلي الملك عن المملكـة، لأنه بـدا أنه لاتتوفـر ثقة بحكمـه، فإن المناقشـات بين الأساقفـة والبارونـات استمرت لمدة ثلاثة أيام، وذلك بهدف تعليق قـرار الخلع على الأقل، وجاء الأساقفة بالـوقت نفسه إلى الملك وطلبوا منـه حضور مفاوضات استسـلام في لندن أو في بلدة تدعى ستين Staines واتفقوا أنهم سوف يجتمعون هناك.

وعندهـا عاد البـارونات إلى لنـدن حيث عاش بعض شركـائهم، وعلى كلّ حـال لحق الأسـاقفـة بـالملك بـالسرعـة القصـوى إلى بـورتماوث، وبصعوبـة بالغة كـانوا قادريـن على ارجاعه من السفينـة التي ركبها، ولم يتمكنـوا من تحقيق أي شيء تجاوز أن عليـه ارسـال بعض رجالـه لمرافقـة الأسـاقفـة، لأن الـرجـال احتجـوا أثنـاء الاستماع لشهـادات الأسـاقفـة وأتباعهم، وقالوا إنهم لن يبقوا مع الملك حتى يجري إبرام اتفاق للسلام.

ولهذا اجتمع الأساقفة والبارونـات معاً كأنهم رجل واحد في ستين، يوم ٢٨-آب، وبعـد كثير من المداولات، وبما أن الخطر هـدّد الأسـاقفة صـدر قرار الحكم ضد مثيري القلاقل للملـك وللمملكة، وذلك تماشياً مع قرار الوصـاية البابويـة، ومع ذلك قال كثيرون: كان من المتوجب اصـدار قرار الحكم ضد الملك نفسه، لأنه هو الـذي سبب القلاقل للمملكة، ولذلك ينبغي طرده.

ثم عـاد البـارونـات إلى لنـدن، ليس بـلا فخـار، واقتسمـوا فيما بينهم أنفسهم ذلك الجزء من المملكـة الذي بـدا الآن أنه تحت سلطـانهم، فقد أعطيت اسكس إلى غيـوفري دي مـاندفيل، ونـورثأمبتون إلى روبـرت فتز وولتر، ونورفـولك وسفولك إلى روجـر دي كريسي Crescy وكونتيتي: كمبردج وهنتنغـدون إلى ساهـر Saher إيـرل أوف وينشستر، وكونتيـــة لنكولن إلى وليم دي ألبيني، وكـونتيتي: يورك ونوتنغهام إلى جـون مفوض

الجيش في تشستر، ونـورثـأمبرلانـد Northumberland إلى روبـــرت دي روس Ros وتـوجب أن يظهـر كلّ واحد منهم نفسـه قـادراً على توفير العدل والسلام للمنطقة التي عهد بأمر العناية بها إليه.

وأعلن بعـد عدة أيـام بأن الملك مع الأجانب الكثيرين الـذين قدمـوا لمساعـدته، قد جمعوا جيشـاً قرب دوفر، حيث بدا لـه من الموائم أن ينتظر هناك الآخرين الذين أمل بقدومهم.

وبما أن البارونات خلعـوه ورفضوه، بدأوا الآن يبحثون مسـألة انتخاب ملك جديد، ولما كان الصحيح المتوجب إتمام هذا بموافقة المملكة كلها، دعوا إلى اجتماع حاسم، وادعوا وجـود خطر حقيقي، ورددوا تلاوة الأيمان التي أقسمت، ورسمـوا بـوجـوب اجتماع جميع النبـلاء في مـوعـد محدد ومكـان عيّن من قبل، وحـدث إثر هـذا، أن البـارونات الـذين لم يعطـوا موافقتهم عند البـداية، قاموا الآن بعد كثير من التأخير والمباحثـات، بالرد بأنهم لم يـوافقوا على خلع الملك وطـرده، بل تعهدوا أنفسهم أنهم سـوف يكونـوا جاهزين لخدمتـه في السلم، ثم انقسم البارونـات إلى معسكرين، وتضاعفت الشرور في البلاد.

ومع أن الثـوار كـانـوا كثرة كثيرة، غير أنهم افتقـروا إلى الثقـة، ولـذلك التفتـوا نحو الملك فيليب ملك فـرنسا، وانتخبـوا أكبر أولاده لويس ملكـاً عليهم، ورجـوه القـدوم إلى انكلترا مع قـوة كبيرة، بغيـة تحريـرهم من يـد الطـاغية الـذي يتولى حكمهم الآن، وبعـدمـا أكملوا هـذه الاتفاقيـة من خلال وسطاء، ترددوا فيما بينهم، قاموا بحصـار قلعة نورثأمبتون بمساعدة ضبـاط فـرنسيين بـارعين في انشـاء آلات الحصـار، وعنـدمـا اكتمل هـذا العمل، حاصروا الحصن في اكسفورد.

ويبدأ الملك جون، الـذي أقام قرب دوفر لبضعة أيـام، الآن برفع رأسه، وإلى هناك وصلت إليه جميع القوات القادرة التي كـان قد وعد بها عندما

طلب العـون، فقد جـاء إليه النـاس بأعداد كبيرة من بـواتو، وغسكـوني، وبـرابانكـون وفلانـدرز، مع أن عدداً كبيراً منهم عـانى من ريح عاصفـة أثناء العبور، وغرقت إحدى السفن التي كانت تحمل رسل الملك.

وعندما تضاعف تعداد قـواته، بعث الملك ببعضها لتتولى رفع الحصار عن كلّ من اكسفـورد ونورثـأمبتون، بينما هـو نفسه تـولى احتـلال مدينـة روكستر، التي أثارها البـارونات ضده، وشرع بحصار قلعتهـا، وكانت هذه قلعة رئيس الأساقفـة وكان فيها عدد كبير من الـرجال: أي خمسة وتسعين من خيرة الفـرسان وأشدهـم، ووعد آخرون الملك بتقـديم عون سريـع له إذا ماتولى حصارهم، ولم يتراجع الملك أو يتقاعس، بل قام بتدمير الجسور التي أمل الفـرسـان بـالحصول على العـون عبرهـا، وأنشأ آلات للحصـار، ومن ثم بـدأ يقاتل القلعـة من جميع الجوانب، وسبب الـرجال الشجعـان والأشداء الـذين كـانوا يتولـون المقاومـة وقوع كثير مـن القتلى بين صفوف أعدائهم.

وبعدما استدعى البارونـات جميع حلفائهم للاجتماع بهم، غادروا لندن يـــوم الاثنين ٢٦-تشريـن الأول، مع سبعمائة فـــارس، ولكـي يمـــدوا المحاصرين بالعـون جاءوا إلى بلدة دارتفورد Dartford ومع ذلك عندما سمعوا بأن الملك عـازم على مهاجمتهم، تراجعوا مسرعين إلى لندن، واتفقوا أنهم سيجتمعون في ٣٠-تشرين ثاني مع قوة أشد وأفضل، وكانوا يعتقـدون أن المحـاصرين سيكـونـون قـــادرين على المقـاومـة حتى ذلك الوقت.

ثم بعثوا سـاهر، إيرل ونشستر مـع عدد كبير آخر، بغيـة تعجيل وصول لـويس، ولكي لايكـون في نفسه أيـة شكـوك أقسموا بشكل سري أيمانـاً أنهم لم يتملكوا أراضيهـم من الملك جون بشكل سرمدي. وعاد عدد كبير منهم إلى أراضيهم، بينما مكث آخرون في لندن.

وعندما اشتد الضغط كثيراً على المحاصرين داخل روكستر، حثوا الملك على التفاوض معهم، لكنه رفض الاستجابة لهذا المطلب، وقذف بالحجارة ضدهم بدون توقف، في كلّ من الليل والنهار، وكانت الآلات التي تتولى القذف خمس آلات، وكان الآن قد جرى تدمير جميع الدفاعات، والذي بقي فقط هو القلة، لأنها كانت مبنية منذ زمن قديم، وبشكل متين محكم، ولهذا قاومت الهجمات، ثم جرى ارسال اللغامين، لكن عندما تهاوى نصف القلة، تابع المحاصرون الدفاع في النصف الآخر، وكانت عمارة قائمة على تقسيمها إلى شطرين يفصل بينهما سور حجري قوي، ولم يوجد في أيامنا حصار آخر استمر بالعزم نفسه، أو لاقى مقاومة فعالة مثيلة، ثم إنه بعد مضي أيام عديدة، لم يبق لهم سوى بعض الحجر الضيقة في القلة، بدأوا يعانون من المجاعة، ومن الافتقار لبقية الأشياء، فأكلوا لحوم الخيول وشربوا الماء، وكان هذا قاسياً جداً على الذين نشأوا نشأة ناعمة.

ثم كان أن حلّت النهاية، ففي البداية جرى اخراج الذين بدوا أقل قدرة على القتال من القلعة، فأمر الملك بقطع أيديهم وأرجلهم، ولم يمض وقت طويل حتى وقعوا جميعاً بالأسر، فألقوا في الأغلال، باستثناء الذين برهنوا على أنهم كانوا من رجال الدين، واحتفظ الملك بالفرسان والنبلاء لنفسه، وسلم الأسرى الأدنى مكانة ليحفظوا في أيدي الآخرين، وأمر بشنق واحد فقط، وكان رامياً قد تولى تربيته منذ الطفولة، مع أن الاعتقاد قد راج بأنهم جميعاً سوف يقتلون بسبب الغضب العظيم للملك وحنقه، ولدى سماع بقية البارونات بنتائج الحصار، أصابهم الرعب، ومع تصاعد خوفهم اجتمعوا في لندن أو مكثوا في البيوتات الدينية، وكان بينهم قلة فقط الذين شعروا فعلاً بالأمان خلف التحصينات.

وطلب بارونات انكلترا مشاركتهم في المجمع، وبعثوا ببعض من يتولى

عرض وجهات نظرهم، لكن بحكم أن هؤلاء كانوا موسومين بحكم الحرمان الكنسي، لم يسمح لهم بالحديث، ولم يكونوا وحدهم المحرومين بل أيضاً كلّ المعادين للملك مع مساعديهم ومؤيديهم، ولأن البابا كشف له بأن الملك الفرنسي وابنه قد أبرما معاهدة مع البارونات المتقدمي الذكر، بعث إليهما برسائل متوالية، يحذرهما فيهما من الإقدام على أي عمل ضد قراره بالحرمان، لكن آماله خابت، إما بسبب بغضهما الشديد لجون، أو لأنهما كانا متعجرفين فلم يرضيا بالانسحاب، أو لأنهما تسلما رهائن من البارونات الانكليز، وهكذا بعث فيليب الثاني بمارشال فرنسا إلى لندن مع قوة قوية من الرجال المسلحين، الذين توجب عليهم الإعداد مع اللندنيين من أجل قدوم ابنه لويس، الذي ساد اعتقاد أنه سيصل في وقت قريب جداً.

واستولى الملك —كما قيل— على روكستر في بداية كانون الأول، ثم انصرف بوجهه نحو ونكستر، ثم ذهب من خلال وسط انكلترا إلى الشمال، ومتن وجوده قلوب الناس الذين كانوا مترددين، وأكّد موقف مؤيديه الذين مركزهم في القلاع وفي أماكن حصينة أخرى، ثم قصد نوتنغهام، وهناك احتفل بعيد الميلاد، وجميع القلاع التي كانت هناك إما لحقها الدمار أو سلمت إليه.

سنة ست عشرة ومائتين وألف

ثم تابع الملك جون ترحاله نحو أماكن أبعد، فوصل حتى قلعة بيروك Berwick وبعدما استولى على البلدة وأفرغ المنطقة المحيطة بها من السكان عاد إلى أراضيه، وقام في أثناء ذهابه ثم أثناء إيابه بالعيث فساداً في البلاد، واستولى على الأماكن الحصينة، ولم يوجد أحد تولى مقاومته،

لأن ملك اسكوتلنـدا الذي كان مايزال صغيراً، هـرب إلى أقصى المناطق مع جميع أتباعه.

وغـزيت في تلك الآونـة جـزيـرة إيـلاي من قبل بعض حلفـاء الملك تحت قيـادة إيرل سـالسبري، وتجمع هناك إمـا بسبب كـون الموقع مكانـاً دينياً، أو لأنه كان جيـد التحصين، عدد كبيرمن النساء والأطفال وبعض النبلاء، وقد أغلقـوا المداخل، واستعدوا للمقاومة بـوضع حرس في أماكن منـاسبـة، غير أن الإيـرل انتهـز الفـرصـة بحـدوث صقيع شـديـد، فعبر المستنقع، وبذلك أسروا بوساطة حشـد من القوات، ونجا بعض الفرسان عن طريق الفـرار فوق الجليد، وعدد كبيرمن النساء لنيلهـن حماية الإيرل، وعنـدما سمع بهذا الكثير ممن اتخذ مـلاذاً في الأماكن المقـدسة، ارتعبـوا، وهرب كلّ الذين استطاعوا إلى لندن.

ثم انطلق الملـك نحـو اسكس، لأنـه قيل بأن كثيراً من الأمـاكن الحصينة كـانت تستعد للـدفاع، ومع ذلك عنـدما وصل إلى هنـاك مامن أحد قاومه فيما عدا قلعة كولشستر Colchester وهذه حاصرها بقوة كبيرة، واستـولى عليهـا في الأسبـوع الأول مـن آذار، ولم يبق هنـاك سـوى لندن، حيث كان الفرنسيـون يحتشدون مع أعداء الملك، ومع أنه قيل بأن الملك وجه جيشه إلى هنـاك، ذهب عوضاً عن ذلك إلى دوفر، شـاعراً أنه بهذه الطريقة سيكـون قادراً على اعتراض سبيل حملة لويس، أمـا بالنسبة للبـابا، فلم يكتف بـارسال رسـائل متواليـة، لكنه بعث أيضـاً كاردينـالاً يدعى غـوالو Gualo الذي كان سيتـولى شخصياً ادارة الأعمال، ويشغل منصب القاصـد الرسـولي في انكلترا، لكن لا استعدادات الملك، ولارسائل البابا، ولامحاولات الاقناع التي تولاهـا القاصد الرسولي، نجحت في ثني عزم لـويس، لابل حتى الريح التي كانت تهب منـذ وقت طويل ضده، لم توقفه.

وفي ١٤-أيار نزل لـويس ورجاله على جزيـرة ثانت Thanet وقد

رآهم الملك عندما وصلوا، وكان معه كثير من الأجانب والمرتزقة، الذين انضموا إلى جانب القائد الفرنسي، ولم يحاول هو حتى منع نزولهم، كما أنه لم يهاجمهم عندما استولوا على الشاطىء، وكان الآن مضطرباً في عقله بادية على وجهه آثار الحزن، لذلك تراجع إلى ونشستر برفقة القاصد الرسولي غوالو، الذي كان قد نزل في انكلترا.

وبعدما استولى لويس على الشاطىء، ذهب إلى كانتربري، وهناك انتظر رجاله الذين استدعاهم من لندن، حتى إذا جمع قواته هناك، يمكنه أن يتابع زحفه بضمان أكبر، واحتشد فرنسيون وانكليز لتأييده، وبعدما ذاع خبر وصوله، بدأوا في اثارة العاصمة، وخرج الذين انتظروا قدومه منذ وقت طويل من مخابئهم.

ثم بدأ يتخلى عن الملك ويهجره كثير من بين الانكليز الذين وقفوا إلى جانبه، وفي أثناء الزحف جرى الاستيلاء على عدد من القلاع، وقدم لويس إلى لندن يوم الخميس قبل عيد الشعانين، وقد استقبل بكل ابتهاج وسعادة، وقدموا له الولاء، وأقسموا يمين التبعية له هناك، وهكذا خيل إليهم أن جميع الجزيرة سيتم الاستيلاء عليها فوراً، وجرى الإعلان عن هذا في كلّ مكان، وبات من المعتقد أن الملك كان يائساً، لأنه أمر قبل وقت قصير بهدم عدد من القلاع في أرجاء انكلترا.

وجمع القاصد الرسولي إليه شخصياً الأساقفة وزعماء الكنيسة، ودعاهم إلى تقديم العون للملك وللمملكة، وبحضور من الملك أنزل القاصد الرسولي عقوبة الحرمان الكنسي بالأمير لويس الفرنسي اسمياً، وبضباطه ومؤيديه، وبناء عليه، وضعت أراضيهم تحت الحرمان في يوم أحد الشعانين في ٢٩-أيار، وشمل الحرمان مدينة لندن أيضاً.

ولم يثن هذا عزم لويس، فقام بمطاردة الملك، فاستولى على ونشستر وعلى الدفاعات المحيطة بها، وأعطى ذلك كله إلى كونت أوف نفر

Nevers الـذي جاء معـه، ثم قام ومعـه عـدد كبير من الناس بحصـار قلعـة دوفر، التي تـولى الـدفاع عنهـا كلّ من الطبيعـة والـدفاعـات التي صنعهـا الانسان، وبعث ببعض البـارونات الانكليـز مع كونت أوف نفـر لحصار قلعة ونـدسور، وعلى كلّ حال كان البـارونات الشماليين قد لحقت بهم الهزيمـة في أثنـاء محاولاتهم الاستيـلاء على لنكـولن، وحـررت سيـدة اسمها نيكولا Nicola وكانت زوجـة شحنة القلعة، نفسهـا من هذا الحصـار بـوساطـة دفع المال، ثم ذهـب البـارونـات الشماليـون مع الملك الاسكوتلندي إلى لويس، وأعطوه الولاء وأدوا مراسـم التبعية له.

وفي هذه الآونـة تخلى عن الملك العديـد من أصدقـائه المقربين، نـذكر منهم: إيرل أوف وارني Warenne وهـو من أقربـاء الملك، وإيـرل سـالسبري، وهو أخـو الملك، وإيرل أوف أرونـدل arundel والإيرل روبرت دي فير Vere وكـذلك عـدد كبيرآخر، ولقـد اتضح فيما بعـد أنهم وقفوا إلى جانب لويس بسبب الخوف وليس بسبب القناعة، وبعدما تفحص جون لـوقت طويل مـاصنعه لويس، بـات على قناعة أن تقـدمه الآن بات أقلّ من الأول، ذلك أنه تعطل لدى حصـار دوفر لوقت طويل، وبنـاء عليه نقل معسكـره إلى نورفـولك، واحتل المكـان الذي كـان ملك السكوتلنديين قد تركه.

ولدى سماع الـذين كانـوا معسكرين في ونـدسور بهذا، لاحقـوه، وبناء عليه رفـع الحصار عنها، ثـم ذهب جون إلى قلعـة أكسمولم Axholme وبعدما عاث فساداً بها بالنار والسيف حرك قواته خلال لندسي Lind-sey وعبر هولانـدا ووصل إلى لنكولن، حيث كان ملك اسكوتلنـدا قد عسكر قبل أيـام قليلة، واستولى خلال رحلاتـه على أراضي العدو، ونهبهم وأحرقهم، ولهذا لم يأت وقـت مثل هذا كانت البـلاد فيه مضرمـة بالنيران بمثل هذا القـدر، ثم عندما فر الـذين كانوا مجتمعين في لنكـولن من أمام وجهه، تراجع مسرعاً، وقد بات منهكاً من اصابته بمرض الزحار.

وفي أثناء هذه الرحلة حدث أن فقد جون قطار أثقاله في سباخ شاطىء البحر أثناء غمرها بتيار المدّ، وحدثنا رالف أوف كوغشال بأنه «فقد أثناء هذه الرحلات عند ولستريم Wellstream بيعته النقالة مع آثاره المقدسة، وبعضاً من دواب الحمولة لديه، والكثير من مؤن بيته وحاشيته، وعدد كبير من رجال حاشيته حيث غرقوا في مياه البحر، وتلاشوا وسط الرمال المتحركة، لأنهم انطلقوا بحماقة وأسرعوا قبل أن يتراجع تيار المدّ».

وعندما وصل جون إلى قلعة سليفورد، التي كان قد أخذها من أسقف لنكولن في أثناء الحرب، ازداد مرضه سوءاً، وحمل على نقالة إلى نيوآرك Newark وهي قلعة أخرى من قلاع أسقف لنكولن، كان الملك قد استولى عليها منذ زمن بعيد.

وتمدد هنا بسبب مرضه، وأنهى أيامه في ١٩-تشرين الأول، بعدما حكم لسبع عشرة سنة وخمسة أشهر وأربعة أيام.

وكان جون في الحقيقة أميراً عظيماً، لكن نادراً ماكان سعيداً، وكان مثله مثل ماريوس Marius قد عانى من الصعود والهبوط مع الحظ، وكان لطيفاً وكريماً مع الغرباء، وسلاباً نهاباً لشعبه، يثق بالأجانب ويفضلهم على رعيته، ولهذا تخلى عنه بالنهاية رجاله وهجروه، وبقي القليل منهم من حوله، وبما أن جلّ قواته كانت إما مرتزقة مكتراه أو أجانب، فقد تجمعت بسرعة في ذلك المكان، وبدت وكأنها مسلحة استعداداً للحرب، وحملت هذه القوات جسده بعيداً حتى ووركستر Worcester وكان هذا لالأنه طلب أن يدفن هناك، لكن بسبب أن ذلك المكان بدا في ذلك الوقت مكاناً آمناً، حيث يمكن لمؤيديه أن يجتمعوا للتباحث حول ماينبغي القيام به بعد وفاته، وبما أنه كان أقرب إلى البدانة فقد دفنت أحشاءه في دير كروكستون Croxton.

خاتمة

وهكـذا مات الملـك جـون، وكان، حسبما كتـب متـى الباريسي بعـد خمسين سنة: «قـد تحرر من آلام التفكير، ومـن حياة كثيرة الاضطـرابات ومن الجهد الضائع»، ولاشـك لابل من شبه المؤكد أن موتـه غير المتوقع قـد أبقى انكلترا لأسرة بـلانتغنت، لأن وريثـه الصغير، هنـري الثالـث، الذي كان مجرد طفـل في التاسعة من عمره، لم يكـن له أعداء شخصيين، وبسرعة نـال الحماية والمساعـدة من قبل أكثر البـارونات فروسيـة، وكان البابـا انوسنـت الثالث وصيـاً يقظاً مرعبـاً، وعظيم الإصرار نحـو الملك الجديد، وبدأ التأييد للويس الفرنسي يتلاشى تدريجياً، لأن الثوار الانكليز توصلوا إلى قنـاعة أنه أنفع لهم أن يكون على العرش طفـل ضعيف بدلاً من الملك الفرنسي المنتظر، الذي كان قوياً ويتمتع بالكفاءة.

ونشـأ هنري الثـالـث الذي حكـم لمدة سـت وخمسين سنة، في وسـط ديني، فكان رجلاً لطيفاً، وحامياً للفنون الدينية، وذكياً لكن ليس بارعاً، عاش مع مسؤولية الاهتمام بالمظاهر الملكية، لكن حتى عندما كان راشداً بالغـاً، لم يستطع تـرجمة هذا الاهتمام إلى واقع مـؤثر في العمـل السياسي، الذي كـان ضرورياً للملكية النـاجحة في العصـور الوسطى، وكـان مثله مثل أبيـه قد وجد أنـه من الصعب كسب ثقـة باروناتـه والاحتفاظ بها، وكـذلك تـورط مثـل أبيـه في صراع حاد معهـم، وتعـاظمـت مشاكلـه بـالاخفاق الإنكليـزي في اعادة الاستيـلاء على الممتلكات البـلانتغنتونيـة المفقودة، وذلـك على الرغـم من الانفـاق المالي الهائل، واستمرت بعـض هـذه الحقائق، أو كلهـا: أي الضعـف الملكـي، وانعدام الثقـة بين التـاج والبـارونات، وتنـاقـص الواردات الحكـوميـة، والاخفاق في الحرب مـع

فرنسا، وتكررت بالوقوع في القرون التالية من وقت إلى آخر، ولهذا إن الملوك الذين كانوا مثل هنري الثاني اداريين أكفاء، وقادة أشداء، وأمراء عسكريين فاعلين، قد عدّهم رعاياهم في غالب الأحيان نموذجيين، وقد كسبوا اعجاب الأجيال اللاحقة.

وجاء في تاريخ وليم المارشال [حوالي١٢٢٦] الذي كان الوصي والحامي للشاب هنري الثالث قوله شعراً:

بسيف الرب، إذا ماتخلى الجميع عن الملك،

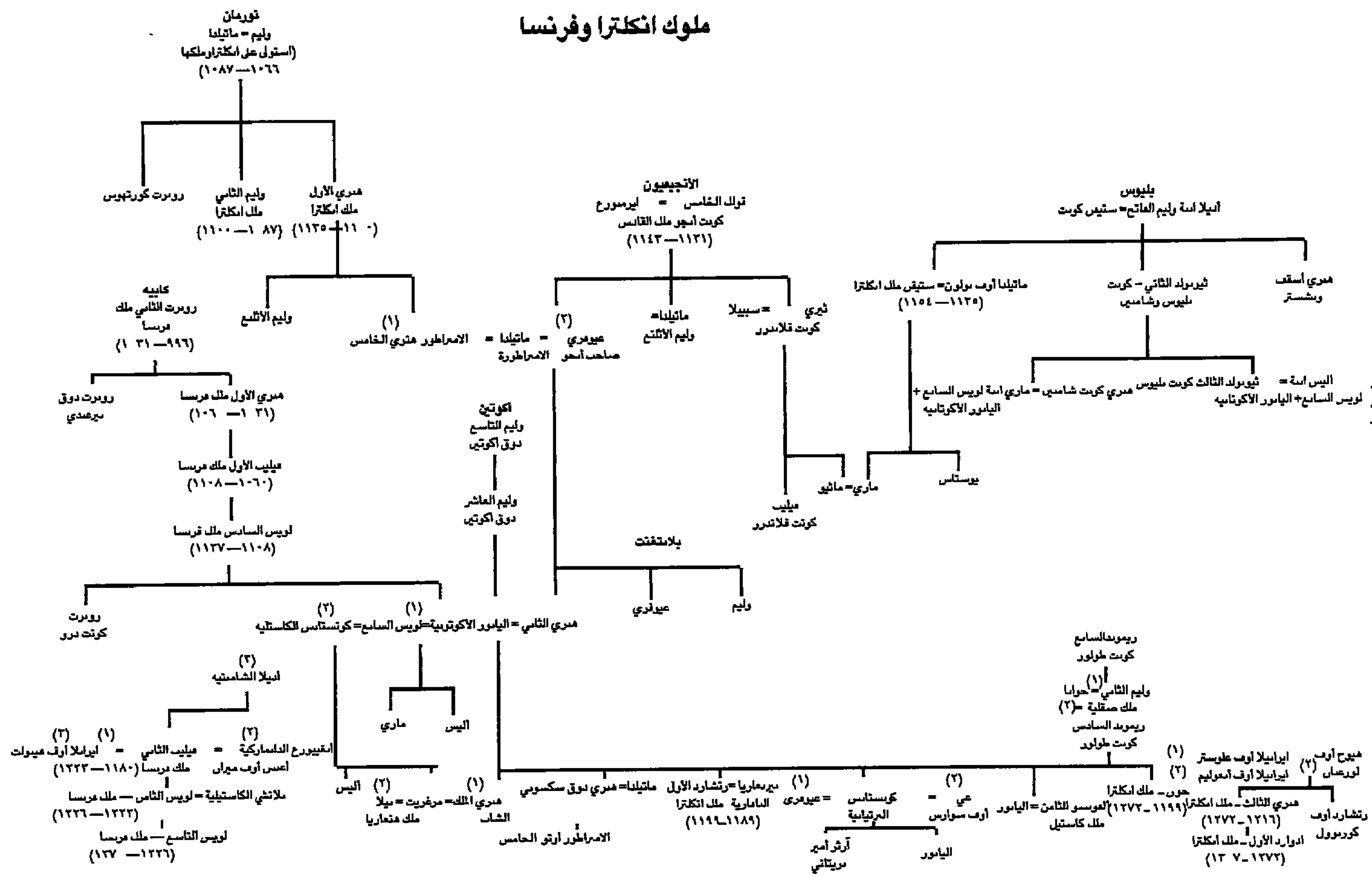
هل تعلم ماالذي كنت أنا فاعله؟

كنت سأحمله على كتفي خطوة خطوة؛

من جزيرة إلى جزيرة ومن منطقة إلى منطقة،

ولن أخذله حتى لو عنى ذلك التسول من أجل خبزي

ملوك انكلترا وفرنسا




a xpo beatorum aplorum choro. talem retributionẽ re
cipiunt p corruptibilibus.



السصل الرومانى بوتيوس الذي كتب بحثا عن الموسيقى نال الاعجاب الكبير من قبل مؤرخي العصور الوسطى

الحواشي والتعليقات

١ — بيت الشيطان:

« من الشيطان جاءوا والى الشيطان سيعودون» هذا ما قيل عن كونتات أنجو، ورواه جيرالد أوف ويلز، في إشارة إلى اسطورة تحدثت عن أن كونتات أنجو وملوكها قد انحدروا من ابنة الشيطان، وجاء في حكاية جيرالد أن واحداً من كونتات أنجو القدماء عاد من احدى رحلاته مع امرأة اسمها ميلوسين، وكانت مشهورة لجمالها، وقد تزوج منها، وكان حولها كثيراً من الأمور الغريبة، أعظمها إثارة كان غيابها الدائم عن حضور القداس لدى مباركة الحشود وتعميدها، وكشفت حقيقة أمرها عندما أرغمها زوجها على البقاء ورؤية جسد المسيح، وهو مشهد ما من شيطان يمكنه مواجهته، وهربت ميلوسين من النافذة وهي تولول، ولم تر ثانية، وخلفت وراءها ولدين، منهما انحدر كونتات أنجو.

وروج لهذا النوع من الحكايا ت مؤرخو الأسرة للدعاية، ولمسايرة روح العصر، ولتغطية الحقبة المبكرة المجهولة من تاريخ الأسرة، وكان الناس في القرن الثاني عشر يستمتعون بهذه الحكايات ويصدقونها حتى ليقال بأن رتشارد قلب الأسد عقب وهو يضحك لدى سماعه قصة أصل أسرته بقوله: « عجباً لو أننا فقدنا طبيعتنا البشرية، فنحن جئنا من الشيطان، ووقتها لابد من أن نعود الى الشيطان » .

٢ — الطاغية التقي :

كـان فـولـك نيرا وحشاً مـرعبـاً وحـاجـاً تقيـاً ، ولقد كـان مـن أكثـر الشخصيات إثارة في القرن الحادي عشر ، وكان النتـاج الأكثر تطرفاً لقرن سيطرت فيـه العواطـف والانفعالات على سلـوك الناس ، وكـان الديـن سلعة لتبـادل المنافـع مع الرب ، وهكـذا تماشى سلـوكه وعنفـه مع روح العصر.

ففي سنـة ٩٢٢ نال نصراً عظيماً ضد كـونت بـريتاني ، وتحقق لـه هذا عندمـا طار الجيش المتراجع فـأحدث دماراً هـائلاً بكل ما مر بـه ، فقتل وسلب ونهب وأحرق ، وإثـر هذا النصر الرهيب أحـرق زوجته الأولى حين وضعها على سفود وشواها لاتهامها بالكفر.

ومع هـذا كله قام فـولك بـالحج إلى القدس ثلاث مـرات ، وذلك في وقت تعذر فيه على كثيرين القيام بـرحلة واحدة ، كما أنه زار روما ، وبنى ديرين أحدهما قرب تور والثاني قرب أنغـر ، ومع تطرفه هذا كان بارعاً في السياسـة ، وفعالاً في حملاته العسكـرية واستراتيجيـاً ناجحاً في بنـاء القلاع ، ولا شك في أنه كان قائداً صاحب قدرات وحشية خارقة .

٣ـ الشرق ضد الغرب :

كـرست الكنيسـة في العصور الـوسطى جهـودها على تحقيـق الوحـدة المسيحية المنشودة ، لكنهـا لم تستطع قط الوصـول الى ذلك وتحقيقه ، ولم يظهر الاخفاق بشكل مؤسف في خلال العصـور الوسطى أكثر منه في سنة ١٠٥٤، عندما بعث البابا ليون التـاسع ببعثة دبلوماسية الى القسنطنطينية لتتهم البطـركية هناك وتـوبخها على أنها «عاصية وفـاجرة وابنة فـاسدة ، تتمتع في دارها بالسلام والراحة والـرخاء وترفض الاسهام بدور في القتال المسيحي الـذي أثارته الكنيسة الأم المقـدسة في روما » ولم يكن مـدهشاً

أن « الابنة» تخلت عن اخلاصها وتبعيتها كلياً لروما، وعلى هذا كانت سنة ١٠٥٤ سنة الانفصال الدائم بين الكنيستين : اللاتينية الكاثوليكية في الغرب ، والاغريقية الأرثوذكسية في الشرق .

وكان الخلاف قائماً يعتمل بينهما منذ زمن قديم ، يرقى حتى إلى أيام الامبراطور المسيحي الأول ، قسطنطين الكبير ، وذلك عندما قرر هذا الامبراطور تدشين المدينة الاغريقية في بيزنطة ، لتكون القسطنطينية عاصمة المسيحية ، ولتكون روما جديدة ، وصحيح أن روما والقسطنطينية كانتا سنة ٣٣٠ بالأصل متحالفتين ، لكن بابوية روما أخذت بالتدريج تبتعد وتتجه نحو الانفراد، فزادت من سماتها الغربية ومن انشغالاتها في الغرب، ولم يعد في روما بعد سنة ٧٥٢ ولا بابا اغريقيا، أو يتحدث الاغريقية، وفي تلك الأثناء، الذي كانت الامبراطورية البيزنطية ماتزال فيه قوية ومتقدمة، ربط البطاركة كنيستهم تماماً مع مصالحهم بأباطرتهم، ودعموهم بكل امكاناتهم وطاقاتهم، وكان من الممكن حتى في القرن الحادي عشر ايجاد حلول للخلافات العقائدية بين الكنيستين، وألحت البابوية الغربية على الانضباط والطاعة والنظام الحاد، ولم تسمح قط لايجاد بدائل دينية ألطف بناءً، وعليه بات حتمياً انفصال الغرب اللاتيني عن الشرق الاغريقي، وابتعادهما عن بعضهما.

وظلت القسطنطينية حتى سنة فتحها في ١٤٥٣ من قبل العثمانين مركزاً لكنيسة اغريقية عالية المعرفة والثقافة، وكان أعظم انجازات هذه الكنيسة تحويل الشعب الروسي إلى المسيحية الأرثوذكسية، وفي روما وضع البابوات أنفسهم على رأس حركة اصلاح الكنيسة الكبرى في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، وشرعت في ظل غريغوري السابع (١٠٧٣—١٠٨٥) العدواني ومن بعده خلفائه على عرش البابوية في فرض إرادتها على جميع أرجاء المسيحية الغربية بشكل لم يكن له نظير من قبل.

وكان البابا بالنسبة لفولك نيرا المتوفي سنة ١٠٤٠، عندما عاد من زيارته الأخيرة للقدس مجرد شبح وشخصية لا أهمية لها، غير أنه بعد قرن عندما حكم حفيده فولك الخامس صاحب أنجو، المملكة اللاتينية في القدس، كان بابوات روما بلا منازع قادة المسيحية، والمسؤولين الروحيين، لا بل القادة الدينيين، للحركة الصليبية.

٤— قلاع أنجو:

مايزال من الممكن رؤية بعض قلاع أنجو، التي بنيت في أوائل القرن الحادي عشر، وهذه القلاع بين أقدم الحصون التي بنيت بالحجارة، وبقيت من العصور الوسطى، وهي تبدو قوية حتى اليوم، وتحكمت بعض القلاع بالمناطق التي أحاطت بها، أو بطرق المواصلات، أو كانت بمثابة نقاط دفاعية، أو مواقع استراتيجية للوصول إلى هدف مرسوم مثل القلاع التي بناها غيوفري مارتل حول تور للاستيلاء عليها، وكان ذلك في سنة ١٠٤٤، وعلى كل حال كان فولك نيرا من أكثر الكونتات بناء للقلاع، حتى يمكن القول إنه أول القادة الذين أدركوا قيمة موقع القلعة للأعمال الدفاعية وأيضاً لتكون قاعدة للأعمال الهجومية، مما أعطاه السمعة أنه كان استراتيجياً مبدعاً.

٥— أبيلارد وهليوس:

كان أبيلارد استاذاً مشهوراً في باريس، وفقيهاً وخطيباً أصيلاً، ووضعته قدراته في قلب الحياة الثقافية في غربي أوربا في القرن الثاني عشر.

وكان قد ولد في بريتاني في سنة ١٠٧٩، وعاش لسنوات باحثاً متجولاً، وذلك كنموذج لعصر لم تكن فيه بعد جامعات مؤسسة أو مراكز

علمية رئيسية فيها علماء متميزين يتبارون فيقدمون فرصاً أمام الطلبة الراغبين بالمعرفة.

وتظهر روايته عن حياته «تاريخ مصائبه» كيف دمر أفكار وسمعة عدد من أساتذته برعونة أكسبته العداوات، وعندما صار في الثلاثينات من عمره، كان المعلم في باريس، حيث جذبت عبقريته إليه حشداً من الطلبة ورسخت القاعدة لإقامة جامعة المدينة العظيمة.

وفي باريس، عندما كان في ذروة شهرته، قابل هليوس، ووقع بحبها، وكانت أصغر منه بنحو عشرين سنة، كما وكانت الحفيدة الجميلة والمتعلمة لفولبرت، كاهن كاتدرائية نوتردام، وكانت العزوبية متوقعة في الكنيسة وإن لم تكن مطلوبة بشكل حتمي، وكان التواصل مؤذياً جداً لحياته وعمله، لكن ليس مأساوياً، غير أن هليوس أنجبت ولداً، ومن ثم أقيم زواج سري لإطفاء غضب فولبرت، ومع ذلك تابع الكاهن معاملتها بسوء، ولهذا أخذها أبيلارد أخيراً إلى دير في أرغنتيل -AR GENTEUilL، واعتقد فولبرت أن أبيلارد عازم على هجر حفيدته وابقائها راهبة متبتلة الحياة،ولذلك خطط للقيام بانتقام رهيب ، فأرسل خدمه لاقتحام غرفة أبيلارد في الليل وخصيه ، وشعر أبيلارد اثر هذا بالرعب والإذلال الشديد فصار راهباً في الدير الملكي الكبير الحامل لاسم سينت دنس وبناء على تعليماته ، أدخلت هليوس ـ التي كانت في التاسعة عشرة من عمرها ـ وهي في حالة قنوط ، الى الدير الذي أخذها أبيلارد إليه .

ورأى فيه معاصروه أنه صاحب تأثير خطر ، وقد غادر في ثلاثينات القرن الثاني عشر سينت دنس ، ليستأنف التدريس ، وجذب اليه المعارضة من المحافظين في الكنيسة الذين قادهم برنارد أوف كليرفو ، وهو راعي ديرسسترشياني مرعب ، وكانت غلطة أبيلارد أنه تفوه بشكل علني ومقنع أن العقيدة المسيحسة ينبغي إخضاعها للبحث العقلاني ،

وكان هدفه كرجل دين مؤمن هو تعميق الفهم ، وليس لغم الايمان ، وتبنى أيضاً موقفاً متطرفاً، حيث قال النية هي التي تقرر فيما إذا كان العمل المقترف ذنباً ، وكان هذا كثيراً جداً بالنسبة للكنيسة المتجذرة ، وهكذا أدين بالهرطقة في سنة ١١٤٠، أي قبل عامين من وفاته .

ويتذكر أبيلارد هذه الأيام على أنه محب متفاني ويظهر «التاريخ » والرسائل التي تبادلها مع هليوس ، عندما عاش كلاهما داخل الدير ، أنه امتلك عاطفة وحباً يائساً لم يكن لا هو ولا هي قادرين على التخلص منه.

وانتشيا بالتواصل الذي كان فيما مضى ، وتألما بسبب متعتهما الجنسية ، ولم يبديا اهتماماً كبيراً نحو ردات فعل المجتمع تجاه علاقتهما أكثر من المقارنة فيما بينهما وبين آدم وحواء ، والنتائج المدمرة للعلاقات الآثمة ، وذلك حسب قدرة أبيلارد على تفسير الكتابات المقدسة .

وحاول أبيلارد أن يقدم النصائح الروحية لهليوس ، وأشار عليها أن تحول حبها الى حب للرب ، وأخذت أخيراً بهذه النصيحة ، فغدت منذ ١١٢٩ رئيسة لراهبات دير أرغنتيل ، ثم صارت راعية دير باراكليت paraclete وهو دير ساعد أبيلارد على إنشائه ، وحققت لها ثقافتها وعزة نفسها وآلامها وصبرها وقدراتها الادارية الاعجاب والاحترام ،وفي القرن التاسع عشر نقل قبر المحبين الى مقبرة بيري ـ لاشي Pere - L achaise في باريس حيث ما تزال الورود توضع عليهما إحياء لذكراهما .

٦ــ فولك الخامس ملك القدس:

جاء في سنة ١١٢٨ وفد أرسله بلدوين الثاني ملك القدس، إلى فرنسا، لأنه لم يمتلك ولداً ذكراً يخلفه في حماية الضريح المقدس، بل

أربع بنات فقط، وطلب الوفد من لويس السابع اختيار واحد من نبلاء فرنسا مناسب للزواج من ميليساند أسن بنات بلدوين، وليكون خليفة لبلدوين بعد وفاته، واختار الملك فولك كونت أنجو ومين، وتورين، وبناء عليه سافر إلى الشرق للزواج سنة ١١٢٩، وكان وقتها في الحادية والأربعين من عمره، وقد سلف له أن حج إلى القدس، وكان أرملاً يمتلك كل المؤهلات ليكون ملكاً للقدس، ثم إنه كان مطمئنا لممتلكاته في فرنسا حيث تركها في يدي ابنه الشاب، لكن المبشر بالكفاءة، أي غيوفري، الذي سيتزوج من ابنة هنري الأول ملك انكلترا، وبذلك مهد الطريق لتملك اسرة بلانتغنت لإنكلترا.

٧— غيوفري بلانتغنت:

تزوج في سنة ١١٢٨ غيوفري بلانتغنت ابن فولك ماتيلدا، الامبراطورة الأرملة، وابنة هنري الأول ملك انكلترا، وقد وعدها هنري الأول بخلافته في انكلترا ونورماندي، لكن عند وفاة هنري الأول سنة ١١٣٥، استولى ستيفن أوف بليوس، وهو ابن أخت لهنري وأثير لديه، على المملكة والدوقية.

وكان كونتات بليوس منذ زمن بعيد منافسين للأنجيفيين الذين كانت أراضيهم محاذية لممتلكاتهم، كما ان ممتلكاتهم كانت تقريباً مطوقة لممتلكات التاج الفرنسي، وتشكلت بليوس من شطرين هما بليوس وشامبين، وقدقسما مراراً بين الورثة، وعندما أصبح هيوج كونت شامبين عضواً في الداوية سنة ١١٢٥، آلت كونتيته إلى ابن أخيه ثيوبولد الثاني صاحب بليوس، وهو حفيد وليم الفاتح، ملك انكلترا ودوق نورماندي.

وكان أخوا ثيوبولد: ستيفن كونت أوف مورتين، وهنري أسقف أوف ونشستر قد كسباثقة خالهما هنري الأول ملك انكلترا وولايته لهما وحمايته،

وفي سنة ١١٣٥، أحكموا الأمور ودبروها بحيث يتولى ستيفن أراضي هنري وليس ثيوبولد.

وقاد في سنوات ١١٣٦ و١١٣٧ و١١٣٨ غيوفري وماتيلدا الحملات ضد نورماندي، وغزت ماتيلدا في سنة ١١٣٩، انكلترا بمساعدة روبرت ايرل غلوستر، وكان من أعيان النبلاء الأنغلو — نورمان، وتركت غيوفري ليتولى السيطرة على الدوقية، وخلال سنوات استطاع الاستيلاء عليها، وفي تلك الأثناء، ظهر ابنه هنري ممثلاً لأمه ماتيلدا، وأخيراً وريثاً لها.

وكانت دوقية أكوتين في القرن العاشر دوقية واسعة موزعة بين عدة كونتيات واقطاعيات أصغر، وكانت تمتد جنوباً حتى جبال البرانس، وكان الدوق وليم الكبير المتوفى سنة ١٠٣٠، قد مارس سلطانه في بواتو، وبيرغورد، ولى مارشي، ومناطق أخرى، وفي سنة ١٠٦٣، استولى وليم الثامن على غسكوني، وتزوج ابنه وليم التاسع (١٠٨٦— ١١٢٦) من فيلبا أوف طولوز، وكان متميزا بكونه من التربادور وصاحب توجهات جنوبية كبيرة، وعلى هذا نشأت إليانور الأكوتونية ابنة وليم العاشر (١١٢٦— ١١٣٧) وورثته في أجواء ثقافية عالية وطرائق مصقولة في لانغدوك.

٨— غيوفري وماتيلدا:

كان غيوفري الأشقر، كونت أنجو، الأول في سلالته الذي حمل لقب بلانتغنت، وهو لقب ناله لوضعه قشة مكنسة على قبعته، وقد صار كونتاً لأنجو في سنة ١١٢٩، بعد ذهاب أبيه فولك الخامس إلى القدس.

وكان غيوفري رجلاً بارعاً ، ووصف بالأناقة والجمال من قبل معاصريه ، فقد كان طويلاً ، بهي الطلعة وقوياً وبشعر أشقر أقرب الى الاحمرار ، وبعينين نافذتين ، كما كان عالي الثقافة ، يتفاخر بتذكر أفاعيل

أجداده ، وقد مثـل الفروسية المثاليـة ، ومع ذلك كان هـادئاً جداً وعنيفاً الى حد التـوحش ، وتـركزت جهود حيـاته على متـابعة العمـل في سبيل حصول زوجتـه على ميراثها في نورمـاندي وانكلترا ، واهتـم بشكل رئيسي بالاستيلاء على نورمـاندي ، التي كانت العدو الـرئيسي لأنجو ، ونجح في ذلك وعلى هذا كانت اسهاماته بالنسبة لانكلترا ضعيفة .

وتزوج غيـوفري من مـاتيلدا سنـة١١٢٨ ، وكان هو وقتهـا في الخامسة عشرة من عمـره في حين كانت هي في السـادسة والعشرين ، وكـان هذا الـزواج مثلـه مثـل كثير من زيجات العصر ، صفقـة معـدة ، خطـط لها هنـري الأول والـد ماتيلـدا ، حتـى يحول بين أنجـو وبين التحالـف مـع الشماليين الفـرنسيين المعـاديـن لـه ، وليسـاعـد مـاتيلـدا في خـلافتـه في نورماندي وانكلترا .

وكانـت قد تزوجت للمـرة الأولى من هنري الخامس امبراطـور ألمانيا ، الـذي توفي سنـة ١١٢٥ ، وأرسلـت للمرة الأولى إلى ألمانيـا عنـدما كـان عمـرها في الثـانية عشرة ، وأعيـدت إلى أبيها بعـد اثنتي عشرة سنـة ، أي سنة ١١٢٦ ، لتكون وريثته الشرعية الحية الوحيدة .

ومـن البداية نظرت بـإزدراء ، نحو زوجهـا الثاني الـذي لم يبلغ سـن الرجـولة بعـد والذي كـان أدنى منهـا اجتماعياً، ويبـدو أنها لم تشعر قـط نحوه بدفء عاطفي .

ومثل هـذا لم يحب غيوفري ماتيلـدا ، ومع ذلك حافظـاً على تعاونهما ، وعلى استغـلال زواجهما المفتقـر الى الحب ، مـن أجل مـرابـح سيـاسيـة مشتركة ، وأنجبا من الأولاد ما هو ضروري لاستمرار سلالتهما ، ثم ذهب كل منهما في طريقـه ، إنما دون أن يفترقا أويتباعدا عن المطامـح السياسية الشخصية .

وجلبت مـاتيلدا لنفسهـا كراهية الـذين توجـب عليها جـذبهم ، ففي

أيـام حكمهـا القصيرة لانكلترا ١١٤١ــ ١١٤٢ ، بعـد الانتصـار على ستيفن رفضت الوقوف لتحية اثنين مـن مؤيديها الرئيسيين ، وهما خالها ، الملك داود ملك اسكـوتلندا مع أخيها غير الشقيق ايرل روبـرت صاحب غلوستر ، فـأغضبتهما بذلك غضباً عظيماً يضـاف الى هذا أنها أصرت على فرض ضرائب ثقيلـة على سكان لنـدن ، وبذلـك حولـت إخلاصهـم لها وتعاونهم معهـا الى كراهيـة ومقاومـة ، فأرغمـت على الفرار مـن المدينة ، وصحيـح أنها امتلكت إرادة حـديـدية لنيـل مـا عدتـه ميراثهـا ، كانـت شخصيتها العائق الرئيسي في وجه نجاح قضيتها .

فقـد كانـت متكبرة ، لا تعرف الليـونة وقـد انتقدهـا معاصروهـا كثيراً لافتقارهـا للسمات الانثويـة وكانـت صورتها المستمـرة صورة الابنـة التي كانت تقـاتل أبيها هنري الأول عندما مات وأنها لم تحاول التصالـح معه في ساعاته الأخيرة ، ومـع ذلك كانت بهية المنظر ، شجاعـة ، وامرأة قوية في عصر تحكم بـه الرجال وكانـت تستطيع أن تنال اخلاص الآخـرين ، لكن ليس اخلاص زوجها .

٩ — الوزير غير الرسمي :

كان لقـرابة ربـع قرن الأب سـوكر المستشـار الرئيسي لكـل من لـويس السادس (١١٠٨ــ ١١٣٧) ولويـس السابـع (١١٣٧ــ ١١٨٠) ، أي من سنة ١١٢٧ حتى سنة وفاته في ١١٥١ .

وكان رجـلاً من أصل وضيع ، وقـد صعد في خدمة الكنيسـة والعرش بفضل قدراته الشخصية، وصحيح أن سوكـر لم يكن لديه منصب رسمي في الحكـومة الملكيـة ، لكـن النصـائح التي أسـداهـا لكـل من لـويـس السادس ولويـس السابع ازدادت قيمتها بإلحاحـه على الجانب المقدس والطقوسي للملكية ، فقد أعطى ذلك أهمية فاقت الحقيقة .

وقـد أعاد بنـاء دير كنيسـة القديـس دنـس ، وهو مكـان دفن الملـوك الأوائل ، وكان البنـاء وفق الطـراز القوطـي ، مزينـاً بشكل كبير وجميـلاً ، قصد منه أن يكون مكاناً مكرسـاً لعبادة الرب ، وفي الوقت نفسه لتمجيد الملوك الفـرنسيين ، وشارك سـوكر في الاحتفالات الملكيـة الرسميـة التي أظهرت روابطهم بالماضي العظيم ،ففي سنة ١١٢٤ حمل لويس السادس ما يفترض أنه راية شارلمان ، وكانت موضـوعة على مذبح كنيسة القديس دنـس ، وخـاطـب النـاس بشكل حماسي ملتهـب وحشـد جيشـاً هـائلاً ليحارب به ضد الامبراطور هنري الخامس .

وعلى الـرغم مـن هذا المظهـر كـان الملكان ضعيفـان اقترفا الكثير مـن الأخطاء ، ومـع ذلك سـاعد سوكـر على تطوير شخصيـة ومكانـة الملكية الفـرنسية ، وتـولى سـوكر تعليـم الملكين ، ووجهما عمليـاً وساعـدهما على ادارة أراضيهما .

وكـان لويـس السادس ملكـاً عسكريـاً أخضع البـارونات اللصـوص الذين نهبوا وسلبـوا الأراضي الملكية، ووصفه سوكر بأنه كـان رجلاً كانت روحه كبيرة مثلما كـان جسده هائلاً، فقـد كان بدينـاً يحب الملاذ والطعام والبهجة ، حتى صـار يعرف باسم الملك البديـن وغدا في سنيه الأخيرة لا يستطيـع امتطاء الخيـول، ومثله بـرهـن ابنه لـويـس السابـع عن تـدني الكفاءة والضعف الاداري ، وكـان الزوج الأول لاليانور الأكوتـانية ، وقد تصرف على طريقـة الزهـاد فكان ينـام في الغابـة بدون حـراسه لـوحده ، ولهذا أحبه شعبه ، ومع ذلـك كان لويس السابع يصلـح لأن يكون ملكاً في عصور مضت حيـث يمكنه أن يخفي ضعفه وعجزه خلـف واجهة من اللطف والحكمة .

١٠ — أول أعمال توسع أسرة بلانتغنت

اكتمل الاستيلاء على نورماندي من قبل غيوفري بلانتغنت،كونت أنجو،سنة ١١٤٤،واحتاج هذاالاستيلاء الى قرابة تسع سنوات من الصراع،استفاد خلالها هو وزوجته الامبراطورة ماتيلدا من ادعائها الحق بحكم انكلترا ونورماندي، وكان في سنة ١١٣٥،بعد وفاة هنري،استولى ستيفن كونت بليوس عليهما معاً ،لكن الآن ضمن الأنجيفيون لأنفسهم قاعدة يستولون منها على انكلترا.

وارتبطت نورماندي بانكلترا لأن عدداً من النبلاء امتلكوا أراضي على جانبي القنال، وفي الحقيقة بذل ستيفن قليلاً من الجهد لكسب اخلاص النورمانديين،فقد زار الدوقية مرة واحدة، ومع ذلك كره النورمانديون جيرانهم الأنجيفيين وأعدائهم التقليديين، وقاوموا بعنف حملات غيوفري،لكن وقوع الملك ستيفن بأسرماتيلدا في عام ١١٤١كان له أثره البالغ على معنوياتهم،ففي تلك السنة استسلمت لغيوفري قلعة تلو الأخرى في نورماندي، ثم تابع نشاطه حتى عام ١١٤٤ حيث استولى على روان، ومن ثم نصب دوقاً على نورماندي، وفي عام ١١٤٥ سقطت آخر قلاع نورماندي إليه.

ونتيجة لهذا الاستيلاء، صار الأنجيفيون يحكمون نصف المملكة النورماندية— الانكليزية، يضاف إلى هذا بات من غيرالممكن اخراجهم من غربي انكلترا، وأصبحت قضيتهم أقوى وواعدة بالنسبة للمستقبل، فبعد سنة ١١٤٤، ما من واحد من كبار البارونات ذوي الأملاك الواسعة في نورماندي التحق بشكل دائم بستيفن ووقف إلى جانبه.

١١—مللك شجاع ومجنون :

كان الملك ستيفن (١٠٩٧؟ — ١١٥٤) الولد الثالث لستيفن كونت أوف بليوس وتشارتر الذي كسب سوء سمعة انتشرت في أوروبا كلها،

لأنـه هرب مـن أنطاكيـة أثناء الحملـة الصليبية الأولى، وكـانت أم هـذا الملك آديلا ابنة وليـم الفاتح، وكانت ذات رأي متصلب، لـذلك أعادت زوجها إلى ما وراء البحار.

وأرسل ستيفـن الشاب إلى بـلاط خاله هنـري الأول، ولعل ذلـك كان سنـة ١١١٣، ومنح أراضي. واسعـة في كـل من نـورمـاندي وانكلترا، ممـا جعله واحداً من أغنى ملاك الأراضي الأنغلو— نورمان.

وفي سنـة ١١٢٦، أقسـم ستيفـن مـع عدد كبير آخـر، بقبـول خـلافـة ماتيلـدا ابنة هنري لأبيهـا، والذي حدث على كـل حال أنه لـدى سماعه بخبر وفـاة هنـري في ١— كـانون أول عـام ١١٣٥، تحرك كما يبـدو وفـق خطة كانت مـرسومة باحكام، وعبر إلى انكلترا، وتم قبـوله ملكاً في لندن، واستحوذ على خـزائن الأموال في ونشستر، وجرى تتويجه في ٢٢— كـانون أول، وتوجـه إثر هذا رسـول مسرع إلى نورمانـدي، وهناك قبله البـارونات النورمـان بعد تردد، دوقـاً لنورمانـدي، وبذلـك أعاد ستيفن إحيـاء مملكة هنــري الأول فيما وراء القنــال، وبـدا في أوائل سنــة ١١٣٦، وضعــه مضموناً، ولـدى عقده لبلاطه في عيد الفصح، حضره عـدد كبير من كبار ملاك الأراضي، بما فيهم أخـو ماتيلدا لأبيها، ايـرك روبرت أوف غلوستر، الذي قدم له الـولاء. وتمكنت ماتيلدا مع مؤيديها مـن احتلال أجزاء من جنوبي نـورمانـدي، وكانـت هناك أعمال عصيـان فردية ضد ستيفـن في غـربي انكلترا قادهـا بلدويـن أوف ردفير Radvers، وأخرى في الشمال قادها ملك الاسكوتلنديين.

وتبعـاً لمؤرخي أيـامـه، كان ستيفـن فارسـاً جيـداً، لكن في المجـالات الأخرى كان أحمقاً، اعتاد أن يصدر مـراسيم وأوامر كانت زائدة في قسوتها ووحشيتها، ومـا من أحد شـك بشجاعة ستيفـن الشخصية، ففي معـركة لنكولن في ٢— شباط سنة ١١٤١، صمد على قـدميه وقاتل لمدة طويلة، أولاً ببلطته قبل ان تنكسر ثم بسيفه قبل أن يقع بالأسر.

لقد كـان متقلبا، ساعـة كريما شجاعاً، وأخـرى خسيساً خائنـاً، ينهب رعايـاه، ويصدر أحكامـاً خاطئة، وهو لم يتمتـع قط بشخصية ومـؤهلات رجـل الدولـة، وهو مـا تطلبته الأوضـاع السياسيـة في القرن الثـاني عشر، لذلك أخفق.

١٢— الاسكوتلنديون المتوحشون:

حكـم داود الأول ملكـا لاسكـوتلنـدا مـن ١١٢٤ إلى ١١٥٣، وكـان بالوقت نفسه اداريـاً جندياً، وحامياً للكنيسة، ونهاباً قاطعـاً للطريق، وقد غزا في سنة ١١٣٨ المنطقـة الشمالية من انكلترا حتى يوسـع أملاك أسرته وليضـم المنطقة التـي قامـت فيها بين نهري التـاين وفـورث، ولم تكن قـد صارت انكليزية تماما ، بل كانت آنذاك انكليزية — اسكوتلندية.

وأثـار بأعمالـه القاسيـة مقـاومة شعبيـة لم تعـرفها المنطقـة منذ مـائتين وخمسين سنة مضـت، منذ أيام الفـايكنغ، وقد تحالـف النبلاء مع العـامة للتصدي له، وقـاتله الانكليز تحت رايات حماتهم من القـديسين، وكانت حـربهم ضد الاسكـوتلنـديين المتـوحشين حربـاً مقـدسـة، وكان بعـض الـرجال الاسكـوتلنـديين نصف العـراة مـازالـوا وثنيين، وحصل الملـك الاسكوتلندي على أسلاب كثيرة، ومد سلطانـه نحو الجنوب، لكن لبعض الوقت فقط.

١٣— الحملة الصليبية المأساوية:

استـولى زنكي سنـة ١١٤٤ على الـرهـا وأزال الحكم الصليبـي منهـا، وبذلـك أسقط أولى الـدويلات الصليبية تـأسيساً في المشرق، وكـان هذا من الأسباب الأسـاسية لقيام الحملة الصليبية الثـانية، التي قادهـا لويس

السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث امبراطور ألمانيا، ووصلت جيوش الحملة إلى أنطاكية بعدما كادت أن تصبح أشلاء، وبعد الوصول إلى القدس تقرر مهاجمة دمشق، وفعلا حوصرت المدينة وأخفق الحصار.

وكان مع لويس السابع زوجته اليانور الأكوتونية، ولم يكن من السهل عليه قيادتها وضبطها، ففي أنطاكية حاولت مع عمها ريموند أمير أنطاكية أن تقنع لويس بالبقاء هناك للعمل ضد حلب، لكنه رفض لأنه أراد الوفاء بنذر الحج والوصول إلى القدس، وراجت في أنطاكية أخبار أن العلاقة فيما بين اليانور وعمها تجاوزت الأمر الطبيعي، وصدق لويس ما قيل، لذلك جر زوجته وأبعدها بالقوة، وأدى هذا فيما بعد إلى التخلي عنه سنة ١١٥١، ومن ثم الزواج بهنري الثاني، وبذلك خسر لويس السابع زوجته وخسر معها دوقية أكوتين.

١٤— بداية ونهاية:

لم يكن الزواج فيما بين اليانور الأكوتونية ولويس السابع ناجحاً لعدة أسباب، منها : كان الملك يرغب بالحصول على وريث ذكر، وهي قد أنجبت له ابنتين فقط، ولدت أولاهما سنة ١١٤٥ وثانيهما سنة ١١٤٩، كما وكانت الفوارق بينهما عظيمة جداً، فهي عندما تزوجت من لويس، شعرت وكأنها تزوجت من راهب وليس من ملك، وكان لويس من جانبه مسيطر عليه جنسيا من قبل زوجته، ونتيجة لهذا عد ناقص الرجولة في نظر معاصريه.

ونشب خلاف حاد بين الزوجين سنة ١١٤٩، أثناء الحملة الصليبية الثانية عندما اتهمت اليانور بعلاقة زنا مع عمها ريموند أمير أنطاكية، وبعد عودتهما، حقق البابا مصالحة رائعة بينهما، ففي رحلة العودة فرش لهما البابا يوجين الثالث فراشاً أعده بنفسه وزينه بزينة ثمينة جداً، لكن

تبرهن أن هذا بلا محصلات طويلة الأمد.

وحصلت اليانور على الطلاق من لويس، وقرر في ٢١— آذار سنة ١١٥٢ أربعة من رؤساء الأساقفة الفرنسيين فصلهما على أساس وجود قرابة قريبة بين جديهما تحرم الزواج بينهما حسب شريعة الكنيسة، وهي حجة كانت رائجة استخدمت دوماً في حالات الزواج المخفق للوصول إلى الطلاق، ومن المؤكد أن اليانور كانت تعرف ما تريده، فما أن حصلت على الطلاق حتى بعثت برسلها إلى هنري كونت أنجو، وقد تزوج منها في ١٨ — أيار ١١٥٢.

وكانت العلاقات نشأت بينهما في آب من السنة المنصرمة عندما تقابلا في باريس، وكان هنري مثله مثل أبيه غيوفري بلانتغنت، حيث أنه تزوج من امرأة أكبر منه بعدة سنوات، ومثله أيضاً حصل من هذا الزواج على دوقية أكوتين التي كانت ميراث اليانور، وكان هنري قد صار دوقا لنورماندي سنة ١١٥٠، ثم كونت أنجو بعد وفاة أبيه سنة ١١٥١، والآن بضربة واحدة غدا أعظم قوة من مولاه الاقطاعي، الملك لويس.

وأثارت أخبار الزواج لويس ودفعته لشن الحرب ضد هنري، وقد انضم إليه غيوفري الأخ الأصغر لهنري، الذي أدرك أن زواج هنري من إليانور كان من معانيه أن هنري لن يتخلى له عن أنجو، كما هو مفترض منه تنفيذاً لوصية أبيهما، وفي انكلترا انضم إلى لويس الملك ستيفن مع ابنه يوستاس.

ولكن هنري نجح بالحرب بسهولة، وباشر سلطانه بقوة على جميع أراضيه الفرنسية، فهو الآن بات يمتلك كتلة واسعة امتدت في الشمال من نورماندي ومرت خلال أنجو إلى أكوتين في الجنوب، وفي الحقيقة حقق الزواج من اليانور نقطة تحول تاريخية عظمى، فهنا بدأ تاريخ أسرة بلانتغنت.

١٥— الخليلة الملكية، مسألة اجتماعية منبوذة:

عندما كان هنري الثـاني في الأربعين من عمره اعترف للمرة الأولى بأن روزاموند Rosamund هي خليلته، وكـانت في الثلاثينات مـن عمرها، وهي ابنـة رجل نبيـل اسمه وولتر كلففـورد Clifford ولعلها كـــانت المرأة الوحيدة التـي أحبها هنري في حياته، وقد عـاشت في القصر الملكي في وودستوك في أكسفـورد شاير، الذي أعـاد الملك تأسيسـه خصيصاً لها، وذلـك قبل وفـاتها في سنة ١١٧٦، بسنتين أو ثـلاثة، وقـد عد المؤرخـون وفاتها على أنه جزاء استحقته لاقترافها الزنا.

ودفنها الملك الحزيـن في قبر فخم جداً أقيم أمام المذبـح العالي في دير راهبات غودستو Godstow ، وقدم فيها بعد هو ووالـــدها هبات كبيرة للديـر من أجـل ذكراها، لكـن في سنة ١١٩١، بعـد وفاة هنـري، ارتعب القديـس هيوج أسقف لنكولـن حين وجد قبر زانية داخل الكنيسـة، وقد زيـن بشكل رائع جـداً، ولكي يضـع حداً لهذا الاثـم العظيـم أمـر بازالـة المزار الذي حوى القبر، وبذلك باتت روزا موند خارج الكنيسة.

وبعد قـرن من وفاتها شرع المؤرخون يحيكـون بعض الحكايـات حولها، فهي قـد أخفيت في مخدع سري لايمكـن الوصـول إليه داخـل وودستوك لحمايتهـا من اليـانور صـاحبـة أكوتين ومـن غيرتها، غير أن الملكة عثـرت عليها وجعلتها تنزف داخـل حمام حامية حتى ماتت، وقيـل في قرون تالية بأن اليانور استخدمت سكيناً وكأسـاً مسموماً، وأنها عرفت طريقها ضمن المتاهة باستخدام خيط حريري حتى وصلت إلى مخدعها السري.

ولندع الحكايات الأسطـورية جانباً، تبين قصة روزامونـد وهنري الثاني بوضوح المصاعـب التي توجب على النساء مواجهتها عنـدما كن يضعن أنفسهن خارج المجتمـع، مجتمع كانت توجهـاته بيد الرجال فهـم الذين تحكموا به، ومع أن أبنـاء الزنا من الاسرة المالكة مثل غيـوفري بلانتغنت،

ووليم صاحب السيف الطويل، وهما من أولاد هنري الثاني من خلال اتصالات قديمة، قد نالوا الاعتراف والتشريف، نظر إلى أمهاتهم نظرة سوء وعوملن بازدراء واستهجان لأنهن خرقن شريعة الكنيسة وقوانين المجتمع، وأكثر من هذا نجد حتى النساء المحظوظات وذوات المكانة المحترمة مثل ميليساند المقدسية، والامبراطورة ماتيلدا، واليانور الأكوتانية، استخدمن من قبل آبائهن كأدوات سياسية، وفقط ذوي العزم الشديد منهن هن اللائي استطعن احداث تأثير شخصي على السياسات الرفيعة للقرن الثاني عشر.

١٦-رئيس أساقفة ضد ملك:

مع أن الكثير كتب حول رئيس الأساقفة توماس بكت صاحب كانتر بري، وتجاوز هذا ماكتب حول سواه من شخصيات عصر أسرة بلانتغنت في انكلترا،مع هذا كله تبقى الخلافات حادة حول شخصيته،فقد كانت كذلك بين معاصريه، وماتزال على هذه الحالة منذ ذلك الحين،فهو قد ولد في لندن سنة ١١١٨من أسرة تجار نورمانديين،وتعلم في دير ميرتون ثم التحق بحاشية ثيوبولدرئيس أساقفة كانتربري،حيث هيأت له مواهبه الادارية السبيل لترقيات سريعة، وعين في سنة ١١٥٤ رئيس شمامسة في كانتربري، وفي أواخر تلك السنة عينه هنري الثاني بناء على توصية رئيس الأساقفة ثيوبولد مستشاراً له لجميع انكلترا،واستغرق بكت نفسه ووقته في السنوات الثمانية التالية كلية في مسائل الدولة،وحظي بثقة الملك الكاملة، ولم يكن ذلك أبداً بسبب تأييده لهنري في صراعاته مع الكنيسة،وإخلاص بكت هذاجعله المرشح المثالي لهنري الثاني لرئاسة أساقفة كانتربري بعد وفاة ثيوبولد في سنة ١١٦١،ولهذا فوجيء الملك وغضب، وعندما أقدم بكت،وهو خادمه الموثوق،على الاستقالة من المستشارية فور انتخابه لرئاسة الأساقفة،ومن ثم غدا أكثر خصومه إرعاباً

وأفضل شرح للتغير الهائل الـذي ألم ببكت،ثـم للخلاف الـذي نشب إثـرذلك،هـو أن رئيـس الأساقفـة حول ولاءه مـن هنـري الثاني الى مـولى أعظم،هو الرب، فهـذا ماعبرعنه بكت في مناقشة حـامية جرت بينه وبين الملك في سنة ١١٦٣، حيـث قال له:«في يوم الحساب المخيـف سنحاكم معاً كعبيد لـرب واحد ،وصحيـح أن المولى المؤقـت تنبغي طـاعته،لكـن ليس ضـد الرب» ، وكان الجواب الوحيـد الذي وجده هنري الثـاني أمام هذه المناقشة الحادة هو التهديد باستخـدام القوة الجسدية،وهو سلاح كان مـن غير المعقول استخـدامه ضـد أعظم الشخصيـات الدينيـة مكانـة في بلاده.

وتفجـر الصراع بين الملـك وبين رئيـس الأساقفـة،وكـان القتـال بينهما حول المسؤوليـة القضائية،لاسيما وأن هنري الثاني كان قـد عقد العزم على الحد من سلطة المحاكم الكنسية،فقد اعتقد أن نشاطات هذه المحاكم قد بـدأت تلغـم السلطـات القـانـونيـة التـي ورثهـا مـن الملـوك الانكليزالمتقدمين،ففي وستمنستر اقترح هنري الثاني في تشرين الأول لعام ١١٦٣ أن الكتـاب (أي النـاس في الطـرق الكهنوتيـة،ولهذا هـم بطبيعـة الحال مرتبطين بـالكنيسة)إذا مـاوجدوا مجرمين في جـرائم عدوانيـة ينبغي تسليمهم الى السلطات المدنية لانزال العقـوبة بهم، وبعد ضغوط جاءت من الملـك، وبعد تبدلات عديـدة بالرأي،رفض بكـت أخيراً الموافقة على هذا الطلب،وعلى مطالب أخرى قـدمها هنري مكتوبة في اجتماع عقد في كلارندونClarendonفي كانون الثاني سنة١١٦٤.

وازداد منذالآن اهتمام الملـك بمسألـة خضوع رئيـس الأساقفـة، وبعد اجتماع آخر لمجلـس البارونات والأساقفـة عقد في نور ثأمبتـون في الخريف جرت خلاله مواجهات عاصفة نجـا بكت بنفسه الى فرنسا،حيث التمس حماية البابـا الاسكندر الثالث،الـذي كان هو نفسه يعيـش وقتها في المنفى في البلدة الكاتـدرائية لسنس، ومكث رئيـس الأساقفة السنوات التـالية

في الدير السستر شياني في بوتني،ومن هناك أثار حرب كلمات ضد ملكه وضد مستشاريه.وكان موقف غالبية المثقفين من رجال الكنيسة في أوربا الغربية أن بكت كان محقاً في صراعاته مع الملك ،وعلى كل حال كانت نشاطات الكنيسة والدولة من غير الممكن فصلهما لتداخلهما في ظل حكم أسرة بلانتغنت لانكلترا،وكان الأساقفة الانكليز مجموعة قوية،لكنهم دانو بتعيينهم للحظوة الملكية،وكانوا متورطين بشكل كبير في الأعمال الادارية والقضائية لصالح التاج، ولهذا كانت لهم مصالح كبيرة في الاحتفاظ كوسطاء رئيسيين فيما بين الكنيسة والملك،وكانوا مكرهين على رؤية المواقف العدوانية لبكت ضد الملك.

وعلى هذا توفر القليل من التعاطف نحو رئيس الأساقفة الذي أوصل معارضته للملك الى الحد الأقصى،وبالتدريج أرغم بكت على ادراك أن منفاه التطوعي كان له تأثير لايذكر على سير الأمور في انكلترا،وتبعاً لما قاله الأسقف غلبرت فوليوتFoliotأوف لندن،الذي عرف بكت بشكل جيد:«لقد كان دوماً أحمقاً ،وسيبقى أبداً كذلك»وهذا الحكم على رئيس الأساقفة المنفي لم يكن عادلاً أبداً، ومهما يكن الحال كان قوله ملاحظة صحيحة حول كيف عرض بكت بشجاعة مسألة الصراع بين القوتين الدينيةوالدنيوية،دون أن يستطيع ايجاد حل لذلك،إلاّبموته.

١٧-حلف ابنة:

بدأت المباحثات من أجل زواج ماتيلدا كبرى بنات هنري الثاني من هنري الأسد،دوق بافارياوسكسوني، في سنة ١١٦٥،عندما قاد رينالد رئيس أساقفة كولون-الذي كان المستشار القريب للامبراطورفردريك بربروسا-بعثة جاءت الى هنري الثاني وهو في روان،وكان الاقتراح أن تتزوج واحدة من بنات الملك من الابن الأصغر لفردريك،بينما تتزوج ماتيلدا من الدوق،الذي كان أعظم رعايا الملك قوة في تلك المرحلة،وحليف قريب له،وكان فردريك الذي امتد سلطانه بشكل

نظري خلال ألمانيا وشمالي ايطاليا،بحاجة للتأييد في صراعاته مع البابوية،ومع المدن في شمالي ايطاليا،وكان للتو قد أقام بابا مضاد ومعاد للبابا الاسكندر الثالث،وكان هنري الثاني متضايقاً من خلافه مع توماس بكت،الذي ذهب الى المنفى في نهاية عام ١١٦٤،والتمس من البابا المساعدة، ولهذا رأى هنري بصداقته مع الامبراطورية وسيلة ضغط على البابا الاسكندر من أجل التأثير عليه ضد بكت.

لكن بما أن هنري الثاني كان قد أغضب بربروسا،عندما رفض أخيراً نقل ولائه الى البابا المضادفكتور الرابع،فالذي تم فقط هو الزواج فيما بين ماتيلدا والدوق هنري،وجرت الاحتفالات في شباط سنة ١١٦٨، في برونسوكBreenswick ،وكان هنري في الثلاثينات من عمره،وقد تزوج من قبل، ولم ينجب الزواج وريثاً ذكراً ،ومن ثم تم حله على أساس قاعدة القرابة المعروفة،وكانت ماتيلدا التي ولدت في سنة ١١٥٦،إما في الحادية عشرة من عمرها أو في الثانية عشرة،عندما تزوجت،وأنجبت لزوجها ولدين ذكرين،والى تاريخ وفاتها في سنة ١١٨٩،أدارت ممتلكات زوجها الواسعة أثناء غيابه في حجه الى الأراضي المقدسة في ١١٧٢-١١٧٣.

وكانت النتائج السياسية للزواج غير متوقعة كلياً،حيث ورطت هنري الثاني وأولاده بعمق في السياسات الألمانية،فقد تخاصم الدوق هنري مع الامبراطور فردريك في أواخر السبعينات من القرن الثاني عشر، وفي خريف سنة ١١٨٢ وصل هنري وأسرته الى بلاط هنري،منفيين،وحاول الملك الختن أن يضمن عودة صهره الى سكسوني من خلال الضغوط السياسية على فردريك،وأصبح الولدان،لاسيما أوتو وهو الثاني بينهما،تحت حماية أسرة بلانتغنت،وقد بقيا في بلاطها عندما عاد هنري وماتيلدا الى ألمانيا سنة ١١٨٥.

١٨-الملكة السجينة السياسية:

كـانت اليـانور في السنين الأولى مـن زواجهـا من هنـري الثاني نشطـة منشغلة في الحيـاة السياسية لممتلكاتها،وقـد سافرت كثيراً جداً ،ومـارست كثيراً المسؤوليات الادارية،وظلت حتى سنة ١١٦١ تقريباً النـائبة للملك في انكلترا أثنـاء غيـابـات هنـري، ويمكن القـول أنها منـذ هـذه الآونـة تصاعد رفضهـا لهنري،ومع أن هنري أعطـاها حرية كـاملة للاشراف على دوقية أكـوتين ١١٦٨،لعله فعـل ذلك لتتركـه يتابـع مغامـراته السيـاسية الخاصة والنسائيـة بدون عوائق مع أمـور أخرى، ولم يتوقف نشـاط اليانور التآمـري ضده، وبعـد سنة عندمـا تمت تسمية رتشـارد ولياً لعهـدها على الدوقيـة ،غدا رتشارد رفيقهـا الدائم وتابعها في التـآمر ضد أبيـه، وأعطى تتويـج هنري الشاب ملكـاً لانكلترا في سنة ١١٧٠،اليانـور فرصة نـافعة لتحقيق خططها ضـد زوجها، ووصل عملها التـآمري في سنة ١١٧٣ الى درجة الإثمار،وذلك عنـدما ثار أولادها: الملك الشاب،ورتشـارد وغيوفري ضد أبيهـم وهربـوا الى عند لـويس السـابع، وألقـي القبض على اليـانور عندما حـاولت اللحاق بهم وهي متخفية على شكل رجـل، وقد سجنت من قبل زوجهـا الغاضب وعرف هنري أنه سيقترف خطيئـة سياسية كبيرة إذا ماطلق اليـانور،كما أنه لم يكن قادراً على إرغامهـا على أن تصبح راهبة في ديـر فـونتغـرولـت،وادراكـاً منـه لما مثلتـه مـن خطـر على الاستقـرار في بلاده،أبقـاها في سجن مضيـق عليها،وأوكل الاشراف على ذلـك السجن الى أكثر رجـاله ثقة،وقـد تحملت هذه المعـاملة بصبر وشجاعـة،وسمح لها مـع مستشاريها الـروحيين بالترحـال الى مسافـات قصيرة،فيما بين ونكستر وسالسبري ولدغـرشال Ludgershall ومساكن ملكيـــة أخرى في جنوبي انكلترا.

وبعد وفـاة الملك الشاب في سنـة ١١٨٣،أطلق سراحها لـوقت قصير كي تـذهب الى أكوتين لتتصـدى لادعاء فـرنسي بالدوقيـة ،وسمح لها في السنة التالية بـالقدوم الى البلاط لرؤية ابنتها ماتيلـدا المنفية من سكسوني

مـع زوجهـا هنـري الأسـد،ثم ذهبـت سنـة ١١٨٥ في ظـل الحراسـة الى نورمـاندي لتتسلـم أكوتين مـن رتشارد،الـذي اقتنع بـالتخلي عن دوقيتـه المحبوبـة،تحت تهديد والده أن اليانـور سوف تعيث فساداً في المنطقـة مع جيش بصحبتها .

ومن جديـد بدأت اليانور في السنوات الثلاث الأخيرة مـن حياة هنري بالتـآمر ضده،ومنحها مـوته في ١١٨٩ الحرية وسمح لها بممارسـة السلطة بشكل أعظم مما تمتعت به من قبل.

١٩-قضية قتل:

كـان الفصل النهـائي في الصراع الـذي استمـر ست سنـوات فيها بين هنري الثاني وتـوماس بكت حاسماً لأن صراع الإرادة نفسه استمـر طويلاً دون نتيجة،وأمكن في سنـة ١١٧٠ الوصول الى تسويـة بين الملك ورئيس الأساقفة،بمـوجبها بات بإمكان بكـت العودة الى انكلترا،كما أن ممتلكات رئاسة الأسقفيـة المصادرة سوف تعـاد،ولسوف يعيـد بكت تتويـج الملك الشاب، ومـامن شيء قيل حـول الاجتماع الذي جـرى في كليروندون،وفي ١-كـانون الأول سنـة ١١٧٠،عاد بنـاء عليه رئيـس الأساقفـة الى انكلترا بعد سنـي نفيه،ثـم مالبـث أن قام بحركـة عدوانيـة وغير تصالحيـة فحرم رئيس أساقفـة يورك مع اثنين من الأساقفـة كانا قد ساعـداه لدى تتويجه للملك هنري،وعندما وصلت هذه الأخبـار الى هنري في نورماندي اشتعل غضبـاً، فما كان مـن أربعـة من فـرسـانه إلا أن سـافـروا الى كانتري بـري ليتولـوا تنفيذ انتقـام رهيب مـن الصعب جـداً أن نصدق أن الملـك كان بلادور فيه.

وفي عشيـة ٢٩-كـانـون الأول كـان رئيـس الأسـاقفـة قـد اغتيـل في كاتدرائيته،،وبذلك ثار السخط وعم جميع أرجاء أوربا.

وبات بكـت الميت أقوى بلا حـدود من بكت الحي، وفي خـلال عدة

أشهر تلت وفاته حكي عن عدة أعمال إعجازية حدثت عند ضريحه، وخلال أقل من ثلاث سنوات مضت على مقتله جرى تطويبه قديساً من قبل البابا الاسكندر الثالث،وكان ذلك في شباط سنة ١١٧٣.

وفي السنة التالية أعلن الملك أمام الناس عن توبته أمام مزار عدوه القديم،وغدا هذا المزار بسرعة ثم بقي واحداً من المزارات الرئيسية لمسيحية العصور الوسطى،ومقصداً للحجاج،ولم يكن توماس بكت بطبيعته قديساً،لكنه عدّ شهيداً،وعلى هذا الأساس أصبح أعظم الشهداء تأثيراً في تاريخ الكنيسة الانكليزية.

٢٠-فراخ النسر:

تبعاً لماروا جيرالدأوف ويلز،ترك هنري الثاني مساحة صورة بيضاء في مخدعه المصور بشكل رائع في قلعة ونكستر،وفي سنوات الملك الأخيرة جرى الرسم فوق المساحة وفق ماصممه الملك شخصياً،وحوت الصورة شكل نسر له أربعة فراخ،وكان هناك أنثى نسر واحدة جلست على ظهر النسر،وكان هناك نسرين على جناحيه يمزقان جسده،ووقف النسر الرابع فوق رأسه ينتظر ليقوم باقتلاع عينيه،وقال هنري إن الصورة مثلته مع أولاده الذين لم يتوقفوا عن تعذيبه حتى مات،وقال بأن الصغير بينهم ، وهو الأثير لديه سوف يؤذيه بوحشية أكثر من البقية.

ولد أكبر أولاد هنري من إليانور الذين عاشوا،سنة ١١٥٥،وهو هنري الملك الشاب،وكان الثاني هورتشارد،وقد ولد سنة ١١٥٧،أماالثالث فهو غيوفري وقد ولد سنة ١١٥٨،وكان الأخيرهو جون وقد ولد سنة ١١٦٧،وقد حذا هنري حذو سواه من أمراء فرنساالكبار،الذين غالباً ماقسموا أراضيهم بين أبنائهم وهكذا تسلم الولد الأكبر الممتلكات التي عادت الى الأب،وتسلم الأولادالأصغر بعض الممتلكات وبناء عليه توقع الأولاد الأربعة تسلم بعض الحصص من ممتلكات أبيهم الواسعة لكن غير المريحة، وفي سنة ١١٦٩ قام هنري ببعض الترتيبات في هذا المنحى

فنال الملك الشاب نورماندي وانكلترا وأنجو،وتقرر أن يأخذ رتشارد دوقية أكوتين مع أراضي أمه،وأن يأخذ غيوفري بريتاني ،لكن بمثابة تابع للملك الشاب،الذي توج ملكاً لانكلترا سنة ١١٧٠،وحرم جون من تملك أية أراض،ولهذا نال لقب «بلا أرض».

وكان هنري الملك الشاب عابثاً وكسولاً ،وشاباً يحب الحرب،لذلك ثار ضد أبيه لأنه لم يسمح له بممارسة سلطانه والتصرف بأراضيه،وكان ميراث جون أبعد صلة وصل مع العائلة فقد أراد هنري الثاني أن ينال ابنه الأصغر الحصون الأنجيفية في شينون ولاندون،وميربو،لكن الملك الشاب عارض هذه الخطة،وبمساعدة من اليانور جرى تدبير مؤامرة ضد هنري الثاني أسهم فيها لويس السابع ملك فرنسا الذي إليه فرالأخوة الثلاثة الكبار ،واستهلك هنري الثاني جميع براعاته السياسية، والدبلوماسية والعسكرية حتى استطاع هزيمة هذا التحالف الخطر في سنة ١١٧٤.

٢١-مذبحة اليهود:

في السنوات التي أعقبت استيلاء النورمان على انكلترا،شجع الملوك الانكليز اليهود على عبور القنال من نورماندي الى لندن،ومع منتصف القرن الثاني عشر كان هناك مجموعات صغيرة انتشرت في مدن البلاد،عملت على اقراض الأموال الى جيرانهم المسيحيين،وأثارت اعدادات رتشارد للحملة الصليبية الثالثة ضد المسلمين العداوة الشعبية الواسعة نحو اليهود،الذين مثلوا أهم مجموعة دينية وعرقية متميزة كأقلية في انكلترا، وبدأت أعمال العنف والصخب ضد اليهود مع أعمال تتويج رتشارد في وستمنستريوم ٣-ايلول سنة ١١٨٩،وامتدت أعمال العنف هذه الى جميع أرجاء البلاد،وتجلت على شكل هجمات،أو سلسلة حملات ضد مناطق اليهود في المناطق الريفية ودامت خلال الشتاء والربيع،ووصلت الذروة في المذبحة المشهورة،وأعمال الانتحار الجماعية لحوالي/ ١٥٠/ يهودي

داخل القلعة الملكية في يـورك يوم سبت الآغادولGODOL ليلة ١٦ آذار سنة ١١٩٠، واتخذ رتشارد نفسـه خطوات مباشرة لتجنب تكـرار مثل هذا الصخب وأعمال عنف الرعاع.

وفى العقد الأخير مـن القرن الثـاني تحول اليهود الانكليز الـذين كـانوا يقرضـون الأموال ويتمتعون بالحمايـة الملكية ،الى أقنان للخزينـة الملكية، وبذلـك انتظموا أكثر مـن ذي قبل،وجـاء هذ الإجراء لضمان خضـوعهم للضرائب الملكية الثقيلة،ويبـدو أن الملك جون كان يـزدريهم،لكنه أصر،أنهم ماداموا مصدراً نافعاً للمال،ينبغـي حمايتهم، وقال:«إذا ما أعطيت السلم حتـى إلى كلـب ينبغي حماية هـذا السلـم وعـدم خـرقه»،وفـرض جـون غرامـات قاسيـة جداً على اليهـود،مماسبـب هرب كثير منهـم من انكلترا للنجاة مـن جشعه،وفي سنة ١٢٩١جـرى سحب الحماية الملكيـة المتقلبة بشكل كـامل مـن قبل ادواردالأول،وطرد اليهـود من انكلترا حيـث مكثوا خارجها طوال بقية العصور الوسطى،لابل أكثر من ذلك.

٢٢-فيليب أغسطس:

عندمـا التقى رتشارد وفيليـب الثاني ملك فـرنسا في فيزلي،كـان الملك الفرنسي الأدنـى كثيرا والأقل في اعطاء انطبـاع العظمة بين الـرجلين،فقد كـان قصيراً،وبدينـا،ونـادراً مـاكان بصحـة جيـدة،وقـد فقد شعـره أثنـاء الحملـة الصليبية الثـالثـة،زد على هذا كـان يميـل لأن يكـون مرائيـا،وفي القتال كان النظير الأسـوأ للملك الانكليزي،غالباً ماأرغـم على الفرار،وقد خسر آلات قذفـه في فير نول، وقطـار عرباتـه في فرتفـال،وسقط في الماء في غيسـور،حتـى في نصره العظيـم ضـد جـون وحلفـائه في بـوفين سنـة ١٢١٤،كان قد جرد من حصانه.

ومـع هذا كلـه،لئن لم يكـن فيليب قـد بنـي ليكون بطـلاً محارباً،كـان حـاكماً قادراً،وعنـدما كـان شابـاً،وجـد يحلم تحت شجـرة ويتساءل هـل

سيكون عظيماً مثل شارلمان،ووصفه المؤرخ الفرنسي فوتيير:«إنه كان أعظم ملوك أسرة كابيه»وفي الوقت نفسه قال المؤرخون :«لقد وسع الى درجة كبيرة حقوق وسلطة مملكة فرنسا، وأغنى الخزانة الملكية»،فلقد ضاعف ممتلكات الملكية أربع مرات،وهزم أوتو الرابع امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة،الذي كان حليفاً لجون،في بوفين -Bou vines ،وسبب انهيار الدويلات البلانتغنتية في القارة،وحكمت فرنسا بشكل فعال من قبل موظفين محليين،وغدت باريس عاصمة عظيمة،

وكان فيليب قد تزوج ثلاث مرات، وقد وجد زوجته الثانية وهي دانماركية اسمها إينبورغIngeborg غير مرضية بعد ليلة واحدة من الزواج، وأدى انفصاله عنها ثم، ما أعقب ذلك من ارتباطه مع أغنس أوف ميران الى عداء كبير وخصام مع البابوية ثم الى حرمانه كنسيا، وفي سنة ١٢١٣ بعد ولادة حفيده،أعاد إينبورغ زوجة له للمرة الثانية.

٢٣-الذراع الطويلة للملكية:

كان نجاح الحملة الصليبية الثالثة من ١١٨٩ الى ١١٩٢ محدوداً،وتبرهن أنه من غير الممكن استردادالقدس،

لكن صلاح الدين أجبر على عدم التوسع،وتمكنت المملكة الصليبية التي بدت في عام ١١٨٧ على حافة الزوال،من اعادة التأسيس على الشريط الساحلي،وتمكنت من العيش بعد ذلك لقرن من الزمان،زد على هذا استولى رتشارد على جزيرة قبرص الاستراتيجية في سنة ١١٩١،أثناء قدومه الى الأراضي المقدسة،فصارت قاعدة ساحلية للامداد.

وعادت معظم نجاحات الحملة الى رتشارد،الذي كانت قد عادلت قدراته التنظيمية والسياسية براعاته العسكرية المعروفة، وكانت الترتيبات التي أعدها للحكم في الممتلكات البلانتغنتية أثناء غيابه عملية ناجعة ،وكانت رعيته معتادة على غياب الحكام،لأن والده هنري أمضى مدة وجيزة في

كل واحدة من مقاطعاته،وفي مناسبة رتشارد يرجح أن الصلات بينه وبين موظفيه بقيت عن طريق المراسلات،ومع هذا كان بامكان الملك التجاوب مع أي قضية أو حادثة بعد مالايقل عن شهرين على وقوعها.

وكان قد عين في انكلترا، ونورماندي،وأنجو،وبواتو،وغسكوني رجالاً مخلصين له وأصحاب خبرة،وقد مثلوه بشكل جيد ،ومن أجل حماية دوقية أكوتين المضطربة تزوج من بيرنغاريا، وبذلك ضمن مساندة أبيها سانشو السادس صاحب نافار ليقف ضد الكونت ريموند صاحب طولوز،وكانت اليانور مع المسؤولين الآخرين متحفزين لحماية السلطات الملكية .

وكانت الترتيبات التي أعدها ناجحة بشكل عام ،على الرغم من بعض المصاعب التي كان من غير الممكن تجنبها في عصر كان غياب الملك أو مرضه يمكن أن يفرض مشاكل حادة جداً ،وجاء التهديد الأساسي من أعداء رتشارد وهم:فيليب الثاني ملك فرنسا،وريموند صاحب طولوز،وطبعاً من أخيه جون أثناء السنة التي تقدمت على عودته، ولو أنه عاد الى انكلترا،عندما كان متوقعاً، ولم يمض سنة في السجن الألماني،لتبرهن أن ترتيباته لحكم بلاده أثناء غيابه مع الحملة الصليبية،كانت ناجحة الى أبعد الحدود.

٢٤-الملكة البديلة:

في ١٢-أيار عام ١١٩١ تزوج رتشارد قلب الأسد من بيرنغاريا ابنة سانشو السادس صاحب نافار ،وقد جرى تتويجها ملكة على انكلترا ،والمعلومات المعروفة حولها قليلة، لكن هناك اتفاق على أنها كانت حكيمة أكثر من كونها جميلة،وأن الزواج أعدّ لأسباب سياسية،وكان لدى رتشارد ثلاثة دوافع لاختياره بيرنغاريا:لقد كانت بديلة لخطيبته أليس الفرنسية التي رفضها في سنة ١١٩٠ ،وليتحالف مع نافار،وليحصل على ولد ذكر، ولم

يفلح فقط في النقطة الأخيرة .

وحملت اليانور أم رتشارد بيرنغاريا اليه عندما كان في طريقه الى الأراضي المقدسة ،وتركتها معه في صقلية في شباط ١١٩١، وكان ذلك قبل أن يحلل فيليب الثاني رتشارد ويحرره من تعهده الذي كان عمره آنذاك عشرين سنة، بالزواج من أليس،وكان الموسم آنذاك هو أيام الصيام،حيث من غير الممكن تنفيذ الزواج، وقرر رتشارد الابحار نحو الأراضي المقدسة،لكن السفينة التي كانت تحمل بيرنغاريا انفصلت عن بقية سفن الاسطول أثناء عاصفة من العواصف، وقد تمكنت من اللجوءالى مكان قرب ليماسول في قبرص ودفعت المحنة التي تعرضت بيرنغاريا إليها لتعرضها لتهديد اسحق كومنوس،حاكم الجزيرة،رتشارد الى محاربة كومنوس واحتلال قبرص، وتم عرس رتشارد وبيرنغاريا في ليماسول.

. وكان الزواج نجاحاًسياسياً ،فقدساعد سانشوالجرىء، أخو بيرنغاريا في الدفاع عن أكوتين ضد الفرنسيين أثناء وجود رتشارد بالسجن، ومع ذلك لم يكن الزواج سعيداً،فقد أمضى رتشارد وقتاً قليلاً مع زوجته، ولم يرزقابالأولاد، ولم تسهم بيرنغاريا بدور سياسي كبير،وعاشت بعد وفاة رتشارد في لامانس حيث حظيت بالشهرة والاحترام لكرمها في تقديم المساعدات .

٢٥-متاهة السياسات الألمانية :

كان الامبراطور هنري السادس ،حاكم ألمانيا،عندما سجن رتشارد هناك ١١٩٣-١١٩٤،وكان فردريك بربروساً والد هنري، واحداً من أعظم أباطرة العصور الوسطى ، وقد مدّ اهتماماته الى ايطاليا،وزوج ابنه من كونستانس وريثة صقلية النورماندية،وكان هذا واحداً من أسباب الصراع فيما بين هنري السادس وبين رتشارد،فجوانا أخت رتشارد كانت

قد تزوجت من وليم الثاني، ملك صقلية، الذي توفي سنة ١١٨٩، ووقتها كان رتشارد في طريقه نحو الأراضي المقدسة،فساند تانكرد أوف ليسي Lecceعلى خلافة وليم ضد هنري السادس.

وتوفر سبب آخر للعداوة في ألمانيا، تمثل بزواج هنري الأسد،دوق سكسوني وبافاريا،الذي كان خصماً لأسرة هنري،من أخت أخرى لرتشارد،هي ماتيلدا،وتمكن بربروسا مع أمراء آخرين من هزيمة الدوق،،لكن وضع هنري السادس كان بعيداً عن الضمان والأمن ،ففي الشمال الشرقي كانت هناك أسرة الولفيينWelf القوية،وكانت معادية وعلى خلاف حول الرابطة الأسقفية،وقد دخلت في صراع مع الأمراء في الشمال الشرقي كذلك كان هنري السادس بحاجة ماسة الى الفرصة التي تهيأت له بأسر رتشارد قلب الأسد ،

ومع أنه لم يكن من السهل اختيار طريق العودة للوطن،يبدو أن قرار رتشارد النهائي بالعودة عبر النمسا،التي يحكمها ليوبولد،عدوه القديم أثناء الحملة الصليبية الثالثة، اتخذ بلا مبالاة،ووقع رتشارد بالأسر سنة ١١٩٢، وهو متظاهر بأنه خادم مطبخ يتولى تحريك سفود في حانة خارج فينا، وقد سلمه ليوبولد الى هنري السادس ،حيث سجن في ألمانيا في دور نستين ثم نقل الى تريفل،وأطلق سراحه في ١١٩٤ عندما دفع فدية كبيرة قدرها مائة ألف مارك(مع خمسين ألف اخرى ستتبعها، إلاّإذا أقنع هنري الأسد في إقامه سلام مع الامبراطور)،كما أنه وافق على الاعتراف بهنري امبراطوراً اقطاعياً على انكلترا.

وكان نصر هنري قصير العمر،ذلك أنه توفي بعد ثلاث سنوات في ١١٩٧،وانتقل حكم الامبراطورية الى حليف رتشارد:أوتو أوف برنسوك Brunswick،ابن هنري الأسد.

٢٦-فدية ملك:

أطلق سراح رتشارد من السجن الألماني مقابل فدية كبيرة جداً قدرها٦٦,٠٠٠ جنيه جمعت من أراضيه،ويعود الفضل في هذا الى المستشار وليم لو نغشامب،والى أمه إليانور، والى النظام الذي طوره رتشارد وأسلافه،والذي كان من الممكن أن يكون فعالاً بما فيه الكفاية حتى أثناء غياب الملك.

وعندما ذهب رتشارد في الحملة الصليبية سنة ١١٩٠،كان ملكاً عظيماً وثرياً ،ومع أنه أمضى عدة أشهر فقط في انكلترا،لقد أحسن استخدامهم،فقد ذكر أحد المؤرخين المعاصرين له أنه«عرض كل شيء لديه للبيع:الوظائف،اللوردية،والايرليه،والعمالة والقلاع،والبلدات والأراضي،وكل ماتوفر»وصرح رتشارد نفسه قائلاً : «سوف أبيع لندن نفسها إذا وجدت مشتري»حتى لونغشامب توجب عليه دفع ٣,٠٠٠ جنيه مقابل وظيفة المستشار، ونتيجة لهذا تمكن رتشارد من الضغط أكثر على المسلمين مما استطاع فيليب أن يفعل ،فقد كان لديه سفناً أكثر،وأدوات حصار ،ورجال،وأعطى أعطيات آنس.

وحكمت أراضيه أثناء غيابه بشكل جيد من قبل وزراء مخلصين،وذلك على الرغم من المتاعب التي آثارها أخوه الطموح جون،ففي انكلترا أثقل وليم لونغشامب«كاهل الشعب وظلمه باستخراج مكوس ثقيلة»ليمول حملات مولاه، وبذلك جعل نفسه لايتمتع بالشعبية،وحاول جون استغلال هذا

وعلى الرغم من دفع رتشارد للفدية،بدون مساعدة لونغشامب البارعة،تمكن من جمع مايكفي من مال بين ١١٩٤و١١٩٩ لاسترداد مااستولى عليه فيليب في نورماندي،ولبناء قلعة شاتو غيلاردالرائعة،وليحفظ ممالكه سليمة.

٢٧-حصاد أسرة بلانتغنت:

كان رتشارد برأي معاصريه أثرى وأقوى وأشجع من الملك الفرنسي، وصحيح أن الملك الفرنسي كان أعلى مرتبة من رتشارد،لكن ممتلكات رتشارد كانت أوسع وأكثر خصباً،كان فيها عدد من البلدات المزدهرة والمراكز التجارية الناشطة بحكم وجود بحر الشمال،والقنال،وطرق الأطلسي مع مجاري ثلاثة أنهار عظيمة هي:السين واللوار،وغارون.

وصحيح أن موارد جون كانت نظرياً أعظم من موارد عدوه الفرنسي،لكنه كان أدنى كفاءة،فضلاً عن أنه ورث بلاداً أفقرتها المكوس التي فرضها رتشارد وحصلها وأنفقها ،ومع الأيام صار فيليب أعظم ثروة،لكن جون عجز عن الضغط على الفرنسيين وجعلهم ينفقون ماتوفر لديهم من مال ،وهو قد طلب دوما جمع المال ،لكنه لم ينفقه في مقاصد نافعة كما فعل رتشارد.

٢٨-الزواج من ايزابيلا:

تزوج جون لمدة عشر سنوات من ابنة عمه ايزابيلا أوف غلوستر،عندما وصل الى العرش في سنة ١١٩٩،وكان مخطوباً لها منذ أن كان في العاشرة، ولم ينجبا أولاداً مع أن جميع أولاد جون من خليلاته ولدوا أثناء زواجهما،ولم يتوجها جون ملكة معه، ووافقه وهو ملك أن يكون حراً لعقد زواج آخر لأسباب سياسية،وكان زواجه من ايزابيلا قد واجه معارضة كبيرة من الكنيسة بسبب القرابة بينهما ،لهذا لم يجد الآن صعوبة في الحصول على الطلاق منها.

وفي سنة ١٢٠٠،أثناء زيارة له لأكوتين،تزوج بشكل غير متوقع من روجة جديدة ،اسمهاايزابيلا أيضاً،وراجت أقاويل أنه أسكرها وضاجعها،ولاشك أن هذا يوضح سبب السرعة،وقد كانت في حوالي الثانية عشر من عمرها، وهي ابنة أودمار Audemar، كونت أوف أنغوليم، الذي كان من أعلى نبلاء الدوقية مكانة، وكان من قبل قد

سبب بعض المشاكل بتقديمه الولاء لفيليب الثاني ملك فرنسا،كطريقة لتأكيد استقلاله عن الملك رتشارد، وقد قيل الكثير حول هذا الزواج،فهو قد ضمن ولاء الكونت مع المكانة الاستراتيجية لممتلكاته،وكانت ايزابيلا مخطوبة من قبل لهيوج البني صاحب لوزغنان المجاورة ،وكان صليبياًشجاعاً ،من أسرة متعبة وناجحة،وكان صديقاً لرتشارد، وعلى خلاف مع أبي ايزابيلا حول كونتيه لامارشي،ولم يكتف جون بأخذ خطيبة هيوج،بل اغتصب في سنة ١٢٠١ كونتيته وأعطاها الى أودمار ختنه الجديد،ولكي يزيد الأمور سوءاً استولى على الأراضي النورماندية التي كانت بحوذة الف أخي هيوج الأصغر.

والتمس الأخوان اللوزغنانيان المساعدة القضائية من فيليب الثاني ملك فرنسا واستدعى فيليب جون للحضور أمام محكمة البلاط الملكي الفرنسي، ولم يحضر جون، وكان هذا مسوغاً لأن يعلن فيليب عن مصادرة جميع اقطاعيات جون الفرنسية في نيسان سنة ١٢٠٢(تقبل فيليب فيما بعد ولاء وتبعية آرثر تجاه جميع هذه الاقطاعيات ،ورتب الأمور لكونت بريتاني الشاب ليتزوج من ابنته ماري) وأعطى هذا القرار القضائي الصبغة الشرعية لأعمال الاستيلاء التالية التي قام بها فيليب ،لقد حمل آرثر مع الآخرين من أسرة لوزغنان السلاح ضد جون و،في المتن المزيد من التفاصيل حول ماحدث .

جريدة المصادر والمراجع

Bibliography

This is not intended as a comprehensive bibliography of all relevant works, but is a selection of books relating to the topics discussed in the notes and the chronicles Articles have not been included because they are more difficult for the general reader to obtain, most of the works cited here contain bibliographies which are a good starting point for more detailed reading on individual subjects

Politics, Law and Finance

Appleby, J T., *England without Richard*, London, 1965

Appleby, J T, *Henry II, the Vanquished King*, London, 1962

Baker, J H, *An Introduction to English Legal History*, 2nd edn, London, 1979

Barber, R., *Henry Plantagenet, a Biography*, London, 1964

Barlow, F., *The Feudal Kingdom of England, 1042–1216*, 3rd edn, London, 1972

Barraclough, G, ed and trans, *Medieval Germany, 911–1250*, 2 vols, Oxford, 1938

Barrow, G W S, *Feudal Britain: The Completion of the Medieval Kingdoms, 1066–1314*, London, 1956

Barrow, G W. S, *The Kingdom of the Scots: government, church and society from the eleventh to the fourteenth century*, London, 1973

Barrow, G. W. S, *Kingship and Unity: Scotland 1000–1306*, London, 1981

Bates, D, *Normandy before 1066*, London, 1982

Bautier, R. H., ed., *La France de Philippe Auguste: le temps des mutations*, Paris, 1982

Brékilien, Y, *Histoire de la Bretagne*, Paris, 1979

Brooke, C. N L, *Europe in the Central Middle Ages, 962–1154*, London, 1964

Brooke, C. N. L, *From Alfred to Henry III, 871–1272* London, 1961

Brooke, Z. N., *A History of Europe, 911–1198*, London, 1938

Brooks, F. W., *The English Naval Forces, 1199–1272*, London, 1933

Brown, R. A, *The Normans and the Norman Conquest*, London, 1969

Brundage, J, *Richard Lion Heart*, New York, 1973

Boussard, J, *Le gouvernement d'Henri II Plantagenêt*, Paris, 1956

Boussard, J, *Le comté d'Anjou sous Henri Plantagenêt et ses fils, 1151–1204*, Paris, 1938

Bur, M, *La formation du comté de Champagne, v 950–v.1150*, Nancy, 1977

Cartellieri, A, *Philipp August König von Frankreich*, 4 vols, Leipzig, 1899–1922

Chartrou, J, *L'Anjou de 1109 à 1151*, Paris, 1928

Chrimes, S. B, *An Introduction to the Administrative History of Medieval England*, 2nd edn., Oxford, 1959

Clanchy, M. T., *England and its Rulers, 1066–1272*, London, 1983

Clanchy, M. T., *From Memory to Written Record, England, 1066–1307*, London, 1979

Cox, J C, *The Royal Forests of Medieval England*, London, 1905

Cronne, H. A., *The Reign of Stephen, Anarchy in England, 1135–54*, London, 1970

Davis, R. H C, *A History of Medieval Europe from Constantine to Saint Louis*, London, 1957

Davis, R H C, *King Stephen*, London, 1977

Davis, R. H C, *The Normans and their Myth*, London, 1976

Duby, G., *Le dimanche de Bouvines*, Paris, 1973

Duggan, A, *Devil's Brood The Angevin Family*, London, 1957

Dunbabin, J., *France in the Making, 843–1100*, Oxford, 1985

Duncan, A A M, *Scotland. the Making of the Nation*, Edinburgh, 1975

Eyton, R W., *The Court, Household and Itinerary of Henry II*, London, 1878

Fawtier, R, *The Capetian Kings of France, Monarchy and Nation, 987–1328*, trans Butler, L, and Adam, R J, London, 1966

Galbraith, V H, *Studies in the Public Records*, London, 1948

Gillingham, J, *The Angevin Empire*, London, 1984

Gillingham, J, *Richard the Lionheart*, London, 1978

Gillingham, J, and Holt, J C, eds., *War and Government in the Middle Ages*, Woodbridge, 1984.

Gonzalez, J, *El Reino de Castilla en la epoca de Alfonso VIII*, Madrid, 1960

Guillot, O., *Le comte d'Anjou et son entourage au XI^e siècle*, 2 vols, Paris, 1972

Hall, H, *Court Life under the Plantagenets*, London, 1890

Hallam, E. M, *Capetian France, 987–1328*, London, 1980

Hallam, E M., *Domesday Book through Nine Centuries*, London, 1986

Halphen, L., *Le comté d'Anjou au XI^e siècle*, Paris, 1906

Harding, A., *The Law Courts of Medieval England*, London, 1973

Hardy, T. D, *The Itinerary of John, King of England*, London, 1829

Harvey, J. H, *The Plantagenets*, London, 1948

Haskins, C. H, *Norman Institutions*, Cambridge, Mass, 1918

Heer, F, *The Holy Roman Empire*, trans Sondheimer, J, London, 1968

Hodgson, C E, *Jung Heinrich, Konig von England, Sohn König Heinrichs II, 1155–83*, Jena, 1906

Holdsworth, W, *A History of English Law*, 7th edn, London, 1956

Holt, J C, *King John*, London, 1963

Holt, J C, *Magna Carta*, Cambridge, 1965

Holt, J C., *The Northerners*, Oxford, 1961

Hoyt, R S, *The Royal Demesne in English Constitutional History, 1066–1272*, New York, 1950

Joliffe, J E A, *Angevin Kingship*, 2nd ed, London, 1963

Kibler, W. W., ed, *Eleanor of Aquitaine, Patron and Politician*, Austin, 1977

Knowles, M D, *The Historian and Character and Other Essays*, Cambridge, 1963

Landon, L, *The Itinerary of Richard I*, Pipe Roll Society, 1935

Lemarignier, J F, *La France médiévale, institutions et sociétés*, Paris, 1970

Lemarignier, J F, *Le gouvernement royal aux premiers temps capétiens*, Paris, 1965

Lloyd, J. E, *A History of Wales, from the earliest times to the Edwardian Conquest*, 3rd edn, London, 1939

Luchaire, A., *Louis VI le Gros, annales de sa vie et de son règne, 1081–1137*, Paris, 1890

Madox, T., *The History and Antiquities of the Exchequer of England*, London, 1769

Malden, H. E., ed., *Magna Carta Commemoration Essays*, London, 1917

Marsh, F. B., *English Rule in Gascony, 1199–1259*, Ann Arbor, 1912

Mitchell, S. K, *Studies in Taxation under John and Henry III*, New Haven, 1914

Mitchell, S. K., *Taxation in Medieval England*, ed. Painter, S., New Haven, 1951

Moore, O. H., *The Young King Henry Plantagenet, 1155–83*, Columbus, Ohio, 1925

Morris, W A, *The Medieval English Sheriff to 1300*, Manchester, 1927

Munz, P, *Frederick Barbarossa*, London, 1969

McKitterick, R, *The Frankish Kingdoms under the Carolingians, 751–987*, London, 1983

Norgate, K, *England under the Angevin Kings*, 2 vols, London, 1887

Norgate, K, *John Lackland*, London, 1902

Norgate, K, *Richard the Lionheart*, London, 1924

Oman, C W C, *The Coinage of England*, Oxford, 1931

Otway-Ruthven, A J, *A History of Medieval Ireland*, 2nd edn, London, 1980

Pacaut, M, *Louis VII et son royaume*, Paris, 1967

Painter, S, *The Reign of King John*, Baltimore, 1949

Painter, S, *William Marshall*, Baltimore, 1933

Patourel, J le, *The Norman Empire*, Oxford, 1976

Pernoud, R, *Eleanor of Aquitaine*, London, 1967

Petit-Dutaillis, C, *Le déshéritement de Jean-sans-terre et le meurtre d'Arthur de Bretagne*, Paris, 1925

Petit-Dutaillis, C, *The Feudal Monarchy in France and England from the Tenth to the Thirteenth Century*, trans Hunt, E D, London, 1935

Pollock, F., and Maitland, F W, *The History of English Law before the Time of Edward I*, 2 vols, 2nd edn, Cambridge, 1898

Poole, A L, *From Domesday Book to Magna Carta*, 2nd edn, Oxford, 1955

Poole, R L, *The Exchequer in the Twelfth Century*, Oxford, 1912

Powicke, F M, *The Loss of Normandy*, 2nd edn, Manchester, 1961

Ramsay, J. H., *The Angevin Empire, 1154–1216*, London, 1903

Ramsay, J. H., *The Revenues of the Kings of England*, 2 vols, Oxford, 1925.

Richard, A., *Histoire des comtes de Poitou*, 778–1204, 2 vols, Paris, 1903

Richardson, H G, and Sayles, G. O, *The Governance of Medieval England from the Conquest to Magna Carta*, Edinburgh, 1963

Rössler, O., *Kaiserin Mathilde*, Berlin, 1897

Round, J H, *Geoffrey de Mandeville*, London, 1892

Sanders, I J, *English Baronies: A Study of their Origin and Descent, 1086–1327*, Oxford, 1960

Saul, N, *The Batsford Companion to Medieval England*, London, 1983

Sayles, G O, *The Governance of Medieval England*, Edinburgh, 1963

Schramm, P E, *A History of the English Coronation*, trans Wickham Legg, G, Oxford, 1937

Smith, L M, ed, *The Making of Britain: the Middle Ages*, London, 1985

Southern, R W, *The Making of the Middle Ages*, London, 1953

Stenton, D M [illegible] *between the Norman Conquest and the* [illegible] London, 1965

Stenton, F M, *The First Century of English Feudalism*, 2nd edn, Oxford, 1961

Trautz, F, *Die Könige von England und das Reich*, Heidelberg, 1961

Ullmann, W, *Principles of Government and Politics in the Middle Ages*, London, 1961

Valin, R, *Le duc de Normandie et sa cour, 912–1204*, Paris, 1909

Waquet, H, *Histoire de Bretagne*, 3rd edn, Paris, 1958

Warren, W L, *Henry II*, London, 1973

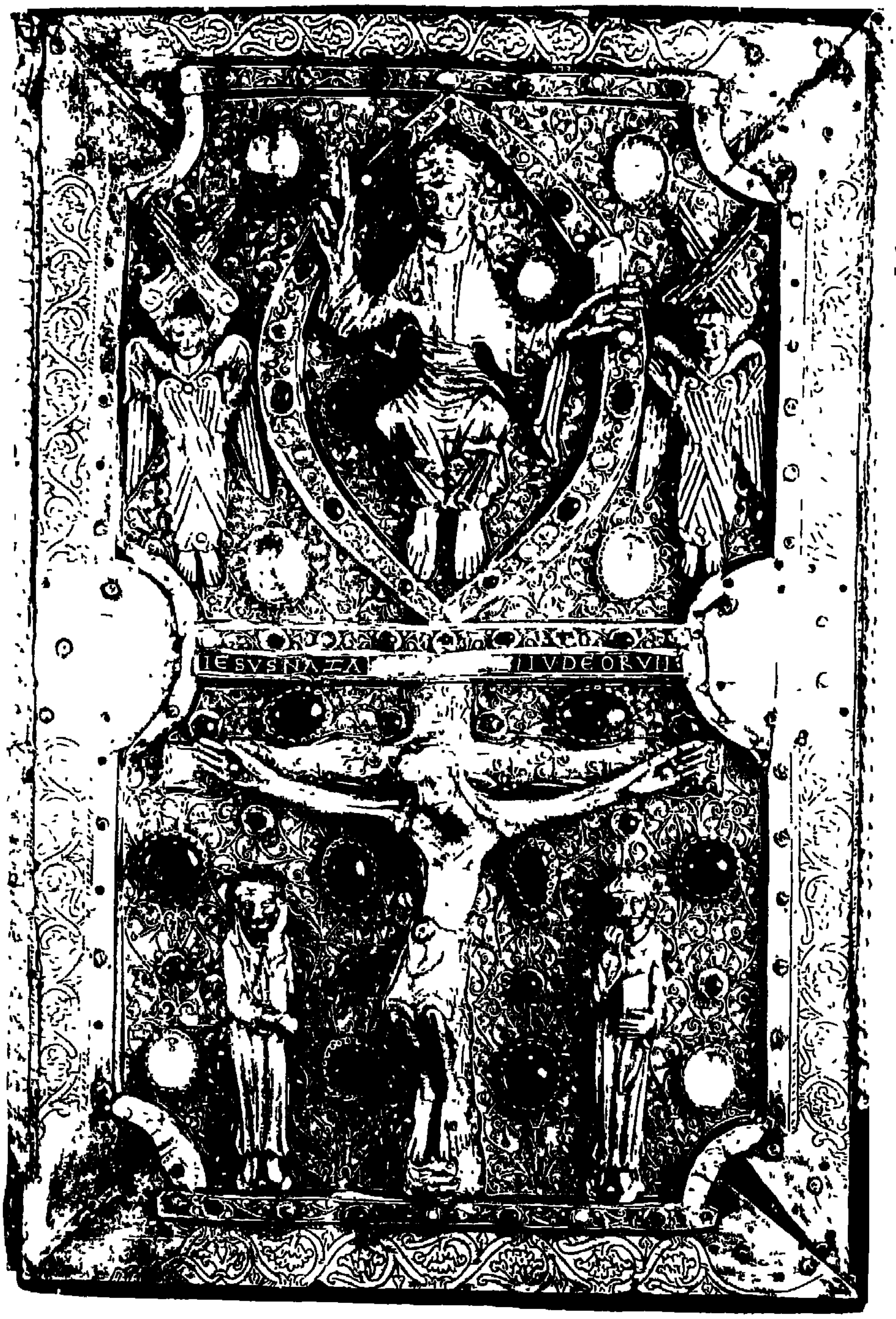
Warren, W L, *King John*, London, 1961

Warren Hollister, C, *The Military Organisation of Norman England*, Oxford, 1965

West, F J, *The Justiciarship in England, 1066–1232*, Cambridge, 1936

Wightman, W E, *The Lacy Family in England and Normandy, 1066–1194*, Oxford, 1966

Young, C. R, *The Royal Forests of Medieval England*,



عطاء كتاب ديني يعكس التقاليد المتطورة للعمل الجميل بالمعادن المرصعة بالجواهر

Ecclesiastical

Aubert, M , *Suger*, Saint Wandrille, 1950

Barlow, F , *The English Church, 1066–1154*, London, 1979

Blair, P. H , ed and trans , *The Rule of St Benedict*, 5th edn , Fort Augustus, 1948

Bolton, B , *The Medieval Reformation*, London, 1983

Brooke, C N L , and Swaan, W , *The Monastic World, 1000–1300*, London, 1979

Brooke, Z N , *The English Church and the Papacy from the Conquest to the Reign of John*, Cambridge, 1931

Cheney, C R , *From Becket to Langton English Church Government, 1170–1213*, Manchester, 1956

Cheney, C R , *Hubert Walter*, London, 1967

Colvin, H M , *The White Canons in England*, London, 1951

Cowdrey, H E J , *The Cluniacs and The Gregorian Reform*, Oxford, 1970

Dickinson, J C , *The Origins of the Austin Canons and their introduction into England*, London, 1950

Douie, D L., *Archbishop Geoffrey Plantagenet*, York, 1960

Finucane, R C., *Miracles and Pilgrims: Popular Beliefs in Medieval England*, London, 1977

Foreville, R , *L'église et la royauté en Angleterre sous Henri II Plantagenêt*, Paris, 1943

Formigé, J., *L'Abbaye Royale de Saint-Denis*, Paris, 1960

Gibson, M , *Lanfranc of Bec*, Oxford, 1978

Graham, R , *St Gilbert of Sempringham and the Gilbertines*, London, 1901

Hell, V. and H , *The Road to Compostella*, London, 1966

Hill, B D , *English Cistercian Monasteries and their Patrons in the Twelfth Century*, Chicago, 1968

Kemp, E W , *Canonisation and Authority in the Western Church*, Oxford, 1948

Knowles, M D , *Christian Monasticism*, London, 1969

Knowles, M D , *The Episcopal Colleagues of Archbishop Thomas Becket*, Cambridge, 1951

Knowles, M D., *The Monastic Order in England, 940–1216*, 2nd edn , Cambridge, 1966

Knowles, D., *Thomas Becket*, London, 1970

Krehbiel, E B , *The Interdict, its History and Operation*, Washington, 1909

Lambert, M , *Medieval Heresy*, London, 1977

Lawrence, C H , *Medieval Monasticism*, London, 1984

Lekai, D J., *Les Moines Blancs*, Paris, 1957

Moore, R. I., *The Origins of European Dissent*, London, 1977

Morey, A , and Brooke, C. N L., *The Letters and Charters of Gilbert Foliot*, Cambridge, 1967

Power, E , *Medieval English Nunneries*, Cambridge, 1922

Robertston, J C , *Becket, Archbishop of Canterbury. A Biography*, London, 1859

Saltman, A , *Theobald Archbishop of Canterbury*, London, 1956

Scott James, B , ed and trans., *St Bernard of Clairvaux seen through his Selected Letters*, Chicago, 1953

Southern, R. W., *St Anselm and his Biographer*, Cambridge, 1963

Southern, R. W., *Western Society and the Church in the Middle Ages*, Harmondsworth, 1970

Tierney, B , *The Crisis of Church and State, 1050–1300*, New York, 1964

Vielliard, J., *Guide du pèlerin de Saint-Jacques-de-Compostelle, c.* 1163

Voss, L., *Heinrich von Blois, Bischof von Winchester*, Berlin, 1932

Webb, C. C J, *John of Salisbury*, London, 1932

Williams, W, *St Bernard of Clairvaux*, Manchester, 1935

Zarnecki, G., *The Monastic Achievement*, London, 1972

Social and Economic

Baker, D, ed, *Medieval Women*, Oxford, 1978

Bautier, R. H, *The Economic Development of Medieval Europe*, London, 1971

Bennet, H S, *Life on the English Manor*, 2nd edn., Cambridge, 1965

Beresford, M W, and St Joseph, J. K S, *Medieval England: an Aerial Survey*, Cambridge, 1958

Bloch, M., *Feudal Society*, trans Manyon, L A, 2nd edn, London, 1962

Boussard, J, *Nouvelle Histoire de Paris, I, Paris de la fin du siège de 885–886 à la mort de Philippe Auguste*, Paris, 1970

Brooke, C N. L, and Keir, G, *London, 800–1216 the Shaping of a City*, London, 1975

Cazel, F. A, ed, *Feudalism and Liberty: the Articles and Addresses of Sydney Painter*, Baltimore, 1961

Chapin, E, *Les villes de foires de Champagne*, Geneva, 1937, reprinted, 1976

Dhondt, J, *Etudes sur la naissance des principautés territoriales en France, IX^e–X^e siècle*, Bruges, 1948

Dion, R, *Histoire de la vigne et du vin en France des origines au XIX^e siècle*, Paris, 1959

Duby, G, *The Chivalrous Society*, ed. and trans Postan, C., London 1977

Duby, G, *Medieval Marriage: two models from twelfth-century France*, trans Forster, E, Baltimore, London, 1978

Duby, G., *Rural Economy and Country Life in the Medieval West*, trans. Postan, C, London, 1968

Evans, J, *Life in Medieval France*, London, 1957

Fourquin, G., *Lordship and Feudalism in the Middle Ages*, trans. Lytton-Sells, I and A., London, 1976

Ganshof, F, *Feudalism*, trans. Grierson, P., 3rd edn., London, 1964

Hinde, T, ed, *The Domesday Book*, London and Markham, Ont, 1985

Lemarignier, J F., *Recherches sur l'hommage en marche et les frontières féodales*, Lille, 1945

Lot, F., *Fidèles ou vassaux? Essai sur la nature juridique du lien qui unissait les grands vassaux à la royauté depuis le milieu du IX^e jusqu'à la fin du XII^e siècle*, Paris, 1904

Mollat, M., *Histoire de l'Ile-de-France et de Paris*, Toulouse, 1971

Pirenne, H., *Les villes du moyen age*, Paris, 1971

Platt, C., *The English Medieval Town*, London, 1976

Poole, A L, *The Obligations of Society in the Twelfth and Thirteenth Centuries*, Oxford, 1946

Postan, M M., *The Medieval Economy and Society*, London, 1972

Power, E, *Medieval Women*, Cambridge, 1975

Pullar, P., *Consuming Passions*, 2nd edn, London, 1972

Reuter, T., ed. and trans, *The Medieval Nobility*, Amsterdam, New York, London, 1979

Richardson, H G, *The English Jewry under the Angevin Kings*, London, 1960

Stenton, D. M., *English Society in the Early Middle Ages*, London, 1951

Tait, J., *The Medieval English Borough*, Manchester, 1936

White, L T, *Medieval Technology and Social Change*, Oxford, 1962

Wilson, A., *Food and Drink in Britain*, 3rd edn., London, 1984

Art, Music and Literature

Anderson, M. D., *The Medieval Carver*, Cambridge, 1935

Arts Council of Great Britain, *English Romanesque Art 1066–1200*, London, 1984

Barber, R. W., *The Knight and Chivalry*, London, 1970

Boase, T S. R , *Death in the Middle Ages*, London, 1972

Boase, T. S. R., *English Art, 1100–1216*, Oxford, 1953

Bony, J , *French Gothic Architecture*, Berkeley, 1983

Borenius, T., *St Thomas of Canterbury in Art*, London, 1932

Bottineau, Y., *Les chemins de Saint-Jacques*, Paris, 1964

Bradford, C. A., *Heart Burials*, London, 1933

Brooke, C N L., *The Twelfth Century Renaissance*, London, 1969

Broughton, B. B., *The Legends of Richard I*, The Hague, 1966

Catto, J. I , ed., *The History of the University of Oxford, I, The Early Oxford Schools*, Oxford, 1984

Chailley, J , *Histoire musicale du Moyen Age*, Paris, 1969

Chaytor, H., *From Script to Print. an introduction to medieval literature*, London, 1966

Clapham, A. W., *English Romanesque Architecture after the Conquest*, Oxford, 1934

Crosland, J., *Medieval French Literature*, Oxford, 1956

Davis, R. H C., and Wallace Hadrill, J. M., ed , *The Writing of History in the Middle Ages ... Essays to R. W. Southern*, Oxford, 1981

Delaborde, H. F., ed. and trans., *Oeuvres de Rigord et de Guillaume le Breton*, 2 vols, Paris, 1882–5

Dodwell, C. R., *Painting in Europe, 800–1200*, Harmondsworth, 1971

Erlande-Brandenburg, A , *Le roi est mort*, Geneva, 1975

Evans, G , *The Mind of St Bernard of Clairvaux*, Oxford, 1983

Evans, J., *Art in Medieval France*, Oxford, 1948

Evans, J , ed., *The Flowering of the Middle Ages*, London, 1966

Fino, F. F., *Fortresses de la France Médiévale*, Paris, 1967

Grabar, A., and Nordenfalk, C., *Romanesque Painting from the Eleventh to the Thirteenth Century*, Lausanne, 1958

Gransden, A., *Historical Writing in England c 550 to c 1307*, London, 1974

Harvey, J. H., *Cathedrals of England and Wales*, London, 1974

Harvey, J H., *The Medieval Architect*, Gloucester, 1972

Haskins, C. H , *The Renaissance of the 12th Century*, New York, 1927

Heltzel, V B., *Fair Rosamund: a Study of the Development of a Literary Theme*, Evanstown, 1947

Holt, J C , *Robin Hood*, London, 1982

James, M R , ed. and trans , *De Nugis Curialium by Walter Map*, Oxford, 1914

Kelly, A , *Eleanor of Aquitaine and her Courts of Love*, London, 1952

Kidson, P., Murray, P and Honour, H , *A History of English Architecture*, London, 1962

Kidson, P , *The Medieval World*, London, 1967

Lasko, P., *Ars Sacra, 800–1200*, Harmondsworth, 1972

Leff, G , *Medieval Thought: St Augustine to Ockham*, Harmondsworth, 1958

Legge, M. D., *Anglo-Norman Literature and its Background*, Oxford, 1963

Mâle, E., *Religious Art in France: The Twelfth Century*, Princeton, 1978

Meras, *Abbayes et Pélerinages de France*, Paris, 1964

Meyer, P., ed and trans., *Histoire de Guillaume le Maréchal*, 3 vols, Paris, 1891–1901

Morris, C., *The Discovery of the Individual, 1050–1200*, London, 1972

Musset, L., *Angleterre romane, I, le sud de l'Angleterre*, Paris, 1983

O'Meara, J. J. ed., *The History and Topography of Ireland by Gerald of Wales*, Harmondsworth, 1982

Panofsky, E., *Abbot Suger and the Abbey Church of Saint-Denis*, Princeton, 1946

Press, A. R., *An Anthology of Troubadour Lyric Poetry*, Edinburgh, 1971

Radice, B., ed., *The Letters of Abelard and Heloise*, Harmondsworth, 1974

Rashdall, H., *The Universities of Europe in the Middle Ages*, ed Powicke, F. M., and Emden, A. B., 3 vols, Oxford, 1936

Richter, M., *Giraldus Cambrensis*, Aberystwyth, 1972

Sauerlander, W., *Gothic Sculpture in France*, London, 1972

Savage, A., ed. and trans., *The Anglo-Saxon Chronicles*, London, 1983

Sayers, D. L., ed. and trans., *The Song of Roland*, Harmondsworth, 1957

Simpson, O. von, *The Gothic Cathedral*, London, 1956

Southern, R. W., *Medieval Humanism and Other Studies*, Oxford, 1970

Thorpe, L., ed., *The History of the Kings of Britain by Geoffrey of Monmouth*, Harmondsworth, 1966

Topsfield, L. T., *Troubadours and Love*, Cambridge, London, New York, 1975

Van der Werf, H., *The Chansons of the Troubadours and Trouvères: a study of their melodies and their relation to the poems*, Utrecht, 1972

Webb, G., *Architecture in England the Middle Ages*, Harmondsworth, 1954

Whitelock, D. and others, eds., *The Anglo-Saxon Chron*, rev. edn., London, 1961

Zarnecki, G., *English Romanesque Sculpture, 1066–1140*, London, 1951

Zarnecki, G., *Later English Romanesque Sculpture, 1140–1210*, London, 1953

Zarnecki, G., *Romanesque Art*, London, 1971

Crusades and Warfare

Benevenisti, M., *The Crusaders in the Holy Land*, Jerusalem, 1970

Brown, R. A., *English Castles*, 4th edn., London, 1976

Ehrenkreutz, A. S., *Saladin*, New York, 1972

Godfrey, J., *1204: the Unholy Crusade*, London, 1980

Hill, G., *A History of Cyprus*, 2 vols, Cambridge, 1940

Koch, H. W., *Medieval Warfare*, London, 1978

Lewis, B., *The Assassins*, London, 1967

Mayer, H. E., *The Crusades* trans. Gillingham, J., Oxford, 1972

Norwich, J. J., *The Kingdom in the Sun*, London, 1970

Oman, C., *A History of the Art of War in the Middle Ages, 378–1485*, 2 vols, 2nd edn., London, 1924

Prawer, J., *The Latin Kingdom of Jerusalem*, London, 1972

Riley-Smith, J., *The Knights of St John in Jerusalem and Cyprus, c. 1050–1310*, London, 1967

Runciman, S., *A History of the Crusades*, 3 vols, Cambridge, 1951–4

Setton, K. M. and others, *A History of the Crusades*, vols I–II, Madison, 1962

Smail, R. C, *Crusading Warfare, 1097–1193*, Cambridge, 1956

Sumption, J., *The Albigensian Crusade*, London, 1978

Verbruggen, J. F., *The Art of Warfare in Western Europe during the Middle Ages*, Oxford, 1977

Bibliographies, Atlases and Reference Works

Centre National de la Recherche Scientifique, *Bibliographie Annuelle de l'histoire de France*, Paris, 1953–

Douglas, D. C, and Greenaway, G. W., eds., *English Historical Documents II, 1042–1189*, London, 1953

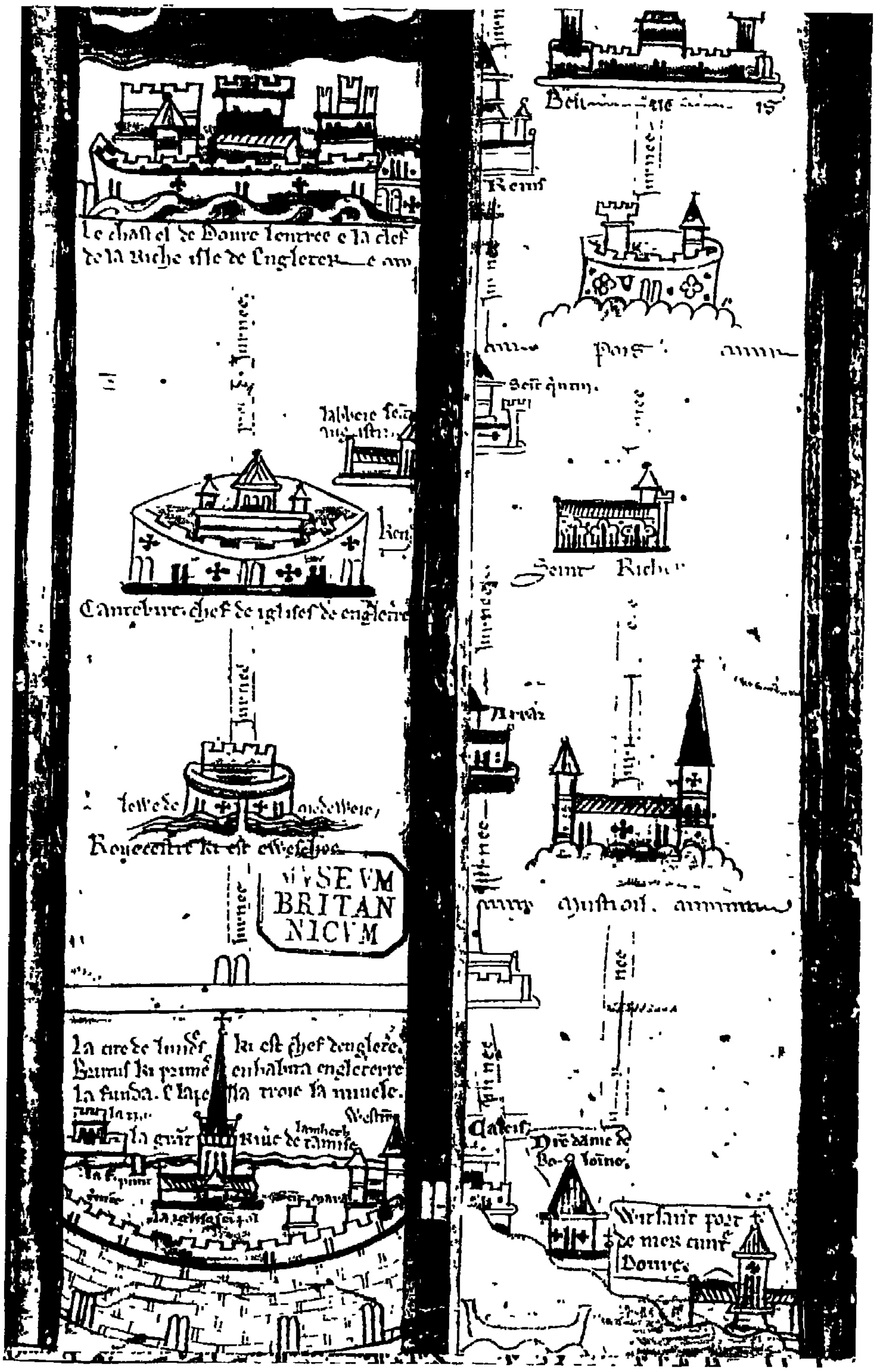
Falkus, M, and Gillingham, J., *Historical Atlas of Britain*, London, 1981

Gross, C., and Graves, E B, *A Bibliography of English History to 1485*, Oxford, 1975

Longnon, A., *Atlas Historique de la France*, 2 vols, Paris, 1885–9

Rothwell, H, ed., *English Historical Documents III, 1189–1327*, London, 1965

Royal Historical Society, *Annual Bibliography of British and Irish History*, London, 1976–



SEVM
BRITAN
NICVM

Chronicles

Part I

John of Marmoutier, *The Chronicles of the counts of Anjou*, ed L Halphen & R Poupardin in *Chroniques des comtes d'Anjou et des seigneurs d'Amboise*, Collection des Textes, Paris 1913, pp 29–31, 37–44, 143–51, 161–2 Extracts

Part II

John of Marmoutier, *The History of Duke Geoffrey*, in *The Chronicles of the counts of Anjou*, ibid, pp 176–231 Extracts

Henry of Huntingdon, *The History of the English*, ed T Arnold in Rolls Series 1879, pp 259–92 Extracts

The Deeds of Stephen, (anon), trans and ed Thomas Forester in *Henry of Huntingdon*, Henry G Bohn, London 1853 Extracts

Part III

Ralph of Diceto, *Images of History*, ed W Stubbs in *The Historical Works of Master Ralph of Diceto*, Rolls Series 1876, I, 291–439, II, 3–66 Extracts.

William of Newburgh *The History of English Affairs*, ed D C Douglas and G W Greenaway in *English Historical Documents 1042–1189*, London 1953; pp 322–3, 325, 329–30 Extracts

The Deeds of King Henry II, in *English Historical Documents*, op cit, pp 377–9 Extracts

William FitzStephen, *The Life of St Thomas Becket*, ed and trans G W Greenaway in *The life and Death of Thomas Becket, Chancellor of England and Archbishop of Canterbury*, The Folio Society, London 1961, pp 35–44, 55–8, 156–7. Extracts.

William FitzStephen, *Description of the city of London (1170–1183)*, given as a preamble to his *Life of St Thomas Becket*, ibid Extracts.

Adam of Eynsham, *The Life of St Hugh of Lincoln*, ed the late Decima L Douie & David Hugh Farmer in *Magna Vita Sancta Hugonis*, Oxford University Press, 2nd edn 1985, I, 60–3, 85–6, 115–9, II, 93–4, 104–9, 125–30, 169–70 Extracts

Jordan Fantosme, *Chronicle of the War between the English and the Scots*, in *English Historical Documents*, op cit

Part IV

Ralph of Diceto, op cit, II, 66–166 Extracts

Rigord, *The Deeds of Philip Augustus*, ed H-F Delaborde in *Oeuvres de Rigord et de Guillaume le Breton*, Société de l'Histoire de France 1882–5, pp 106–9 Extracts

Richard, canon of Holy Trinity, Aldgate, *The Itinerary of the Pilgrims*, ed W Stubbs in Rolls Series 1864, pp 259–78 Extracts Also *The Deeds of King Richard*, ed W Stubbs in Rolls Series 1867; II, 80–4, 151–5, 158–61. Extracts

Adam of Eynsham, *The Life of St Hugh of Lincoln*, op cit, II, 98–105, 134–7 Extracts

Gerald of Wales, *The Description of Wales*, trans Lewis Thorpe in *Journey through Wales/Description of Wales*, Penguin, London 1978 (copyright the Estate of Lewis Thorpe 1978) Extracts.

Part V

Ralph of Diceto, op cit, II, 166–75 Extracts

Ralph of Coggeshall, *The English Chronicle*, ed J Stevenson in *Chronicon Anglicanum*, Rolls Series 1875, pp 101–62 Extracts

The 'Barnwell' Annals (anon), ed W. Stubbs in *The Historical collections of Walter of Coventry*, Rolls Series 1873, II, 201–32 Extracts

Gervase of Canterbury, *The Deeds of Kings*, ed W Stubbs in *The Historical Works of Gervase of Canterbury*, Rolls Series 1880; II, 96–106, Extracts

المحتوى

رقم الصفحة الموضوع

١١٣	سنة ١١٦٢
١١٧	سنة ١١٦٣
١١٩	سنة ١١٦٤
١٢٠	سنة ١١٦٥
١٢١	سنة ١١٦٦
١٢٢	سنة ١١٦٧
١٢٣	سنة ١١٦٩
١٢٤	سنة ١١٧٠
١٣١	سنة ١١٧١
١٣٣	سنة ١١٧٢
١٣٦	سنة ١١٧٣
١٤١	سنة ١١٧٤
١٦٠	سنة ١١٧٥
١٦١	سنة ١١٧٦
١٦٦	سنة ١١٧٧
١٦٩	سنة ١١٧٨
١٧٠	سنة ١١٧٩
١٨٤	سنة ١١٨٠
١٨٧	سنة ١١٨١
١٩٠	سنة ١١٨٢
١٩١	سنة ١١٨٣
١٩٥	سنة ١١٨٤
١٩٦	سنة ١١٨٥
١٩٧	سنة ١١٨٦
٢٠٥	سنة ١١٨٧
٢٠٦	سنة ١١٨٨